

التَّسْبِيحُ الْمَضْرِيّ

الْفَاطِمِيّ

إِشْعَاقُ حَيْثُ وَحَضَائِرُ

مِثْلَانِ وَعَشْرُ سَنَوَاتٍ
مِنَ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيّ

تَأْلِيفُ : الدِّكْتُورُ حَسَنُ مُحَمَّدٍ صَالِحٍ
أَسْتَاذُ حُضْرٍ فِي الْجَامِعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

١

المرتكزات الدينية والتاريخية

دارُ المِجْدِ البيضاء

التَّشْيِيعُ الْمَصْرِِيّ

الْفَاطِمِيّ

إِشْعَاقُ حَيٍّ وَحَضَارَةُ

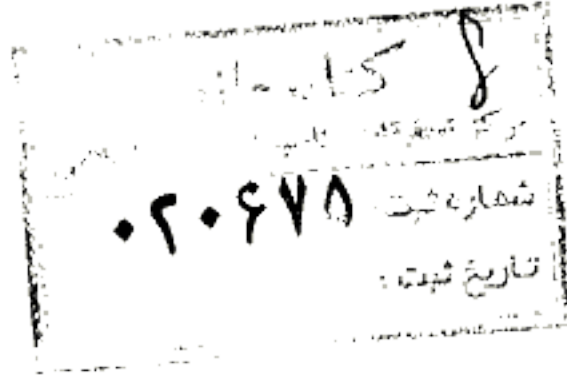
مِئَتَانِ وَعِشْرُونَ سَنَةً
مِنَ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيّ

تَأْلِيفُ : الذَّكْوَرُ حَسَنُ مُحَمَّدٍ صَالِحٍ
أَسْتَاذُ مُحَاضِرَاتِ الْجَامِعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

٤

حَضَارَةُ مِصْرَ فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ الشَّيْعِيِّ
بِقَلَمِ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ الْمِصْرِيِّينَ

دارُ الْمَحْجَةِ الْبَيْضَاءِ



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م



مركز تحقيقات مكتبة مركز علوم إسدوي



الرئيس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ٥٤٧٩ - هاتف: ٢/٢٨٧٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



الكتاب الرابع

- حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي بقلم الأدباء
والشعراء المصريين.

الباب الأول:

- الخلفاء الشعراء.

- الوزراء الشعراء.

الباب الثاني:

- المجتمع المصري الفاطمي بقلم الشعراء المصريين.

- الشعر العسكري.

- شعر المواكب الاستعراضية.

- شعر المجون والخمرة.

- الفخر والحماسة.

- الغزل. - الهجاء. - المديح. - العتاب. - الرثاء.

- رثاء الدولة الفاطمية.

- مقتل الشاعر عمارة اليماني.

- شعر الزهد.

- الشعر الحكمي.

- الشعر الفلسفي والديني.

- فن القوشيح.

- شعر الأغاز والأحاجي.

الباب الأول

حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي بقلم الشعراء والأدباء المصريين

كان عهدي بالأدب والشعر في مصر الفاطمية، يتصل بزمان الصبا والدراسة الثانوية، وكنت لا أملك من الكتب التي تحدثت عن هذه الجماعة إلا الخطط المقرزية. والخطط بحد ذاتها كتاب يتحدث عن حضارة مصر في مختلف الأزمنة والشعوب، من قبل طوفان نوح حتى نهاية الدولة المملوكية. وكانت الخطط رغم شمولها وشمولييتها، تضيق بأخبار أدب مصر الفاطمية، ولا يظهر فيها إلا فلتات صغيرة، لبعض الشعراء، استعملها المقرزي دعماً لرأي أو تأكيداً لحادثة تاريخية.

وأكثر ما شدني لشعر مصر الفاطمية فائية الفقيه عمارة اليمني رداً على الشاعر ابن أبي حصيبة، ولاميته التي رثى بها هذه الدولة. ورغم سطحية قدرتي التحليلية والنقدية أيام الدراسة الثانوية، كنت أرى في قصيدته اللامية الكبرى، سمو فكر وصفاء سريرة وقوة عقيدة.

ولما اشتد عودي، وقوي ساعدي وربت مكتبتني، وكثرت مراجعي ومصادري عن أدب مصر الفاطمية، كتبت.

وستجد بعد مطالعة النصوص الشعرية والنثرية العائدة لشعراء وأدباء مصر الفاطمية أنها لا تختلف كثيراً عن أدب القرن الرابع الهجري خارج مصر، ولكنها كانت تمتاز بميزتين: الأولى، ظاهرة التشييع الذي كان طاغياً على المراثي والمدائح والشعر الفلسفي والزهدي والحكمي، والميزة الثانية، انعكاس التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي، على هذه القصائد والمنظومات، فأثر الترف ورفاهية العيش، كانت بادية تماماً في شعرهم.

وسيرى المتعمق في ثنايا القصائد والمقطوعات، أنها جاءت جزلة اللفظ، محكمة النسيج، رصينة العبارة، صادقة الأداء. كما كانت صورة ناطقة لنفوس أبناء مصر ولعواطفهم، وسجلاً خالداً لحياتهم وعقائدهم. كما صوّرت مصائب الشعب المصري، تصويراً رائعاً، مسلطة الضوء على المحن والنكبات التي حلت بهم وبخلفائهم.

وسنجد أن مصادر إلهام شعرهم وشعرائهم، أتت نتيجة تأجيج عاطفي، من حزن أو غضب أو فرح أو ترح، الحزن على ما أصاب أئمتهم من ظلم وقسوة، والغضب من الظلم التاريخي المصاحب لسيرة أئمتهم وخلفائهم، وقصيدة الشاعر عمارة اليماني اللامية، أنصع دليل على ما حل بهم من نكبات ونزل بهم من مصائب.

وسنرى أن هذا الأدب جاء نتاج وخلاصة ثقافات مختلفة، عربية وأعجمية، امتزجت بروحية الإسلام الشيعي الإمامي الأصيل، فجاء أصدق ما تمثلت به الثقافات التي عرفتتها مصر الفاطمية، خاصة أن

الحزب الشيعي في مصر، كان أكبر حزب استطاع جمع كل هذه العناصر، فأغنى بذلك الإنتاج الأدبي والشعري، فكان نتاجاً غزيراً قوياً، يصدر عن عاطفة وقلب وعقل^(١).

«كانت الحياة المصرية، حياة ترف، وكان سكان مصر على حظ من الثراء والغنى يحسدوهم عليه العباسيون، حتى في أوج مجدهم وسعة سلطانهم. وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب بما يملكون، من مال ومتاع ورقيق، مما كان يُحْمَلُ إليهم من أموال الخمس وأموال النجوى، ومن هدايا الأمراء في المشرق والمغرب. وتشبه وزراءهم بهم، فأنفقوا عن سعة، وافتتن الشعب المصري في التشبه بأمرائه وحكامه، فظهروا بمظهر أصحاب الثروات، واتخذوا من الحياة أبهجها، ومن الزينة واللباس أزهاها، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان وإقامة المآدب، ومجالس اللهو والشراب، واستدعاء الخلان لهذه المجالس. حتى يُخِيلَ للقارئ أن حياة المصريين في هذه الحقبة، كانت حياة لهو وقصف وسماع وغناء وأحان، فكان ذلك كله مصدر وحي للشعراء بالقريض».

كما أن من أهم عوامل ازدهار الشعر في العصر الفاطمي أن القائمين على شؤون البلاد، اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية، خاصة أنهم عرفوا قدر الدعاية، فاهتموا بها أيما اهتمام، وقربوا كل من يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء وفلاسفة.

(١) راجع: أدب الشيعة في مصر إلى نهاية القرن الثاني الهجري، عبد الحسيب طه حميدة، ط ١، القاهرة، م السعادة بمصر، سنة ١٩٥٦، ص ١١٢.

وجعلوا للشعراء رواتب شهرية غير ما يطلق لهم في المواسم والاعياد^(١).

الخلفاء الشعراء:

أجمع مؤرّخو الأدب والشعر وعلماء اللغة والنحو أن القرآن الكريم كان ولا يزال الحامي والحارس الأول للغة العربية، فتمسك العربي بقرآنه أدى إلى تمسكه بلغته وحفظها من العجمة والضياع.

ولكن تألق اللغة وإبداعها لا يتم إلا برعاية وتشجيع، ومتى كان الراعي والمشجع غريباً عن اللغة، تفقد الرعاية أهميتها ودورها، ويحل محلها الإهمال واللامبالاة، أما متى كان الراعي والحاكم والخليفة نفسه شاعراً، يفتح أمام اللغة والشعر آفاقاً إبداعية مميزة ويدفعها نحو التألق والسمو أكثر بكثير هذا إذا لم يكن كردياً أو تركياً أو مملوكاً لا أصل له ولا فصل، ولا يعرف من اللغة إلا اسمها.

ولما كان الخلفاء الفاطميون، هم أبناء قريش وأبناء بنت نبي الإسلام، فلا عجب أن يكونوا هم أنفسهم شعراء، إلى جانب حفظهم للشعر ونقدهم له وتشجيعهم للشعراء وحمايتهم لهم.

كانت محاولات الخلفاء الفاطميين للسيطرة على مصر والإطالة منها على المشرق العربي وبغداد ومكة واليمن والشام، لا تنفك تتوالى. وقد حاول الخليفة الثالث القائم بالله عدة محاولات فوصل قائد عسكره حباسة بن يوسف الكتامي إلى الإسكندرية، واستقر فيها برهة، ثم أخرجه منها العباسيون.

(١) أدب مصر الفاطمية، ص ١٥٨.

شعر الخليفة المهدي بالله:

ويروي لنا مؤرخو الأدب القصيدة التي أرسلها الخليفة المهدي للعباسيين يذكرهم بجدّه محمد(ص) وأبيه أمير المؤمنين علي(ع)، وأنه سوف يعود ويسيطر على الشرق الإسلامي لا محالة:

أيّا أهل شرق الله زالت حلومكم أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من؟ وحجّكم بمن وغزوكم فيمن؟ أجيبوا بلا كذب
ألم ترني بعث الرفاهة بالسرى وقمت بأمر الله حقاً كما وجب
صبرت وفي الصبر النجاح وربما تعجل ذوراي فأخطأ ولم يصب
إلى أن أراد الله إعزاز دينه فقمت بأمر الله قومة محتسب
وناديت أهل الغرب دعوة واثق برّب كريم من تولاه لم يخب
فجاءوا سراعاً نحو أضيّد ماجد يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
وأردفتها خيلاً عتاقاً يقودها رجال كأمثال الليوث لها جنب
شعارهم جذّي ودعوتهم أبي وقولهم قولي على النأي والقرب
فكان بحمد الله ما قد عرفتم وفزت بسهم الفتح والنصر والغلب
وذلك دأبي ما بسقيت ودأبكم فدونكم حرباً تضرّم كاللهب
وقصيدة الخليفة واضحة المعاني والمقصد. يعبر فيها عن أمله بحفظ رسالة جدّه وأبيه في مشارق الأرض ومغاربها.

شعر الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدي:

وكتب القائم بأمر بالله، ولي عهد المسلمين إلى الخليفة المهدي يعبر له عن اشتياقه بكتاب وأرسل إليه هذه الأبيات في الكتاب:

اتصبح في كتامة ذا انفراد
 إذا ما وقعت دارت رحاها
 أتت أخرى تطم وتعتليها
 وكم من لذة في خفض عيش
 ولكن التجلد لي خدين
 عسى الرحمن يجمعنا وشيكاً
 فأنقع غلتي بك واشتياقي
 وقال الخليفة القائم بأمر الله أيضاً يفتخر بحسبه ونسبه ويصف
 معاركه في سبيل نشر راية الإسلام الأصيل^(١):

سلام على آل النبي ورهطه
 تحية من أمسى بتاهرت قائماً
 قبائل من تيم وقيس وخندف
 ومن كل حي قد أتانا زعيمهم
 وفتيان صدق من ذوآبة هاشم
 يقدون همامات العدى دون حقهم
 أنا ابن رسول الله جدّي وجدّهم
 ومفخرنا العالي على كل مفخر
 وجبريل منّا حين قمنا وعصبة
 وإن كان من مجد وفخر فإننا
 أنا ابن رسول الله والبيت والصفاء
 وشيعته أهل النهى والفضائل
 بحقهم بين الملا والقبائل
 ومن يمن في عزّها المتطاوّل
 وفارسهم عند اختلاف الذوايل
 أتوني بببيض مرهفات فواصل
 ويحمون دين الله فعل الأوائل
 إذا ذكر الأقوام عند التفاضل
 عليه سلام بالضحي والأصائل
 إلى الله ندعو عند ذكر التباهل
 حويناها قسراً بالقنا والمناصل
 أنا ابن علي ذي التقى والفضائل

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الخامس، ص ١٤٨.

و فاطمة الزهراء أمي ومن بها
 وقد قمت ادعو الناس حقاً إلى الذي
 إلى منهل فيه الهدى وشرائع
 فإن يستقيموا استقم لصلاحهم
 عمرت بلاد الغرب بعد فساد
 فلم يبق في سهل من الغرب فاسق
 ففر لكي ينجو وهيئات خلفه
 كما فر ابن الأغلبى وقد رأى
 فمرّ بحث الركض في كل مهمه
 وعن كل خود ذات حسن وبهجة
 فيا شيعة الحق الذين نحبهم
 أما حان أن تزجوا إلي مطيكم
 فتحظون عندي بالذي تأملونه
 إذا ما حللناها وبالله عصمتي
 فقد أزمعت خيلي إليكم سريعة
 إلى أرض مصر والعراق وبعدها
 فإن بها جوراً شديداً وفتنة
 يعادوننا ظلماً ويهون قتلنا
 فسيري على اسم الله خيلي وشمري
 إذا ما حللناها وبالله عصمتي
 ويوم لنا في الرقتين وبالس
 فتشفي نفوساً من لذيذ دماهم
 سموت إلى العلياء أعلى المنازل
 ينجيهم من كل إفك وباطل
 أقيم بها من دينهم كل مائل
 وإن يعدلوا عني فلست بعاذل
 وطهرتها من كل غاو وجاهل
 وفي الوعر إلا في أسى وبلايل
 قبائل تهوي كالليوث البواسل
 موارد موت عاجل غير آجل
 وخلالنا عن داره والحلائل
 وكل جواد في السوابق صاهل
 وحبهم فينا كثير التواصل
 وتأتوا سراعاً بين حاف وناعل
 لأحميكم من كل خوف وغائل
 إلي سراعاً كأنقضاض الأجادل
 تجوب بلاد الله ذات المراحل
 فبغداد همّي من جميع المنازل
 وفيها أناس كالسوام الهوامل
 وكم جرّعونا من مرارة ثاكل
 إلى بابل حتى تحلّي ببابل
 فإن بها يوم شديد الزلازل
 يكون لهم فيها احتياج البلايل
 ونلحقهم فيها بكل الطوائل

إذا أجمعوا من كل غاب وأقبلوا
 ذكرت حسيناً فاستهلت مدامعي
 فاقتل منهم كل رأس وتابع
 وتسري خيولي من ورا النيل تبتغي
 ولو أنني صنفت كل وقائعي
 وكم بدمشق من صريع مجندل
 وحمص وسلم والثغور ومن بها
 وشارت إلينا عصابة خزرية
 فمن كان يبغي السلم في الأمن سادر
 وكتب القائم إلى والده المهدي بالله يفتخر به وبآبائه من العترة
 النبوية الطاهرة^(١):

أنا سيف الإله وابن رسول الله
 وإذا ما الغمام أشجم جدواه
 يقصر القتل دون بغداد حتى
 يا إمام الهدى ومن طيب الله
 تفخر الأرض حين تعلق ثراها
 يا ابن من أسدلت عليه ستور
 بك ظل الفخار يفخر والجود
 ثم أنهضتني لمصر وشام
 فأنا سيفك الذي يفلق
 قطب الهدى وللناس قبله
 يكون الإمام للناس مثله
 يظهر الله بالعراقين عدله
 له فرعه وطيب أصله
 ثم تغدو خزونها وهي سهله
 الوحي أثوابها ولم تكس مثله
 والبستني من الفخر حله
 وخراسان والعراقين جملة
 بلا نبوة له أن تسله

(١) عيون الاخبار وفنون الآثار، السبع الخامس، ص ١٢٨.

يغرق الغرب والمشارق منه
كم مطيع قد كان طود عز
وكفور مناصب ذي عناد
وأناس همك السريع إليهم
لا أرى هائباً لسهلٍ ووعرٍ
فحسن اليقين والحزم والعزم
فانتظري يا خليفة الله ما قد
من فتوح تلقاك بالعز والنصر
وقال أيضاً يفتخر^(١):

ألا أن حدّ السيف أشفى لذي الوصب
وأقصى لجاج النفس في كل موطن
ألم ترني بعث الرفاهة بالسرى
وحالفت جنّان الفلاة تبرؤاً
أفكر في أفعالكم وأموركم
أبغد نبي الله ثم ابن عمه
يكون إمام المسلمين ورأسهم
صبرت، وفي الصبر النجاح، وربما
إلى أن أراد الله إغراز دينه
وناديت أهل الغرب دعوةً واثق
فجاؤوا سراعاً نحو أضيّد ماجد
وأبلغ من رجع الرسائل والكتب
وأحرى برّد الحق يوماً لذي الطلب
وقمت بدين الله حقاً كما يجب
إلى الله منكم، دائب الفكر والنصب
وفي دُون ما عاينته أعجب العجب
وسبطيه والهادين والسادة النجب
وقيّم دين الله في أرضه شغب
تعجل ذو أمر فأخطأ ولم يُصب
فقامت بدين الله قومة محتسب
كريم العطايا، من تولاه لم يخب
ينادونني بالسمع طوراً وبالرحب

(١) كتاب المقفى الكبير، المقرئزي، م.س. ص ١٢٦.

فلما أتى الأمر الذي كنت مُوعِداً به جاء نصرُ الله بالفتح عن كُتُب
وكتب إلى المهدي بالله في وقت عودته إلى المغرب سنة اثنتين
وثلاثمائة:

الله لي ثمَّ إمام الهدى	ما ضاع من كان له الله
الله جلُّ الله لي صاحب	سقى المَن صاحبه الله
الله لي في وجهتي ناصر	قد عزَّ من ينصره الله
الله لي في شقوتي حافظ	طوبى لمن يحفظه الله
الله فتَّاح لنا شرقه	والغرب طرأ فتح الله
الله أعطانا الذي قد ترى	عطية من بها الله
الله قد أرسل خير الورى	محمد أرسله الله
الله قد أخرج مهديك	وحجَّة أظهرها الله
الله لي في كل حال كما	كان لأبائي كذا الله
الله ربِّي وإلهي، ومَن	مشكلي إذا قلتُ: لي الله؟
الله حسبي بعد ذلك	يا حبُّذا من حسبه الله!

شعر الخليفة المنصور أبو الطاهر إسماعيل:

وأبو الطاهر إسماعيل هو الخليفة الفاطمي الثالث كان شاعراً
كآبائه وأجداده، رضع حليب الفصاحة من ضرع أهل بيت النبوة
والعترة الطاهرة.

وفي أيامه خرج مخلد بن كيداد الخارجي السفيفاني على أبيه
القائم. حيث أمضى الخليفة القائم حياته في حرب هذا السفيفاني،
وكانت أغلب المعارك بين السفيفاني والفاطميين يقودها إما الخليفة

القائم أو ولده أبو الطاهر إسماعيل، المنصور بالله.

كتب أبو الطاهر إسماعيل إلى والده القائم يخبره ما جرى بينه وبين مخلد بن كيداد فقال^(١):

تبدلت بعد الزعفران وطيبه صدا الدرع من مستحكات السامري
ألم ترني بعتُ المقامة بالسرى ولين الحشا بالصافنات الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم يثورون ثورات الأسود الخوادر
أروني فتى يغنى غنائي ومشهدي إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد بسيفي أقدّ الهام تحت الحوافر
وبعد انتصاره على صاحب الحمار، أرسل له أيضاً يبشّره بها:

كتابي إليك من أقصى الغروب وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوى الرمال وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضا الإله وأعزاز دولة آل الرسول
إلى أن يرى السير أجسامنا وكلّ الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه وواوحشتاه وفي الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعاً ولكنني نهضت بقلب صبور حمول
وفي كل يوم من الله لي عطاء جديد وصنع جميل
فلله حمد على ما قضى وحسبي ربي ونعم الوكيل
ومن شعر الخليفة المنصور أيضاً^(٢):

من كان يرضى بحصن يستجير به وقلعة ذات أجراس وحرّاس
فإنني رجل لم ترض همّته إلاّ بببيض وأرماح وأفراس

(١) سيرة الأستاذ جؤذر، م.س. ص ٥١.

(٢) المقفّي الكبير، المقرئزي، ص ١٢٥.

مسومات جعلناها معاقلنا دون المعاقل في الضراء والباس
 ترى الغبار عليها في سنا بكها مثل الذريرة فوق النحر والراس
 وقائل قال لي والسيف في يده لا تقعدن قعود الطاعم الكاسي
 لعزي يوم وماتى الموت في غده خير من العيش في ذل وإنكاس
 ومن نثر الخليفة المنصور بالله ابن القائم خطبته التي رثى بها
 والده القائم حيث قال:

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، والصلوات الغاديات
 الرائحات الزاقيات الناميات الباقيات على محمد وعلى آله الطيبين،
 الأئمة المهديين، السادة الأكرمين، حمداً حمداً وشكراً شكراً. أنجزت
 وعدك ونصرت عبدك على كره الكافرين، وصغار المارقين الأخسرين
 الأفجرين، أصحاب الدجال اللعين، والمغضوب عليه وعليهم الضالين،
 الأرجاس الأنجاس، أولى الذل والإتعاس، الأشقياء الأخزياء،
 الملعونين في الأرض والسماء.

حمداً حمداً، شكراً شكراً، عوداً بدءاً، وسعاً طولاً، لا مكافياً
 نعمائك ولا مجازياً آلائك. معترفاً بالعجز عن الشكر، ولو بكل لسان
 طول الدهر.

سلام الله وصلواته ورحمته وبركاته وتحياته عليكما يا أميري
 المؤمنين (المهدي والقائم). يا ابني الهداة المهديين. يا أبتاه... يا
 جداه... يا ابني محمد رسول الله. سلام مسلّم الله فيما قضاه. صابر
 على ما امتحنني من بعدكما. أوان الحسرة وشرق العبرة عليك يا
 أبتاه! يا محمداه! يا أبا القاسماه! يا سيّده! يا جبلاه! واشوقاه!
 والماء!.

«وخالق الأرض والسماء، باعث الموتى مميت الأحياء! ما أنا في ريب من اختيار الله لك، ونقله إياك إلى دار كرامته، ومستقر رحمته التي بوأها محمداً رسوله، صلى الله عليه - جدك - وأمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب - أباك - وفاطمة الزهراء البتول - أمك - وآباءك المهديين الأبرار. لكنّ لوعة المحزون باعثة للشجون ومبكية للعيون، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون وله مسلّمون، ولنعمائه شاكرون»^(١).

هذا ما رثى به الخليفة المنصور بالله الفاطمي والده الخليفة القائم بالله فلا يعقل أن يصدر من ابن بنت نبي الله إلا هذه الإشراقات الروحية وهذه الموجدة وهذا الكلام المعبر عن حزنه لفقد والده وقبوله بقضاء الله الذي لا مردّ له واعترافه بفضل ربه عليه وعلى الإنسانية جمعاء.

أما الخليفة الأموي الوليد بن يزيد، عندما سمع بكاء بنات عمه الخليفة هشام بن عبد الملك، وعلم أنّ عمه قد مات رثاه بالأبيات التالية^(٢):

إنّي سمعت خليلي	نحو الرصافة رنة
خرجت أسحب ذيلي	أقول ما شأنهنة
إذا بنات هشام	يندبن والدهنة
يندبن شيخاً كريماً	وكان يُكرّمهنة
يقلن ويولي وعولي	والويل حلّ بهنة
أنا المخذنتُ حقاً	إن لم أن... هنة

(١) سيرة الأستاذ جؤذر، ص ٥٧.

(٢) ديوان الوليد بن يزيد، ط ٣، بيروت، دار الكتاب الجديد، سنة ١٩٦٧، ص ٧٠.

وروى أبو الحسن الماوردي عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أيضاً أنه، تفاعل يوماً في المصحف الشريف، ففتح إحدى صفحاته، فقرأ في هذه الصفحة أول ما قرأ قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا، وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(١). فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدٍ
إذا ما جئت ربَّك يومَ حشرٍ فقل يا ربَّ مَزَّقَنِي الوليدُ
وعَلَّقَ أبو الحسن الماوردي على هذا الشعر بقوله: «فلم يلبث إلا أياماً حتى قتل شرَّ قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده، فنعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان ومصايده، وهو حسبنا وعليه توكلنا»^(٢).

وروى الدميري عن الخليفة الأموي السادس الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال: «أنهمك الوليد في شربه الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنيين. وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف. وكان قد انتهك محارم الله تعالى، حتى قيل له الفاسق».

وتروق للدميري هذه الأوصاف فيتابع قائلاً: وكان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً، وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث (النبوي الشريف). وكان جواد مفضلاً. ومع ذلك لم يكن في بني أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع، ولا أشدَّ مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر

(١) سورة إبراهيم.

(٢) أدب الدين والدنيا، أبو الحسن الماوردي، ط ٥، بيروت، دار إقرأ، لا تاريخ، ص ٣٢٥.

الامة من الوليد بن يزيد. يقال إنه واقع جارية له وهو سكران. وجاء المؤذنون بالصلاة. فحلف أن لا يصلي بالناس إلا هي. فلبست ثيابه وتنكرت وصلّت بالمسلمين وهي جنب سكرى»^(١).

أما الخليفة المعز فقد كان أيضاً شاعراً ذواقة للشعر يعشق الكلمة ويتقن رصفها. وكتابه الذي يردّ فيه على القرمطي، يحتاج إلى عالم باللغة، وإلى فيلسوف متبحر في علمي الباطن والظاهر، حتى يستطيع تفسيره.

ومن شعر الخليفة المعز قوله:

لله ما صنعت بنا تلك المهاجر في المعاجر
أمضى وأقضى في النفوس من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت بسبينكم تعب المهاجر في الهواجر
ومن المؤكد أن من يستطيع نظم هذا الكلام قادر على نظم غيره، ولكن يد التدمير لحقت بإنتاج وشعر الخليفة المعز، ولم يصلنا من شعره شيء.

ونلاحظ قوة سبك الخليفة المعز في هذه المقطوعة الصغيرة، وكيف استطاع استعمال كل ما يملكه الشاعر من قوة جرس وموسيقى، والتلاعب بالحروف من حيث التقديم والتأخير: مهاجر، هواجر، واتباع نظام القافية الموحدة الحرفين الأخيرين، كل هذا دليل كاف على قدرته اللغوية وتملكه من ملكتها.

(١) حياة الحيوان الكبرى، للشيخ كمال الدين الدميري، لا طبعة، المكتبة الإسلامية، لا عنوان، لا تاريخ، ص ٧٢.

وقد أورد أحمد بن علي الحريري في كتابه «منتخب الزمان» بعضاً من مطوِّلة شعرية للخليفة المعزَّ أطلق عليها عنوان «الملحمة المعزّية» وبعضاً من نتفها وأشعارها، ومطلعها^(١):

تباكر من أنشأ من الطين آدمًا ورُكِب فيه الروح واللحم والدم
وتدل هذه القصيدة على أن الخليفة المعزَّ، كان يتنبأ بوقوع
الاشياء، وكنا نتمنى لو وصلتنا كلها، لكننا استطعنا أن نحكم على
صحة نسبتها له أو انتحالها. وما جاء فيها:

وصالح وزير الملك ملكهم فإن تقتلوه يا بُني قتلتما
أذقتموه طعم الموت بالسيف عامداً فإن حياض الموت تدنى إليكما
وهو يعني بالصالح، كما أظن هو الملك الصالح طلائع بن رزّيك.
ويدّعي ناقل الملحمة أن الخليفة المعزَّ تنبأ بأحداث شاور
وضرغام وقدوم شيركوه وصلاح الدين إلى مصر وامتلاكها من
قبلهما:

وقدّمتم شاور أمام جيوشكم فيابئس وفد للجيش تقدّم
بجيش عليكم كلّ باد وحاضر ويستنجد الكفار، لكن عليكم
ويحدّد الخليفة المعزَّ في ملحمة - كما يدعى ناقلها زمن دخول
أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي إلى مصر، حيث يقول:

وفي خمسماية بعد هجرة أحمد وخمسين حولاً من زمان تقدّم
يسير إلى محمود صاحب جلق ويوعده مالا وملكاً عرمرما
يكون زعيم القوم شيركوه اسمه تميّز كلامي وافتهم وتفهّما

(١) كتاب منتخب الزمان. م.س. ص ٢٥٢.

وقد أورد له صاحب يتيمة الدهر المقطوعة التالية^(١):

ما بان عذري فيه حتى عذراً ومشى الدجى في خذه فتحيّراً
همّت تقبله عقارب صدغه فاستلّ ناظره عليها خنجراً
والله لولا أن يقال تغيّراً وصبا وإن كان التصابي أجدر
لأعدت تفّاح الخدود بنفسجاً لثماً وكافور الترائب عنبراً
وقوله متغزلاً:

لا تظلموا الناس ولا تطلبوا بثأري اليوم أذى مسلم
ويا القومي دونكم شادناً معتدل القامة والمبسم
وإن أبسى إلا جحوداً له واكتتم الأمر فلم يعلم
قولوا له يكشف عن وجهه فإن فيه نقطة من دمي
ولم أسمع باشتقاق فعل دثر من دينار ودّرهم من درهم إلا في
شعره إذ قال:

وَجُنَّةٌ مِنْ شَفِي هَوَاهُ وَمِنْ أَفْنِيَّتٍ فِيهِ دُمُوعٌ مَأْقِي
كَأَنَّمَا الصِّيرْفِي دَثَّرَ مَا نَجَّمَ مِنْهَا وَدَرَّهَمُ الْبَاقِي
وله من قصيدة، لم يرو منها إلا هذه الأبيات:

وما بلد الإنسان إلا الذي به له سكن يشتاقه وحبيب
إلى الله أشكو وشك بين وفرقة لها بين أحشاء المحب نُدُوبُ
نرى عندهم علماً وإن شطّ النوى بأن لهم قلبي عليّ رقيب
ونقل له ابن زولاق قوله^(٢):

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، ج ١، ط ٢، القاهرة، مطبعة السعادة سنة ١٩٥١، ص ٣٠٨.

(٢) كتاب أخبار سيبويه المصري، الحسن بن زولاق، ط ١، القاهرة، مطبعة النصر، سنة ١٩٣٣، ص ٦٤.

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أطلاً
وكانَ الجمال خاف على الور دجفاً فمد بالشعر ظلاً
ونقل ابن خلكان قوله^(١):

ما بان عذري فيه حتى عذرا وبدا البنفسج فوق ورد أحمر
همت بقبلته عقارب صدغه فاستل ناظره عليه خنجرا

شعر الخليفة العزيز بالله

أورد مؤرخو الأدب بعض النثف الشعرية للخليفة العزيز، وربما
لحق شعره ما لحق كل ما يتعلق بدولتهم من حرق وإتلاف وتدمير
وطمس، لذلك لم يصلنا من شعرهم سوى ديوان الأمير تميم بن
المعز شقيق الخليفة العزيز.

أورد الثعالبي في يتيمة هذه الأبيات للعزيز يرثى بها ولده -
ويتشبه بأبائه وجدوده من أهل بيت النبي^(٢):

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كإظمننا
عجوبة في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الوري بعيدهم طراً وأعيادنا ماتمنا

فالشاعر في هذه الأبيات، صادق العاطفة، يعبر عن ألم دفين
وحزن كمين، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب بل هو يتألم لما
أصاب أهل البيت من محن وكوارث، حتى أصبحت أعيادهم مآتم^(٣).

(١) وفيات الأعيان، الجزء الخامس، ص ٢٢٨.

(٢) يتيمة الدهر، الثعالبي... ص ٢٢٣.

(٣) راجع: في أدب مصر الفاطمية، م.س. ص ١٦٢.

وقد أورد له محمد كامل حسين قصيدة، قال إنها منقولة من مجموعة أشعار إسماعيلية مخطوطة بمكتبته، جاء فيها:

ولما رأيت الدين رثت حباله	وأصبح ممحو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة	تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكم في أموالها و«دماءها»	بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة ثائر	غيور عليها مانع للمحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتائب	تموج بأبطال رجال قماقم
يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا	وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافع	تنقلت بالأنوار من قبل آدم
لي الشرف العالي الذي خضعت له	رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هداية	ومنا بحمد الله خير الخواتم
فقل لبني العباس مع ضعف ملككم	بأنكم أسرى بأيدي الأعاجم
غصبتم بني المروان ما غصبوه من	مواريثنا سحقاً لظالم ظالم
ولم تحفظوا فينا وصايا محمدٍ	ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم
سنسقيكم كأساً كما قد سقيتم	أوائلنا والله أعدل حاكم

وفي البيت الذي يقول فيه:

أنا ابن رسول الله غير مدافع تنقلت في الأنوار من قبل آدم

يعتبر أصحاب المذاهب الإسلامية الشيعية على اختلافها أن محمداً وعليّ نطفة من الله تناقلت في الأرحام والأصلاّب منذ آدم حتى عبد المطلب ومن مروياتهم، عن أبي جعدة عن أبي ذر قول النبي، (ص): «أنا وعليّ كنا نوراً عن يمين العرش، بين يدي الله عزّ وجلّ، يسبح الله ذلك النور ويقدّسه، قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر

ألف عام، فلم نزل، أنا وعلي شيئاً واحداً، حتى افترقنا في صلب
عبد المطلب، فجزء أنا وجزء علي»^(١).

وترى هذا الرأي كل مذاهب الشيعة الإمامية، من علوية
وإسماعيلية نصيرية وإمامية اثني عشرية، والفاطميون هم من
الإسماعيلية، الذين خرج منهم النصيريون أتباع محمد بن نصير،
والحسين بن حمدان الخصيبي.

شعر الخليفة الحاكم:

نقل عن الخليفة الحاكم بأمر الله تذوقه للشعر وقدرته النافذة
على نقده نقد الصيرفي الخبير، وتداولت الكتب أخباره النقدية، لكن
إنتاجه الشعري أصاب ما أصاب كل ما يختص بالفاطميين والدولة
الفاطمية، ومن أقواله بعد يوم مضمن في توزيع الهبات والأموال
والأعطيات والإقطاعات على الناس، بعد أن أرسل له صاحب بيت
ماله، أن المال في البيت قد نفذ، وأمتنع، عن تنفيذ أوامر الصرف:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي إلا إلهي وله الفضل
جدي نبِّي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل
وقد نسب المؤرخون إليه المطولة الشعرية التي نعتوها بالملحمة
الحاكمية، ومطلعها:

تأمل إذا كنت ذا فطنة بعقلك من قبل عني تنظر
تبيننت في الجفر إنني أمرد كثير الغنى قصير العمر

(١) العلويون في التاريخ، محمد أحمد علي، ط ١، بيروت، مؤسسة النور للمطبوعات، سنة
١٩٩٧، ص ١٦٦.

يخطب لي عنوة بالشام ومن غيرها في بلاد خسرو
وتغتالني في رؤوس الجبال ويُسترا أمري ولا يُشهرُ
وله أيضاً قصيدة فيها كثير من الرموز والإشارات الغريبة جاء فيها:
ومن نقش أوصاف الكواكب كلها بساعات سعد لا تضر ولا تشفي
ومن رفع اصطرلاب وأخذ طوالع يروم بها كشف الحقيقة بالعنف
ومنها يعتبر إضاءة شوارع القاهرة من المعجزات.
وإظهار نصف الليل شمساً منيرة على غفلة والليل منسدل السجف
ويرفض ادعاء معرفة علم الطبيعة:
ومن يدعي علم الطبيعة أنه خبير به فالعلم أورثه السخف
ويدعي امتلاك علم الأعداد والحروف:
ومن علم أعداد الحروف وما رَوَتْ لنا علوم الدهر من أجمع الصنف
وهذه علوم القوم جمعاً ذكرتها واتقنتها بالحق والحق لا يخفي
زنوا منطقي ثم أفهموا ما أقوله ففي طيّه كشف العلوم ولا أنفي
ويدعو للتخلي عن ملذات الحياة واستبدالها بالملذات الروحية
التي فيها وبها يرقى إلى العلا فقط:
فمن رام أن يرقى إلى ذروة العلا من العلم أو يرقى إلى عالم اللطف
يميت دواعي النفس عن كل شهوة ويستعمل الصبر الجميل مع الضعف
ومن رام إدراكي فإنني مؤيدٌ بتأييد رب العرش من عالم اللطف
والقصيدة طويلة يشبه فيها الخليفة الحاكم نفسه بعيسى ابن
مريم «محيي العظام وهي رميم» وبالخضر تارة وبموسى الكليم
صاحب الطور طوراً.

ومهما خرج الحاكم عن إطار الموروث الإسلام الشيعي الإمامي
الجعفري السائد، فلم يصل إلى مستوى خروج يزيد بن معاوية عن
الدين ومقدساته ونبيه فمن مشهور قوله عند ورود رأس الحسين
أمام قصره في جيرون بدمشق:

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقَت تلك الشموس على ربي جيرون
نعب الغراب فقلت صبح أو لا تصح فلقد أخذت من النبي ديوني
وهو القائل أيضاً متمثلاً بقول الشاعر ابن الزبعرى يصف قتلى
بني أمية في معركة بدر:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لاهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلنا يوم بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
فأنكر النبوة من أساسها وأنكر نبي الإسلام (ص) واعتبر الوحي
والنبوة لعبة هاشمية للسيطرة على مقدرات السلطة السياسية.

ونقل المؤرخون عن الوليد بن يزيد أنه سكر يوماً فمزق القرآن،
وقد أشرنا إلى المناسبة في الصفحات السابقة، وخاطبه قائلاً:
أتوعد كل جبار عنيد فهذا أنا ذاك جبار عنيد
إذا لقيت ربك يوم حشر فقل يا رب مرقني الوليد
فهذا خليفة وهذان خليفتان، الأول أربك عقله وفكره لكثرة ما
استعمله لمصلحة الإسلام والمسلمين والآخران لكثرة ما سكر
وشرباً.

شعر الخليفة الظاهر:

كان الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله مثله مثل آبائه وأجداده شاعراً محباً للشعر ومشجعاً للشعراء والأدباء. وقد نال الشعراء جزيل العطاءات على عهده وكانت الرواتب تصلهم شهرياً، دون منة. وكان الشعراء يعتبرون من الطبقة الاجتماعية الحاكمة، فصلّتهم بقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار الموظفين، جعلتهم من أصحاب الرأي والمشورة، ومن المشاركين في القرارات المهمة.

وقد نقل لنا المؤرخون هذه القصيدة للخليفة الظاهر يصف بها عيد الغدير معتبراً إيّاه أهم عيد عند المسلمين وبني فاطمة^(١):

عَيْدٌ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ الْمَسْلَمِ وَأَنْكَرَ الْعِيدَ الْمَرِيدُ الْمَجْرَمُ
يَا جَاهِدِي الْمَوْضِعَ الْيَوْمَ وَمَا جَاءَ بِهِ الْمَخْتَارُ ثُبَّالَكُمْ
مَا لَذِي الْإِسْلَامِ عِيدٌ مِثْلُهُ فَالْمُصْطَفَى اخْتَارَ بِهِ مَوْلَاكُمْ
وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَدَّهُ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
الْيَوْمَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي فَنَحْمَدُ اللَّهَ وَمِنْهُ الزَّيْعَمُ
وَفِي قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ قَالَ:

قَدْ سَمِعُوهُ وَرَأَوْا مَكَانَهُ فَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَهَمَّوْا وَعَمَّوْا
أَوَّلَ مَا خُولِفَ فِي أَسَامَةٍ يَا أُمَّةَ تَعْجِبْ مِنْهَا الْأُمَمُ
لَوْ يُسَّرُ الْجَيْشُ الْأَسَامِي لَمَا بَوَّيْعَ إِلَّا الْهَاشِمِي الْعَلَمُ
وَلَا ثَنَى الْأَوَّلُ عَطْفِي بِيَعَةٍ حِذَاءَ مَا فِيهَا لَثِيمٌ قَدَمُ
قَالَ أَقِيلُونِي فَمَا أَقَالَه ثَانِيَةً بَلْ كُلُّهُمْ قَدْ ظَلَمُوا

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع السادس، ص ٢٢٠.

مَهْدَهَا لِنَفْسِهِ فِي غَيْرِهِ تَا اللَّهُ مَا يَفْعَلُ هَذَا مُسْلِمٌ

شعر الخليفة المستنصر:

لَمْ يَرَوْهُ الْمَقْرِيزِيُّ أَوْ أَيُّ مُؤَرِّخٍ آخَرَ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصَرِ أَنَّهُ
كَانَ شَاعِرًا. وَرَبَّمَا كَانَ لَهُ مِنَ الشَّعْرِ مَا كَانَ لِأَبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ مِنْ
خَلْفَاءِ بَنِي فَاطِمَةَ، وَلَحَقَهُ يَدُ التَّدْمِيرِ وَالطَّمَسِ كَمَا لَحِقَ كُلُّ شَيْءٍ
يَخْتَصُّ بِهِمْ. لَكِنَّ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ هَبَّةَ اللَّهِ بَنِي مُوسَى الشَّيرَازِيِّ
أُورِدَ قَصِيدَةً لِلْمُسْتَنْصَرِ رَدًّا عَلَى مَقْطُوعَةٍ كَانَ قَدْ أَرْسَلَهَا
الشَّيرَازِيُّ لَهُ.

وَالْمَقْطُوعَةُ الَّتِي أَرْسَلَهَا دَاعِي الدَّعَاةِ الشَّيرَازِيُّ لِلْخَلِيفَةِ
الْمُسْتَنْصَرِ هِيَ ^(١):

أَقْسَمَ لَوْ أَنَّكَ تَوَجَّتَنِي بِتَاجِ كَسْرِي مُلْكِ الْمَشْرِقِ
وَنَوَّلْتَنِي كُلَّ أُمُورِ التَّوَرَى مِنْ قَدْ مَضَى مِنْهُمْ وَمِنْ قَدْ بَقِيَ
وَقُلْتَ أَنْ لَا نَلْتَقِيَ سَاعَةً أَحْبَبْتَ يَا مَوْلَايَ أَنْ نَلْتَقِيَ
لَا أَنْ إِبْعَادَكَ لِي سَاعَةً شَيَّبَتْ قُودِي مَعَ الْمَفْرِقِ
وَتُرَوِّي الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ، وَصَلَ مِصْرَ وَأَخَذَ يَحَاضِرُ
فِي جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ / دَارِ الْحِكْمَةِ / وَفِي الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَفِي بَيْتِ
الدَّعْوَةِ فِي الْقَصْرِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ مُقَابَلَةَ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصَرِ، وَخَاصَّةً
أَنَّهُ كَانَ الْمَخْطُوطَ الْأَوَّلَ لَغْزُو بَغْدَادِ وَالْمَوْجِهُ الْحَقِيقِي لِلْبَسَاسِيرِيِّ.

(١) ديوان المؤيد في الدين، داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين، ط ١، بيروت، دار
المنتظر، سنة ١٩٩٦، ص ٣١٣.

ولكن للأسف، لم يعمل الحكام والبساسيري بتوجيهاته ونصائحه،
فعادت بغداد للحكم السلجوقي.

وقد روى جامع ديوان داعي الدعاة، أَنَّ الخليفة المستنصر أجابه
شعراً وعلى نفس القافية والروى:

يا حُجَّةَ مشهورة في الوري وطود علم اعجز المرتقي
ما غُلِّقت دونك أبوابنا إلا لأمرمؤلم مُقلق
ما غُلِّقت دونك أبوابنا إلا لأمرمؤلم مُقلق
ولا حجبناك ملا لأفئق بوذنا وارجع إلى الاليق
خُفنا على قلبك من سمعه فَصَدُّنا صَدَابُ مُشْفِق
شيعتنا قد عدموا رشدهم في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت في دعوتنا آخراً فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى في سائر الناس ولا من بقى
أما السجلات والمراسيم والمناشير التي كان يصدرها
المستنصر، فبالطبع لم تكن من إنشائه أو بخطه بل كانت من إنشاء
الكتبة ورؤوساء الدواوين والمستشارين الذين كانوا يساعدونه في
إدارة الحكم والخلافة.

شعر الخليفة الأمر لأحكام الله:

أما المستعلي فلم يذكر له شعر البتة، بينما ذكر المقرئ للآمر
ببيتين من الشعر، يترنم بهما، معداً العدة لغزو العراق واحتلال بغداد
حيث قال:

دع اللوم عني، لست مني بموثق فلا بد لي من صدمة المتحقق
 وأسقي جيادي من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفريق
 والملاحظ أن هذين البيتين لا يبدو أن متصلي المعنى بل هناك
 أبيات أخرى لم يذكرها المؤرخ مما يدل أن القصيدة طويلة وليست
 بيتين فقط.

ومن شعره أيضاً:

أما والذي حجت إلى ركن بيته جراهيم ركباً مقلدة شهباً
 لاقتحمن الحرب حتى يقال لي ملكت زمام الحرب فاعتزل الحرباً
 وينزل روح الله عيسى ابن مريم فيرضى بنا صحباً وترضى به صحباً
 وكان الأمر متعمق في اللغة ونواذرها وفي التاريخ الإسلامي،
 كما كان يشرح بعض الآيات القرآنية ويصحح شرح الأحاديث
 القدسية وقد روي عنه أنه^(١):

«عُرض عليه فصل في التوحيد من جملته: «وهو المحذر بقوارع
 التهديد، من يوم الوعد والوعيد»؛ فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر
 من الوعيد، فما الفرق بينهما؟ وأمر أن يقال: «المحذر بقوارع التهديد
 من هول يوم الوعيد». واستدرك في فصل آخر في ذكر علي، عليه
 السلام، قوله: «وهو السابق إلى دعوة رسول الله (ص)، وإجابته»؛
 فقال: إن قوله «السابق» غير مستقيم، لأنه إن أراد التخصيص فذلك
 غير صحيح، إذ كانت خديجة سبقت إلى الإسلام، والسابق منهم
 جائز أن يكون واحداً وأن يكون جماعة؛ والله تعالى يقول:

(١) اتعاط الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٣٩.

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ»؛ وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقيين؛ وذكر مثلاً فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لا يخرج فيها واحد عن واحد قيل لها «السُّبُّوق»، وقيل لكل واحد منها سابق. وأمر أن يقال: «أول سابقٍ إلى دعوة رسول الله، (ص)، وإجابته»^(١).

أما بقية الخلفاء الفاطميين الظافر والحافظ والفائز والعاقد، فلم يرو لهم المؤرخون أية نصوص شعرية أو نثرية. أما البيانات والمراسيم والسجلات التي كانوا يوقعونها، فلا نستطيع أن نعتبرها - كما أسلفنا - من إنشائهم. ومع هذا فقد كان الجميع متذوقين للشعر، مشجعين له وللشعراء.



(١) انعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٢٢.

الوزراء الشعراء

كان وزراء الدولة الفاطمية على دين خلفائهم في نظم الشعر وتشجيعه ورعاية الشعراء والأدباء. ولكن شعرهم أصابه ما أصاب تاريخ هذه الدولة بكاملها ولم يصل لنا من شعر هؤلاء الوزراء إلا شعر الملك الصالح طلائع بن رزيق وبالأخص الذي كان يرسله لنور الدين محمود زنكي، أثبتته المقدسي أبو شامة في «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية».

ولو لم تكن قصائد الملك الصالح تتضمن مدحاً لنور الدين زنكي، لما كان أبو شامة أثبتها، ولكنه عمل عليها عملية التفاف وأنكر نظمه لها وقال إنه كان يستأجر من ينظمها له. ولنا عودة إليها في سياقها التاريخي.

شعر الوزير يعقوب بن كلس:

قال عنه ابن منجب الصيرفي: «كان يهودياً كاتباً صائناً لنفسه محافظاً على دينه، جميل المعاملة مع التجار، فيما يتولاه».

بدأ حياته في خدمة كافور الإخشيدي، وكان على دينه، ثم شرح

الله صدره للإسلام، فنزل الجامع وصلى مع المسلمين سنة ٣٥٠هـ. فأظهر إسلامه، وبلغ خبر إسلامه كافور، فسّر لذلك كثيراً.

واتصل بال خليفة المعز في المغرب، فخدمه وتولّى أموره، وفي شهر رمضان سنة ٣٦٨هـ، كلفه الخليفة العزيز بالوزارة ولقبه «بالوزير الأجل».

وقد ذكر المؤرخون أسماء العديد من المؤلفات التي تركها يعقوب بن كلّس منها: كتاب في القراءات وكتاب في الفقه الشيعي الإمامي الإسماعيلي، وكتاب في الأديان وكتاب في آداب رسول الله. وأشهر كتبه، كتاب في الفقه وهو معروف بالرسالة الوزيرية. وهو الكتاب الوحيد الذي سلم من الطمس والإتلاف. وقد بلغ أمر قيمة هذا الكتاب أن عمّ الخليفة الظاهر بن الحاكم على الطلاب والمنتسبين للدعوة الإسماعيلية وطلب أن يحفظوه عن ظهر قلب، ورثب مالا لكل من يحفظه.

مركز تحقيقات كويتية للدراسات الإسلامية

ومن شعره:

احذروا من حوادث الأزمان وتوقّوا طوارق الحَدَثان
قد أمنت من الزمان ونمت ربّ خوف مُكَمَّن بآمان
وذكر العماد الأصبهاني أنّه أجرى سباقاً بين طير له وطير
للخليفة العزيز. فسبق طير ابن كلّس طير الخليفة، فقال مرطباً جو
السباق^(١):

يا أيها المولى الذي جدّه لكل جدّ قاهر غالب

(١) الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية، م.س. ص ٥٩٢.

طيرك السابق لكنه لم يأت إلا وله حاجب
وككل متنفذ، كان للوزير ابن كلس محبون وكان له المبغضون
من الشعراء وغير الشعراء.

وكان يعقوب بن كلس ولّى عيسى بن نسطورس النصراني
دواوين الكتّاب، واستناب بالشام يهودياً اسمه منشأ بن إبراهيم
القزاز، فاعتز بهما النصاري واليهود وأذوا المسلمين في البلدين،
فعمل أهل مصر وكتبوا رقعة وجعلوها في يد دمية على شكل امرأة
ووضعوها في طريق الخليفة العزيز وكتبوا في هذه الرقعة:

«بالذي أعزّ اليهود بمنشأ والنصاري بعيسى بن نسطورس وأذلّ
المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتي».

ولما أخذها العزيز، قبض على الاثنين، وكنا قد أشرنا إلى هذه
الحادثة في مقتضى سياقها التاريخي.

وأقدم الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي على هجاء الوزير
يعقوب بن كلس بسبب استعماله هذين المؤذيين بالإضافة لشخص
ثالث، كان يعمل كاتباً في دواوين القصر يدعى أبو نصر عبد الله بن
الحسين القيرواني، حيث قال:

قل لأبي نصر كاتب القصر والمتأني لنقض ذلك الأمر
أنقض عرى الملك الوزير تفز منه بحسن الثنا والذكر
واعط وامنع ولا تخف أحداً فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به وهو إذا درى فما يدري
وهجاه بقصيدة ثانية مع القائد فضل بن صالح فقال:
تنصّر فالتنصّرين حقّ عليه زماننا هذا يدلّ

وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل من سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل

شعر الوزير أبي القاسم المغربي:

كان أبو القاسم المغربي علي بن الحسين من أشعر شعراء
الدولة الفاطمية، وقد وزر للخليفة الحاكم، ولولده الظاهر. وقد امتلأت
كتب التاريخ والأدب العربي بنصوص من شعره ونثره.

وقال أحد الشعراء يهزأ من الوزير المغربي الذي يسعى لأن
يكون نحويًا وشاعرًا:

ويلي ويحي ويهي على ملوك بُؤيه
يا ضيعة الملك جداً ويبا بكائي عليه
يامغربي رويداً كيف اهتديت إليه
سلبته كل خلبي في صدره ويديه
سياسة الملك ليست ما جاء عن سيبويه
الوزير المغربي يصف الكسوف:

يوم الكسوف جلا على بصري قمرأ حار الجن والأنسا
قومي اخلفيها في ذا الكسوف ففي وجهك إن أوحشت [لها أنس]
وغالطي حاسب النجوم فإن لحت وغابت أصابه لبس
وقال الوزير المغربي يرثي أباه وعمه وأخاه:

تركت على رغمي كراماً أعزّة بقلبي وإن كانوا بسفح المقطم
أراقوا دماهم ظالمين وقد ذروا وما قتلوا غير العلا والتكرم
فكم تركوا محراب أي معطلاً وكم تركوا من ختمة لم تقيم

وقال في مقتل أبيه وأخوته:

إذا كنت مشتاقاً إلى الطفّ تائقاً
تجد من رجال المغربيّ عصابةً
فكم خلفوا محرابَ أي معطلاً
إلى كربلاء فانظر عراض المقطم
مضرّجة الأوداج تقطر بالدم
وكم تركوا من ختمة لم تتمم

وقال في الصديق ذي الوجهين:

أي شيء يكون أقبح مرأى
من ورائي يكون مثل عدوي
وقال يرثي الشريف الرضي:

أذكرتنا يا ابن النبي محمد
ولقد عرفت الدهر قبلك سالياً
ما زلت نصل الدهر تاكل غمده
وقال أبو القاسم المغربي يصف الشمعة:

وصفر كاطراف العوالي قدودها
تلبس من شمس الاصيل غلائلاً
عرائس يجلوها الدجى لمماتها
إذا ضربت أعناقها في رضى الدجى
وتبكي على أجسامها بجسومها
وقال أبو القاسم المغربي في كسوف الشمس أيضاً:

قالوا كسوف الشمس مقترب
ثقتي بكاسفها وكاشفها
من لو يشاء أعاد مشرقها
هي شعلة من نوره فإذا
قلت ادخرت لدفع نائبها
وبفضل ما حيها وكاسبها
مبتسماً لك من مغاربها
ما شاء أظلم أو أضاء بها

وقال أبو القاسم المغربي يصف طنبوراً:

وطنبور مليح الشكل يحكي بنغمته الفصيحة عندليباً
روى لما ذوى نغماً فصاحاً حواها في تقلُّبه قضيباً
كذا من عاشر العلماء طفلاً يكون إذا نشأ شيخاً أديباً

في الشعر العلوي:

وقال يمدح أهل البيت ويهجو بني أمية:

صلى عليك الله يا مَنْ دنا من قاب قوسين مقام النبوة
أخوك قد خولفت فيه كما خولف في هارون موسى أخيه
هل برسول الله من أسوة لم يقتد القوم بما سن فيه
وقال أيضاً:

وتداولتها أربع لولا أبو حسن لقلت لؤمّن من استار
من عاجز ضرع ومن ذي غلظة جاف ومن ذي لوثة خوار
ثم امتطأها عبد شمس فاغتدت هزواً وبُذِلَ ريحها بخسار
وتنقلت في عُصبة أموية ليسوا بباطهار ولا أبرار
مابين مافون إلى متزن دقي ومداهن ومضاعف وحمار

وقد رثا أبو العلاء المعري الوزير المغربي بقوله:

ليس يبقى الضرب الطويل على الدهر ولا ذو العباله الدر حاية^(١)
يا أبا القاسم الوزير تر حلت وخلفتني ثفال رحاية^(٢)
وتركت الكُتُب الثمينة لنا س وما رحت عنهم بسحاية

(١) العباله: السمّة والغلظ، والدرحاية: القصير.

(٢) الثفال: الجلد الذي يبسط تحت رجلي اليد، والرحاية: الرحي أي المطحنة.

ليتنني كنتُ قبل أن تشربَ المو ت أصيلاً شربته بضخاية
 إن نحتك المنون قبلي فلاني مُنْتَحَاهَا وإنها منتحايه
 أم دفر تقولُ بعدك للذا ثِقْ لا طَعْمَ لي فأين فَحَايَة^(١)
 إن يخطُ الذنبَ اليسيرَ حفيظا كَ فكم من فضيلةٍ مَحَايَة

هي سبعة أبيات لكنها جامعة لسيرة إنسان: فيها تأكيد بإيراد الكنية واللقب على الشهرة، وفيها إشارة إلى الكتب الثمينة التي خلفها الوزير وهي إما أن تكون مؤلفاته القيمة، وذلك اعتراف بتميز ما كتبه، وإما أن تكون الكتب التي وقفها بميافارقين وظلت تعرف من بعده بمكتبة المغربي. وفيها اعتراف بذنوب اقترفها الوزير إلا أنها ذنوب صغيرة وسوف يمحوها ما يوازئها لديه أو يفوقها من حسناتٍ وفضائل. ولكن القصيدة (أو المقطوعة) تقيم منذ أول بيت الموازنة بين إنسانين، كما أقامت المساواة بين الطويل والقصير أمام الموت^(٢).

مركز تقيت كويت علوم ودراسات

وصية الوزير المغربي قبل موته: روت المصادر أن الوزير أبا القاسم المغربي أوصى بأن يدفن تحت رجلي الحسين، ويكتب عند رأسه هذان البيتان:

سقى الإله الأزلي من السحاب الهطل
 قبر الحسين بن علي عند الحسين بن علي
 وقال أبو نصر المنازي يمدح الوزير المغربي^(٣):

(١) الفحا: أبزار القدر.

(٢) راجع: الوزير المغربي، م. س. ص ٨٠.

(٣) راجع: الوزير المغربي، م. س. ص ٦٤.

ولئن جَزَتْ نَعَمَ الحَسِينِ محامدُ فليجزينَ الغيثُ عن هَطَلاته
 اقْنى وأغنى ما لبثتُ ولي به شُغلان بين صفاته وِصَلاته
 حاولتُ عُدَّ خلاله ولي به تشقى الرواة لها شقاء عداته
 أبصرتُ سُبُلَ المجدِ من لَحَظاته وأفدتُ حُسْنَ القولِ من لفظاته
 وأرى الفصاحةَ والسماحةَ والغنى ومكارمَ الأخلاقِ بعضَ هباته
 ورث المعالي عن عليّ وابتنى رُتَباً مشيَّدةً إلى رتباته
 وكذاك لإبن القَيْلِ إرثُ علاته فرضاً وإبن القَيْنِ إرثُ علاته

توفي الكافي وزير قرواش، وأصبح الجو ممهداً لعودة الوزير
 المغربي إلى الموصل، فكتب إليه قرواش يعرض عليه الوزارة، وما
 كاد يتسلم رسالة قرواش حتى وجد في نفسه نزوعاً شديداً إلى
 مبارحة بلاط نصر الدولة. وقد نظن لأول وهلة أن سحر الموصل
 الخلاب قد ظلّ يداعبُ خياله، وهذا إن صح فإنه لا يكفي لتعليل
 سرعة الإستجابة لديه، وإذن فلا بد أن منزلته العظيمة عند نصر
 الدولة كانت قد أخذت تنحدر.

وقد هجا ابن القاهر الوزير المغربي بقوله^(١):

لُقِّبْتُ بالكامل سترأ على نقصك كالبناني على الخصر
 فصرت كالْكُنفِ إذا شُيِّدَتْ بُيُضَ أعلاهـن بالجرص
 يا عُرَّةَ الدنيا بلا عُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ الشؤمِ والحرص
 قتلت أهليك وأنهبت بيـ حت الله بالموصل تستعصي

(١) الوزير المغربي، أبو القاسم، الحسين بن علي، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار الشروق
 عمان، الاردن، سنة ١٩٨٨.

وكتب الوزير المغربي إلى الخليفة الحاكم يطلب العفو بكتاب
صدره بقوله:

وأنت وحسبي أنت تعلم أن لي
لساناً أمام المجد يبني ويهدم
وليس حليماً من ثباس يمينه
فيرضى ولكن من تعض فيحلم
فسير إليه أماناً بخطه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب كتبه المنصور أبو علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير
المؤمنين بن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين للحسين بن علي بن
حسين المغربي: إنك آمن بأمان الله ورسوله محمد المصطفى وأبينا
علي المرتضى والأئمة من آلهم مصابيح الدجى صلى الله عليهم
وسلم، وأمان أبينا الأقرب نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير
المؤمنين، قدس الله روحه، وصلى عليه، على النفس والجسم وجميع
الجوارح والحواس والمال والحال والأهل والأقارب، والأنساب، أماناً
ماضياً، لا يتعقب بتأويل ولا يتبع بفسخ ولا تبديل وإن الإمام الحاكم
بأمر الله أمير المؤمنين آمن حسين بن علي بهذا الأمان، بعد أن تحقق
له ذنباً كبيراً، وإجراماً عظيماً فصفح عن علم، وتجاوز عن معرفة
وحلم، وجعل هذا الأمان كالإسلام الذي يمحو ما قبله، ويمهد الخير
لما بعده، فكل سعاية ووشاية وذنب وجريمة تنسب إلى حسين بن
علي هذا، قد تحقق أمير المؤمنين أكثر منها وصفح عنه فلا يد له عليه
إلا بالإحسان إليه، وأن لحسين بن علي هذا اختياره عند وقوفه على

هذا الكتاب في إنكفائه إلى الباب العزيز والتعرض للخدمة، أو التوفر على العبادة لا يكره على خدمة يستعفى منها، ولا تقبل عليه الاقاويل في خدمة تتعلق بها، واقسم أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ذلك بأيمان الله وغليظ موثيقه، وببيته الحرام، ومشاعره العظام، وآياته الكرام، وحقوق جميع آبائه عليه السلام، فمتى غير أو بدل، أو أمر، أو أملى أو أسر، أو أعلن، أو دس، أو اغتال فجميع المسلمين في شرق الأرض وغربها وفي الموقان والري، وجدة وأذربيجان والدينور وهمذان، والسهل والجبل، القريب والبعيد، والعراق والشام، وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر وحلب، ومصر والحجاز والمغرب، في حل وسعة من بيعته، وقد فسح الله لهم، وفسح أمير المؤمنين في النكت لها، وبرأ نفسه مما أوجب عليهم والتزموه في أعناقهم، وقد برىء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان، وبرىء إليه من حوله وقوته، التجى إلى حول نفسه وقوتها، وأشهد الله وملائكته وصالحى خلقه على نفسه بذلك كله أماناً مؤكداً، وذنماً مؤبداً، وعهداً مسؤولاً، وميثاقاً محفوظاً مرعياً، وكفى بالله شهيداً».

في الحنين إلى مسقط الرأس:

قال الوزير المغربي يصف شوقه إلى مسقط رأسه^(١):

ما على ساكن المَعْرَةَ لوان دياراً أثبت بهم أو طلوا
يَسْكُنون العلى معاقل شُما وَيَرُون الآداب ظلالاً ليلاً

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، تحقيق سهيل زكار، ط ١، دمشق، مطابع دار البعث، ص ١٣٠.

مَنْزِل شاقني أنيس وماكا
حيث يدعى النسيم فظاً وتلفى
أينما تَلْتَفِت تجد ظلَّ طوبى
تُرْبُّها طيب الشباب فما تصد
فتري اللهو إن أردت طليقاً
وإذا ما اعتزى بها الأدب العذ
لَيْت لا يَغْنُف السحاب عليها
وسلام على بنيتها ولا زاً
وقال أيضاً:

تركت بشط النيل لي سكناً فرداً
غزال طواه الموت من بعد هجرة
فسقيا لمهجور العناء كائنني أعد
أسميه من فرط الصبابة مضجعا
وأخر عهدي من حبيب أنه مضى
وزودوني يوم الحمام صحيفة
حبست عليه الدمع أن يطأ الخدا
أطعنا فلا كُنا بها الأسد الورد
له ذنباً وأطوي له حقدا
ولو طأعت نفسي لسميته لحدا
يحسب الإعراض عن هجره صدا
وثنى شعار لا جديداً ولا جردا

في وصف الجار:

وقال الوزير المغربي يصف علاقته بجاره^(١):

ترنم جاري والمدام تهزّه
فجاوبته من زفرتي بمفرّد
وقلت له يا جار هل أنت آمن
ترنم قمري بفرعة ضال
وناوبته من أدمعي بسجال
تفرق أحباب وحرب ليال

(١) بغية الطلب، م. س. ص ٢٥٤٥.

تُهيّج لي الذكرى مِراحك كلما هزجت فيشقى في نعيمك بالي
لئن جمعت بيني وبينك حليتي لقد فرقت بيني وبينك حالي
تذكرت دار الحي إذ أنا باسط ظلالي ومجموع لديّ رجالي
وإذ أنا بين الناس منزع أمل لبّت نوال أو بناء معال
لعمري لقد أسهلت في الأرض بعدما تزحزح عن ريب الزمان جبالي

ومن الوزراء الفاطميين الذين كانوا يهتمون بالشعر والشعراء،
الوزير أبو محمد علي بن عبد الرحمن اليازوري ورغم اهتمامه بهما،
فلم نجد له أي أثر مكتوب شعراً أم نثراً. وقد كان الشاعر ابن
حيّوس من أقرب المقرّبين له وله فيه مطولات المدائح. سنشير
لبعضها عند حديثنا عن المديح في أدب مصر الفاطمية.

وعندما سمح له الخليفة المستنصر بنقش اسمه على السكة
والدينار الفاطمي، نقش هذين البيتين:

ضربت في دولة آل السعدي من آل طه وآل ياسين
مستنصراً بالله جلّ اسمه وعبد الناصر لدين
وكذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مهتماً بالشعر
والشعراء، ويعتبر صالونه الشعري من أهم الصالونات الأدبية حينها.
وكان قد أقام على بابه أربع دُمى بشكل أربع فتيات، تستقبل الداخل
بانحناء، وتودّعه كما تستقبله.

ولم يصلنا من شعره شيء يذكر، سوى قوله يصف غلامه تاج
المعالي:

أقضيّب يميّس أم هو قد أو شقيق يلوح أو هو خد
أنا مثل الهلال خوفاً عليه وهو كالبدروافاه سعد

وفاجأ إحدى جواريه تتطلع من نافذة قصره فأمر بضرب عنقها
وأدخلوا رأسها لديه فقال:

نظرت إليها وهي تنظر ظلها فنزعت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها ... ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها لما كان يرضى باجتماع الكواكب
ويتفاجأ القارئ من فرط هذه الغيرة التي تؤدي برجل عاقل
حكيم متزن لأن يأمر بقتل جارية عزيزة على قلبه، رغم حبه لها
وتشوقه إليها.

كان الأفضل معروفاً بحبه للشعر والشعراء مثل أبيه بدر الجمالي
الذي وهب الشاعر الشامي علقمة بن عبد الرازق العليمي سبعين
جمالاً محملاً بجميع أنواع البضائع والسلع.

مع عشرة آلاف درهم فضة لقاء قصيدة واحدة مدحه بها.
وصالون الأفضل الشعري، أطلق عليه مؤرخو الأدب اسم
«مجلس العطاء». وكان فيه سبعة صناديق ذهباً سعتها خمسة
وثلاثون ألف دينار، مخصصة للتوزيع على من يقف بين يديه من
الشعراء، «فتوالت عليه وفود الشعراء يطمعون في برّه وإحسانه،
وينعمون بما يغدقه عليهم من صلات»^(١).

وقد وصف الشاعر ابن العلاف في وفود الشعراء التي قصدت
مجلس عطاء الأفضل ومصر بقوله:

فمكة مصر والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت والنيل زمزم

(١) راجع: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي. م.س. ص ١١٧.

ووصف أمية بن أبي الصلت المصري نضاله ضد الصليبيين
بقوله:

جَرَدْتُ لِلدِّينِ وَالْأَسْيَافِ مَغْمَدَةً سَيْفًا تُفَلُّ بِهِ الْأَحْدَاثُ وَالْغَيْرُ
وَقَمْتُ إِذْ قَعَدَ الْأَمْلَاقُ كُلُّهُمْ تَذَبُّعًا عَنْهُ وَتَحْمِيَةً وَتَنْتَصِرُ
وَفِعْلًا قَعَدْتُ كُلَّ الْمُلُوكِ عَنْ نَصْرَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ ضِدَّ الْفَرَنْجَةِ،
وَحَدِيثِ الْمَظَاهِرَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَهْلُ الشَّامِ وَحَلَبُ فِي بَغْدَادٍ وَقَلْعُوا
شَبَابِيكَ قَصْرَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ مَشْهُورَةً وَلَمْ يَبْقَ فِي مِيدَانِ الصَّرَاعِ
ضِدَّ الْفَرَنْجَةِ غَيْرُ مَصْرٍ وَالْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَاءِ الْمَصْرِيِّينَ.

ومن أعضاء مجلسه الشعري الشاعر ابن البوين الذي وصفه
بقوله:

يَا مَنْ تَنَافَسَ فِيهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ كَمَا تَغَايِرُ فِيهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَمَنْ يَحْكُمُ فِي الْأَرْوَاحِ فَاحْتَكَمْتُ إِلَيْكَ فِي حُكْمِهَا بَعْدَهُ بَشَرُ
وَكَذَلِكَ كَانَ الْوَزِيرُ الْمَأْمُونُ بْنُ الْبَطَّايْحِيِّ مِنْ مُحِبِّي الشَّعْرِ
وَالشُّعْرَاءِ، وَكَانَ قَدْ أَحَاطَ نَفْسَهُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْكُتَابِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْأَدْبَاءِ
مِنْهُمْ، الطَّبِيبُ ابْنُ حَسْدَايَ وَابْنُ عَمِّهِ جَمَالُ الْمَلِكِ مُوسَى بْنُ
الْبَطَّايْحِيِّ مُؤَلِّفُ تَارِيخِ مَصْرٍ وَعَلِيِّ بْنُ مَنْجَبٍ الصَّيْرَفِيِّ.

شعر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك:

كَانَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ طَلَّاعُ بْنُ رَزَّيْكَ مِنْ أَهَمِّ شُعْرَاءِ مَصْرِ الْفَاطِمِيَّةِ،
كَمَا كَانَ مِنَ الْمَشْجَعِينَ لِلشَّعْرِ وَلِلشُّعْرَاءِ. وَكَانَ مَجْلِسُهُ الْأَدَبِيُّ أَشْبَهَ
بِمَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ، وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ لَنَا الْمُقَدِّسِيُّ أَبُو شَامَةَ بَعْضًا
مِنْ قِصَائِدِهِ الَّتِي كَانَ يَرْسُلُهَا لِنُورِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ زَنْكِيِّ وَأَسَامَةَ بْنِ

منقذ الشيزري في الشام، لضاعت هذه القصائد، كما ضاع غيرها من شعر شعراء الدولة الفاطمية.

وكان الملك الصالح بن رزّيك، إلى جانب كونه شاعراً، يهتم بالفقه والمناظرات المذهبية «ورغم تعصبه للمذهب الشيعي، كان يجتمع بفقهاء السنة ويستمع إليهم. وكان يعقد مجالس العلم والأدب، ولم يكن يخيب أمل قصاده من أهل العلم الذين يفدون إليه»^(١).

وكان الصالح بن رزّيك يعرف ما للشعر من أهمية إعلامية، فاستخدمه بكل نواحيه لتمكين دولته وتمجيد حروبه مع الصليبيين.

واتخذ ابن رزّيك من الشعراء أصدقاء وجلساء شكّل منهم كوكبة شعرية خليقة بالدراسة، أمثال عمارة اليميني، وابن الحباب، والموفق بن الخلال وأبي الفتح بن قادوس، والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد بن الزبير.

ووصف عمارة اليميني صالون الملك الصالح بن رزّيك الأدبي فقال: «ولم تكن مجالس أنسه تنقطع إلا بالذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته، وكانت أحواله طوراً له وطوراً عليه، فما هو عليه، فرط العصبية في المذهب وأما التي له، فكان مرتاضاً قد شَمَّ أطراف المعارف وتميّز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجرّدة. وكان شاعراً محباً للأدب وأهله، ويكرم جلسيه، ويبسط أنيسه»^(٢).

(١) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، م.س. ص ١٢١.

(٢) النكت العصرية، م.س. ص ٤٨.

عمارة اليميني: يرفض سبّ السلف:

ويصف عمارة معاملة الملك الصالح طلائع بن رزيك له وللأدباء والشعراء والفقهاء المعارضين لمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية رغم تعصبه الشديد فيقول:

وخرج أمره إلى الأمير عز الدين حسام باستخراج ما تأخر لي من رسوم الضيافة من بيت المال، ففعل، وأمرني بملازمة المجالس والمؤاكلة والمدح له، فتأكدت الحرمة وتضاعفت المزية والاختصاص، وكانت تجري بحضرته مسائل ومذاكرات، فيأمرني بالخوض مع الجماعة فيها، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس سمره من ذكر السلف، (أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة). فنهضت وخرجت، فأدركني الغلمان، فقلت: حصة يعتادني وجعها، فتركوني.

وانقطعت في منزلي أياماً ثلاثة، ورسوله في كل يوم والطبيب معه. فركبت بالنهار فوجدته بالبستان المعروف بالمختص، في خلوة مع الجلساء فاستوحش من غيبتني وقال: خيراً! فقلت: إنني لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بمنع ذلك، حضرت وإلا فلا، وكان لي في الأرض سعة، وفي الملوك كثرة. فعجب من هذا وقال لي: سألتك بالله؟ ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر؟ قلت أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهم واجبة عليه، فضحك^(١).

(١) راجع: النكت العصرية، ص ٤٤.

الملك الصالح بن رزك يدعو عمارة لترك التسنن والالتحاق بالشيعة:

ويروى عمارة اليمني، أنه تأخر يوماً عن مجلس الصالح
طلّاع بن رزك الأدبي، فأتاه أحد غلمان الصالح بثلاثة أكياس ذهباً
ورقعة فيها الأبيات التالية:

قل للفقيه عمارة يا خير من أضحى يؤلف خطّة وخطاباً
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل: خطّة وادخل إلينا الباباً
تلق الأئمة شافعين ولا تجد إلّا ديننا سُنّة وكتاباً
وعليّ أن يعلم محلّك في الوري وإذا شفعت إليّ كنت مجاباً
وتعجّل الآلاف وهي ثلاثة صلّة وحقّك لا تعدّ ثواباً
وهي الإشارة إلى الأكياس الذهب الثلاثة التي أرسلها مع الرقعة.

فأجابه عمارة^(١):

حاشاك من هذا الخطاب خطاباً يا خير أملك الزمان نصاباً
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم معمر معتقدي وصار خراباً
ودعوتهم فكري إلى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم وأجاباً
فاشدد يدك على صفاء محبّتي وامنن عليّ وسدّ هذا الباباً

شعر الملك الصالح طلّاع بن رزك أيضاً:

إنّ أكثر القصائد التي تناقلها المؤرّخون، هي القصائد التي
أرسلها الملك الصالح لنور الدين محمود زنكي يستحثّه على الوحدة
الإسلامية لحرب الصليبيين الفرنجة، والقصائد التي أرسلها لصديقه

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الأول، ص ٢٢٢.

الأمير أسامة بن منقذ، أمير حصن شيزر.

كتب الملك الصالح إلى صديقه أسامة بن منقذ يعزيه بمن مات
من أهله وصحبه في الزلزلة التي أصابت دمشق سنة ٥٥٢هـ في
قصيدة جاء فيها^(١):

كره الشام أهله فهو محقو قُ بالأيقيم فيه لببيب
إن تجلّت عنه الحروب قليلاً خلّفتها زلازل وخطوب
رقصت أرضه عشية غنى الرعد في الجو والكريم طروب
وتثنت حيطانه إذ أمالتها شمالاً بزمرها وجنوب
وأرى البرق شامتاً ضاحك السنّ وللجوب بالغمام قطوب
ويتساءل الشاعر بن رزيك هل الأرض مذنبه كالإنسان:

أبذنب أصابها قدر الله! فللأرض، كالأثام ذنوب
ويعزو السبب لما حل بالقدس من إرجاس ونجاسة:

أنّ هذا لأن غدت ساحة القدس ومال الإسلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحبوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر وبارى الناقوس فيه الصليب
لورآه المسيح لم يرض فعلاً ذكروا أنّه له منسوب
ويصف الفرنجة بقوله:

أبعد الناس عن عبادة رب الناس قومٌ إلههم مصلوب
ويتأسف على إفراغ الشام من العرب:

لهف نفسي على ديار من السكان أقوت وليس فيها عريب

(١) كتاب الروضتين، الجزء الأول، ص ٢٦٧.

والقصائد المذكورة أغلبها في وصف الحرب بين المسلمين والفرنجة، وسنعود إلى ذكر أهمها عند الحديث عن الشعر العسكري في الدولة الفاطمية.

بعد انقراض دولة آل رزّيك تابع صبيانهم أمثال ضرغام وأخوته وشاور بن مجير السعدي عملية احتضان الشعراء والأدباء، ولكنهم لم يكونوا شعراء رغم أنهم عرب أقحاح يعرفون اللغة العربية معرفة حسنة ويقدرّون قيمة الكلمة ووقعها في النفوس.

يروى لنا عمارة كيف انقضّ شاور وأخوته على بني رزّيك فيقول: «ولم يلبث الأمر إلا ريث ما عدّى شاور حتى زالت دولة بني رزّيك، بل إنما زالت دولة مصر بزوالهم».

ويصف وزارة شاور فيقول: «ولم يكن فيها أقبح من قتل الناصر بن الصالح، فإنّها سوّدت ما أبيض من عالي قدره» وطلب منه شاور مدحاً فمدحه ورّقض أن يذم آل رزّيك وهي عادته: الوفاء لأصحابه - فقال في وزارة شاور:

صحت بدولتك الأيام من سقم	وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزّيك وانصرمت	والحمد والذمّ فيها غير منصرم
كانّ صالحهم يوماً وعادلهم	في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنّا نظنّ وبعض الظنّ مائمه	بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خافهم	من كان مجتمعاً من ذلك الرخم
والرخم هو الدجاجة البيضاء، وقد شبّه فيها ضرغام وأخوته	
ملهم وهمام وحسام، لأنهم خانوا الملك العادل رزّيك بن طلائع.	
فكان ضرغام كل ما يسمع هذه القصيدة «ينقم على هذا البيت ويقول	

لعمارة: أنا عندك من الرخم»^(١).

ويعتذر منه لوفائه لبني رزيك فيقول:

- ولم يكونوا عدواً ذلّ جانبه وإنما غرقوا في سيلك العرِمِ
- ولو شكرت لياليهم محافظة لعهدا لم يكن بالعهد من قدَمِ
- ولو فتحت فمي يوماً بذمّهم لم يرض فضلك إلا أن يسدّ فمي
- والله يأمر بالإحسان عارفة منه وينهي عن الفحشاء في الكلم
ويخبرنا الفقيه عمارة، أن شاوراً وابنيه شكراه على هذا الوفاء
لآل رزيك، ولم يمتعضا أو يكتأ له حقداً كالأكراد الأيوبيين البعيدين
عن اللغة العربية والعرب والعروبة. وقد اعتزّ الفقيه عمارة بعروبته
حين خاطب شاور بأحد قصائده:

أنا العربي المحض شعراً ومعشراً إذا شان قوم شعرها أو عشيرها
فلا تسمعوا مدحاً سوى ما أقوله فما يستوى حَوْلَ العيون وحُورُها
ويصف عمارة علاقته بالوزير ضرغام فيقول: «أحضرني ليلة
إلى قاعة البستان بدار الوزارة، بعد شهرين من وزارته، وكنت خائفاً
منه، فوقع في خاطري منه توهمٌ. ولم يزل إحسن الإيناس عند
الحضور، والاستيحاش من الغيبة. وبسطني وناولني مما بين يديه،
بيده، وأمر لي بكيس ذهب وقال لي: أنتم عنوان الجمال. من
جالستموه فقد تجمل، فدعوت له، وعملت فيه قصيدة أنشدته إياها
في مقام الخليفة بقاعة الذهب منها في صفة الدولة^(٢):

همّ الزمان بها فمذكّلفتها أضحي يوالي نصرها ويوالي

(١) النكت العصرية، م.س. ص ٧٠.

(٢) النكت العصرية، م.س. ص ٧٥.

وأجبت عادية الفرنج بديهة قبل الروية بارتحال رجال
ويصف أخوته في الحرب فيقول:

أطفأت جمرتها بإخوتك الأولي يتسئمون غوارب الأهوال
لم أدري والتشبيه يقصر عنهم أغيوث نزل أم ليوث نزال
طالت بأيديهم قصار صوارم باتت بها الأعمار غير طوال
وهي قصيدة طويلة يصف الوزارة كأنها فصلت على قدر
ضرغام.

وعن وزارة ضرغام قال عمارة: «كانت مدة وزارته حمل الجنين
تسعة أشهر سواء» ووصف مقتله بسبب الوزارة بقوله:

أرى حنك الوزارة، صار سيفاً يحدُّ بحذِّه صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا يبشِّر بالمنية والمصاب
وبعد وزارتي ضرغام وشاور أتت وزارة أسد الدين شيركوه
وابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب، أي بدأ الأكراد
الغز، الذين لا يفقهون اللغة العربية ولا يعرفون منها أكثر ما
يحتاجون إليه في الحياة اليومية، وكانت هذه الحقبة هي حقبة تقهقر
الشعر والأدب في كل العالم العربي والإسلامي، حيث «ربخ» الأكراد
ومن بعدهم المماليك ثم الأتراك العثمانيون على صدر العرب
والمسلمين وكنتموا أنفاس العروبة والإسلام وأوصلوهم لما هم فيه
الآن من تجزئة وتخلف.

الباب الثاني

المجتمع المصري الفاطمي بقلم الشعراء المصريين

كانت الحقبة التي لمع فيها نجم الدولة الفاطمية من أهم حقبات التاريخ العربي والإسلامي، ففيها ظهر البويهيون الفرس وسيطروا على مقاليد الخلافة في بغداد. وفيها ظهر السلاجقة الأتراك وتركوا بصماتهم على الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية العربية والإسلامية. وفيها اشتد الصراع بين العرب والروم اليونانيين حكام بيزنطية، وكذلك فيها بدأ الغزو الصليبي للساحل السوري وفي نهايتها سيطر الأكراد الأيوبيون على الأمة الإسلامية ومزقوها أي ممزق.

وهذه الحقبة المليئة بالصراع، لا بد أن تنتج شعراء وأدباء مصريين يواكبون الحدث ويكونون صوتاً وصدى وصورة له. لذلك ازدهمت كتب التاريخ بأسماء هؤلاء الشعراء والأدباء، ولكن أيدي الحرق والتدمير الأيوبي المملوكي، أكملت على البقية الباقية من شعرهم وأدبهم ومدوناتهم، لذلك لم نعد نسمع إلا بأسماء بعض ما سلم من قصائدهم وشعرهم، باستثناء بعض الدواوين، كديوان

عمارة اليمني وديوان ابن هاني الأندلسي، وديوان القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيساني، وديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله وديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى الشيرازي وديوان ابن قلاقس وابن حيّوس وظافر الحداد الإسكندراني وديوان الملك الصالح طلائع بن رزّيك وديوان عبد المحسن السوري. أما بقية الشعراء أمثال الرشيد بن الزبير وأخيه وابن قادوس، وأبي الحسين محمد بن عثمان الفصيح وأبي الفتح منصور، المعروف بالبيني، وعلي بن يحيى المعروف بابن الصقلي، وأبي جعفر محمد بن عمر العباسي وأبي علي صالح بن رشدين وأبي المطاع بن حسن بن حمدان ناصر الدولة، وأبي محمد بن علي بن خيران، وابن الخياط، وابن أخيه أبي الحسن بن عباس بن الخياط، وأبي الطالب السندي الكاتب، وأبي القاسم عبد الرحمن بن أعين، والبطاط، وعلي بن حبيب الدالّ، وأبي القاسم عبد العزيز بن أبي الكرام، فقد اختفت دواوينهم ولم نجد لهم إلا بعض القصائد التي أوردها أصحاب كتب الترجمة، كابن سعيد المغربي في كتابه «المغرب في حلي المغرب» وابن خَلْكان، في كتابه «وفيات الأعيان» أو في كتاب معجم الأدباء، أو الوافي بالوفيات لياقوت الحموي وابن أبيك الصفدي أو في الخريدة للعماد الأصفهاني، أو في يتيمة الدهر للثعالبي، أو في الذخيرة لابن بسام .

وإن وفقنا الله بخبر عن أي واحد منهم، فلا نجد سوى البيت أو البيتين بسبب استعارة مميّزة أو تشبيه جميل أو معنى لم يسبق إليه.

شعر الوصف:

منذ أن وعى الإنسان نفسه وأخذ التفكير بالحياة والموت والطبيعة يسيطر على معتقده، بدأ يتأمل ما حوله من بدائع الكون، فأخذ يعبر عن ما يجيش بخاطره من أحاسيس تجاه هذه البدائع، فرسمها صوراً على جدران الكهوف ونحتها تماثيل، وسكها مسكوكات، ونقشها نقوشاً ومخرمات، كما وصفها بالكلمة نثراً وشعراً وغناها موسيقى وصوتاً.

والشاعر العربي، إن كان داخل مصر الفاطمية أم خارجها، فهو فنان مبدع، سار في ركب هؤلاء العباقرة، فرسم ما رأى، وصور ما شاهد، ووصف ما أحس، فترك في متحف الأدب وعلى صفحات كتبه مقطوعات شعرية ونثرية جميلة. وسوف نرى كيف استطاع شعراء هذه الحقبة نقل الصوت والحركة والنشاط، كما رسموا الحديث واللون والظل، للإنسان والحيوان والأوابد والطبيعة، طبيعة مصر الغناء، مصر النيل ومصر الأهرامات.

كما وصفوا العادات والتقاليد والأخلاق والطباع من كرم وتبذير وشح وبخل، ووصفوا الدولة والحكام والوزراء والدواوين، والقلم والدواة والشمعة. ووصفوا السيف والحصان والدور والقصور والمؤسسات والجيش والمعارك والقتل والنهب والإعدامات والانقلابات، والاستعراضات العسكرية والاحتفالات بالأعياد الكثيرة. ولم يتركوا شيئاً من حركة المجتمع المصري في ظل هذه الدولة إلا ووصفوه.

وصف الطبيعة:

ليس غريباً أن يصف الشعراء المصريون طبيعة مصر، فمصر عندهم «أم الدنيا» بطبيعتها ونيلها وأثارها وكرم حكامها الأئمة الخلفاء، سليلي العترة النبوية الطاهرة.

فجاء وصفهم على شاكلة مصر، جميلاً لجمالها، متلألئاً يصور حياتهم البهيجة ورسومهم الخالدة، ونعيمهم الذي لم تعرفه أمة من الأمم حتى اليوم، فقد كانت مصر بحضارتها الإسلامية الشيعية، ليس «أم الدنيا» بل جنة الدنيا، مترعة الأنعام، وفيرة الجنان، هادئة العيش، مُستساغة الشراب، وسائد أهلها ناعمة، ينامون الضحى، يعملون ليومهم فقط، لثقتهم بغنى دولتهم وراثتها المنقطع النظير، وبكرم حكامهم، الذين يعملون ليلاً نهاراً لتأمين غذائين حتى الثمالة للشعب المصري: غذاء الروح وغذاء الجسد.

يعتبر ديوان الأمير تميم بن المعز من أهم مصادر ومراجع الوصف للحياة المصرية في العهد الفاطمي، فلم يترك هذا الشاعر صغيرة أو كبيرة في الحياة المصرية إلا ووصفها.

يقول في وصف الغيم مغطياً الشمس:

أما ترى حركات الريح مُخبرةً أن الغمام يصوب الأرض بالمطر
فالجو مُلتحفٌ بسطاً مُفوّفة كأنهنّ اختلاف الوشى والخبر
كان برد نسيم الغيم حين بدا برد ارتشاف حبيب زار في السحر
وقال يصف التفاح والليمون المتدلّي من بستان عمه الأمير
حيدرة:

بعثت شبه النهود البارزات وما تحكى خدود الدمى حسناً وتحميراً

من كل تفاحة زهراء مذهبها كأنها حُشيت مسكاً وكافورا
 كأنهن خدوداً قد لُثمن فقد أبقي اللثام بها نقشاً وتأثيرا
 وكل ليمونة تحكي بظاهرها لَوْنُ المحبِّ إذا ما بات مهجورا
 ووصف بستاناً لوالده الخليفة العزيز فقال:

بسط تخالف صبغها ونسيجها ما بين أصفر كالعقيق وأخضر
 فكان نرجسها عيون أبرزت أجفانها كئنهالـم تنظر
 وشقائق كست الربا من نسجها حُللاً كتضريع الخدود الأحمر
 وقد اشتهر الأمراء الفاطميون برهافة الحس والشفافية وكانوا
 يتبارون ويتسابقون في اقتناء بساتين الورد والفاكهة. وكان الشاعر
 يملك بستاناً حول قصره المسمّى بالمعشوق. قال يصف أزهاره
 ووروده:

يا أيها المعشوق لا فارقت ربسك أنواراً وإشراق
 إذا رنا نرجسك المشتهى بأعين فيهن إطراق
 وابتسم النسرين من حولها فهو صقيل الثغر برّاق
 واستياس الأس من الملتقى فهو من الرعدة خفاق
 يحقّه نيلوفر سابح في الماء لا يرويه إغراق
 وأخجل الورد بكاء الندى فاحمرُّ والحمرة تُستاق
 كأنما زوّق ما فيك من بدائع الأنوار زوّاق
 ساويت بين الزهر في نيبته كأنما الحظك وراق
 وقال يصف كرم عنب له:

سقياني على العناقيد فما عصرتُه الأكفُّ منه قديما
 ما ترى الكرم كيف نضد يا قوتاً وأبدى زمرداً من ظوما

يتبدى للعين حَبّاً ويُخفي عسلاً في ظروفه مختوما
كنواصي القيان نظماً وكالشهد مذاقاً وكالعبير نسيما
غلطوا حين سمّوا الكرم كرمّاً لو أصابوا القياس قالوا الكريما

وصف المشمش:

يا شجر المشمش لا أصبحت منك ربا البستان مستوحشه
يا حسنه من شجر أينعت أغصانه واحتملت مشمشه
كأنما جمشّه عاشقٌ فأصفرّ خوفاً منه إذ جمشّه
ووارى بين ورد البساتين الطبيعي وورد حدود حبيبته فأظهر
تأثير كل منهما في النفس:

ورد الخدود أرقّ من ورد الرياض وأنعم
هذاتنشق الأنف وذايق بآله الفم
وإذا عدلت فافضل الوردين وردٌ لـ
لا ورد إلا مات ولسى صبغ حمرة الدم
هذايُشّم ولا يُضمُّ وذايُضمُّ ولا يُشّم
سبحان من خلق الخدود شقائق أنس
وأعارها الأصداغ فهي بها شقيق معلّم
واستنطق الأجفان فهي بلحظها تكلّم
وتبين للمحبوب عن سرّ المحبّ في فهم
وتشير إن رأت الرقيب بلحظها فتسلم
وأعارها مرضاً تصعّب به القلوب وتسقم
فتئن العيون أجلّ من فتئن الخدود وأعظم

وكان بستان البعل من أملاك الأفضل بن بدر الجمالي وكان من أهم منتزهات القاهرة، وكان مجلس الأفضل فيه في منتصف هذا البستان، فيه بركة وساعة وتجري فيه قناة تشقّه من جهتين تستقي ماءها من نهر النيل. وصفها الشاعر الإسكندراني ظافر الحداد بقوله^(١):

انظر إلى المجلس الأعلى وما جمعت فيه سعادة مولانا من المُلحِ
جاءت به حِكْمُ الصنّاع معجزة الدنيا فأصبح فيها خير مُقترح
له بياض يغضّ الطرف لامعه فالعين تلاحظ منه الحسن في المُلحِ
كأنه خَلَلَ الأشجار لؤلؤة نَظُمُ الزمرد فيها غير منفسح
كأنما النهر فيها سيف مرتعش بروحه بين مقبوض ومطرح
يلقي إلى البركة الغناء فائضه ماء يشفّ شفيف الخمر في القدح
حكّت سماء ولون الزهر يشملها قوس الغمام الذي ينمى إلى قُرح
لا سيّما كلّما هب النسيم بها وغنّت الطير في الأصال والصبح
ووصف أبو محمد الحسن التنيسي المعروف بابن وكيع الفصول الأربعة في مصر، فقال في الصيف^(٢):

أما المصيف فاستمع ما فيه من فطن يفهم سامعيه
نصل من الدهر إذا قيل حضر أذكرنا بحر نار من سُقر
تبصر فيه النبت مقشعراً والأرض تشكو حرّه المضراً

(١) ديوان ظافر الحداد، ابن الإسكندرية، ط ١، مصر، القاهرة، طبعة مكتبة مصر، لا تاريخ، ص ٨١.

(٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، الجزء الأول، ط ٢، القاهرة، مطبعة السعادة، سنة ١٩٥١، ص ٢٧٩.

نهاره مقسّم بين قسم جميعها يعاب وعندى يُذم
أوله فيه ندى مبغض كأنه على القلوب يقبض
يلصق منه الجسم بالثياب وتعلق الأذيال بالتراب
ويصف نهار الصيف بعد طلوع الشمس وحرارته في مصر
فيقول:

حتى إذا ما طردته الشمس وفرحت بأن يزول النفس
فتحت النار له أبوابها وشبّ فيها مالك شبابها
حرّ يحيل الأوجه الغُرّانا حتى ترى الروم بها حُبشّانا
يعلّوبه الكرب ويشتدّ القلق وتنضج الأبدان منه بالعرق
ويصف طعم الماء في صيف القاهرة فيقول:

ثم يعيد الماء ناراً حاميه تزيد في كرب القلوب الضاويه
شاربه يكرع في حميم كأنه من ساكني الجحيم
ويصف ليل القاهرة صيفاً:

حتى إذا عُنّا انقضى نهاره وأرخت من ليله أستاره
تحركت في جناحه دواهي سارية وأنت عنها ساهي
من عقرب يسعى كسعي اللصّ سلاحها من إبر كالشّص
وحية تنفث سمّاً قاتلاً تزود الملدوغ حتفاً عاجلاً
ويصف الملاريا التي تصيب شارب الماء صيفاً:

فإن أردت الشرب في إبانهِ على الذي وصفته من شأنه
ابشر بما شئت من الصّداع فضلاً عن التهويس والصّداع
وعِلّلي تعجز إحصاء العدد من جرب ومن دوار ورمد
وبعد حمى الكبد لا تنساه لأنّه أول ما تطلقاه

وقال يصف الخريف:

حتى إذا زال أتى الخريف	فصل بكل سؤة معروف
أهوية تسرع في كل الجسد	وهو كطبع الموت يبساً وبرد
يخشى على الأجسام من أفاته	فأرضه قرعاء من نباته
لا يمكن الناس اتقاء شره	من اختلاف برده وحره
تبصره مثل الصبي الأرعن	في كثرة التغير والتلون

ووصف الشتاء فقال:

حتى إذا ما أقبل الشتاء	جاءتك منه غمة غماء
يأتيك في إبانه رياح	ليس على لاعنها جناح
يحدث من أفعالها الزكام	هذا إذا ما فاتك الصدام
ثم يليها مطر مداوم	كانه خصم لنا ملازم
وربما خرّ عليك السقف	وإن عفا عنك أذاك الوكف
حسبك أن تندس في اللحاف	وخشية البرد على الأطراف
حتى إذا ملت إلى الرقاد	نمت على فرش من القناد

وقال في الربيع:

جاء إلينا زمن الربيع	فجاء فصل حسن الجميع
لبرده وحره مقدار	لم يكتنف أحدهما الإكثار
عدل في أوزانه حتى اعتدل	وحمد التفصيل منه والجمل
نهاره من أحسن النهار	في غاية الإشراق والإسفار
وليله مستلطف النسيم	مقوم في أحسن التقويم
فيه تظل الطير في ترنم	حاذقة في اللحى لم تعلم
هذا وفيه للرياض منظر	يفشي الثرى من سرها ما يضر

فيه ضروب للنبات الغضُّ يحكى لباس الجند يوم العرض
من نرجس أبيض كالثلجور كأنه مخانق الكافور
وروضة تزهّر من بنفسج كأنها أرض من الفيروزج
أما ترى أثرُجّه ما أحسنه يختال في غلائل مبيّنه
وارم بعينيك إلى البهار فإنه من أحسن الأنوار

ليس الصيف جنة والشتاء جهنم:

رغم أن الصيف هو المشهور بحرّه وحرارته وأن جهنم وصفت
بأنها نار السعير ولا مجال فيها للبرد والقرّ لكن الشاعر المصري
ابن قلاقس يفضل صيف مصر على شتائها فيقول^(١):

يا من ترى فصل الشتاء على المصيف كما تحكّم
ما ذاك عندي جنة فيكون ذا عندي جهنّم
اسمع هما ملكان كل في ولايته معظّم
ولكل ملك منهما مُتَسَلِّمٌ يأتي مُقَدِّمٌ
يأتي الربيع عن المصيف وفضله ما أنت تعلم
وترى الخريف عن الشتاء وليس يسلم من تسلّم
والعبد في أفعاله عن خلق سيّده يُخرّج
فصل المصيف كما رأيت أقل تكليفاً وأرحم

فالمصيف ملك، ووزيره الربيع وهو على شاكلته رحيم مثله، كما
أن فصل الشتاء ملك ووزيره الخريف وهو مزعج على شاكلته.

(١) ديوان ابن قلاقس، ص ٥١٧.

الغيم يبكي مطراً خوفاً من البرق، والرعد يصيح خوفاً منه:

قال ابن قلاقس يصف البرق والرعد والغيم في صورة شعرية فريدة من نوعها^(١):

كأنما الرعد والسحاب وقد جَدَّه بوباً والبرق إذ لاحا
ثلاثة من عَدُوِّهم نفروا إليهم قد غدا وقد راحا
فسَلَّ هذا سيفاً له وبكى هذا وهذا من خيفة صاحا
وقال ابن الصقلي يصف الشمس^(٢):

والشمس تطلع تارة في أفقها وتغيب أونة عن الأبصار
وكانما قطع الغمام دونها بُلُقُ الجياد تسير بالأمهار
حتى إذا اتصلت وأرزم رعدا وبكت بدمع جفونها الممدار
وقال ابن قلاقس في وصفها:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعاً منه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الغرق
وللهلال، فها وافي لينفذها في أثرها زورق قد صيغ من ورق
وقال القاضي، أبو محمد عبد الله بن النعمان يصف الهلال وهو
ابن ستة أيام^(٣):

انظر إلى حسن ذا الهلال وقد بدا لِسْتُ مضيئ من عُمره
وقد أطافت به كواكبه حُسناً فبيّنته لمعتبره
مثل زناد قد صيغ من ذهب يقدح ناراً وهُنَّ من شرره

(١) ديوان ابن قلاقس، ص ٢٩٠.

(٢) أخبار مصر في سنتين، ص ٨٦.

(٣) يتيمة الدهر، الجزء الأول، م.س. ص ٤٠٢.

ثم تولى يريد مغربه في شفق الشمس وهي في أثره
 فخلته غائصاً في بحر دم يقذف بالرائعات من دُرِّه
 ووصف أبو الفتح ابن قادوس الدميّطي جزيرة الروضة فقال:
 أرى سرح الجزيرة من بعيد كأحداث تغازل في المغازل
 كأنّ مجرّة الجوزا أحاطت وأثبتت المنازل في المنازل
 وقال ظافر الحداد يصفها أيضاً^(١):

انظر إلى الروضة الغناء والنيل واسمع بدائع تشبيه وتمثيل
 وانظر إلى البحر مجموعاً ومفترقاً هناك أشبه شيء بالسراويل
 والريح يطويه أحياناً وينشره نسيمها بين تفريك وتعديل
 ووصف أحد الشعراء المصريين بستاناً في القاهرة فقال^(٢):

لله بستان وميا قضيت فيه من المأرب
 لهفي على زماني به والعيش مخضر الجوانب
 فيروقي والجو منه ساكن والقطر ساكب
 ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحاب
 والطل من أغصانه يحكي عقوداً في ترائب
 وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كل جانب
 وبداء على جنباته ثمر كأذناب الثعالب
 وكأنما أصاله ذهب على الأوراق ذائب
 فهناك كم ذهبية لي في الولوع بهام مذهب

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س، ص ٢٥٢.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الثاني، ط ٢، القاهرة، جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٤، ص ٣٢٦.

وقال الأمير تميم بن المعز يصف ارتفاع النيل:

انظر إلى النيل قد عبّأ عساكره من المياه فجاءت وهي تستبق
كأنّ خلجانها والماء يأخذها مدائن فتحت فاجتازها الغرق
كأنّ ماء سواقيه لناظرها شهب الخيول إذا ما قسمها العنق
وقال الشاعر الإسكندري نصر الله بن علي الأزهري يصف البحر
ومشقات السفر:

لولم يُحرم على الأيام إنجادي وواصلت بين إتهامي وإنجادي
طوراً أسير مع الحيتان في لجج وتارة في الفيا في بين أسار
والناس كثر ولكن لا يقدر لي إلا مرافقة الملاح والحادي
ووصف ابن قلاقس السفينة التي أقلتته من صقلية إلى
الإسكندرية فأحسن الوصف:

أقلعت والبحر قد لانت شكائمه جداً وأقلع عن موج وإزباد
وقدر أريت به الأشراف قائمة لأن أمواجه تجري بأطواد
تعلو فلو لا كتاب الله صبح لنا أن السموات منها ذات أعماد
ونحن في منزل يُسرّي بساكنه فاسمّع حديث مقيم بيته غاد
حتى كأننا وكف النوّ تقلقنا دراهم قلبتها كف نقاد
وإنما نحن في أحشاء جارية كأنما حُمّلت منابا ولاد
فلا تعدّوا لنا يوم السلامة إن حزنا السلامة إلا يوم ميلاد
وقال الأمير تميم يصف صوت ناعورة:

ناعورة أنت أنين الهوى لما شكت حرّ وساويسها
أنينها حرّة تدويرها ومعها ماء قواويسها
كأنما الكيزان في بئرها هام ملوك في نواويسها
تقذف بالماء إلى روضة كأنها ريش طواويسها

وقال في وصفها أيضاً:

وصامتة ناطقه بألفاظها شائقه
تئنّ بلا زفيرة ولا كبب دخافقه
كانّ قواديسها لها أبداً وامقه
فاجسامها وثبّ وأدمعها دافقه
تردد من موتها لحوناً لها رائقه
مُفَنّية تارة وزامرة حاذقه
ووصفها أيضاً فأنطقها وجعلها من بني الإنسان تحبّ وتكره

وتفرح وتبكي وتسكت وتغني فقال:

وناطقة كلّما حُرِّكت وليست بناطقة في السكون
تئنّ إذا دارد ولا بهها فتطرب سامعها بالانين
وتبكي وليست بمحزونة بكاء المحبّ الكئيب الحزين
فتنطق بالصوت لا من فم وتقذف بالدمع لا من جفون
كانّ لها ميتاً في الثرى فأدمعها هُمّ في كل حين
إذا زمّرت أطربت نفسها فغنّت بمختلفات اللحون
غناء يرقص كيزانها ويظهر فيهن وثب المّجون
فتهوي فوارغ في بئرها وتصعد منها ملء العيون

وصف نافورة ماء:

وقال الأمير تميم يصف نافورة:

وقاذفة بالماء في وسط بركة قد التحفت وحفاً من الشعر سجّسجاً
إذا قذفت بالماء سلّقه مُنْصِلاً وعاد عليها ذلك النصل هو دجاً

كَأَنَّ عَيُونَ الْعَاشِقِينَ تَعِيرُهَا مِنْ الدَّمْعِ سَجَلاً صَافِياً مُضَرَّجَا
تَخَالُ بِرُوزِ الْمَاءِ مِنْ جَفَنَ عَيْنِهَا قَضِيبٌ لَجِينِ سُلٍّ مِنْهُ دَمَلَجَا
تَحَاوَلُ إِدْرَاكَ النُّجُومِ بِقَذْفِهِ كَأَنَّ لَهَا قَلْباً عَلَى الْآفَاقِ مُحَرَّجَا
- الْوَحْفُ مِنَ الشَّعْرِ: الْكَثِيفُ - السَّجْسَجُ: الْمَعْتَدِلُ - الْمَنْصَلُ
السَّيْفُ - السَّجْلُ: الدَّلْوُ -

وصف الأهرام:

وقال عبد الوهاب بن الحسن بن جعفر الحاجب في وصف
الأهرام^(١):

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمِينَ إِذْ بَرَزَا لِلْعَيْنِ فِي عُلوٍّ وَفِي صَعْدِ
وَكَأَنَّما الْأَرْضَ الْعَرِيضَةَ قَدْ ظَمِنْتَ لَطُولَ حَرَارَةِ الْكَبْدِ
حَسَرْتَ عَنِ الثَّدِيِّينَ بَارِزَةً تَدْعُو الْإِلَهَ لِفَرْقَةِ الْوَلَدِ
فَأَجَابَهَا بِالنَّيْلِ يَتْبَعُهَا رِيّاً وَيَنْقُذُهَا مِنَ الْكَمْدِ
وقال أمية بن أبي الصلت المصري يصفهما^(٢):

بَعَيْنُكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَراً عَلَى مَا رَأَتْ عَيْنَاكَ مِنْ هَرَمِي مِصْرَ
أَنَافَا بِأَعْنَاقِ السَّمَاءِ فَأَشْرَفَا عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوِ النَّسْرِ
وَقَدْ وَافِياً نَشَزَا مِنَ الْأَرْضِ عَالِياً كَأَنَّهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ
وقال سيف الدين بن جبارة يصفهما:

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمِينَ وَاسْمَعْ مِنْهُمَا مَا يَرَوِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ

(١) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ١٢١.

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ التلمساني الجزء الثالث، ط ١، بيروت دار
صادر سنة ١٩٨٨، ص ٣٣٢.

وانظر إلى سر الليالي فيهما نظراً بعين القلب لا بالناظر
لو ينطقان لخبرانا بالذي فعل الزمان بأول وبآخر
وقال عمارة اليمني في وصفهما^(١):

خليلي هل تحت السماء بُنيّة تماثل في اتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزّه طرفي في بديع بنائها ولم يتنزه في المراد بها فكري

وصف أبي الهول:

وقال ظافر الحداد في وصف أبي الهول^(٢):

تأمل هيئة الهرمين وأعجب وبينهما أبو الهول العجيب
كسّمار يبتئن على رحيل بمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صبى تخلف فهو محزون كئيب

وصف منارة الإسكندرية:

ووصف الشاعر ابن قلاؤس منارة الإسكندرية فقال:

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقباً كأنما فيه للنسرين أوكار
راسي القرارة سام الفرع في يده للنون والنور أخبار وإخبار
وقال ظافر الحداد في وصفها ووصف مرفأ الإسكندرية^(٣):

(١) النكت العصرية، م.س. ص ٢٧٩.

(٢) خريدة العصر، الجزء الثاني، ص ٧.

(٣) ديوان ظافر الحداد، ابن الإسكندرية، ص ٢٧.

وفي الإسكندرية لي فؤادُ له في مصر جثمان خرابُ
مضت لي في جزيرتها ليالٍ لآلٍ هُنَّ لوقييل الصوابُ
كأنَّ البدر فيها عينُ ماءٍ لها من فائض النور انسكابُ
تجاورها منارتها وفيها وفي فانوسها عَجَبُ العجابُ
فتاةٌ غادة بإزاء شيخ قصير طال بينهما العتابُ
وسيف خليجها كالسيف حدًّا وفي أرج الرياح له اضطرابُ
يمدّ مدى تَقْلُبٍ بالمجاري وليس لمدينة منها قرابُ
وإيقاع الضفادع فيه عال وللدولاب زمر واصل طخابُ
وتكسوه الرياح دروغ حربٍ ولا طعنٌ هناك ولا ضرابُ
وبحر الملح مثل الفحل يرغو ويزبد حين يقلقه الهبابُ
وتحسب سفنه صفةً ولوناً خيولاً حين يرفعها العبابُ

وصف باب زويلة:

ووصف علي بن محمد النيلي باب زويلة بقوله^(١):

يا صاح لو ابصرت باب زويلة لعلمت قدر محلّه بنيانا
باب تأزّر بالمجرة وارتدى الشعري ولات برأسه كيوانا
لو أن فرعوناً بناه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا

وباب زويلة كان قد بناه الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز سنة ٣٨٤هـ، وقد بناه مع باب الفتوح وباب النصر.

(١) ديوان الشاعر ابن أبي حصينة المعري، الجزء الأول، ص ٢٢٨.

وصف النيل والفسطاط:

قال الشاعر ابن أبي حصينة المعري يصف منظر النيل الزاخر
والفسطاط دونه^(١):

أقول وقد أشرفت ذات عشية على النيل من إحدى الهضاب الشواق
ومن دونها فسطاط مصر وزاخر كأن بشطيه مسوك الخرائق

وصف الزلزلة:

وقال المهذب بن الزبير في وصف الزلزلة:

رؤعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاء رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وثغوراً وحصوناً موثقات البناء
فلإذا مارنت عيون إليها أجرت الدمع عندها بالدماء
ووصف أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر وصديق الوزير
الملك الصالح طلائع بن رزيك الزلازل فقال:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم ركب بحر مع الأنفاس تضطرب
فنصفهم ملكوا فيها ونصفهم لمصرع السلف الباقيين يرتقب
تعوضوا من مشيدات المنازل بالأكواخ فهي قبور سقفا خشب
كأنها سفن قد أقبلت وهم فيها فلا ملجأ منها ولا هرب
وقد أرسل إليه صديقه الملك الصالح ابن رزيك قصيدة يعزيه
فيها وكنا قد أشرنا إليها سابقاً.

(١) ديوان الشاعر ابن أبي حصينة المعري، الجزء الأول، ص ٢٢٨.

وصف كسوف الشمس:

وقال الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي، وزير الخليفة
الظاهر في وصف كسوف الشمس^(١):

قالوا كسوف الشمس مقتربٌ قلت أدخرت لدفع نائبها
ثقتي بكاسفها وكاشفها وبفضل ما حيها وكاسبها
من لو يشاء أعاد مشرقها متبسّمالك من مغاربها
هي شعلة من نوره فإذا ما شاء أظلم أو أضاء بها

وقال الأمير تميم يصف سنبلة مسدّسة، وأفضل السنايل في
صقعنا العاملي هو الحبّ المسدّس والسنبلة عادة تأتي على ثلاث
زوايا، ولكن هذه السنبلة جاءت على ست زوايا، فتفائل بها خيراً
وأرسلها لعجب منظرها إلى أخيه الخليفة العزيز مع باقة من سوسن
أحمر بقصيدة يصفها ويصف السوسن جاء فيها:

إنّي بعثت طريفاً وهي سنبلةٌ تمّت فتمّ لرائيها الأعاجيب
وسوسناتٌ مرآه ومخبره فقد تكامل فيه الحسن والطيب
كأنّه مضمّ بالكفّ متّصلٌ له بنان من الحنّاء مخضوب
وقد تفاءلت فيه أنّ باكره بكور عزّك ما في ذاك تكذيب
وأنتها سنة جاءت مباركة تدين فيها لك الزوراء والنوب
ويلاحظ القارئ أنّ هم الاستيلاء على بغداد كان شغلهم

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، الجزء الثامن، ط١، بيروت، دار
صادر سنة ١٩٧٠، ص ٥٠٩.

الشاغل، فحتّى في وصف السنبلة والسوسن، لم ينس الأمير تميم أن يتمنى للخليفة العزيز أن تتم له السيطرة على الزوراء = بغداد.

وصف باشق:

وقال الأمير تميم يصف باشقاً استهداه للصيد:

قد عزمنا على التصيّد والنزّهة والصيّد في التنزّه فضلُ
فيه ضرب من السياسة والعزم وفيه للحزم عقْدٌ وحلُ
ولدينا من الجوارح للطير ضروب فهنّ للطير قتلُ
ولديك البواشق اللاءٌ قدرحن كما رُحّت ما لفضلك مثلُ
فتفضّل بباشق كلّ ما فيه جناح ومخلّب فيه نصل
طالما طارد السمانيّ وأضحى ذمها وهو تحت رجله نعل
وافر الدست مرهف الريش لولا صدره لم يكن له منه ثقلُ
واقتراحي له عليك لعلمي أنّي مخلصٌ لديك مُدِلُ

وصف الاحتفالات بأخذ مقياس النيل أو فتح الخليج:

كنا قد أشرنا إلى أن الفاطميين كانوا قد أوجدوا مؤسسة رسمية لها موظفوها وعمالها، مهمّتها، كنس مجاري النيل والاهتمام بمعرفة مدى ارتفاع ماء النيل عند بلوغه في كل سنة، وإذاعة النتيجة على الناس، وأثر نتيجة ارتفاعه أو انخفاضه على الحياة الاقتصادية. لذلك كان الخلفاء الفاطميون، يعمدون إلى إقامة الاحتفالات السنوية بفتح الخليج أو بأخذ المقياس، وكانت تستمر هذه الاحتفالات أربعة أيام يحضرها الخليفة والوزير وكبار القواد ورؤساء الدواوين والقضاة

والدعاة والناس. وكان الخلفاء أعدوا لهذا الاحتفال «منظرة» ينظرون منها إلى طريقة تنفيذ فتح القنوات المتصلة بعمود المقياس لمعرفة مدى الارتفاع. كما كنت قد أشرت إلى إقدام أحد أصحاب الأملاك المشرفة على الخليج على إقامة مدرج للفرجة بالأجرة.

كتب ابن الطوير يصف احتفالات فتح الخليج وأخذ مقياس ارتفاع النيل فقال:

ولوفاء النيل عند الفاطميين قدر عظيم يبتهجون به ابتهاجاً زائداً. وذلك لأنَّ به عمارة الديار المصرية، وبه التثام الخلق على فضل الله، فيحسن عند الخليفة موقعه ويهتم بأموره اهتماماً عظيماً أكثر من كل المواسم، فإذا أصبح الصبح هذا اليوم وحضرت مطالعة ابن أبي الرِّدَّاد إليه بالوفاء أو وصوله إلى المقياس المطلوب: يتابع ابن الطوير ويصف عملية المراقبة اليومية لارتفاع النيل من قبل مدير مؤسسة المقياس ابن أبي الرِّدَّاد فيقول: وإذا أذن الله، سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك، طالع ابن أبي الرِّدَّاد بما استقرَّ عليه أذرع القاع في اليوم الخامس والعشرين من بؤونة، ويعلم بمطالعته الزيادة كل يوم بيوم، ولا يزال كذلك وهو محافظ على كتمان ذلك، لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير، فإذا انتهى إلى ذراع الوفاء وهو السادس عشر، إلى أن يبقى منه إصبع أو إصبعان، وعلم الخليفة ذلك، أمر أن يحمل إلى المقياس عشرة قناطير من الخبز السميد وعشرة من الخراف المشوية وعشرة من الجامات الحلوى وعشر شمعات، ويأمر بالمبيت في تلك الليلة بالمقياس، فيحضر إليه القراء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة

ومصر، ويوقدون الشمع من العشاء وهم يتلون القرآن برفق
ويطربون بمكان التطريب، فيختمون الختمة الشريفة^(١).

ويصف لنا ابن الطوير طريقة خروج الخليفة من القصر إلى
منظرة الخليج واستقراره فيها مدة أربعة أيام وطريقة نصب خيمة
القاتول التي تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر مربع للأمراء والوزراء
والأعيان وكبار الموظفين وقادة الجيوش، ويبقى المجتمع المصري
قيادة وشعباً في هرج ومرج ودعة ونثر الذهب كالأرز على الناس
والقرءاء والمؤذنين والعساكر والموظفين طيلة الأيام الأربعة.

والشعراء وهم من النخبة والصفوة في مجتمع مصر الفاطمية،
وحضورهم في هكذا احتفال وكل احتفال وموكب لا بد منه، بل لا
مفر.

يصف ابن الطوير حضور الشعراء وما قالوا من شعر تبارياً في
وصف احتفالات فتح الخليج وأخذ مقياس النيل فقال: «والقرءاء
يقرأون القرآن ساعة زمانية، فإذا ختموا قراءتهم، استأذن صاحب
الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق في هذا اليوم، فيأمر
الخليفة بتقديمهم واحداً بعد واحد، ولهم منازل على مقدار أقدارهم،
فالواحد يتقدم الواحد بخطوة بالإنشاد وهو أمر معروف عند
مستخدم يقال له النائب.

فتقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشأ قصيدة منها:
فتح الخليج فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء

(١) راجع: نزهة المقلنين، م.س. ص ١٩١.

فصفت موارده لنا فكأنه كفاً الإمام فعرفها الإعطاء
فانتقد الناس عليه في قوله: «فسال منه الماء» وقالوا: «أي شيء
يجري من البحر غير الماء، فضيع ما قاله بعد هذا المطلع»^(١)
- والكلام لابن الطوير -.

وتقدم الشاعر مسعود الدولة بن حُرَيْز فقال:

ما زال هذا السدّ ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطاً عليه كلُّ حامل معول
فجرى كأنّ أديف فيه عنبر يعلوه كافور بطيب المنديل
«فانتقدوا عليه أيضاً قوله في البيت الثاني وقالوا: اهلك وجه
الإمام بسطوات المعاول عليه، وإن كان قد فتح السدّ بالمعاول، لكن
ما كان نظمه إلا قلقاً».

ثم تقدّم الشاعر كافي الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة
شهد له جماعة منهم القاضي الأثير بن سنان، أنّه عملها بحضوره
بداهةً. ومما جاء فيها:

لنيل أم لك يا ابن بنت محمد	لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد
وافيتمافيه لأصدق موعد	أم لا اجتماع كما معافي موطن
حاز الفضيلة منكما في المولد	ليس اجتماع الخلق إلا للذي
بالسعي لكن ميلهم للأجود	شكروا الكلّ منكما الوفاء
بالقصد ليس له كمن لم يقصد	ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله
وتسدّ أنت النقص إن لم يزد	هذا يفي ويعود ينقص تارة

(١) م.س. ص ١٩٩.

وقَوَاهُ إن بلغ النهاية قَصُرَتْ وإذا بلغت إلى النهاية تبتدي
والآن قد ضاقت مسالك سعيه بالسدِّ فهو به أخال مقيد
فإذا أردت صلاحه فافتح له ليرى جناباً مخصباً وترى ندي
وأمر بفصد العرق منه فما شكا جسمٌ فصَحَّ الجسم إن لم يُفصدِ
فأمر له الخليفة على الفور بخمسين ديناراً وخلع عليه، وزيد في
جاريه (راتبه)»^(١).

وإذا راقبنا هذه النصوص نجد أن الشعب المصري يتذوق الشعر
وينقده، وقد أشرنا إلى انتقاد الناس للشاعر الأول والشاعر الثاني،
كما أشار ابن الطوير إلى أهمية الشعر والشعراء في الحياة اليومية
المصرية. ووصف الشاعر ابن قلاقس نهر النيل وانعكاس أشعة
الشمس على مائه فقال^(٢):

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعاً منه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الغرق
وللهلال فما وافا لينفدها في أثرها زورق قد صيغ من ورق
وقال أبو الحسن محمد بن الوزير يصف ربط عملية زيادة النيل
بالوضع الاقتصادي:

أرى أبداً كثيراً من قليل وبدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل خليج ماء بمصر مُسَيَّبٌ بخليج مال
زيادة أصبغ في كل يوم زيادة أزرع في حسن حال

(١) نزهة المقلتين، ص ٢٠١.

(٢) الذخيرة في معاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٦٦٠.

وفي قصيدة مدح فيها الفقيه عمارة الخليفة العاضد واصفاً
احتفال فتح الخليج بقوله: مبتدأ بوصف المنظرة التي يقف فيها
الخليفة للفرجة:

حتى حللت رواق عالية الذرى أمست ذرى الهرمين عنها تقصر
شبّهتها والنيل يجري تحتها بالخلد أجري في ذراها الكوثر
وإذا اختصرت القول في تشبيهها فكأنها الفلك المحيط مصور
ويصف احتفالات «فتح الخليج» فيتابع قائلاً:

شرقت أمير المؤمنين مواسم أضحت تُورخُ باسمكم وتُسَطَّرُ
وأجلّها «يوم الخليج» فإنّه من بينها يوم أغرّ مُشَهَّرُ
يَوْمٌ كَانَ الجيش تحت قتامة سرّاً أثناء الجوانح مُضْمَرُ
وأفاك فيه النيل وهو من الحيا خجلٌ يقدّم رجله ويؤخّرُ
قد جاء معتذراً إليك وتائباً من ذنبه الماضي ومثلك يَغْدُرُ
إن كان من نهر فكفك لَجَّةٌ أو كان من مطر فوبلك أغزر
شئان بينكما: أبحر واحداً؟ كَيْدٌ أناملها الكريمة أبحرُ
في كل وقت فيض جودك حاضر فيناً ونائله يغيب ويحضر
وبالرغم من كل النواقص والمشاكل التي سيسببها نقصان النيل،
والتي يسدّ مكانها، كرم الخليفة العاضد، إلا أنّ عمارة يعترف بأن
النيل نعمة من الله:

وعلى الحقيقة لا المجاز فإنّه من نعمة الله التي لا تكفر
كسر الخليج عبارة عن منّة أضحى بها كسر المنية يُجَبَّرُ
وفي قصيدة ثانية يصف عمارة احتفالات فتح الخليج وتخليق
المقياس (رشه بالعطور) من قبل الخليفة العاضد ووزيره الملك

الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦هـ، معدداً المواسم الاحتفالية
الكثيرة:

تَمَلُّ أمير المؤمنين مواسماً تزورك من صوم شريف ومن فطر
يوصلها سعد بجدك مقبل فعام إلى عام وشهر إلى شهر
ركبت إلى كسر الخليج وإنما ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
ويصف الجيوش الكثيرة التي تشارك في الاحتفال فيقول:

غدوت بفتح السد في زحف أرعني يسد هبوب الريح بالأسل السمر
إذا خفقت أعلامه وبنوده رأيت عليها غرة العز والنصر
ويصف أمية بن أبي الصلت الأندلسي المصري زيادة النيل
بقوله^(١):

ولله مجرى النيل منها إذا الصبأ أربابه من مَرها عسكرياً حَجراً
إذا زاد يحكي الورد لونا وإن صفا حكي ماءه لونا ولم يعد نشرها
وصف عملية إنقاذ طفل من الغرق:

وقال ابن أبي الشخباء العسقلاني، يصف عملية إنقاذ طفل من
الغرق في النيل^(٢):

شجاني المقام الصعب لما شهدته وقد ضاقت الأنفاس والنفس تذهبُ
وقد بهتت فيه اللواحظ إذا رنت إلى دَرّة تطفوا وأنا وترسبُ
كانَ خليج الماء كان مَجَرّة وأنت بها شَمُشٌ تلوح وتغرب
كسبت اصفرار الروض عند ذبوله ولكن على الحاليين مَرَأك أعجبُ

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الأول، م.س. ص ٤٩٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٦٦٠.

عدا الماء من ماء الصبا فيك غيرةً وما خلت أن الماء للماء يغضب
ستبقى بهذا النهر للناس عبرة مؤرخة في الكتب تُتلى وتكتب
وتُبنى على شاطئ نجاتك كعبةً يحج لها بالحب من يتقربُ

وصف بركة الحبش:

لم يترك الشعراء المصريون في العهد الفاطمي شيئاً إلا وصفوه
بأوصاف حسية ومعنوية، حسية كما هي مرثية، ومعنوية حسب أثر
الشيء الموصوف في النفوس.

كانت بركة الحبش من أهم منتزهات الخلفاء الفاطميين والشعب
المصري، وقد وصفها المقرئ بكلام عيسى بن موسى الهاشمي
الذي وقف أمام البركة وقال لصحبه: اتأملون الذي أرى؟ قالوا: وما
الذي يرى الأمير قال: أرى ميدان رمان وجنان نخل وبستان شجر،
ومنازل سكن وذروة جبل وجبابة أموات ونهراً عجاجاً، وأرض زرع،
ومراعي ماشية ومرتع خيل، وساحل بحر وصائد نهر وقانص
وحش، وملاح سفينة، وحاوي إبل ومفازة رمل وسهلاً وجبلاً.
ويعقب المقرئ على كلام عيسى بن موسى: «فهذه ثمانية عشر
منتزهاً في أقل من ميل في ميل»^(١). وكلها بالقرب من بركة الحبش
وقال إنها مقصد أهل الخلاعة والمجون والقصف، ويتناوبها ذوو
الآداب والظرف الذين إذا خرجوا إليها افترشوا زهرها أحسن بساط
واستظلوا بدوحها بأوفى أوراق، يعبّون من زجاجات الأقداح حتى

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٥٤.

ذهاب الأصيل على لجين الماء. وقد وصف أمية بن أبي الصلت،
انعكاس شمس الأصيل على هذه البركة بأعذب الكلمات والطفها
وأكثرها موسيقى فقال^(١):

لله يومي ببركة الحبش	والأفق بين الضياء والغَبَشِ
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم في يمين مرتعش
ونحن في روضة مُقَوِّفة	دُبَّجَ بالنور عطفُها ووُشِي
قد نسجت لها يد الغمام لنا	فنحن من نورها على فُرْشِ
فعاطني الراح إن تاركها	من سورة الهم غير منتعش
واسقني بالكبار مترعة	فهنَّ أروى لشدة العطشِ
فأثقل الناس كلهم رجل	دعاه داعي الصُّبَا فلم يَطشِ

وصف الزورق:

وقال الأمير تميم يصف سفن النزهة التي كان الخلفاء والأمراء
الفاطميون يستعملونها للتنزه في مياه النيل. وكانوا يطلقون على
الواحدة منها إسم عشاري وجمعها عشاريات وقد أرسل أخوه
الخليفة العزيز يطلب منه إرسالها إليه:

بعثت بساكنات طائرات	تفوت اللحظ وهي بلا جناح
تطير إذا المجازيف استحثت	بها طيراناً أجنحة الرياح
كأن سوادها في الماء يحكي	سواد الأعين النجل الملاح
كان مرورها شداً وعدواً	مرور يدك في بذل السماح

(١) نفع الطيب، المجلد الثالث، م.س. ص ٣٢٢.

وصف الأسطول المصري الفاطمي:

كانت صناعة الأساطيل من أهم الصناعات المصرية أيام الفاطميين وكانوا يملكون الأساطيل العسكرية والأساطيل التجارية، وقد قال معظم مؤرخي تلك الحقبة أن الفاطميين حولوا البحر المتوسط إلى بحيرة عربية لأن أساطيلهم العسكرية والتجارية هي الوحيدة التي كانت تمخر عبابه، ولا تتجرأ فئة أو دولة على قطع طريقها. وقد بلغ عدد سفن الأسطول المصري في عهد الخليفة العزيز بالله ألفاً ومائتي سفينة حربية لا تقل حمولة الواحدة منها عن سبعمائة جندي، منها ما هو مخصص للعلوفات ومنها ما هو مخصص لنقل الخيل والدواب إلى أرض المعركة غير المخصصة للحروب البحرية.

قال الشاعر المهذب بن الزبير يصف الأسطول المصري^(١):

وكان بحر الروم خُلِقَ وجهه وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بها لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إلي بها شواني أصبحت من فتكها ولها العداة شواني^(٢)
شُبَّهن بالغربان في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عُدد القتال وقد غدت فيها القنا عوضاً عن الأشطان^(٣)
فأتتك موقرة بسببي بينه أسراهم مغلولة الأذقان

(١) الخريدة، العماد الأصفهاني، قسم شعراء مصر، م.س. ص ٢١١.

(٢) الشواني الأولى: جمع شيني وهي السفينة الحربية والشواني الثانية جمع لاسم الفاعل شانى من شنى أي مبغض ومبغضين.

(٣) أوقرتها: عبّأتها وملأتها، والأشطان: الحبال.

حربٌ عوان حَكَمْتَكَ مِنَ العدى فى كُلِّ بِكْرٍ مِنْهُمْ وَعَوَانِ
والكلام عن شعر الوصف فى أدب مصر الفاطمية يطول ويتعرج
لغنى المجتمع المصري فى هذا العهد ولجمالية الحياة ورفاهيتها
عندهم. ومتى حُلَّت الحياة المرفهة والغنى محلَّ الفقر تفرَّغ الشاعر
لإغناء وإشباع النواحي الروحية والنفسية مكان البحث المغنى عن
لقمة العيش. لذلك لم يترك الشعراء المصريون صغيرة أو كبيرة فى
حياتهم المرفهة إلا ووصفوها.

وصف الدور والقصور:

فى بلد من أغنى وأجمل بلدان العالم كمصر، وفى حقبة أصبح
فيها الذهب فى أيدي المصريين كالتراب، فلا مجال إلا للتأنق حتى
فى البناء، فبنى الخلفاء المصريون وكبار موظفيهم ووزراؤهم الدور
والقصور، وأبدعوا فى بنائها، فكانت آية من آيات الزمن، تضاهي
عظمتها وزخرفتها عظمة الأهرامات وعظمة أبي الهول، فازدانت مصر
وما زالت تزدان بما بناه المصريون وخلفاؤهم فى هذه الحقبة. ولا
غرو أن يصفها شعراؤهم ببدايع القصائد وقلائد المنظومات.

قال الأمير تميم فى وصف أحد القصور التى بناها أخوه العزيز:

منازل لم يبن مثلاً لها	على الأرض كسرى ولا قيصر
بناء تردّد فيه الجمال	ولاح عليه السنا الأنور
فظاهره العزم مستظهر	وباطنه التبر والجوهر
ولو سخرت أربعاً قبله	لكان البديع الذى يسحر

وصف منظره العروسين:

وكان الخليفة المعز لدين الله قد بنى منظره عالية سماها منظره العروسين. وصفها الشاعر علي بن يوسف الأيادي فقال:

بنى منظرأ يسمى «العروسين» رفعة كأن الثريا عرست في قبابه
إذا الليل أخفاه بحلكة لونه بدا ضوءه كالبدر تحت سحابه
تمكّن من سعد السعد محلّه فاضحى ومفتاح الغنى فتح بابه
ولو شاده عزم المعزّ ورأيه على قدره في ملكه ونصابه
لكان حصى الياقوت والتبر مفرغاً على المسك من آجره وترابه
وقال أمية بن أبي الصلت يصف قصر الأمير علي بن الشاعر
تميم بن المعزّ:

لله مجلسك المنيف قبابه بموطد فوق السماء مؤسس
موف على حبك المحبة تلتقي فيه الجواري بالجوار الكنس
تتقابل الأنوار في جنباته فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه عطف الأهله والحواجب والقسي
واستشرفت عمد الرخام وطوّقت باجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم وأقرب بالتقصير كل مهندس
فبدا اللحظ العين أحسن منظر وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قمراً، إذا ما أطلعت شمس الخدود عليك شمس الأكوس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة والأرض أجمع دون هذا المجلس
وقد جاء تصغير الظرف «دون»، حركة لطيفة من أبي الصلت
أمية، نثرت على القصيدة مسحة لطف ونعومة.

وبنى ولده حسن بن علي بن الأمير تميم بن المعزّ الفاطمي
 قصرأ، أو تجمع قصور، أطلق عليه المؤرخون اسم «منازل العز»،
 وهي مشهورة في كتب التاريخ الفاطمي، فوصفها أبو الصلت
 أمية بن عبد العزيز الأندلسي المصري بقوله^(١):

منزل العزّ كما سمى معناه لا عدا العزّ به سمّاه
 منزل ودّت المنازل في أعلى ذراه الوصيّ سرت إيّاه
 فأجلّ فيه لحظ عينيك تُبصر أي حسن دون القصور حواه
 سال في سقفه النضار ولكن جمدت في قراره الأمواه
 وبأرجائه مجال طرايد ليس تنفك من وغي خيلاه
 تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمي من الطعان قناه
 وترى النابل المواصل للنزع بعيداً عن قرنه مرماه
 وصفوفاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مرأه
 سكنات خالها حركات واختلاف كأنه إشباه
 فإذا، كان من ملحقات القصر، حديقة للحيوانات وملعب للفرسان
 وبستان ورد وزهر:

ورده وجنتاه نرجسه الفتّا ن عيناه، أسه، عارضاه
 وكان الكافور والمسك في الطيب وفي اللون صُبْحُه ومساه
 منظر يبعث السرور ومرأى يذكر المرء طيب عصر صباه
 هذه هي صورة قصور الخلفاء والأمراء الفاطميين فكيف كانت
 قصور الوزراء وكبار الموظفين؟.

(١) نفح الطيب، الجزء الأول، م.س. ص ٤٩٦.

قال العرب قديماً: الناس على أخلاق ملوكهم، فإن تفنن الملوك
تفنن الناس.

وكان الأمير بدر بن رزيك شقيق الملك الصالح الوزير طلائع بن
رزيك يملك منظره بالخليج، فاحترقت، فغمّ الأمير بدر لحريقها،
فأنشده الفقيه عمارة قصيدة يصف هذا الحريق ويذكره بأنه له
قصر أجمل من المنظره ويصف القصر بقوله:

لم تحترق دار الخليج وإنما شبت لمن يسرى بها نار القرى
طلعت طلوع النجم نال به الهدى سار أضل طريقه فتحيرا
ودليل ذلك أنها لم تشتعل في الليل حتى رنقت سنة الكرى
ويتجه لوصف الدار قائلاً:

فتملّ داراً شيدتها همّة يغدو العسير بأمره متيسراً
فاقت على الإطلاق كلّ بناية وسمت فما استثنت سوى أم القرى
أنشأت فيها للعيون بدائعاً رقت فأذهل حسنهما من أبصرا
فما هي هذه البدائع في تلك الدار وكيف ولو كانت قصراً لا
داراً؟:

فمن الرخام مسيراً ومسهماً ومنمنماً ومدرهما ومدنرا
والعاج بين الأبنوس كأنه أرض من الكافور تنبت عنبرا
وسقيت من ذوب النصار سقوفها حتى لكاد نضارها أن يقطرا
فلكثر ما رصّع سقوفها بالذهب، كاد الذهب أن يسقط كالقطرات
على رؤوس الحاضرين.

قد كان منظرها بهياً رائعاً فجعلتها بالوشي أبهى منظرا
ألبيتها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الروض أبيض أحمر

فمجالسٌ كُسيت رقيماً أبيضاً ومجالسٌ كُسيت طميماً أصفر^(١)
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيه الجميع مصوراً
ويصف الحقائق المحيطة بالدار، حديقة الأزهار والورود وحديقة
الحيوانات.

فقال في وصف حديقة الزهور:

فيها حدائق لم تجدها ديمةً أبداً ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد منها الروض إلا مزهراً والنخل والرمان إلا مثمراً
والطير وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنفرا
ويصف حديقة الحيوانات بقوله:

وبها من الحيوان كلٌّ مشهور لبس الوشيح العبقريّ مشهوراً
لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثاً ولا ظبياً بوجرة أعفراً
أنست نوافر وحشها بسباعها وظباؤها لا تتقى أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشأ ثريك من المها روقاً ومن بزل المهاريّ مشفراً
جلست على الإقعاء من إعجابها فتخالها للتيه تمشي القهقري
ونحن نعلم أن جلسة الإقعاء هي جلسة الكلب، فالكلب لا يجلس
إلا مقعياً على قفاه، أما إذا جلست المهاري، فهي جلسة التيه
والإعجاب ببدر بن رزيك صاحب هذه الحديقة.

(١) الرقيم: الثوب. والطميم: نوع من الأقمشة المزخرفة كانت تصنع بمصانع الغزل والنسيج
في مدينة تنيس.

وقال علي بن أحمد بن يحيى المعروف بابن الصقلي يصف
روابي مصر في الربيع^(١):

نُدِير الكَأْسَ مِنْ دُرِّ رَطِيبٍ	مُطَوِّقَةً عَلَى تَبْرِ مُذَابٍ
وَنُطْرِبَ حِينَ نَلْهُو بِالْمَلَاهِي	لَدَيْنَا الزَّهْرُ يُزْهِرُ فِي الرُّوَابِي
كَأَنَّ عُيُونَ نَرْجِسِهَا عَيُونَ	خُلِقْنَ بِلَا وَجْهِ فِي رِقَابٍ
كَأَنَّ جَنَى بِنَفْسِهَا أَزْرَقَا	بَقَايَا الْقَرَصِ فِي خَدْيِ كَعَابٍ
كَأَنَّ غَضِيضَ سَوْسِنِهَا كُؤُوسٌ	مُشْرِفَةٌ الْحَوَافِي بِانْقِلَابٍ
كَأَنَّ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهَا	بَنُو دَفُوقِ اطْرَافِ الْجِرَابِ
كَأَنَّ بَدَائِعَ الْمَنْصُورِ فِيهَا	بِأَصْبَاغِ عُشُورٍ فِي كِتَابٍ
كَأَنَّ حَمَاجِمَ الرِّيحَانِ فِيهَا	جَوَاهِرُ نُضْدَتِ مِثْلِ الْقِبَابِ
كَأَنَّ مَلْعَبَ الْأَتْرُجِ فِيهَا	أَصَابِعُ حَاسِبٍ عِنْدَ الْحَسَابِ
كَأَنَّ مَدُورَ الْخَشْخَاشِ فِيهَا	دَبَابِيسٌ أُقِيمَتْ لِلْخُرَابِ
كَأَنَّ مُخَضَّبَ الْعُنَابِ فِيهَا	أَنَامِلُ غَادَةٍ تَحْتَ الْخَضَابِ
كَأَنَّ الْبَاقِلَاءَ بِهَا قُدُودٌ	ثَنَاهَا فَرَطُ لَيْلٍ بِانْجِذَابِ
كَأَنَّ الْأَفُقَ يَخْذُوفِيهِ حَادٍ	عَرَابَ النُّوقِ مِنْ قَطْعِ السُّحَابِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ الدُّجَنِ وَجَّةٌ	تَأْلُقُ نُورَهُ تَحْتَ النُّقَابِ
كَأَنَّ الْجَوْفِيَةَ لِنَظَرِيهِ	دُخَانٌ كَالْهَبَاءِ مِنَ الضُّبَابِ
فَيَا لَكَ مَنَظَرًا يَسْبِيكَ مِنْهُ	نَبَاتٌ سَاقَهُ صَوْبُ الذُّهَابِ
فَمِنْ أَوْرَاقِ آسٍ فِي عُصُونٍ	كَأَذَانِ الْمَضْمُورَةِ الْعُرَابِ

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٨٩.

وَمَنْ تَلُو فِرَ فِي الْمَاءِ يَحْكِي لِنَظَرِهِ مَرِيْشَةَ التُّيَابِ
وَوَرْدٌ كَالنُّجُومِ يَلُوحُ فِيهَا سُعُودٌ فِي التَّوَقُّدِ كَالشَّهَابِ
فَوَائِي الْغَزَالِ وَإِنْ رَمَانِي بِبُعْدٍ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ اقْتِرَابِ

وصف دار المختار محمد بن عبيد الله المسبّحي:

ومحمد بن عبيد الله المسبّحي، صاحب كتاب أخبار مصر، كان موظفاً من موظفي الدواوين في الدولة الفاطمية، أي ليس بأمير ولا وزير ولا من كبار الموظفين. كانت تربطه صداقة بالحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط. أرسل ابن الخياط ذات يوم قصيدة للمسبّحي يمدحه فيها ويصف «دار المختار محمد بن عبيد الله المسبّحي». ومما جاء في هذه القصيدة^(١):

إِنْ تَنَاهَتْ مَسَاكِنُ أَوْدُورٍ فَلِدَارِ الْمُخْتَارِ فَضْلٌ كَبِيرُ
حَوْلَهَا الْعُرْدَاتُ فَهُوَ سَور وَعَلَيْهَا مِنَ الْمَفَاخِرِ نَور
وَعَلَيْهَا مِنَ الْمَكَارِمِ وَالْخُصْبِ بِهَاءٍ يَحْفَافُهَا وَسُفُورُ
وَلَهَا مَجْلِسٌ تَرَاخَى لَهُ النَفْسُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَمَالِ سَتُورُ
ذَهَبٌ يَشْغُلُ الْعَيُونَ وَفَرَشٌ يَتَجَلَّى عَلَيْهِ بَدْرٌ مَنِيرُ
يَمْلَأُ الْعَيْنَ بِهَجَةٍ وَجَمَالاً وَيَدُورُ السَّمَاحُ حَيْثُ يَدُورُ
مَجْلِسٌ بِالْهِنْدِيِّ وَبِالْفُضْلِ يَغْدُو أَبْدَأُ وَهُوَ أَهْلٌ مَعْمُورُ
فِيهِ طَيِّبٌ وَقَهْوَةٌ وَسَمَاعُ وَحَدِيثٌ وَعَنْبَرٌ مَشْحُورُ

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٠٨.

وصف السيد:

ويبدو من وصف ابن حيّوس للسيد أنها أكثر من «برداية» بل هي خيمة خارج القصر في البستان أو الجنينة. يقول ابن حيّوس في وصفها^(١):

وهذا السيد الذي ماسما له ملك في قديم العُصُر
رفعت له قُبّة قد أصبحت تطول على ما علا واشمخر
إذا ما بدت في الدجى خلتها مرصعةً بالنجوم الزُهر
وفي الدجن تحسبها كاعباً عليها السحائب مثل الأُر
تُراغ لها الشمس عند الطلوع فلو ملكت نفسها لم تُنر
ولورأها البدر في تمّهِ وكانت له قدرة لا ستقر
فصار لها علماً في البنا كسيرة صاحبها في السير
فإيوان كسرى وإن أعجز البرية في جنبه محتقر
فما هو هذا السيد الذي يحتقر ابن حيّوس أمامه إيوان كسرى؟
ومن أي شيء مبني؟

ويقول ابن الخياط واصفاً مجلس أنس المسبحي:

وتحايات دور بين صدور مُلئت لذة بهنّ الصدور
وقداح وأكسّس دائرات وندامى كأنهنّ البدور
ويصف بركة الدار فيقول:

ولها بركة تدافع فيها موجهاً مُصعداً وفيه حدور

(١) ديوان ابن حيّوس، الجزء الأول، ص ٢٨٩.

ودساتيرها تُجسّرُ عليها ناكساتٌ كأنّها البُلُور
 صولجاناتها تساوت قدوداً وتسامت نحو السماء تغور
 وتماثيلُ راقصات على الماء لها فيها رنةٌ ونعير
 ويصف السِدْلاً: التي تغطي شرفة الدار والسِدْلاً هي «برداية»
 كبيرة، كما اشرنا أمام حديقة للحيوانات:

وسِدْلاًؤها تخرُّ على نقش الرُّخام كأنّه الكافور
 من سباع أمنت منهنّ بأساً فاغرات لم يخش منها هرير
 فإذا ما زارن زدت سروراً وبعيدٌ من الزئير السرور
 وتعالّت عليه قبة عزّ تمّ فيها البهاء والتقدير
 وبها الغانيات والشرب والروض ووحش الفلا وطيير يطير
 ومجال للصيد فيه مجال وظباء شواردٌ وصقور
 ونخيل بواسق وثمار ووحوش رواتع وطيور
 وبها البط والنواريس والقبيج وفيها الحمام والعصفور
 ويصف خاناتها وما تضمّ من خمور:

وبخاناتها مآربٌ شتى وكؤوسٌ محشوةٌ وخمور
 وندامى مصرّعون من السكر عليهم نعيمهم مقصور
 يقطّعون الزمان لهواً وقصفاً لا يبالون ما إليه المصير
 في رياضٍ أنيقةٍ وقيانٍ وكؤوسٍ مع السقاة تدور
 وتظلّ العيون فيها تسامى مثل ما يُطلب الهلال الصغير
 وإذا النهر صوب الماء فيه جاريةً قلت: مرهفٌ مشهور
 وهي في الصيف ثلجةٌ فإذا القرّ تبدّى فهي اللحاف الوثير
 وبارد ظلّها إذا احتدم الصيف وفي القرّ كِلّةٌ وحُرور

ودار المسبّحي بالنهاية نموذج لجنة الله على الأرض:
كل ما تشتهي فيها عتيدي وبها الخير كله موفور
ويعجب القاريء من هذه القصائد، فهل هي وصف واقعي
للقصور والدور والبيوت أم هي من نسج خيالات الشعراء؟ وما لنا
إلا أن نقول إنَّ نسج الخيال هو صدى للواقع ولو اختلف عنه حجماً
وكماً ونوعاً. ولو كانت الصفات التي ذكرها الشعراء في أوصاف هذه
الدور والقصور أقل بتسعين بالمئة فلا نستطيع إلا أن نعترف
بالترف والدعة والغنى الفاحش الذي كان يعيشه الشعب المصري في
ظل الإسلام الشيعي.

وصف الشمسة:

قال الأمير تميم يصف الشمسة التي أعدها والده الخليفة المعز
لدين الله لتزيين الكعبة بها^(١): *ترتخت كعبته راسدي*

وحبذا الشمسة التي نصبت	يقصر عنها المديح والخطب
قايس العيد وهي حلّة	وأخفت اليوم وهو منتصب
ينهب ياقوتها العيون فما	يكمل الأمر حيث ينتهب
داوثر أصدق بفرّتها	أهلاً لا تحفها السحب
كانما درّها وجوهرها	نجوم ليل سماؤها ذهب
نظمتها الهدى ولبيتها	وإن سخطن الكواعب العرب
في كبد المسجد الحرام بها	شوق وللبيت نحوها طرب

(١) ديوان الأمير تميم، م.س. ص ٥٥.

فلا تمسى بأهله زمن إلا بماتشتهي وترتقب
 عليك صلى الإله ما طلعت شمس، وما أنهل عارض لجب
 فالبرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي
 مناسبة دينية، وأن الممدوح إمام المذهب، لم يشأ الأمير تميم أن يلم
 بشيء من العقائد الفاطمية في هذه القصيدة ولكنه أنشد الشعر
 للمناسبة فقط، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر
 أنشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات
 مختلفة فإذا قعد الإمام مدحه الشاعر، وإذا شكّا من مرض مدحه،
 وإذا سافر مدحه، وإذا أهداه شيئاً مدحه، وذلك كله بجانب القصائد
 التي قيلت بمناسبة الأعياد.



وصف النقش على الصواني:

كان النقش على النحاسيات والفضيات صناعة مشهورة في مصر
 الفاطمية وقد أشار صاحب كتاب كنوز الفاطميين إلى العديد من هذه
 التحف الفنية، كما ضمّن كتابه العديد من صورها وأشار إلى
 وجودها في المتاحف العالمية.

قال الشاعر ظافر الحداد يصف عملية نقش على صينية من
 ذهب، طلب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نقش بعض الأبيات
 الشعرية عليها^(١):

وروض زاهرة من اللجين والذهب

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٠.

لكنها ما نبتت في الأصل إلا بالذهب
انظر إلى صنعتها فكل ما فيها عجب
كأنما ابن مقلّة حرّز فيها ما كتب
أودعها أنقأشها لكل عين ما تحب
فهي كوجه حسن إذا تبدي لموجب

من بعد صد واجتناب واقتراق وغضب
منسوبة للصين لكن نتجت بين العرب
أخلصها السبك فما فيها من الغش ندب
مثل غدير قد صفا وراق ما بين الكتب
جاءت بها سعادة الأفضل حسب ما طلب



النحت وسكب المعادن:

كان الفاطميون يهتمون كثيراً بالنحت والنقش والتصوير من أجل
الزينة وأناقة البيوت والقصور. وهذا الشاعر ابن قلاقس يصف
شمعداناً للإضاءة بشكل نخلة فقال:

ما عهدنا النخل لولا هذه باسقات بثمار الذهب
هطل الغيث لها من فضة فهي في قنواتها من ذهب
تلعب السرج على حافاتها وتحاكى أنمل المرتعب
ولقد أحسبها السنة هزها للسكر خمر الطرب^(١)

ونرى المصريين يصفون في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم.

(١) ديوان ابن قلاقس، ص ١٨.

فوصفوا الشمعة مثلاً. كما في قول المهذب بن الزبير:

ومصفرة لا عن هوى غير أنها تحوز صفات المستهام المعذب
شجوناً وسقماً واصطباراً وأدمعاً وخفقاً وتسهيذاً وفرط تلهب
إذا جمشتها الريح كانت كمعصم يرد سلاماً بالبنان المخضب^(١)

ويقول آخر في الشمعة أيضاً:

وصحيفة بيضاء تطلع في الدجا صباحاً وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذؤابتها أوان شبابها واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها^(٢)

ووصف الشاعر أمير الدولة محمد أبو عبد الله بن خليل - أمير
شعراء المستنصر - القلم والرمح بقوله:

يراعان هذا يملأ الطرس حكمة وذاك يذيق الحتف ليثاً غضنفر
وإن ظمئنا ظنناهما برداً على نفوس العدا من غير إذن ويصدرا
فيشرب هذا أسود الليل حالكاً ويشرب هذا قاني الدم أحمر

وصف الصور والنقوش:

وقال الشريف ابن هبة الله العلوي يصف الصور والنقوش التي
نسجت على خيمة^(٣):

ضربت عين (رواق) في مقرّ علا أوفى على عذبات الطود ذى القنن
جازت مدى الطرف حتى خلت ذروتها تأوى من الفلك الأعلى إلى سكن

(١) الخريدة ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٣) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ١٤١.

أقطارها ملئت من منظرٍ عجبٍ يُهدى إليك ذكاء الصانع القطنِ
فمن رياض سقاها الفكرُ صيِّبَةً فما بها ظمأ يوماً إلى المُرْنِ
وجامح في عنان لا يجاذبُهُ وطائرٍ غير صدّاح على فننِ
وأرقم لا تمجُّ السَّمَّ ريقثُهُ وضيغم ليس بالعادي ولا الوهنِ
ومائلين صفوفاً في جوانبها لو يستطيعون لخرَّ الجمع للذَّقْنِ
زينت بأروع لا تُحصى فضائله ماضٍ من المجد والعليا في سننِ
وأطلع الدستُ فيها شمسَ مملكة تُرى التأمّل فضل العين للأذنِ
وعُدَّ على السعدِ أن النصرَ يضربها بالصين بعد فتوح الهند واليمنِ

وصف خيمة القاتول:

حتى اليوم ونحن في أوائل القرن الواحد والعشرين وتجاوزنا عتبة الألف الثالث للميلاد بسنتين، لم أسمع أو أشاهد خيمة بلغت ساحتها عشرة آلاف متر مربع. وخيمة القاتول، مشهورة عند الفاطميين والمصريين، هي والخيمة المدورة التي تشابهها علواً ومساحة. وقد سُميت القاتول، لأنهم كانوا كلما أرادوا نصبها، ولو تحت إشراف المهندسين، يُقتل بأعمدتها التي بلغ طول عمود الوسط منها مئة متر، شخص أو شخصان وعندما نقول مئة متر، أي أنها بعلو بناء مؤلف من خمس وثلاثين طابقاً. فلنر، كيف وصف الشعراء المصريون هذه الخيمة!

وصفها أبو جعفر محمد بن هبة الله العلوي الطرابلسي فقال^(١):

(١) أخبار مصر، ابن العاظم، م.س. ص ١٠٢.

ضربت خيمة عز من مقرّ علّا أوفت على عذبات الطور ذي القنن
جاءت مدى الطرف حتى خلت ذورتها تاوى إلى الفلك الأعلى بلا سكن
أقطارها ملئت من منظر عجب يبدي إليك ذكاء الصانع الفطن
ويصف الحشود داخلها فيقول:

ومائلين صفوفاً في جوانبها لو يستطيعون لخرّ الجمع للذقن
وكان الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي أمر بصنعها لكي تنصب
أيام الاحتفالات الكبيرة.

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري يصفها ويمدح الأفضل:
مهلاً قد قصرت عن شأوك الأمم وأبدت العجز عنها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت اليوم أم فلک ويقظة ما نراه اليوم أم حلم
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن تسمو علواً على أفق النُهى الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة في مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلکاً أن احتوتك وأنت الناس كلهم

وقد اضطر الشاعر تقديم الواو على أنت لاستقامة العروض
الشعري وهو قصده «أن احتوتك أنت والناس كلهم». وبالرغم من
تقديمها مضطراً فقد أتى المعنى أجمل حيث شبه الوزير الأفضل بكل
الناس والحاضرين.

ويتابع وصفها فيشبهها بالجيش لكثرة ما حوت من الرسوم
والزخارف والتساوير:

لديك جيش وجيش في جوانبها مصوّز وكلا الجيشين مزدحم
إذا الصبا حرّكتها ماج موكبها فمقدم منهم فيها ومنهم

كأنها جنة والقاطنون بها لا يستطيل على أعمارهم هدم
 علّت فخلنا لها سراً تحدثه للفرقدين وفي سمعيهما صمم
 وقد نسب العماد الأصفهاني هذه القصيدة للشريف محمد - أبو
 جعفر - بن هبة الله العلوي الحسيني.

ووصفها الفقيه عمارة بقوله مادحاً، العاضد:

وخيمت في أكناف عالية الذرى تنيف على برج السماكين والنسر
 تخاطبها الجوزاء سراً وخفية بمكنون ما لله فيك من السر
 هي الصرح إلا أن هامن لم يشد بناه ولا استمطاه فرعون للكفر
 وقال الفقيه عمارة أيضاً في وصف دار الملك الصالح طلائع بن
 رزيك في مدينة تنيس وما حولها من بساتين وسواقي:

دار غدت بشمسها وغمامها فلکاً ولكن ليس بالدوار
 وكأنما هي جنة أغنييتها - يا بحر ها - عن منة الأنهار
 جعلتها دار السلام فبوركت دار السلام وكعبة الزوار
 أهدت لنا «تنيس» ما لم يفتخر بنظيره عصر من الأعصار
 وأمدّها حسن اقتراحك بالذي لم تقترحه خواطر الأفكار
 فتنزّهت أبصارنا في حسنّها إن الحقائق نزّهة الأبصار
 يستأنس الحيوان بين مروجها فوحشها ليست بذات نفار
 طير على الأشجار إلا أنّها ليست مغرّدة على الأشجار
 وجناة أثمار وما حصلوا بها أبداً على شيء من الأثمار
 وقفوا بها متعلّقين تعلّقي بزمّام عدلك من وقوف الجاري

قَطَعَ من الروض الأنيق كسوتها فوراً ولم يك جسمها بالعار
شَبَّهت لونها سبائك فضة قد زخرفت حافاتهما بنضار

وصف مقص:

وقال قاضي القضاة محمد بن محمد بن النعمان بن حيون
المغربي في وصف المقص^(١):

ومعتنقين في طول اعتناق قد اتفقا على حسن اتفاق
إذا اجتمعا على تشتيت أمر تفرق شمله أي افتراق

وصف القاضي العادل:

كان القاضي النعمان من أعدل قضاة الشيعة الإمامية الإسماعيلية
في مصر، وقد عينه الخليفة المعز قاضياً للقضاة في الدولة الفاطمية.
وقد مدحه عبدالله بن الحسين الجعفري واصفاً فيه القاضي العادل
فقال^(٢):

تعادلت القضاة معاً فأما أبو عبد الإله فلا عدل
وحيد في فضائله غريب خطير في مفاخره جليل
تألق بهجة ومضى اعتزاماً كما يتألق السيف الصقيل
ويقضى والسداد له حليف ويعطي والغمام له رسيل
لو أختبرت قضاياه لقالوا يؤيده علينا جبرئيل
إذا رقي المنابر فهو قس وإن حضر المنابر فالخليل

(١) المعقّى الكبير، م. س. ص ٣٦٥.

(٢) المعقّى الكبير، م. س. ص ٣٦٦.

وصف المعركة بين الشمس والظلام:

قال نُشُوُ الملك يصف غروب الشمس^(١):

يارُبَّ سامية في الجوقمتُ بها أمدُ طرْفِي في أرض من الأفق
حيث العشيَّة في التمثيل معركة إذا رأها جبانٌ مات للفرق
والشمسُ هاربة للغرب دارعة بالنَّيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسَّنان بدَا من سورة الطُّعن مُلقَى في دم الشفق
وقال علي بن المنجَم يصف غروب الشمس^(٢):

وعشاء كائنما الأفق فيه لا زور دمر صُنع بسنُّ ضار
قلتُ لما دنت لمغربها الشم س ولاح الهلال للنُّظَّار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا رأفأعطاه الرُّهن نصف سوار
وقيل في وصف الشمعة أيضاً:

كما كان الضوء الكهربائي مهماً في حياتنا اليومية وأصبحنا لا نستطيع أن نعيش بدونه، كذلك كانت الشمعة والسراج جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية للإنسان المصري. وخاصة بعد أن طور المصريون صناعتها بفضل اهتمام الخليفة الحاكم بأمر الله بإضاءة شوارع مصر والقاهرة ليلاً أمام كل المحلات والدكاكين، تحت طائلة المسؤولية.

وصفها الأمير تميم بن المعز بقوله:

(١) بدائع البدائ، ص ٢٥٨.

(٢) بدائع البدائ، ابن ظافر الأزدي، ط ١، القاهرة، المكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٧٠، ص ٢٤٤.

وبأكية متوجة بنار كأن دموعها حَبَبُ العقار
إذا ما توجت في دار قوم رأيت الليل منها كالنهار
فتاة عمرها عمر قصير ولكن نفعها نفع الكبار
وقال فيها أيضاً:

ومشرفة وجنح الليل قار لها من كل ناحية وقار
تضر بنفعها فلها وقوع على الخدين مسيلة غزار
أعار الغصن قامتها استواء ووكلها على الليل النهار
إذا ما رأسها قطف استفاقت وجانبها التخوف والحدار
وقال ابن هاني يصفها أيضاً وقد شبه نفسه بها:

لقد أشبهتني شمعة في صباية وفي هول ما ألقى وما اتوقع
نحول وحزن في فناء ووهدة وشهيد عین واصفرار وأدمع
وصفها فكأنها فتاة تقتل نفسها في سبيل محبيها:

وصفراء تكثر إيناسها تعيش إذا قطعو أراسها
تغازلها الريح في مرها ولكن تقطع أنفاسها
ولم أر من قتلت نفسها سواها لترضي جلاسها
وكان للكرسي التي يجلس عليها ناسخ الكتب أهمية في حياة
مصر الفاطمية، لأن الناسخ هو المطبعة ودار النشر والمكتبة. وصفها
ظافر الحداد بقوله^(١):

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٥٧.

انظر بعينك في بديع صنائعي وعجيب تركيبتي وحكمة صانعي
فكأنني كفاءُ مُجِبِّ شُبُكْتِ يوم الفراق أصابعاً بأصابعي
فنفخ فيها الروح والعاطفة ونقلها من صورة الجماد إلى صورة
الإنسان.

في وصف إضمامة زهور:

وبعث الأمير تميم بإضمامة زهور إلى أخيه الخليفة العزيز مع
الآيات التالية:

يا أيها الملك الميمون طائره ومن بعزته قد أخجل القمر
إنني بعثت إليك الزهر ناعمة ترضى من الندماء الشم والنظرا
إضمامة حسنت مرأى ومختبراً كأنها نشر محبوب إذا خطرا

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

في وصف شم النسيم:

وقال أبو عبدالله الحسين بن إبراهيم بن أحمد. يصف شم
النسيم^(١):

شُمُّ النَّسِيمِ لَذِيذٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ لَا تُشْمُهُ
وَاصْرِفْ عَنِ الْقَلْبِ مَا اسْطَ عَتَ بِالسُّرَّةِ هَمُّهُ
وَعَالِطُ الدُّهْرِ إِنْ كُنْتَ لَسْتُ تَمْلِكُ حُكْمَهُ
وَقَدْ نَصَحْتُكَ جَهْدِي فَلَا تَصُمْ وَتَكْمَهُ

(١) بيتمة الدهر، م.س. ص ٤٣١.

وصف سيف:

وقال ابن هاني الأندلسي يصف سيفاً^(١):

لله أي شهاب حرب واقد صاحب ابن ذي يزن وأدرك تُبعَا
في كف يحيى منه أبيض مرهف عرف المعز حقيقة فتشيعا
وجرى الفرند بصفحتيه كأنما ذكر القتل بكرة بلاء فدمعا
يكفيك مما شئت في الهيجاء أن تلقى العدى، فتسل منه إصبعاً
وقال يحيى بن علي في وصف سيف كان بيد الخليفة المعز:

قد أكمل الله في ذا السيف حليته واختال باسم معز الدين منتفشا
كان أفعى سقت فولاذه حمماً والبست جلده من وشيها نَمَشا

السيف شيعي كحامله:

وقال أيضاً في وصف سيفه:

لي صارمٌ وهو شيعي كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل

الصحة أفضل كنز:

كتب ابن الخياط إلى المسيحي يهنئه بمعاذاته فقال^(٢):

بُشِّرْتُ بالعافية الشاملة فيك، وتلك النعمة الكاملة
من بعد شكوى نكست ناظري وأضحيت النفس لها ذاهلة

(١) ديوان ابن هاني الأندلسي، ط ١، بيروت، دار الجيل، سنة ١٩٩٦، ص ٣٩٨.

(٢) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١١١.

وقلت قد جاء البشير أنيذ
فالحمد لله على أنني
وأصبح الحاسد من غيظه
فرآذك الله على رغبة
لا تجعل الفرحة لي قاتلة
خُصِصت بالموهبة الفاضلة
يقول: هل من ميتة عاجلة؟
عافية دائمة واصلة

القط المؤدب:

وأرسل ابن الخياط إلى محمد بن عبيد الله المسبّحي يستهديه
قطاً فأجابه المسبّحي^(١):

لقد أسرفت في العتب وما انصفت في التهم
وأنزلت بي المظنة في الهرب لا حشمة
وأنت السيد القرم ورب المونن الجمّة
وقل يبخل بالسئو رذو ظرف وذو همّة؟
وقد أنفذت من بعتك وإن درسته الحكمة
وقد أضحي وما إن في من غيب ولا ثمّة
أديب النفس في الأكل وفي الشرب وفي الخدّة
إذا نساغاك السهاك بصوت يطرب الأُمّة
يحاكي «معبدًا» يشدو ك في أشعار «ذي الرُمّة»
فخذ ثم عش ما عشت في خير وفي نعمة

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٢٢.

وصف الرمح:

قال علي بن المنجم يصف رماحاً صنعت مقابضها من ذهب^(١):
فعال الكامل الأمل المرجى على ما فيه من فضل أدلة
نحابر ماحه نحو الأعادي فكل قد سقاها بها وعلة
ولم يرض النجوم لها نصلاً فنصّلها هنالك بالاهلة

وصف مشط للشعر:

وقال ابن قلاقس يصف مشطاً من العاج^(٢):
انظر لمطرّد المياه بصفحتي ولنار خذي كم لها من صال
قد عاد شدي في المضايق شيمتي كبلال بن مدافع بن بلال
وسأله صاحب له وصف مشط عاج قد أشبه الثريا شكلاً ولوناً،
وشق ليلاً من الشعر جونا، فقال:
ومتيم بالآبنوس وجسمه عاج ومن أدهانه شرفاته
كتمت دياجي الشعر منه بدرها فوشت به للعين عيوقاته
وقال فيه:

وأبيض ليل الآبنوس إذا سرى تمرّق عن صبح من العاج باهر
وإن غاص في بحر الشعور رأيت تبشّرنا أطرافه بالجواهر
وقال فيه:

ومشرق يشبه لون الضحى حسناً ويسرى في الدجى الفاحم

(١) بدائع البدائ، علي بن ظافر الأزدي، ط ١، القاهرة، المكتبة الانجلو المصرية، سنة ١٩٧٠، ص ٣٩٨.

(٢) بدائع البدائ، ابن ظافر الأزدي، م.س. ص ٣١٥.

وكلما قلب في لمة أضحكها عن ثغر باسم

وصف قلم:

وقال ابن قلاقس في وصف ما يصدر عن القلم من أوامر
وأفعال^(١):

منها في القلم:

وبيمناك طير يمن وسعد
قلم دبّر الأقاليم فالكت
يا طراز الديوان والملك أصبح
وبنوك الذين مهما دجا الخط
فأبو بكر الذي أحرز المجد
وتلاه فيماتلاه أخوه
ولعثمان حظ عثمان إلا
وإذا شئت فالمجرة بحر
وبكفي من النجوم كثير
وقيل في وصفه أيضاً: وقال القاضي الفاضل، علي بن
عبد الرحيم البيساني في وصف قلم^(٢):

وله اليراع وليه أبداً
إن سود البضاء بيض من
قلم أقاليم البلاد به
و ثغورها في الضبط والشد

(١) الخريدة، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ٤١.

(٢) الخريدة، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ٤١.

بهُزَالِه سَمْنِ الْعَلَاوِ كَذَا فِي الْهَزْلِ مِنْهُ حَقِيقَةُ الْجَدِّ
ظُمَانٌ يَرُوى كُلُّ ذِي ظُمَأٍ فَأَعْجَبَ لَذِي وَزْدٍ بِلَا وَزْدٍ
مَلِكٌ كَتَبَتْهُ كِتَابَتُهُ فَرَدَّ بِجَيْشِ النَّصْرِ فِي جُنْدٍ
الْأَسْمَرِ الْخَطِيءِ تَابَعَهُ فِي حُكْمِهِ وَالْأَبْيَضِ الْهِنْدِيِّ

وصف دواة:

وأهدى الأفضل بن بدر الجمالي للخليفة الأمر حجر مرجان
فحضر الجوهريون وقالوا للأمر أنه يعمل منها دواة حبر قطعة
واحدة، وصنعوها له فجاءت «شيء عظيم القدر» فوصفها أحمد بن
منصور بقوله:

أَلَيْنَ لِدَاوُدَ الْحَدِيدَ تَكْرَمًا يَقْدَرُهُ فِي السَّرِّ وَهُوَ شَدِيدُ
أَلَيْنَ لَكَ الْمَرْجَانَ وَهُوَ حَجَرَةٌ عَلَى أَنَّهُ صَعِبُ الْمِرَاسِ بَعِيدُ
فَأَمَرَ لَهُ الْخَلِيفَةُ الْأَمْرَ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ وَخَيْلٍ وَخَلْعَةٍ وَزَيْدٍ فِي رَاتِبِهِ.

وصف صلاة العيد والخطبة:

وكان للأعياد في الدولة الفاطمية «طنة ورنّة»، يعمّ فيها الخير كل
الشعب المصري من نثر ذهب وتوزيع أطايب الأكل وجامات الحلوى
وكسوات الثياب. يصف الفقيه عمارة اليماني صلاة عيد الفطر مادحاً
الخليفة العاضد بقوله:

تَقَبَّلَ اللَّهُ صَوْمًا أَنْتَ وَاصِلُهُ مِنْ الصَّلَاحِ بِأَعْمَالٍ تَشَاكُلُهُ
صَوْمٌ تَوَلَّى وَقَدْ أَثْنَتَ فَرَاثُضُهُ عَلَيْكَ خَيْرًا كَمَا أَثْنَتَ نَوَافِلُهُ
لَمْ يَلْفَ عِنْدَكَ غَيْرَ الْبَرِّ قَادِمُهُ وَلَا تَزُودُ غَيْرَ الْبَرِّ رَاحِلُهُ

صوم تبسم عن قطر كما ابتسمت عن غرة الفجر من ليلى عواطله
لما أظلك عيد الفطر وافتقرت أسمع قوم إلى ما أنت قائله
ويصف صلاة العيد وخطبة العاخذ في الجامع فيقول:

زرت المصلّى ولولا ما خلعت على رحابه من رغب خف أهله
واهترّ شوقاً فلو يستطيع منبره مادت أعاليه وارتجت أسافله
حتى إذا ضاق بالأشهاد واستمعت فصل الخطابة من قرب محافله
لم يبق فعلك في الأفهام من صداً إلا وعقلك بالإفهام حافله
عرفتهم من طريق الرشيد ما جهلوا حتى تنبّه غاوي القلب غافله
ويصف عودة موكب العاخذ من صلاة العيد فيتابع قائلاً:

وعدت نحو مقرّ العزّ في لجب كالسيل فارسه والليل راجله
ترنو إليك عيون الخلق شاخصة والأجر والفخر أدنى ما تحاوله
وفي المظلة وجه لم يزل أبداً بشر القبول على وجوه يقابله
وراية الملك والإسلام يحملها لك اللواء الذي جبريل حامله
أشبهت هدي رسول الله حين بدت على شمائلك الحسنى شمائله
وفي جبّينك نور من نبوته وشاهد الحق لا تخفى دلائله
هذا ما قاله الفقيه عمارة اليماني المسلم السنّي المتشدد في
تسنّنه. وحكايته مع الوزير طلائع بن رزيك مشهورة.

وصف قافلة الحج المصرية:

بالرغم من أهمية فريضة الحج عند المسلمين، كانت بعض قبائل
الأعراب القاطنة على مشارف الطرقات المؤدية إليه تأخذ ضريبة

مُرور أو حماية من الحجاج. والقافلة التي تتمنّع عن الدفع تنتهب، ولما كانت كل قافلة عليها أن تدفع لكل عشيرة أو قبيلة تمرّ بأرضها، مما جعل فريضة الحج صعبة ومكلفة، توقّف الكثير من المسلمين عن أداء هذه الفريضة، وخاصة القادمون من بلاد فارس، والهند وتركيا والشام والعراق، باستثناء القادمين من المغرب ومصر فقد كانت طريقهم محمية مؤمنة آمنة بسبب قوّة وتماسك الأمن المصري الفاطمي. برأً وبحراً، وقد أشرنا إلى العديد من الحوادث التي تظهر أمن وأمان طريق الحج من مصر إلى مكة وبالعكس وقد وصف الفقيه عمارة حماية قافلة الحج واهتمام الوزراء المصريين بهذا الأمر مخاطباً الوزير الملك الصالح طلائع بن رُزَيْك فقال:

وتيسّرَت قصد البيت من بعد عسرة فضاقت بحار بالورى وسهوب
فللفلك في طامي البحار تحذّر وللعيس في بحر السراب رسوب
وكان لبيت الله في كل موسم عويل على زواره ونحيب
ينادي ملوك الأرض شرقاً ومغرباً الاسامع يُدعى به فيجيب
فلما أتت أيامك البيض لانقضت ولا خطبتها للزمان خطوب
بذلت عن الوفد الحجيج تبرعاً مواهب لم يسمح بهنّ وهوب
سبقت بها أهل العراق وغيرهم وأنت إلى كسب الثواب كسوب
وأبقيتها وقفاً على البر خالصاً وفي برّ قوم خالص ومثوب

وصف فرس:

كانت الخيل والأفراس المطهّمة «كالمرسيدس النملة أو الشبح» في أيامنا هذه. وكان المصريون يتسابقون على اقتناء أجملها

وأجودها. وكان الخلفاء قد أعدوا لخيولهم وركوباتهم من بغال وأخيار الخيل، مؤسّسة بكاملها أطلقوا عليها اسم «خزانة السروج» مهمتها تجهيز كل مستلزمات الزينة لها، فكان يبلغ ثمن السرج أضعاف أضعاف ثمن الحصان أو البغلة، فلربما كان السرج من ذهب أو فضة خالصة. حتى المهماز الذي «ينكز» به البغلة أو الحصان كان يصنع من الذهب الخالص وكذلك اللجام. وكانت بمصر كما اليوم - سيارات ملاكي وسيارات أجرة، أو بالأحرى، خيول وبغال وحمير للنقل بالأجرة، وقد قال المقرئزي إنّ القاهرة وحدها كان بها خمسون ألف دابة نقل، عدا خيول وبغال - الأملاك الخاصة - من هنا، كانت الخيل والبغال حاجة مهمة جداً في حياة الإنسان المصري، ولا يعقل أن لا يصفها شعراؤهم.

أهدى فارس المسلمين بدر بن رزيك الفقيه عمارة اليميني مهراً
كميت اللون بعدته كاملة، فأرسل له عمارة قصيدة يمدحه فيها
ويشكره على الهدية ويصف فيها المهر، ومما جاء فيها:

بعثت بطرف يسبق الطرف عفوه وتغدو الرياح الهوج من خلفه حرا
حكى الورد والياقوت حسناً وحمرة وتاه فلم يرض العقيق ولا الخمرا
نذرت ركوب البرق عند وصوله فوقيت لمّا جاءني ذلك النذرا
وقفت القوافي في علاك عرائساً فساق لها الإحسان في مهرها مَهْراً

ووصف الأمير تميم فرساً فقال:

فرس أشم المنكبين مقابل يرمي الجنادل من يديه بجندل
عجر الوظيف كأنّ لون أديمه حُبك السحاب بعارض متهلّل

وترى له ذنباً يهزّ فضولهُ
 في حسن عرف قد تكامل نبتهُ
 وكأنّما مُبَيّضُ أعلى وجهه
 وكأنّ دقّة سرجه ولجامه
 وكان حافره إذا وطىء الثرى
 ويسابق البرق المثار بخطوه
 وتراه يمرح في العنان إذا بدا
 سلب الغواني حسنهنّ فجاء في
 يخفى وراء قذاله من طوله
 صافي الصهيل كأنّ في ترجيعه
 وكأنّما يقف البياض بوجهه
 وقال ابن أبي حصينة المعري في وصف ذئب يلحقه فرس
 بقصد اقتناصه^(١):

وأطلس مدلاج إلى الرزق ساغب
 غدا معرضاً للجيش يقصد جنبه
 فلما رأى خيل المنايا مُغرّة
 وحين تحرّى للنجاة وأيقنت
 لحق به القناص:

على ظهر مدموج المرافق سابح
 تعود أن يُزْمَى به كلّ مطلب
 على أربع مُلْدٍ تطول القنا المُلدا
 قصيّ ويكتدُ النجاح به كذا

(١) ديوان ابن أبي حصينة، أبو الفتح الحسن ابن عبدالله الشامي المعري الجزء الأول، ط ١، دمشق، المجمع العلمي العربي، سنة ١٩٥٦، ص ٢٦٨.

فأوجره سمراء لومدّباعه بها طاعناً للسدا أنفذت السدا
 فخرمُكبّاً للجران ونفسه تسرّ لمرديه الضغينة والحقدا
 فقلتُ له يا ذئب لا تخش سبّة فمرديك أردى قبلك الأسد الورددا
 وقال الأمير تميم يصف الفرس أيضاً:

وقد اغتدى والليل في دجاء والصبح لم ينهض به سناء
 على حصان شنج نساء أنبط نهد عبل شواه
 مخالفاً أسفله أعلاه بدهمة قدملات قراه
 رجلاه في العدو أو يساه كأنه يطير في مجراه
 حتى يكاد وهو في معدها تسسبق أخراه به أولاه
 أشوس في مشيته تياه يطاول الجوزاء من مطاه
 لا يشتكي من تعب وجاه ولا تندي عرقاً جنباه
 وقال ابن هاني في وصف الخيل أيضاً^(١):

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ولا البيد الحزون حزون
 عرفت بساعة سيفها لا أنها علقت بها يوم الرهان عُيون
 وأجل علم البرق فيها أنها مرّت بجانبه وهي ظنون

وصف كلاب الصيد:

يعتبر الصيد من عادات المترفين والمتحضّرين والأغنياء الذين
 ليسوا بحاجة للبحث عن قوتهم وقوت عيالهم. وكان أعيان القاهرة
 ومصر وكبار قادتها وموظفيها يبنون الدور والقصور في وسط

(١) ديوان ابن هاني الاندلسي، ط ١، بيروت، دار الجيل، سنة ١٩٩٦، ص ٤٩٣.

الجنائن والبساتين الفسيحة، طمعاً بإقامة جزء منها مسرحاً للصيد
القريب، لتعلقهم به. أما الصيد البعيد الذي يحتاج إلى مطاردة وكلاب
مطاردة وخيول سريعة، فكانت من الرياضات المحببة إليهم.

قال الأمير تميم يصف كلاب صيده وقد جاوزت العشر:

قد اغتدي قبل طلوع الفجر والليل في مثل خضاب الشعر
كالجور أو كالظلم أو كالغدر وانجم الجوزاء فيه تسري

ويشبه نفسه بالثرثريا والطريدة بالبدر، يطاردها بواسطة كلابه:

وللثرثريا طمع في البدر فهي له حيث مضى في الإثر
كأنما تطلبه بوتر بأكلب تطير حيث تجري

وكلابه ضامرة البطن والخصر من كثرة جريها، واسعة الأشداق:
من كل قباء الحشا والخصر تكاد من تلويحها والضمير

تلمس بالبطن فقار الظهر وافر الزور رحيب الصدر
ذوات أشداق كفتح الشبر شققن للأذان أول الشعر

وهن أمضى من خطوب الدهر حتى إذا ما أوغلت في القفر
كأن فيهن حُمّا الخمر ينظرن عن تقطيع لحظ شزر

أهوى بها الكلاب نحو عشر من بقر الوحش بدت في سطر
ويصف حالة طرائده بعد وقوعها تحت أنياب كلاب صيده فيقول:

غادرتها في النقع مثل الجزر فهن صرعى دمهن يجري
ثم نزلت مسرعاً عن مهري أقطع من أوصالها وأفري

حتى غلت فوق الأثافي قدري يالك من طرد كحر الجمر
نحرت فيه الوحش أي نحر نحر الوصي جيش آل صخر

وهو في البيت الأخير يشير إلى الخلاف التاريخي بين هاشم
وأمية.

وصف باز:

وقال الأمير تميم في وصف باز أزرق اللون:

وقد اغتدي والليل بالصبح أشمط وللروض كافور يفوح به الشمم
بأزرق يرمي الطير منه بمقلة تكاد ترى ما يستتر الثوب في الظلم
وليس يعيب الباز راحة ماجد تعود حمل الباز والسيف والقلم
إذا ركب البازي يساري وأثرت له لحظات كالذبالة تضطرم
ذعرت به شملاً من الطير جامعاً وضرت جتها في كل ناحية بدم
إذا لم أصدها لم يطب لي مذاقها ولست للحم لم أصده بذئ قرم

وصف حريق:

وعندما احترقت دمشق بسبب لا مبالاة السكارى وأصحاب اللهو
والمخمورين وصف الشاعر العرقلة هذا الحريق بقوله^(١):

خلت نيرانها وكل ظلام نار ليلى تلوح بالمجنون
كم غني اليمين أمسى فقيراً وفقير أمسى غني اليمين
كل حين لها حريق جديد ليت شعري ماذا لها بعد حين

وصف أطايب المأكولات:

إذا كان علماء الاجتماع يضعون صناعة الرغبة في أولى

(١) ديوان عرقلة الكلبى، ط ١، بيروت، دار صادر، سنة ١٩٩٢، ص ١٠٦.

المقومات الحضارية، فكيف إذا علمنا أن المصريين في ظل الإسلام الشيعي، كان الرغبة آخر همهم لأنه مؤمن لكل طبقات الشعب المصري. وكانت حياة البذخ والترف والدعة والرخاء الاقتصادي تشمل كل المصريين فلم يكن هناك فقير في مصر الفاطمية وأطايب الأطعمة والأشربة توزع عليهم بالمجان ومن مؤسسات الدولة الرسمية، كخزانة الشراب، وخزانة التعبئة وخزانة التوابل ودار الفطرة. لذا، فلا عجب إذا ألقينا نظرة على أطايب الأطعمة والأشربة المصرية بمنظار شعرائهم.

وصف اللحم بعجين:

قال أبو محمد الحسن التتيسي يصف لنا بعض المأكولات المصرية، فقال في وصف رقائق اللحم بعجين^(١):

أبعث فخذُ عشرًا من الرقاق تسلذها نواظر الأحداق
تكد ممارق من حرسائها تشف للأعين من صفائها
أرقها الصانع حتى خفت ولطف أجسامها ومُدت
حتى أتت في صورة البدور أو مثل جامات من البلور

ثم يصف الحشوة المعمولة من اللحم والبصل:

فاعمد إلى مُدَوِّر من البصل فإنه أكبر أعوان العمل
يحكي لعينيك أخضرار قشره إذا رماه نواظر بفكره
حتى إذا أحكمته تقطيعاً وكنت قد جودته صنيعة
خلطته باللحم خلطاً جيداً ولم تزل تخلطه مردداً

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، م.س. الجزء الأول، ص ٢٨٤.

حتى إذا أنت أجدت فعله ثم جمعت بالرقاقة شمله
ويصف لنا عملية وضع رقاقات اللحم بالعجين بالشابورة
(الفرن) فيقول:

صَيَّرْتَهُ يَا ذَا الْعِلَا سَنِيَّةَ شَابُورَةٍ لَيْسَتْ لَهَا سَمِيَّةُ
تَمَّتْ أَغْلُ الشَّبْرِقِ الْمَقْشَرَا مِنْ فَوْقِهِ حَتَّى تَرَاهُ أَحْمَرَا
مَكْتَسِيًّا جِلَّتْهُ الْخَمْرِيَّةُ مِنْ بَعْدِ مَا عَهْدَتْهَا فَضِيَّةُ
وبعد نضوح رقاقات اللحم بالعجين لم يعد ينقصها سوى كأس
من النبيذ الجيد:

ثم أدركأس الشمول منعما أكرم بهذا مشرباً ومطعماً

وصف دعوة على الطعام:

وقال الحسين بن الحسن أبو القاسم الواساني يصف دعوة إلى
مائدة فيها جميع أنواع المأكّل وأطايبه، وقد صاغها بطريقة أنه
«اخترب بيته» بسبب هذه الدعوة ولكثرة من جاء إلى بيته طمعاً
بالأكل بالمجان^(١):

جمعوا لي الجموع من جيل	جيلان وفرغانة ومن ديلمان
ومن الروم والصقالب والترك	وبعض البلغار واليونان
كل ذي معدة تقعقع جوعاً	وهو شاكي السلاح بالأسنان
رحلوا من بيوتهم ليلة المرفع	من أجل أكلة مجّان
شَرَّةً بارداً وحرص على الأكل	فويلي من معشر مُجّان

(١)

ويبدو أن الواساني دعى بعض أصحابه من أهل المجون فاتفقوا
عليه وجلبوا معهم:

كل شكل ما بين حُذْبٍ وحُولٍ وَأَصْمٌ وَالْعُمِّيُّ وَالْعُورَانِ
ويصف بيته وداره قبل مجيء المدعوين:

أشرفوا بي على زروع وأحطاب وببيتٍ بخيره ملآنٍ
لبن بارد وخبز طريٍّ وقدور تغلي على الداركان
وشواء من الجداء ومعلوف دجاج وفائق الحُمْلان
وشراب الذَّمْنِ زورة المعشوق بعد الصدود والهجران
ويصف أحد المدعوين وطريقة أكله فيقول:

يقدم القوم أرحبي هريثُ الشدق رحب المعى طويل اللسان
هو نمس الدجاج والبَطَّ والوزُّ وذئب النعاج والخرفان
ثم يصف أحد «المعزومين» ويُسمَّى الشمولي فيقول:

والشمولي حلقه حلق حَمَالٍ عريض الأكتاف عبل الجران
لست أنساه جاثياً جاحظ العين عبوساً في صورة الغضبان
كالعقاب الغرثان يقتنص اللحم ويهوي إلى طيور الخوان
كلما شقق الفراريج شققت لغيظي من فعله قمصاني
ليس هذا من شهوة الأكل هذا من طريق البغضاء والشَّنَّانِ
يبلغ المطجَّنات بلعاً بلا مضغ ويحثو النبيذ كالعطشان
أكلوا لي من الجرادق ألفين بدبس يسيل كالقطران
أكلوا لي ما حولها ثم مالوا كذئاب إلى سמיד الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثين وسبعاً بالخل والزعفران
أكلوا ضعفها شواء وضعفها طبيخاً من سائر الألوان

أكلوا لي تبالة تبّلت عقلي بعشر من الدجاج سمان
أكلوا لي مضيرة ضاعفت ضُرري بروس الجداء والحملان
أكلوا لي كشكية كشكشت قلبي وهاجت بفقد هاشجاني
أكلوا لي عدلاً من المالح المَقْلُو مُلقى في الخلّ والأدناني
أكلوا لي من الكوامخ والجوز معاً والخللاط والأجبان
ومن الببيض والمخلّل ما تعجز عن جمعه قرى حوارن
فتشّوا لي من السفرجل والتفاح والرازقي والرممان
أكلوا كلّ ما حوته يميني وشمالي وما حوى جيرانني
ثم يصف نهاية «العزومة» بقوله^(١):

ثم راحوا بعد العشاء إلى داري فلم يتركوا سوى الحيطان
كان لي مفرش وكلّ مليح فوقه مطرح من الميسان
وبساط من أحسن البسط مذخور لعرس أو دعوة أو ختان
غرّقوه بالبصق والقيء والبول فأضحى قدره بسفرتان

وصف جام (جاط) قطايف:

قال ظافر الحداد يصف جام قطايف^(٢):

جام حوى في الظرف كلّ باب مستملح منه ومستطاب
فالحسن فيه واضح الأسباب منقطع الأشكال والأضراب
يُعجزُ في الوصف ذوي الألباب مع التغالي فيه والإطناب
له غشاء صيغ من إهاب حُرّ بالأيدي وبالآلباب

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ٧.

(٢)

حتى أتى في غاية الصواب ليس بذى ميل ولا اضطراب
قطائف لطائف رواب لم تُخش بل صُفَّت على اصطحاب
في المسك والفسق والجُلاب كأنها السنة الأحباب
في الشكل والنكهة والرُضاب ملمسها كوجنة الكعاب
وطعمها كلذة العتاب من بعد صدُّ طال واجتناب
تنزل في الحلق بلا حجاب فهي طعام وهي كالشراب

وصف القطائف:

قال ابن قلاقس يصف أكلة قطائف ويتشوق إلى أكلها^(١):

أحسن من وصف ديار الطائف ومن خليط سار في مَنَائِفِ
ومن كئيب للطيور عائف مرأى بديع هذه القطائفِ
كأنها في عين كلِّ واصف قد صُورَت من أبيض المناشفِ
وحُشيت حشو خبير عارف وجادها عارض حلو واكفِ
أحلى من الأمان عند الخائف قد قُدِّمَت لسادة غطارفِ
لولاك يا مُخَيِّ فؤادي التالفِ ضيَعْتُ فيها تالدي وطارقِ

وصف صدر كنافه:

وقال ظافر الحداد الإسكندراني يصف صدر كنافه^(٢):

وحاذق محكم كنافته لا تشبع العين منه بالنظر
كأنما بسطه العجين على إكراه لما حُفَّت بمستعر

(١) ديوان ابن قلاقس، ص ٤٧٣.

(٢) ديوان ظافر الحداد الإسكندراني، ص ١٣٢.

كأنه يفتح الفواقع داراتٍ على راكبين من الغُدُر
فهي كمثّل السراب يُغدّم منها اللّمس وهما يلوح للبصر

وصف أكلة ملوخية:

وقال الشاعر الإسكندراني ظافر الحداد يصف الملوخية^(١):

أياسيّدي وأخي لا تُغِبْ فعندي لك اليوم ما يُستَحَبْ
ملوخيةٌ سبقت وقتها وجاءت كهيئة خضر الزغب
وقد نُقّيت قبل تقطيعها بكفيّ لبّيب خبير دُرْب
وقد أحكمت بفراخ الحمام ودهن الدجاج وصفّر الكُباب
إلى أن تحرّرت كيبُها كما حرّّر الصير في الذهب
وكمّلها النضج حتى غدث فليس لعيب إليها سبب

أجبان والبان:

مرّ الأمير تميم يوماً في الأرياف فشاهد بائعة جبنة وبناتها
حولها يساعدها في توضيب قوالب الجبنة فوصفهن بقوله:
وزولة مقربة مُسِنَّة ريفيّة تقذف بالجُبْنَة
في قالب أسفله مِشْنَة ثم بدت بيضاء مطمئنة
كالبدر لما لاح في الدجْنَة أعذب من ريق حبيب هُنة
وقال يصف مائدة عُبّئت بالفواكه على أشكالها:

ومجلس قد حاز من حسنه مثل الذي حاز من المجد
يضحك للفتح نارنجه ويغمز النرجس للورد

(١) ديوان ظافر الحداد، ابن الإسكندرية، م.س. ص ٦١

والبس الأترج ما بينها صفرة من عُذْب بالصد
وانتصب الليمون من حلوه مثل انتصاب النهْد للنهد
ومن الأترج الليمون أبو صرة، الكبير الحجم.

وصف أكلة سمك بدون حسك:

هناك نوع من السمك النهري يطلق عليه أهل مصر اسم سمك
الراي وهو شبه سمك البوري، ولكن الاسم غير معروف في بر
الشام.

يقول ظافر الحداد يصف طيبة مذاق هذا النوع من السمك^(١):

أياسيد أنال أعلى الرُتْب وحاز الكمال بأوفى سَبَب
أمالك في الراي رأي فإن له صفة أوجبت أن يُحَبَّ
تربى مع النيل حتى ربا وصار من الشحم ضخماً خَدَبُ
ولا جس للعظم في جسمه فليس على الضرس منه تعب
يزوب كما ذاب شحم الكلى إذا الجمر قاربته أو قُرُبُ
يروقك نيئاً وفي قلبه فتُبصر من حالته العَجَبُ
ويصف لون رأسه الفضي وذنبه الذهبي وطرواة لحمه التي
شابهت القطن في بياضه:

كان اللجين الذي قد علا وذاك النضار الذي في الذنب
لفائف قطن لطاف وقد تبدى بأطرافهن الذهب
فيا حسنه وهو بين الشباك وقد ظل متشبكاً يضطرب

(١) ديوان ابن قلاؤس، ص ٤٧٣.

ووصف أترجة:

مشبهاً إياها بأنثى خجولة:

أترجة مادبها غصنها وجادها الطلُّ فأبقاها
كانما زارت محباً لها فالتف خوف الباه ساقاها

وقال في وصف تفاحة:

ومذكرة ريح الحبيب بريحها وحاكية خديه لي باحمرارها
تجاور لونها الخضرا وحمرة فيا عجباً من مائها قرب نارها

وقال يصف خوخة:

ولسمالاح لي نشر ذكي من الخوخ المشبه بالخدود
ذكرت به ثناياها ولكن ثناياها لها فضل المزيّد

العروس فراشة والعريس سراج يحرقها:

عندما تزوج الإمام الحافظ السلفي، صديق ابن قلاّس، وصف
العرس وهنّاه بقوله^(١):

في وصف العروس:

قد حكمت في قلبه من لحظها بالسحر سيفاً حده لا يُتقى
يُثنّي أعنة صبره لما انثنت أعطافها كالخوط أملد مورقا
ويشوقه ظلم الثنايا مُشبعاً راحاً جرّت ما بين دُرّ مُنتقى
أبت الوصال فقلت هلا في الكرى فحمت جفوني طيفها أن يُطرَقا
طيب النعيم الوصل بعد قطيعة والهجر بعد الوصل من أوفى الشقا

(١) ديوان ابن قلاّس، ص ٤٨٤.

والحُبَّ تألفه النفوسُ وحتفُها فيه وإن لم تلف منه الأوفقا
مثل الفراشة والسراج يروقا نوراً ويدعوها إليه لتحرقا
والحسن للعشاق مثل السيف يقتل من يكابره ويعجب رونقا
ويهنته بقوله:

إهنا بخير قرينة ميمونة قد سربلت برد المفاخر والتقى
كان الزمان لها بفضلك واعدأ فوفى وأعطاك المراد الأوفقا
شمس حواها الغرب قبلك مغرباً جعل الإله لها محلك مشرقا
سَعْدُ قرانكما بأيمن طائر لا خوف من نكد عليه يُتَّقَى
لك بالرفاه وبالبنين تفاؤلاً طاب الهناء وقد جلا متذوقا

وصف عريس وعروس:

وكان الخليفة العاضد اقتنن بابنة وزيره الأول الملك الصالح
طلائع بن رزّيك، فوصف الفقيه عمارة اليمني العروس والعريس
بقصيدة جاء فيها:

هي درّة لم يرض عالي قدرها بحرأسوى كنف الامام العاضد
وقنيصة لولا الخلافة لم تكن أبداً لتعلق في حبال الصائد
ولو قال الفقيه عمارة هذا البيت في كنف دولة غير الدولة
الفاطمية لعلّق على المشائق. وقد قال أقله بل لم يقل، وشنقه
صلاح الدين الأيوبي على جذع نخلة. فعمارة وضع ابنة طلائع بن
رزّيك فوق الخلافة والإمامة، ولولاهما لما قبلت بالعاضد زوجاً.
ويصفها أيضاً:

جاءتك من جنس الضراغم لبوة تحمي بأشبال الهزبر اللأبد

ضربت بنور زيك حول خبائها سداً أقيم من القناب قواعد
ويصف العريس: الخليفة العاضد بقوله:

يُهنئ بني رُزيك أن حبالهم وُصلت بخير أو اصر و محامد
سببٌ يمت إلى البتول وعروة عُقدت بأوثق عروة ومعاهد
صاهرت من لا يزال رواقه المحروس قبلة راكم أو ساجد
فزتم بأبلج من سلالة حيدر ورث الإمامة راشد عن راشد
قوم إذا جُحد الفخار فما ترى في الخافقين لفخرهم من جاحد
ويصف عقد النكاح بقوله:

عقد غدا صلة لغير قطيعة لكن كما اتصل الذراع بساعد
عقد تنزه أن يكون تمامه بحضور قاص أو شهادة شاهد
وصف الكمثرى:

وقال الشاعر ظافر الحداد يصف الكمثرى^(١):

لله وافر كُثْرَى ذُكرت به ما كنت أعهد في أيامي الأول
لم أدنه لفمي إلا وأوهمه من النهود لذيذ العضّ بالقُبَلِ
قد ذقت من طعمه ما كاد يبلغ بي ما ذقت من رشف محبوب على وَجَلِ
يحكى قوارير ماء الورد خالطه فيها من الزعفران المسك بالعسل
لو كنت أملك حكم الأرض ما حَمَلْتُ نبتاً سواه على سهل ولا جبل

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ٢٤٥.

وصف التمر والبلح الزغلولي:

قال ظافر الحداد يصف أكلة تمر هنيئة^(١):

يامن صفالي ظاهراً ونياً	ومن يدي بوّده غنيّ
فدتك نفسي واقد المنيّ	هَلُمَّ عندي تحفة سنيّ
واكلةً طيّبةً هنيّ	بنثُ نخيل حلوةً جنيّ
أحلى من الفرصة بالأمنية	بالغ فيها النضج وهي نيّ
لا تتعب الخرس ولا الثنيّ	كأنها تُسْتَفُّ في الصينيّ
ياقوتة حمراء معدنيّ	في طعمها وزيّها مسكيّ

وقال في وصف البلح الأحمر:

انظر إلى البسر إذ تبدّى ولونه قد حكى الشقيقا
كأنما خوصه عليه زبرجد مثمر عقيقا

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

وصف التين:

وقال ظافر الحداد يصف التين^(٢): (الصّبير)

جاء بلوز أخضر	أصغر ملء اليد
كأنما زئبره	نبت عذار الأمسرد
كأنما قلبه	من توأم ومفرد
جواهر لكّنا	الأصدف من زبرجد

وقال يصف زهر الكباد (الأترج):

(١) م. س. ص ٢٢٠.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ص ٣٦٩.

كِبَادَةٌ لَاحَ بِهَا زَهْرُ عَجِيبِ الْخُلُقِ
كَأَنَّهُ لِمَا بَدَا فِي شَكْلِهِ الْمَنْمُقِ
بِيضُ الْقَبَاطِي أَوْ دَعَتْ أَنْصَافُ قَشْرِ الْفَسَقِ
مَنْوُطَةٌ أَجْوَافُهُ بِشَعْرِ شَيْبٍ يَقْقِ

هَجَاءُ صَاحِبِ حَمَامٍ قَذَرٍ:

وقام الناجي المصري وهو أحد شعراء القاهرة بهجاء صاحب حمام ووصف حمامه القذر^(١):

حَمَامُنَا هَذَا أَشَدُّ ضَرُورَةً مِمَّنْ يُحَلُّ بِهِ إِلَى حَمَامِ
تَبْيِضُ أَبْدَانُ الْوَرَى فِي غَيْرِهِ وَيَعِيرُنَا هَذَا ثِيَابَ سَخَامِ
قَدْ كُنْتُ مِنْ سَامٍ، وَحِينَ دَخَلْتُهُ لَشِقَاءٍ حَظِي رَدَّنِي مِنْ حَامِ
وَقَدْ ذَكَرْتُ كُتُبَ التَّارِيخِ أَنَّ جَوْهَرًا الصَّقْلِيَّ لَمَّا بَنَى الْقَاهِرَةَ بَنَى
فِيهَا الْفَأْ وَمِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ حَمَامًا مُلَكَّا لِقُصُورِ الْخِلَافَةِ، إِضَافَةً إِلَى
مَطَاحِنِ الْمِلْحِ وَمَعَامِلِ الصَّابُونِ وَمَعَاصِرِ قَصَبِ السُّكَّرِ، وَكُلِّهَا مَلَكَ
لِلْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ.

قال الشاعر ظافر الحداد يصف حماماً قذراً^(٢):

وَحَمَامٌ إِذَا مَا كُنْتُ فِيهِ فَبَادِرٌ بِالْمَذْبَةِ وَالْكَسَاءِ
فَهَذَا لِلْبَعُوضِ إِذَا تَغْنَى وَذَاكَ يَقِيكَ عَادِيَةِ الشِّتَاءِ
وَكُنْ مُسْتَصْحَبًا حَظْبًا وَقَدْرًا لَكِي تَهْتَمُ فِي تَسْخِينِ مَاءِ

(١) خريدة القصر. قسم شعراء المغرب، الجزء الثاني، ص ١٠٣.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ص ٢.

ولا تتكشَّفُ بها حذارٍ من النِّزلات عن برد الهوا
ولو أُنِّي دعوت على عدوي بأصعب ما يكون من الدعاء
لكانت هذه الحمَّام أقصى نهاية ما اقترحت من البلاء
وتركها ظافر الحداد وانتقل إلى حمَّام آخر ولكنها أتت أسوأ من
السابقة:

حمَّامنا هذه حمَّامٌ وإنَّما صُحِّفَ الكلامُ
أقلَّ أو صافها ثلاث البرد والنتن والظلام
وبين جدرانها شقوقٌ يكمن في جوفها الهوام
وللببراغيث في نواحي بيوتها عسكرٌ لهم
كأنَّما سقَّفها مِدادٌ يقطر من دونه السخام
والماء فيه أقلُّ شيء يدرك بالجهد أو يرام
ويبدو أنَّ النظافة كانت من الأشياء المهمَّة في حياة الإنسان
المصري، وذلك دليل رقيّه، وقطعه أشواطاً في مجال التقدم
الحضاري، فلا عجب من أن تضمَّ القاهرة وحدها دون مصر القديمة
(القسطاط)، ألف ومائتين وثمانين حمَّاماً للدولة، عدا حمَّامات القطاع
الخاص، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون الفرنجة، لا يغتسلون
ولا يعرفون الحمَّام، فهم تعرَّفوا عليه عندما أتوا إلى الشرق
الإسلامي.

وكما هجا الشعراء المصريون الحمَّامات القذرة، مدحوا الحمَّامات
النظيفة، ذات الخدمة الممتازة.

وصف حمام نظيف:

قال ظافر الحداد يصف حماماً نظيفاً^(١):

لله حمام كروض أنيق رافقني فيه رفيق رقيق
صفالي العيش بها مثلما صفا قلبي ودُّ ذاك الصديق
أحرها الوقاد حتى غدا من أجلها للروح مثل الشقيق
فالماء فيها كحياة جرت بها العوافي والصبافي العروق
تحت بخار عطر مثلما شبت بماء الورد مسكاً فتيق
خُصت بألوان الرخام الذي له بها كل طراز دقيق
وقال أيضاً يصف حمام أعجبه معتبراً إياه حكمة من حكم الله في
الأنام:

يارعى الله مبدع الحمام فلقد فاق حكمة في الأنام
روضة العين لذة العقل والحسن جلاء القلوب والأجسام
لو تَوَقَّى امرؤ بشيء من الموت لكانت أخرى بدفع الحمام
ففي الحمام نظافة الأجسام والقلوب وتؤدي هذه النظافة إلى دفع
الموت وتأجيله.

وصف رجل أبخر:

وقال القاضي الجليس مشبهاً الرجل الأبخر بالرجل الذي يخرب
من فمه^(٢):

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٢٢٣.

(٢) ديوان طلائع بن رزيك، الملك الصالح، ط ١، العراق، النجف الأشرف، المكتبة الأهلية،
سنة ١٩٦٤، ص ٢٧.

فقلت وقد سألت بلا احتشام لأنك دائماً من فيك خاري

وصف أبخر الطرفين:

وقال ظافر الحداد يصف رجلاً أبخر يخرج الريح من فيه ومن
دبره^(١):

فسأعلى القوم فقالوا له: إن لم تقم من بيننا قمنا
فقال: لا عدت، فقالوا له من نتن فيه: ذاكما كنا
وقال يصفه أيضاً:

وذي بَخْرٍ كَحَّ في فسوة وكان من الناس في محفل
فقالوا له: كفَّ عنا أذاك ولأَتَنَحَّ إلى معزل
فلما تكلم قالوا له: أعدنا إلى حالنا الأول
وهذا الشعر يدل على رقة وشفافية الإنسان المصري في الحقبة
الفاطمية. وصور هؤلاء الناس، هي صور إنسانية موجودة في كل
مكان وزمان.

وصف رجل ثقل الدم:

وقال ظافر الحداد يصف رجلاً ثقل الدم^(٢):

وثقل في القلب والعين والسمع فكلُّ من أجله في عذاب
قربه مثل فرقة النفس والأحباب والعزُّ والغنى والشباب
لو سألت الأنام عن كلِّ ما تكره لم تلف غيره في الجواب

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٣١٦.

(٢) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٥٣.

وهودون الكلاب قدراً ولو أنصفت نرّهت عنه ذكر الكلاب

وصف أعرج:

قال الشاعر الإسكندراني يصف رجلاً أعرج:

وأعرج عرج عن عشريني فكدت أن أثلف من أجله
قصر عن وصلي كما قصرت حوادث الأيام من رجله

حلاق ماهر وحلاق أخرق:

لم يدع الشعراء المصريون نمط عيش أو صورة إنسانية في
مصر الفاطمية إلا ووصفوها. والحضارة هي نمط عيش وطريقة
حياة. قال ظافر الحداد يصف حلاقاً ماهراً:

مزين قد تناهى في صناعته إلى لطافة معني فاقت الحكماء
خفت مواقع موساه فلو خلقت في كفه شعر جسم الخد ما علما
كأنما هي نور في أنامله يومي فيجلوبها عن هامنا الظلما
ويشير هذا الشعر إلى أن حلاقة الوجه واللحية كانت «موضة»
دارجة أيام مصر الفاطمية. وليس من الضروري ترك اللحية.

وقال يهجو مسعود الحلاق الفاشل في صنعته^(١):

لا أسعد الله مسعوداً فصنعته كوجهه كل قبح فيه مجتصر
لا يخلق الرأس إلا مرة وبها تغنيه عن عودة ما مدّه العمر
لأن الطف لمس من أنامله سلخ وهل بعد سلخ ينبت الشعر
فلو نوى خلق رأس في صفائره بفطنة كاد منه المنح ينتشر

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٢٢.

بيت أقرف من السجن:

قال ظافر الحداد يصف بيت صديق معوز^(١):

بيت كصدري ورزقي	ضيقت كخلقني وخلقي
ملأته مع قُزال	دمعي وسقمي وديقي
فالتز عضو بعضو	منّي وعرق بعرق
حتى لقد كاد فيه	كعبي يصفح فرقي
فما يطيق لساني	يدور في وسط شدي
ولو تجشّأت فيه	لمات جاوز خلقي

وصف سجين:

قال الفقيه عمارة على لسان صديق له سجنه السلطان شاور:

هذي مناجاة عبد رُق حاسده	من البلاء الذي أمسى يكابده
لا يطرق النوم أجفاناً لمقلته	ومقلة الموت من قرب تراصده
لا يُقرع الباب إلا قلت قارعة	وزارع العمر مهما شاء حاصده
ليلي من الهم ليل لا صباح له	كانني فيه أعمى ضلّ قائده
أردد الظن في يأس وفي طمع	قد ضجّ هابطه مني وصاعده
محفوفة منك إشفاقاً يباعده	وظنّه منك بالإحسان واعدّه
أما الرجاء فقد جهزت مركبه	وفداً إلى ملك ما خاب وافده
وما أقيم لنفسي حسن مقدرة	أنا المسيء الذي ضلّت مقاصده
بعدت عنكم، وكانت زلة خطأ	فما غفرو ذلك ذنب لا أعاوده
إنّي شقيت فهل من فضل عاطفة	عليّ تسعد جدّي أو تساعده

(١) م.س. ص ٢٢٤.

لستَ الجليد على ما قد بليتُ به فارحم، فلو كنت صخراً أذاب جامدُه

وصف السجن:

عندما كان القاضي المهذب بن الزبير مسجوناً في سجن
المعتقلين السياسيين، «خزانة البنود»، أرسل للكامل بن شاور هذه
الآبيات يصف فيها السجن فقال^(١):

أيا صاحبي سجن الخزانة خلياً نسيم الصبا يرسل إلى كبدي نفحا
وقولا لضيء الصبح هل أنت عائدٌ إلى نظري أم لا أرى بعدها صباحا
ولا تئاسنُ من رحمة الله أن أرى سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا
وهذا الشعور هو شعور كل مسجون، فمن ذاق السجن لا يصدق
أنه سيرى ضوء الصبح من جديد، وتصبح نسمة الهواء العليل
مؤشراً لكل حرية وأمل.

وقال في سجنه أيضاً: *مركز تقيت كويت بر طوطى رسوى*

أيا صاحبي سجن الخزانة خلياً من الصبح ما يبدو سناء لناظري
فوالله ما أدري أطرفي ساهراً على طول هذا الليل أم غير ساهر
ومالي من أشكو إليه إذا كما سوى ملك الدنيا شجاع بن شاور

وصف سجن خزانة البنود:

ذكرت أكثر كتب التاريخ أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي
اعتقل الشاعر أبي الحسن التهامي وسجنه في سجن خزانة البنود،

(١)

وقد طال سجنه، حتى يقال أن الشاعر لم يخرج من سجنه إلا بعد وفاة الخليفة الحاكم.

وفي إحدى قصائده التي نظمها في سجن الخزانة وصف السجن ووصف الخزانة بقوله^(١):

طرقت خيالاً بعد طول صدودها وفرت إليك السجن ليلة عيدها
في ليلة ليلاء ألزم فضلها بيض الليالي أن تدين لسودها
مستوطناً دار البنود وقلبه للرب يخفق مثل خفق بنودها
دار تحطّ بها المنون شباكها فتروح والمنجاب حلّ صيودها
فتعثرت بعري الأدهم فالتقى جرسان جرس حليها وحديدتها
قيدٌ وسلسلةٌ وأدهم مُصمّت محن الكرام عظيمة كعقودها
ما صَحَّ من تَلَفِ الحياة ضجيعها لكنّ الأح وصَحَّ من تنكيدتها
والقصيدة بالأصل نظمها في مدح الشريف الزيدي معتمد الدين، يتوسّطه مع الخليفة الحاكم بأمر الله لإطلاق سراحه من سجن الخزانة: وقد خاطب الشريف الزيدي بقوله:

حاشا من اعتمدت عليه دولة من أن يضيق بفكّ بعض عبيدها
ويلجّ عليه بالتعجيل في فكّه من الأسر:

إن المآثر كالخضاب نصولها عَجَلُ إذا لم تسع في تجديدها
يا ابن الأئمة من قريش دعوة نظمت دعاويها بسلك شهودها
إن كان أولاد الوصي كواكباً فاعلم بأنك أنت سعد سعودها

(١) ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق علي نجيب عطوي، ط ١، بيروت، دار الهلال، سنة ١٩٨٧، ص ١٠٨.

وقال يتوسَّل إلى ربِّه وهو مقيدٌ مصفدٌ في سجن الخزانة^(١):

توسَّل إليه إذا الليل جَنَّ فيمادهاك من كشفه
يريحك من سجن دار البنود ويكفيك ما أنت مستكفيه
من القيد والغل في أدهم أليم عذابك من عنفه
يفكُّ وثاقك من أسرها وراحة قلبك من لهفه
وأما بشرب حياض المنون فقد سلم العيش من خسفه
ويصف السبب الذي أوصله إلى السجن فيقول:

أهذا التهامي من مكَّة برجليه يسعى إلى حتفه
ألم يكفه أن ثوب الحياة ضاق عليه ألم يكفه
أراد يطيرُ مطار الملوك وظنَّ الأسنة من زُقه
وأحسب سيف بنت البني يخذلُ خديَّه من عُرفه
أرى ملك الموت يدنو إليه وهو يعضُّ على كفه
أبالشعر ويحك تبغي العلى وأنت تقصِّر عن رصفه
ولم تك أهلك بأن تستقرَّ على منبر الملك أو طرفه
ويتابع مستغفراً ربَّه:

إلى الله أشكو وأمرأ جرت على غير قصد واستعفه
وكم قائل سجنوه على تطلبه الملك من كهفه
أيطلب الملك من ليس منه ولا من بنييه ولا من صنفه
ولم تشر كُتب التاريخ سوى إلى سجنه، دون أن تشير إلى

(١) ديوان التهامي، تحقيق علي نجيب عطوي، ط ١، بيروت، دار الهلال، سنة ١٩٨٧، ص ٤٣٠.

الجنائية التي ارتكبتها بحق الدولة الفاطمية. وبالتأكيد أن الجرم سياسي، ولو كان خيانة أو سرقة، لكان الخليفة الحاكم قتله مع من قتل من كبار الموظفين والقواد والولاة والوزراء.

وهذه القصيدة ترشح ببعض الأمور التي أدت إلى سجنه. وتشير إلى أن السبب هو لسانه وشعره. وربما يكون إما قد مدح العباسيين أو هجا الخليفة الحاكم. والأرجح مدح العباسيين. وإلا لو كان هجا الحاكم والدولة الفاطمية، لكان تلقفها المؤرخون بنهم.

والتهامي هو صاحب المراثية المشهورة بولده التي جاء فيها:
حكم المنيّة في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار
بينما يرى الإنسان فينا مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار
يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسفار

التجار يبيعون الشاعر عمارة داراً آيلة للسقوط:

عندما احترق بيت الشاعر عمارة اليمنى اشترى بيتاً غيرها، وهي بيت سعد الافتخاري، ولما بدأ عمارة بترميمها، اكتشف أنها آيلة للسقوط وأنه وقع في عملية نصب منظّمة من قبل سعد الافتخاري، «فدب طربوشه» على آل رزيك يستنجد بهم، فأعطوه مبلغاً لكنه لم يكفه لترميم الدار.

فكتب إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك يقول^(١):

ياسيداً وصافه دَرَجُ المديح إلى الفخار

(١) النكت العصرية، م.س. ص ١٠٨.

اسمع فديتك قصتي متفضلاً وأقل عثاري
هي قصة نتفت سبال الشعر بل سلبت شعاري
لا استجيز حديثها إلا بحكم الإضطرار
أوقعت نفسي جاهلاً في دار سعد الافتخار
وغلطت فيها غلطة أذرت بقدري واقتداري
ويبدو أن التاجر الذي باعه بيت سعد الافتخاري يدعى الظهير
حيث وصفه بقوله:

ضرب الظهير بذي الفقار منى الفقار بذي الفقار
وظننت شرح بليتي فيها يؤول إلى اختصار
ويقول إن العمارة لا «تليق إلا للأغنياء».

وإذا العمارة لا تليق بغير أرباب اليسار
ولفقر عمارة باع أثمن كتبه:
وكفأك شراً أنني بعث الموطأ والبخاري
ولكن ماذا جنى من بيع مكتبته وكتبه:

لم أدري أنني عندها كم بخرف في الفخاري
فهو بعد اكتشاف عيوب الدار أسقط بيده ولم تعد كتبه ومكتبته
تكفيان لإعادة ترميمها، لذلك استنجد بذوي اليسار والأغنياء أمثال
الملك الصالح طلائع بن رزيك:

لما كشفت عيوبها أكلت بعد الانتشار
دارهممت بتركها ولو أنها دار القرار
وعلى نداءك معونتي فيها فقد وقفت حماري

وكان بين الفقيه عمارة وطرخان أحد كتبة الدواوين في الدولة الفاطمية، عداوة ومناكفة، وكان طرخان يحرض آل رزيك على الشاعر والشاعر يردّ عليه بالهجاء. وشاءت الظروف السياسية أن يقتل طرخان، فوصف الشاعر عمارة مقتله بقوله:

أراد علو منزلة وقدر ف أصبح فوق جذع وهو عالي
ومدّ على صليب الجذع فيه يميناً لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الغواية والضلال
وهذه الأبيات التي وصف بها عمارة طرخان تنطبق عليه شخصياً أو كأنه وصف نفسه حين علّقه الأيوبيون على جذع نخلة.

وصف الوزارة:

قال الفقيه عمارة يصف وزارة ضرغام:

هم الزمان بها فمئذ كفلتها أضحي يوالي نصرها ويوالي
وكان الذي يتولى الوزارة عند الفاطميين يعتبر كفيلاً للخلافة
والمسلمين ويتابع شؤونها ويعمل على نصرتها ويصبح من أنصارها.

لو دامت لغيرك لم تصل إليك:

ومرّ الملك الصالح طلائع بن رزيك أمام باب دار الوزارة فنظر إليها شزراً ومقتاً وكانّ به إحساس بأنه سيقتل من أجلها فخاطبها بقوله^(١):

يا قلب كم هذا الغرور خدع المني كذب وزور

(١) ديوان الملك الصالح طلائع بن رزيك، ص ٧٦.

أَوْ مَا تَرَى الْأَمَالَ يَفْضَحُ طُولُهَا الْعُمْرَ الْقَصِيرَ
وَبِمِثْلٍ مَا صَرْنَا إِلَيْهِ الْآنَ يَغْتَبِرُ الْبَصِيرَ
لَوْ دَامَ مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الْمُلُوكِ لِنَايَصِيرَ
انْظُرْ لِهَذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حَلَّ سَاحَتِهَا وَزِيرَ
وَلَكُمْ تَبَخُّتٌ رَأْمُنَا بَيْنَ الصَّفُوفِ بِهَا أَمِيرَ
زَهَبٌ وَافِلَا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرَ
حَتَّى وَلَا أَضْحَتْ تَرَى بَيْنَ الْقُبُورِ لَهُمْ قَبِيرَ
مَا اسْتَيْقِظُوا مِنْ غَفْلَةٍ إِلَّا وَأَرْؤُسُهُمْ تَطِيرُ
وَلَحُومُهُمْ مَمْضُوعَةٌ وَمَنْ الْوَرَى أَيْضاً نَسُورُ
فَاصْبِرْ فَلَا حَزْنَ عَلَيَّ الدُّنْيَا يَدُومُ وَلَا سُرُورُ
لَا تُكْزَنْ مَا قَدْ جَرَى فِي عَصْرِنَا فَكْذَا الْعُصُورُ
كَلَّا وَلَا تَجْزَعْ لَرَيْبِ زَمَانِنَا فَكْذَا الدَّهْورُ
وَكَانَ يَمْلِكُ إِحْسَاساً أَنَّهُ سَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ
فِي كَرْبَلَاءَ مِنْ ذَبْحٍ وَقَتْلٍ وَتَشْرِيدِ أَهْلِ، فَتَابِعْ قَصِيدَتَهُ مِثْلًا
بِالْحُسَيْنِ (ع):

هَذَا الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَاءَ ثَوَى وَلَيْسَ لَهُ نَصِيرُ

وَيَقُولُ عِمَارَةُ الْيَمْنِيِّ فِي الْوِزَارَةِ أَيْضاً:

يَا صَاحِبِي وَفِي السُّؤَالِ مَا اسْتَخْبِرْتَ عَنْهُ إِنْ أُجِيبَ سُّؤَالِي
هَلْ لِلْوِزَارَةِ حَاجَةٌ أَوْ حُجَّةٌ تَرْجُو تَمَمَّ بَعْضِهَا بِكَمَالِ

وَيَصِفُ الْوَزِيرُ ضَرْغَامَ وَمَوْقِعَهُ مِنَ الْوِزَارَةِ فَيَتَابِعُ قَائِلًا:

هَذَا الَّذِي مَا زَالَ طَرَفُكَ دَائِمًا يَرْنُو إِلَيْهِ فِي الزَّمَانِ الْخَالِي

هذا الذي عضلوك عنه لتخرجي من عِزَّة حرم ومن إجلال
 وأحق من وزر الخلافة، من مشى في حضرة الإعظام والإجلال
 واختص بالخلفاء وانكشفت له أسرارها بقرائن الأحوال
 وتصرف الوزراء عن آرائه كتصرف الأسماء بالأفعال
 ولم تطل وزارة ضرغام فقتل بعد تسعة أشهر وشاهد عمارة
 رأسه مذبوحاً بالسيف فقال:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يجرب حذَّه صيد الرقاب
 كأنك رائد البلوى وإلا بشير بالمنية والمصاب
 وحنك الوزارة هو رتبة الاستاذية الموصلة حتماً للوزارة فأغلب
 الوزراء بدأوا عملهم السياسي كأستاذين محنكين ثم ترقوا لمنصب
 الوزارة.

وقال في وصف الصلاحيات والمهام المطلوبة من الوزير:
 رعى حرم الخلافة منه طرف طريف عنده خبر المنام
 وحاط سوامها من كل خطب فيا لله من راعي سوام
 وباشر عند نصرتها المنايا مباشرة اصطلاء واصطلام
 وناط وراءها بعري وفاء تُصان عن انفعال وانفصام
 ويتوجّه للخليفة العاضد يؤكد له حسن ظنه بالوزير فيقول:

جعلت زمام أمرك في يديه فرد عليك تدبير الزمام
 وأسندت الأمور إلى عظيم يكشف غمة الكرب العظام
 فاصلح فاسد الأيام حتى أعاد قطوبهن إلى ابتسام
 وأيد ملكه بأبي شجاع وذلك من تمام الاهتمام
 فأسفروجه ملك عاضدي يشار به إلى عضد الإمام

وفي قصيدة ثانية يحدّد مهمات الوزارة ويشبها بشركة تأمين،
تكفل الخلافة من كل طارئ:

علقت مقاليد الكفالة منهم	بمؤيد الآراء والإلهام
ذخر الأئمة والمؤهل مذنشا	لكفالة الخلفاء والحكام
يبدي الكواكب في المواكب كلّما	مدت على الإصباح ليل قتام
بذوابل وصوارم من شأنها	نظم الطلى أبدأ ونثر الهام
ويحاط شمل الملك منه بصولة	عنه إذا اشتدّ الوطيس الحامي
قل للخلافة: لا خلاف وقد غدا	عنها الكفيل أبو شجاع يحامي
فلقد أعزّ مرام بيعتك التي	أضحى يناضل دونها ويرامي
وكفأك أمر النائبات بعزيمة	خزمت أنوف عداك بالإرغام
قطعت رجاء الخارجين عليكم	وصحابها من سكرة الأحلام
حتى أتتك به السعادة راكباً	متن الصباح وصهوة الإظلام

وصف قوة المال والسلطة عندما تجتمعان في يد الوزير:

قال عمارة اليمني يمدح الناصر بن الملك الصالح طلائع بن
رزيك ويصف قوة المال والسلطة إذا اجتمعا في يد الوزير، وكيف
يحولان التراب إلى ذهب والنار إلى رماد^(١):

دانت لأمرك طاعة الأقدار	وتواضعت لك عزّة الأقدار
وملكت ناصية الزمان وأهله	فجرى بما تهوى القضاء الجاري
فأصرف وصرف من تشاء من الوري	بأعنة الإيراد والإصدار
وامدد يدك «أبا الشجاع» مثوبة	وعقوبة: بالسيف والدينار

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الأول، ص ٤٦٥.

ويبدأ بشرح ما يفعله السيف والدينار فيقول:

فهما ذريعة عزّة وكرامة وهما ذريعة ذلّة وصغار
النائبان عن المنيّة والمنى في قسمة الأرزاق والأعمار
والمصلحان فساد كل طويّة مرتابة بالعرف والإنكار
والقائمان إذا تطاول ناكث بحراسة الأوطان والأوطار
والرافعان غداة كل كريهة خطر الملوك على القنا الخطار
والموقدان لهم بكل ثنيّة نار العلى في رأس كل منار
وبالرغم من كل تمنحه سلطة المال والسيف فأبو شجاع ابن
رزّيك على حاله:

ولقد جمعت «أبا الشجاع» إليهما خفض الجناح ورفعته المقدار

وصف سقوط بغداد بأيدي المستنصر بالله الفاطمي:

كانت القاهرة وبغداد منذ قيام الخلافة الفاطمية بمصر على
طرفي نقيض، يحاول كل منهما إلغاء الآخر، واستطاع المصريون
السيطرة على بغداد لسنة واحدة فقط وذلك سنة ٤٤٩هـ، على يد
الحارث ابن البساسيري ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، لأسباب
وتداخلات طائفية ودينية وعشائرية وعرقية، أشرنا إليها في مكانها.
وقد كان لهذا الحدث أثر معنوي كبير على الفاطميين
والمصريين، ولو استطاعوا المحافظة عليه لاستطاعوا تغيير وجه
تاريخ الشرق العربي والإسلامي بأكمله، ونقلوه من إسلام ابن تيمية
المقنّن والمحنّط، إلى إسلام الحسن بن الصباح الثوري.
وصف الشاعر عبد الباقي التنوخي سقوط بغداد بأيدي

المصريين ويمدح الخليفة المستنصر الفاطمي وبقوله:

وانت الذي نطق الكتاب وبشرت بقدومك العلماء والأخبار
تمحى برؤياك الذنوب كأنما رؤياك عند المذنب استغفار
هذا الإمام معداً أفضل كل من ولدت معداً قبله ونزار
سائل بني العباس عنه فعندهم خبر الذي هو عندنا استخبار
لما طغى فرعونهم لبثت به أن حاط منك به قوي ودمار
لم يكف أن دُكت أسرة ملكه حتى حواه بعد ذاك اسار
من يعتقد في من سواك إمامة فإمامه خزي له وشنار
وقال ابن حيوس يصف سيطرة المصريين على بغداد وإزالة
الخلافة العباسية مادحاً مدبر هذا الأمر الوزير أبي محمد
اليازوري^(١):

ليهنك ما أنالتك الجدود وإن الدهر يفعل ما يريد
وأمرّ قمت فيه بلا ظهير وأهل الأرض من فشل قعود
ويعتبر الشاعر دخول الفاطميين إلى بغداد كانتصار الهاشميين
المسلمين الجدد على الأمويين المشركين يوم بدر:

ولولا كونه مع يوم بدر لقلنا إنه اليوم الوحيد
لقد طاح الرجاء بطغلبك وكم أمل إلى أجل يقود
ويعرض بالقائم بأمر الله العباسي فيقول:

عجبت لمدعي الآفاق ملكاً وغايته ببغداد الركود
يصول على رعاياه اعتداءً ويحجم كل ما صل الحديد

(١) ديوان ابن حيوس، الجزء الأول، م.س. ص ١٨٥.

ومن مستخلف بالموت راضٍ يُذاد عن الحياض ولا يذود
 له حَرَمٌ هنالك لم يحرم به إلا السلامة والهجود
 ويشير إلى سيطرة المصريين الفاطميين على كل العالم الإسلامي:
 وأعجب منهما سيفٌ بمصرٍ تقام له بسنجان الحدود
 وقد سمع «الظُّبى» فيهم تغنّي ولم تُغنِ الموائق والعهود
 وغرّ الفير أن الدين واه هناك وأن ناصره بعيد
 ففاتهم بعزمك ما أرادوا وآل بهم إلى ما لم يريدوا
 ويصف الجيوش المصرية المنتصرة بقوله:

ومن جيش يعود العود فتحاً ومن جيش يمرّ فلا يعود
 رميتهم بكل سليل غاب يعيش بفرسه ضبع وسيد
 ونكبت الجبال بهم جبال ضوامر لا تجفّ لها البود
 إذا قدمت فما يدجو ظلام وإن ضجّت فما ينجو طريد
 وحلّ الموصل المنصور يُثني بسطوته ونخوته الوفود
 وسوف تضاف بغداد إليها كما انضافت إلى عدن زبيد
 لك الفتح المبين بكل وجه قعدت وللعدي الحتف المبيد
 ولما ولي أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة العاضد أوجب
 الأقباط النصارى على لبس الزنار وشده قوياً على أوساطهم مما
 يؤدي أحياناً إلى كشف العورة من كثرة الشدّ، فكاتبه المهذب بن
 الخطير أسعد بن مماتي شعراً يصف حالة النصراني وهو شاد
 الزنار على وسطه فقال^(١):

(١) المخطوط المقرئ، الجزء الثانية، ص ١٦٠.

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شداً أو ساطناً فما الذي أوجب كشف القفا

وصف بخيل:

وقال أبو علي صالح بن رشدين يصف بخيلاً^(١):

لي سيّد إن شمتته حاجة أطلع فيها مائتي حُجّة
لو أنّ لي من قلبه موضعاً ما كان أكلي عنده عِجّة
وقال ابن أحمد الخزرجي في وصف بخل أهل الإسكندرية^(٢):

نزّيل إسكندرية ليس يقرى بغير الماء أو نعت السوراي
ويتحف حين يكرم بالهواء الملائم والإشارة للمنار
وذكر البحر والأمواج فيه ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز فما فيها لذاك الحرف قاري
وصف عمارة اليمنى بخل نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح
الدين وملق المنافقين والمتلونين فقال:

ياده رقد أكثر بالتلوين فالى متى بمطالبي تلويني
خُذْل النصير على الزمان وصرفه وجفا مُعِينِي حين جَفَّ مَعِينِي
حسبي إذا خُذْلَ الزمان وأهله عوناً على الدنيا بنجم الدين
كم كنت أصبوفكره بغرائبني فسمعت منه غرائباً تصببني
ملك إذا قابلت بشر جبينه فارقته والبشر فوق جبينني
وإذا نظمت له النجوم فلئماً أجزى على المفروض بالمسنون

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ٩٨.

(٢) الخطط المقرّية، الجزء الأول، ص ١٦٢.

أي أنه لا يأخذ رواتبه المفروضة فرضاً من الدولة الفاطمية لأن
الأيوبيين أوقفوا رواتبه وحلت السنة محل الفرض والواجب في
التعامل معه وينهي القصيدة بقوله:
أما الوعود فقد أتاني وصلها وأريد وصل نجازها يأتيني
أي: أن الوعود وعود ولا إنجاز لها.

بينما عندما يصف يد الملك الصالح طلائع بن رزيك يقول:
وراحة لم تزل تهمني ندى وردى مثل الغمامة فيها الماء والذهب
خضارم تنزل الأرزاق إن نزلوا أرضاً وتركبها الأجال إن ركبوا
وقال أيضاً:

ولا غزونا أياديه بمسألة إلا سلبناه ما يقنى القنا السلب
تنهل نعمته طوراً ونقمته من راحة شأنها الإعطاء والعطب

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

وصف الفقر:

لم يعرف المصريون الفقر أيام الدولة الفاطمية، فلم نقرأ خبراً
عن متسول أو متسولين في القاهرة ومصر، حيث كان الأغنياء
يسابقون الأمراء وقصور الخلافة على فتح بيوتهم للضيف والطارئ
ولكل الناس أقباطاً ومسلمين سواء بسواء ولكن إذا أقدم شاعر
وصور فقره فمن باب حث الممدوح على مضاعفة العطاء ليس أكثر.

وصف سعيد بن يحيى الكاتب حاله فقال^(١):

عبدك النظام قد أصبح لا يملك شيئاً

(١) خريدة القصر، قسم شعراء مصر، الجزء الثاني، صفحة ١١١.

غير ثوب وقميص قد كواه الدهر كيا
إبر السرفاء فيه أبدأ تسقح هيا
كلما سُدَّ نجم طلعت فيه الثريا
ليس لي ثوب سواه قد طواه الفقر طيا
وقال أبو المكارم هبة الله بن الوزير في وصف فقره^(١):

قلم الفصاحة في يدي لكنني قد خانني درج الخطوط المَلصقُ
ومن العجائب أن نفسي وسعت في همّتي ومجال رزقي ضيق
عار على الأيام خيبة شاعر من حظه وهو المجيد المفلق
أنفاسه متفتّح أنوارها لكن على الأرزاق باب مغلق
كثرت محاسنه وقل نظيره ونضاره فهو الغني المملق

كثرة الأولاد: مصيبة وجناية:

ووصف ابن أبي حصينة حالة أولاده الأربعة عشر، طالباً
المساعدة بسبب كثرتهم فقال^(٢):

أبا صالح أشكو إليك نوائباً عرتني كما يشكو النبات إلى القطر
لتنظر نحوي نظرة إن نظرتها إلى الصخر فجرت العيون من الصخر
وفي الدار خلفي صبيّة قد تركتهم يطلون إطلال الفِراخ من الوكر
ولا يكتفي باعتبار كثرة أولاده نائبة من النوائب بل جناية جناها
بيده على روحه:

جنيت على روعي بروحي جنايةً فأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري

(١) م.س. نفسه. ص ١٥٢.

(٢) ديوان الشاعر ابن أبي حصينة، م.س. ص ٣٥١.

صحيح أن الأولاد خرجوا من ظهره ولكنهم بدل أن يخف هذا
الظهر بسبب ما خرج منه، أثقل.

وأما عدد الأولاد فهم ضعف عدد نجوم الثريا السبعة:
عداد الثريا مثل نصف عدادهم وَمَنْ نَسَلُهُ ضَعْف الثريا من يشري
وأخشى الليالي الغادات عليهم لَأَنَّ الليالي غير مأمونة الغدر

وصف خادمه: «أم كدومة»

اشترى الفقيه عمارة خادمة بستين ديناراً فأرسل إلى الملك
الصالح طلائع بن رُزَيْك يمازحه ويطلبه بمساعدة مالية ليدفع ثمن
الخادمة فقال:

يا ملكاً ساحة أبوابه باللثم والتعفير مخدومه
قد اشترى الخادم مملوكة مليحة الصورة معدومه
ذات فم مطعمه ببارد واست على الأيام محمومه
مُزانة بالطبع مصاصنة لكنها ليست بكادومه
قيمتها ستون لكنني أعوزني الثلث من القيمة

وصف الشيب:

وقال ظافر الحداد يصف الشيب وينصح بتركه^(١):

يا من يغطى شيبه بمحال تزويد الخضاب
ويظن أن الناس عن إدراك ذلك في حجاب
إن كان فقدان الشباب من المصائب الصعاب

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٤.

فزوال عقلك بالجنون اشد من غُذم الشيباب

وقال أيضاً يغالط من يصبغ شيبته:

وغاضب غالط عن شيبه كائما دل على عيبه

لو كان أبقاه على حاله ما ألجأ الناس إلى ريبه

قد رام أن يخفى ومن خُلفه أدلة تعرب عن غيبه

والشيب كالسيل إذا ما طما لم تدر ما يمنع من شيبه

وقال الوزير أبو القاسم بن المغربي في وصف الشيب^(١):

عجبت هند من تسرع شيبتي قلت هذا عقبى فطام السرور

عوضتني يد الثلاثين من مسك عذاري رشاً من الكافور

كان لي في انتظار شيبتي حساب غالطتني فيه صروف الدهور

وصف قلب الإنسان وتقلباته:

وقال الشاعر عمارة يصف قلب الإنسان:

هل القلب إلا مضغة تتقلب له خاطر يرضى مراراً ويغضب

أم النفس إلا وهدة مطمئنة تفيض ثغاب الهم منها وتنضب

فلا تلزم الناس غير طباعهم فتتعب من طول العتاب ويتعبوا

فإنك إن كشفتهم ربما انجلى رمادهم عن جمرة تتقلب

فتاركهم ما شاركوك فإنهم إلى الشر مذ كانوا من الخير أقرب

ولا تغتر منهم بحسن بشاشة فأكثر إيماض البوارق خلّب

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٥٠٧.

وصف المعاملات والرشوة في الدوائر الحكومية:

ووصف أبو بكر الطرطوشي طريقة تسهيل أمر المعاملات في الدوائر الحكومية^(١):

إذا كنت في حاجة مرسلًا وانت بإنجازها مُعزِمُ
فارسل بأكمه جلابية به صَمَمٌ أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى رسول يقال له الدرهم
وقد نسب مؤرخو الجبل العاملي هذه الأبيات إلى الشاعر، البهاء العاملي.

وصف ضيف ثقیل الدم:

وقال ابن دحية في وصف جليس ثقیل الدم^(٢):

لي جليسٌ عجبت كيف استطاعت هذه الأرض والجبال ثقله
أنا أرعاه مكرهاً وبقلبي منه ما يفلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرأه ولكن أصونه وأجله

وصف قاضي:

وقال عبدالله بن الحسين الجعفري يمدح محمد بن النعمان ويصف وظيفة القاضي الناجح^(٣):

تعدلت القضاة معاً فأما أبو عبد الإله فلا عدیل

(١) نفح الطيب، الجزء الثاني، ص ٨٦.

(٢) نفح الطيب، المجلد الثاني، م.س. ص ١٠٨.

(٣) كتاب المقفى الكبير، أحمد بن علي المقرئ، ط ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٨٧، ص ٣٦٥.

وحيدٌ في فضائله غريب خطيرٌ في مفاخره جليل
تألق بهجة ومضى اعتزاماً كما يتألق السيف الصقيل
ويقضي والسداد له حليفٌ ويعطي والغمام له رسيل
لو اختبرت قضاياه لقالوا يؤيده علينا جبرائيل
إذا رقي المنابر فهو قسٌ وإن حضر المشاهد فالخليل
أي قسٌ بن ساعدة في الخطابة والخليل بن أحمد الفراهيدي في
علوم اللغة.

وصف الحالة بعد شرب الدواء:

كانت الصيدليات منتشرة في الدولة الفاطمية، تحت اسم العشاب
والصيدلاني، فالصيدلي كان يطلق عليه اسم العشاب، وكانت الدولة
تعتمد دار الشراب مستودعاً رئيسياً للأدوية وكانت توزع الأدوية
على الناس بالمجان.

قال الأمير تميم يصف العزيز بعد أن شرب دواءً منشطاً:

إنّ ذا اليوم إذ شربت دواءً فيه يومٌ من أفضل الأيام
في اعتدال من الهواء رطيب من زمان صافٍ كصفو المدام
في أوّان قد أينع الورد فيه بافترار من نوره وابتسام

وصف ملاح:

وقال الأمير تميم يصف ملاحاً يجذّف بالنيل:

تعلّقته ظالمًا غير ساهي تناهى به الحسنُ كلّ التناهي
وتفعل الحاظه في القلوب فإعمال مجازيفه في المياه

يطلب استعارة كتاب: وطلب الأمير تميم من أحد أصحابه أن يعيره كتاب القيان والمغنين (الأغاني) فقال:

عند أهل العلوم والآداب تبتغي كتبُ جواهر الآداب
فتفضل يا من حوى قصبات السبق في كل جيئة وذهاب
بكتاب القيان أني إليه ذو غليل ولوعة واكتئاب
مستعيراً له لأنسخ ما فيه فيغدو مستودعاً في كتابي
ثم يأتيك بعد ذاك سريعاً ولك الشكر وهو خير ثواب

وصف القرافة:

لم يترك الشعراء المصريون شيئاً إلا ووصفوه حتى المقابر ووصفوها: قال تميم بن المعز في وصفها:
إذا كنت مصطفياً مربعاً فخص القرافة بالإصطفاء
منازل معمورة بالعفاف مخصصة بالتقى والبهاء
ويُنْبَه فيها النيام الأذان إذا مرّق الليل سيف الضياء
فمن ذا كرر به خشية ومن مستهل بطول الدعاء
ولا خيرة في حياة امرئ إذا لم يخف فصل يوم القضاء

وصف أعور:

قال الفقيه عمارة اليماني يصف أعور ديوثاً:

يا أعور العين قل لي ويا أشل البنان
لعل قرئك عنا يرد شر القران
لأنه قرن تيسٍ مُبطّن باتان

وصف رجل كثير النسيان:

آفة النسيان هي نوع من بداية الشيخوخة والخرف وقد وصفها ظافر الحداد عند صديقه أبي عامر بقوله^(١):

أفرط نسيان أبي عامر وزاد حتى جاوز الأبلها
حتى إذا حدثته لفظاً ينساك في ساعته قبلها
حدثه بالأسرار مسترسلاً وأبثته محظوراتها كلها
ولا تخف نقلاً فنسيانه في وقته يمنعه نقلها
لو غاب عن منزله ساعة ما عرف الدار ولا أهلها
ولا بنيه ولا عرسه ولا متى كان بها بعلمها

وقد وصف النسيان بأبي عامر أنه:

إذا تشهد أبدى «لا إله» ولا يتمها ثم ينسى بعد «إلهو»
وكأنه كان يصف في أبي عامر نفسه فهو كان يسعى لأن يكتب
ما يطلب منه على ورقة (طرس) ثم يضعها في جيبه ليتذكرها ولكنه
بدأ ينسى الورقة في جيبه وينسى أنه ينسى:

أفرط نسياني إلى غاية لم يُبق في النسيان لي جنسا
فصرت مهما عرضت حاجةً أعنى بها أو دعيتها طرسا
حتى إذا عاودت طالعتها زكرت العين بها النفسا
فصرت أنسى الطرس في راحتي وصرت أنسى أنني أنسى

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٢٥.

وصف منزل قبيح:

وقال ابن مكنسة يصف قبح منزله وضيقه^(١):

لي بيت كأنه بيتُ شعير	لابن حجاج من قصيدٍ سخيـف
ضايقتني بناتُ وردان حتى	أنافيه كفارة في كنيـف
أين للعنكبوت بيتٌ ضعفُ	مثله وهو مثلُ عقلي الضعيف
وإذا هبَّ فيه ريحُ السروايلِ فسَلَّمُ	على السلحى والأنوف
بُقعةٌ صدُّ مَطْلَعِ الشمس عنها	فأنا مُذْ سَكَنْتُهَا في الكسوف
وهو لو كان بين حجِّي ونُسْكِ	صدُّ في بغضه عن التَّطويف
أنت وسَّعتَ بيتَ مالي فوسَّع	منزلي فهو منزلٌ للضيوف
وأجرني من الضنا وأجرني منك	على حسن خُلقك المألوف

وصف غرفة ضيقة:

وكان ظافر الحداد قد اضطر أن يبني عند أحد أصحابه فأنزله في غرفة ضيقة، فوصفها بقوله^(٢):

ألا أعاد الله لي لي بحجرة	وقفت بها حتى الصباح على ساقٍ
وللبق فيها والبراغيث خلطةٌ	كبزر قطونا ذر في حب سَمَاقٍ
إذا ما عرَّانين البعوض تجاوبت	لنا وقَّعوا بالرقص إيقاع حُذَّاقٍ
وقد أنضجت جسمي لهم نار حرَّها	ولكنه نُضِجٌ تناهى لإحراقٍ
فبِتُّ كأنِّي من حرارة نهشها	سليم الأفاعي دون راق وترياقٍ

(١) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ٢١.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ص ٢٢٧.

وما عجبني أن كدت أفتي بأكلها بل عجبني أن كيف قد سلم الباقي
إلى أن تبدى الصُّبْحُ بعد تباعد فداركت من نفسي بقيّة أرماعي
فبادرت نحو الباب أطلب ملجأ فسبحان من أحيأَ وَمَنْ بإطلاق

وصف كانون الفحم:

وقال ظافر الحداد يصف الفحم الملهب داخل الكانون^(١):

إذا ما جيوش القُرْجاءت فرُم لها كميناً بأضعاف اللباس المحدد
ولا تبعد الكانون عنك فإنّه لا منعها درعاً وأمضى مُهَنَّد
فما البرد إلا الليث يلقي بعزمه جيوشاً ويخشى قرب أصغر موقد

وقال أيضاً:

كانَ جيوش الفحم من فوق جمره وقد جُمعا فاستحسن الضدُّ بالضدَّ
غدائر خود فرقتها وقد بدت على خفر من تحتها حمرة الخدَّ
فلما تنامى صبغه خلت أنه فصوص عقيق أو جنى زهرة الورد
إلى أن حكى بعد الخمود رمادها غباراً من الكافور في قطع الندَّ

وقال ظافر أيضاً يصف الفحم في الكانون:

انظر إلى الفحم في الكانون حين بدا سواده فوق مُخْمَرٍ من اللَّهَبِ
تخال ما لاح من حسن اجتماعهما لمحاً من البرق في جون من السحب
أو عِمَّة من حدادٍ لم تَعْم ولم تستر قلنسوة حمرا من الذهبِ

(١) م.س. نفسه، ص ٩٠.

وصف مدرسة:

أقدم الملك الصالح طلائع بن رزيك على بناء مدرسة في ثغر الإسكندرية وعيّن فيها الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني محاضراً ومشرفاً فمدحهما ابن قلاقس ووصف المدرسة بقوله^(١):

وشيّدت بالإسكندرية بُنيّةً بها أصبح الثغر المبارك معلماً
حُبوتٌ بها فخر الأئمة فاغتدى بجمعهما شمل المعالي مُلأماً
بتدريسه فيها الدروس أساس ما يقيمونه الكفار أضحي مُهدّماً
به وبهالم يترك الله كافراً إلى أن غدا فضلاً من الله مُسلماً
والظاهر أنها كانت جامعة وليست مدرسة لأن دروسها تبحث
في «أساس ما يقيمونه الكفار». أي أنها جامعة أعدت لدراسة العقائد
والاديان والفلسفات.

وفي قصيدة ثانية يمدح الملك الصالح ويتحدّث عن المدرسة ولا
ندري أكانت هي نفسها أم مدرسة ثانية فيقول:

ولثغر الإسكندرية منه في العلى لا غيره أثارُ
شاد للعلم فيه مدرسا للثغر منها جنح الدجى أنوار
ورأى الحافظ الإمام المُرجى لو ذعياً من دونه الأحبار
فحباه بها يدرّس فيها لا افتخار إلا كذا الافتخار

(١) ديوان ابن قلاقس، م.س. ص ٢٩٨.

التهنئة بظهور براءة الصديق «أبو العز» وخروجه من السجن:

كان لعمارة اليمني صديق يدعى مرتفع الطهر «أبو العز». ولكثرة الدسائس والوشايات التي سادت دوائر الدولة الفاطمية في أواخرها، ألقى مرتفع في السجن، ثم ظهرت براءته فوصف عمارة حاله في السجن وهنأه بقوله:

من استعان بغير الله لم يُعَنِّ	ومن تعرَّز بالرحمن لم يُهَنِّ
وأروحُ الناس من باتت سريرته	نقية من دخیل الحقد والضغن
حاسب ضميرك تأمن من بوائقه	وازجره من خطرات العين والأذن
وقم إذا رنقت من مقلّة سنّة	قيام منتبه من غفلة الوسن
مستشفعاً برسول الله وابنته	وبعلها والحسين الطهر والحسن
ولا يغرّنك عمرٌ سراً أوله	فإن آخره لسلهم والحزن
ينساك بالموت من قد كنت تذكره	حتى كأنك قبل الموت لم تكن
وينثنني عنك بعد الدفن كلُّ أخ	ويدخل العملُ المبرور في الكفن
واعلم فديتك أن الصدق أفضل ما	ألزمت نفسك في سرٍّ وفي علي
هذا أبو العزّ لولا صدق نيّته	في القول والفعل لم يخلص من المحن
وأظهر الله فيها من براءته	ما لم يجُلّ قط في الأوهام والظنن
ما ضرّه أن صرف الدهر عانده	وأن أيامه خانت ولم يخُن

وصف العود:

قال علي بن عبد الرحمن بن يونس المنجم صاحب الزيج
الحاكمي يصف صوت مغنية متمازجاً مع صوت عودها^(١):

غَنَّتْ وَأَخَفَتْ صَوْتَهَا فِي عَوْدِهَا فَكَأَنَّمَا الصَّوْتَانِ صَوْتُ الْعَوْدِ
غِيدَاءُ تَأْمُرُ عَوْدَهَا فَيَطِيعُهَا أَبَدًا فَيَتَّبِعُهَا اتِّبَاعُ وَدُودِ
أَنْدَى مِنَ النَّوَارِ صَبْحاً صَوْتُهَا وَأَرْقٌ مِنْ نَشْرِ الثَّنَا الْمَعْهُودِ
فَكَأَنَّمَا الصَّوْتَانِ حِينَ تَمَازَجَا مَاءَ الْغَمَامَةِ وَابْنَةَ الْعَنْقُودِ

وقال الأمير تميم في وصف العود:

لِسَانُ الْعَوْدِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِي وَحَسَنُ بَيَانِهِ فَوْقَ الْبَيَانِ
إِذَا شَدَّتْ مِثَالُثُهُ الْمَلَاوِي وَجَاوَبَتْ الْبُثُومُ بِهِ الْمِثْلَانِي
وَدَارَتْ أَكْوُسُ الصَّهْبَاءِ صَرْفًا وَخُرَّكَتِ الْغَوَانِي لِلْأَغَانِي
فِيَا لَكَ مِنْ مَنَادِمَةٍ وَقَصْفٍ تَزُولُ بِهَا مَلَمَاتُ الزَّمَانِ
وَالْمَلَاوِي وَالْبِمِ وَالْمِثْلَانِي، هِيَ أَسْمَاءُ لَأَوْتَارِ الْعَوْدِ.

وقال أيضاً في وصفه:

لَقَدْ نَطَقَ الْعَوْدُ عَنْ سِرِّهِ فَغَادَرَ كُلَّ صَبِيحٍ كَثِيبِ
فَشَبَّهَتْ مِيلَ مَعَاصِيرِهِ إِذَا مِلْنَا بَعْدَ اسْتَوَاءِ وَطِيبِ
بَوَاجِهِ حَبِيبٌ بِدَا ضَا حَكَأ فَعَنَّ لَهُ لِحْظُ عَيْنِ الرَّقِيبِ
فَلَمَّا اسْتَوَى نَطَقَ أَوْتَارُهُ حَكَى نَقْرَهَا حَسَنَ لَفْظِ الْحَبِيبِ
تَجَسَّسَ الْأَنَامِلُ دَسْئَانَهُ كَمَا جَسَّ عِرْقَ الْعَلِيلِ الطَّبِيبِ
فِي سَمْعِنَا حَرَكَاتِ السَّرُورِ وَيَكْشِفُ عَنَّا بَنَاتِ الْكُرُوبِ

(١) عيون الاخبار وفنون الآثار السبع السادس، م.س. ص ٣٠٠.

والدستان جمع دساتين، موضع رباط الوتر بالخشب حيث
يرخى ويشد الوتر من خلاله وتلفظها العامة: دوزان.

وصف جوقة تلحين كنسية:

كانت الألحان الكنسية منتشرة في صفوف الشعب المصري
مسلمين ومسيحيين ككل الأصقاع العربية التي تتجاور فيها
الطائفتان: الإسلامية والمسيحية. فترتيل القرآن مظهر حضاري عربي
إسلامي وكذلك تطريب الألحان الكنسية مظهر حضاري عربي
مسيحي، والألحان الكنسية محفوظة عن ظهر قلب في قرانا
الإسلامية المسيحية في جبل عامل، لدى كل الأطفال والأولاد من كلا
الطائفتين فالفكر الإسلامي الشيعي الإمامي مرتبط بالحرية، والحرية
مظهر من مظاهر الحضارات الراقية والمتقدمة في ركب الإنسانية،
كحضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي.

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

وصف جوقة كنسية:

قال الشاعر المصري ابن الخياط يصف احتفالاً كنسياً^(١):

وترى البَيْعَةَ فيها القِسُّ شُبُهَ المستَكِينِ
ذا خضوع وخشوع وبكاء ورنين
وتماثيل تقابلن برفقٍ يستبيني
بارزات يتمايلن على الرقص المديني
وَجَوَارٍ يتجاوبن بأصناف اللحن
فهي للأنفس لذاتٌ وسحرٌ للعيون

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ١١٤.

لك في ذاك وهذا عمل ليس بدون
 أعجز الناس جميعاً بين مصري وصيني
 فثرينا منه نفس الشجو في حال المجون
 وترى حين تراه الشك في معنى اليقين
 وقال ابن قلاقس يصف أحد المغنيين بقواف مكررة الحروف،
 كأنها أعدت لتغنى^(١):

لا أشربُ الراح إلا ما بين شاد وشادن
 وإن فزيتُ فعندي إلى مَعَادِ مَعَادِنِ
 قم يا نديمي فأنصت والليلُ داج لداجنِ
 غنّني وناح فنزغ ثُ ثوبَ خاشٍ مُخَاشِنِ
 طالع على القصف والعز في كل حاسٍ مُحَاسِنِ
 وانهض بطيشك عن شمس بيت ذى وقارٍ وقَارِنِ
 هات الكميّة وأهلاً منها بصافٍ وصافِنِ
 أثور من ذى ومن ذا في كل غابٍ وغابِنِ
 وإن رمتني الليالي يوماً أبداً أبداً

وله في هجاء عازف:

تعبت وما أتيت لنا بشيء فكيف تكون ساعة تستريحُ
 فلا تكثر علينا في مُحالٍ بزمرِكَ، صَحَّ أن الزمرَ ريحُ
 وله فيه أيضاً:

ينافر إيقاعه صوتهُ فهذا يزيدُ وذات ينقصُ
 ويتبعه زامرٌ مثله تبيعُ له نفسٌ أو قصُ

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ١٦١.

فإن قام ما بيننا راقصاً فكل إلى بيتي يرقص
وقال علي بن حبيب الراني يصف عوادة^(١):

وكان الفتاة في شدوها العذب خطيبٌ والعود من أوثان
جعلت كل مُخبت ثاني العطف وقد آمنت لحسن المثنائي^(٢)
جسها العود جس أس عليلاً عند زم البنان للدستان^(٣)
ركبته على طبائعها الأربع حذقاً وأعجزت في الأغاني
قهقهت حين دغدغته سروراً وابتهاجاً لدى الكؤوس القناني
تتناهى زيادة حين تشدو بعد إحسانها إلى إحسان
وقال ابن قلاقس يوائم بين ارتفاع سلافة الخمرة وارتفاع نبرة
صوت العود:

يتقاضى النديم محتبس الكأس ويشدو عليه قبل التقاضي
فهي والزيز تارة في ارتفاع وهو والبم تارة في انخفاض
وقال أبو الفتح بن قادوس يصف جارية سوداء^(٤):

وعاذل محتفل مجتهد في غزلي
يلومني في ظبية مخلوقة من كحل
إن السواد علّة من نور هذي المقل
والحجر الأسود لم يخلق لغير القبل
والقمار مذكّان وعاء السلسبيل السلسل

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٥٢.

(٢) المخبت: وتر العود.

(٣) الدستان: مفتاح شد الأوتار وترخيتها.

(٤) خريدة القصر، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ٢٢٢.

أهمية الأمن والأمان في مصر الفاطمية

قال القاضي محمد بن النعمان بن حيون يصف أهمية الأمن والأمان في الحياة المصرية^(١):

تأمل بذى الدنيا تراها مشوبةً
سروراً بحزن في تقلب أحوال
وقد قُسمت أشتاؤها بين أهلها
فمال بلا أمن وأمن بلا مال

وصف رجل أكل:

قال ابن هاني يصف رجل أكل^(٢):

أنظر إليه وفي التحريك تسكين
ياليت شعري إذا أومى إلى فمه
كأنها وخبيث الزاد يُضرمُها
تباكر الله ما أمضى أسنَّته
كان بيت سلاح فيه مختزناً
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوي في يده
لف الجراء بأيديها وأرجلها
وغادر البط من مثنى وواحدة
كأنما اختطفتهن الشواهي

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٢.

(٢) ديوان ابن هاني الأندلسي، ط ١، بيروت، دار الجيل، سنة ١٩٩٦، ص ٤٦٢.

يخفّض الوزّ من رأس إلى قدم وللبلّاعيم تطريب وتلحين
كان في فكّه أيتام أرملة أوباكيات عليهنّ التباين
نصحتكم فخذوا من شذقه وزراً أولاً فأنتم سويق فيه مطحون
فليس ترويه أمواه الفرات ولا يقوته فلك نوح وهو مشحون

إذا عدنا إلى كل الكتاب والمؤلفين الذين ألفوا الكتب ودَبّجوا
المقالات عن حضارة شعب من الشعوب، أي شعب، نجد أنهم وصفوا
طريقة حياتهم اليومية، من فرح وحزن، وأكل وشرب، ونحت ورسم
وتصوير ووصفوا، المعامل والمصانع، ووصفوا الإنتاج الفني بكل
مظاهره ومناحيه.

وشعراء مصر الفاطمية لم يتركوا شيئاً صغيراً كان أم كبيراً
من الدورة الحياتية اليومية وحركة المجتمع الاقتصادية والمعيشية
والفكرية والسياسية والعسكرية إلا ووصفوها بشعرهم ونثرهم.

وجاءت قصائدهم لوحات وصوراً ناطقة بالصوت والصورة
بكلمات منتقاة منتخبة، يستطيع من خلالها القارئ أن يرى المستوى
الحضاري المتقدم، والرفاهية الفائقة، ونمط العيش الرائق والمترف
الذي كانت تعيشه مصر في ظل نظام الحكم الإسلامي الشيعي
الإمامي، والذي ذهب بذهابه من مصر ولم يعد، الغنى، الترف، الدعة،
الحرية الدينية، الإبداع، التآلق، الإسلام الأصيل العروبة، وحلّ محله:
الفقر، شظف العيش، القلق على المصير، الطائفية المقيتة، عقم الفكر،
التفوق، الإسلام الكردي والمملوكي والتركي الجاهل للغة والقرآن
والحديث النبوي الشريف.

وقد استمرّت السحابة الكردية المملوكية التركية من سنة
٥٦٧هـ / ١١٧١م / حتى سنة / ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م / حين أقدم
البطل جمال عبد الناصر على طرد هذه السحابة من سماء مصر
والامة العربية وإلى الأبد. وحلّ محلّ حكم هؤلاء الجهلة، حكم أبناء
مصر الضاربين عمقاً في التاريخ والعروبة والحضارة، مسلمين
ونصارى.



شعر الحرب أو الشعر العسكري في أدب مصر الفاطمية

كان لموقع مصر الجغرافي، وسطاً بين الشرق والغرب، ووسط
الامة العربية والإسلامية، أهمية بشرية وعسكرية وسياسية، جعلت
منها ومن الشعب المصري الموقع الصدامي الاول في كل الحروب
التي خاضتها الامة العربية والإسلامية ضد أعدائها من بيزنطيين
وصليبيين وتتار، عبر تاريخها المفعم بالبطولات.

وسنرى أن الحقبة التي ظلل فيها الإسلام الشيعي الإمامي أرض
مصر وشعبها، كانت من أصعب حقبات التاريخ الإسلامي، لذلك كان
لمصر ولشعبها وحكامها من خلفاء بني فاطمة، دور مهم في تحديد
مسار الأحداث السياسية والعسكرية المتلاحقة. وكان شعراؤهم
الصدى والصوت والصورة الحقيقية المعبرة عن هذه الأحداث.

قال جعفر بن منصور اليماني يصف معارك الخليفة القائم مع
مخلد بن كيداد الخارجي ويمدح الخليفة في نفس الوقت^(١):

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الخامس، ص ٢٢٩.

ألا يا أمين الله يا عالي اليد
 ويا خير من ألفت إليه قيادها
 هنيئاً لك التوفيق في كل حالة
 ولا زلت مسروراً بفتح مبيّن
 أراد النجا إذ فر فضل بن مخلد
 والفي المنايا شرعاً يقتنصنه
 حتمت على كل القبائل أخذه
 وطاشت به للحين شقوة جدّه
 تعرّض في أقصى النواحي ببغيه
 فعادت عيون المارقين غضيضة
 فثارت له بالمشرفية عصبية
 وقامت لسلطان الإمام وسعده
 فدارت رحي الموت المبيد سريّة
 فاضحى ابن دجال النفاق ورأسه
 يسير بها من قام في نصرة الهدى
 إلى باب خير الخلق للحمد عنده
 ففاض عليه من عطاياه زاهر
 ولم يزل المنصور بالله قادراً
 إذا قيل للطاغين في كل بلدة
 أطارهم من قال في كل موضع
 فامسوا معاً إما طريداً مزائلاً
 فها تلك أقطار الهدى وقراره
 ويا مصطفى آل النبي محمد
 أمور الوري من ذي مغيب ومشهد
 من الله والتأييد في كل مقصد
 مدى الدهر محبّوا بنصر مجدّد
 لينجو فما أنجاه طول التبعد
 رصدن له بالحتف في كل مرصد
 ومطلبه في كل خبت وفد فد
 إلى أجل وافاه من غير موعد
 يريد من الأيام ما لم تعود
 إلى مبرق بالترهات ومرعد
 مخافة ليث في المهالك مورد
 ونصر لمن والاه بالعزم مسعد
 على الناكث ابن المارق المتمرد
 على صعدة تهوي به كل فد فد
 بدار إلى باب النجاح المصمد
 ومن يكتسب فعلاً من الخير يحمد
 كذي لجب يطفو على الشط مزبد
 يبيد عداه بالقنا المتقصّد
 سينهض إسماعيل في اليوم أو غد
 وأقلقهم بالذعر من كل مقعد
 حذاراً وإلا طائعا لم يشرد
 مسددة فيها لهيئة أصيد

فيا خالق الدنيا وَلِيَّكَ قَائِمٌ
 أبو الطاهر الميمون أنت اصطفتيه
 فمهد له الدنيا بأن قد جعلته
 الأيا أمير المؤمنين لقد قضى
 ودم للهدى والمكرمات ممثلاً
 فدونك يا بن النبي محمد
 فَمِنْ وَأَفْضَلُ منعماً بقبولها
 وصلى عليك الله ما قال قائل
 بحقك فأنصره على كل مُعْتَدِي
 إماماً مُتِمَّاً عن رسولك أحمد
 إماماً شهيداً في العباد لمشهد
 لك الله حتماً بالعلی فاعلُ وازدد
 بعزاً على طول الزمان مخلص
 نتيجة ودُ خالص متجدد
 فمن يعط حظاً من قبلك يسعد
 وما خطت الأقلام في الطرس باليد

وبعد وقوع ابن كيداد في الأسر حمل على بعير وخلفه قردان،
 يصفعانه وينتفان لحيته، ووصف عملية تطويفه الشاعر محمد بن
 ناسك التونسي بقوله^(١):

ففاضت على غير مأملة وقد كثر الله أوزارها
 فأركب تمثاله بازلاً يريح المطي وأكوارها
 وزامل قردين فوق البعير كأسرى تفاوض أسرارها
 فما يرعيان له حرمة إذاما القرودرعت جارها
 وقد علما قبل أن يلقياه وخذ الاكف وأظفارها
 فيا هامة غادر أصحابها وقد هتك الصك أستارها
 وبالحية ذاك يلهوبها وهذا ينتفأ وبارها
 أتيت به خاسئاً حاسراً يزور السقري لا كما زارها

(١) م.س. نفسه، ص ٣٠٦.

وقال عبد الله بن أصبغ يصف معارك الإمام المنصور بالله مع
مخلد بن كيداد^(١):

ويوم بارض القيروان شهدته وقد ظلّ فيه الجوّ أغبراً قتما
وعاشت به الأبطال خوفاً وأخرست لموضع خطب يملأ السمع والفما
لذي معرك ضنك تضايق للردى فلا تسمع الأصوات إلا تغمغما
أزال رجالاً حوله عن صفوفهم ونكّب ذوا الإقدام فيها وأحجما
وقامت بأهواء اللعين مطامع فأقبل حثّاً كالظليم مصمّما
فلما دنى من حومة الليث في الوغى وبدر الدجى جاب الدجون متمّما
ترأت له تلك الجلالة فانثنى وهابك أن يدنو وأن يتقدّما
فسرت إليه مقدماً متدرّعا دروع يقين أن تصاب فتفصما
فولأك ظهراً وقُرتَه ذنوبه وأعجله مرآك أن يتلوّما
فمروكاد الخوف يضرّم قلبه وأنى لكلب أن يعارض ضيغما
فيا جمعة ما كان أعظم فضلها لك الله جل الله حيي وأنعما
وعدت إليه عودة هاشمية فبان عن الأنفال رغماً وأسلما
وعندما انهزم حباسة أمام المصريين كتب القائم بأمر الله
الفاطمي، ولي عهد الإمامة والخلافة إلى والده الخليفة المهدي بالله
يمدحه ويعده بالنصر^(٢):

أنا سيف الإله وابن رسول الله قطب الهدى وللناس قبله
وإذا ما الغمام أشجم جدواه يكون الإمام للناس مثله
يقصر القتل دون بغداد حتى يظهر الله بالعراقين عدله

(١) م.س. نفسه، ص ٢٤١.

(٢) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الخامس، ص ١٢٨.

يا إمام الهدى ومن طيّب الله له فرعه وطيّب أصله
تفخر الأرض حين تعلو ثراها ثم تغدو حزونها وهي سهله
يا ابن من أسدلت عليه ستور الوحي أثوابها ولم تكن مثله
بك ظلّ الفخار يفخر والجود والبستني من الفخر حله
ثم أنهضتني لمصر وشام وخراسان والعراقين جملة
فأنا سيفك الذي يفلق الهام بلاننبوة له إن تسألّه
يغرب الغرب والمشارق منه وتكلّ الجموع من أن تفلّه
كم مطيع قد كان طود عزّ لام لما عصاك بددت شمله
وكفور مناصب ذي عناد بك أرديته وأفنيت فله
وأناسهمك السريع إليهم مدرك للعدو من غير مهله
لا أرى هائباً لسهل ووعر ولجيش في حين القاه كلّه
فبحسن اليقين والحزم والعزم كثير العدو عندي أقلّه
فانتظري يا خليفة الله ما قد وعد الله فيك من قبل رسله
من فتوح تلقاك بالعزّ والنصر لدى النيل والفرات ودجله
وكتابي إليك من غاية البعد ووقت الرحيل أيمن رحله
ولما كان عيد الفطر، والقائم بأمر الله عليه السلام، مقيم
بالإسكندرية، خرج صلوات الله عليه فصلّى بالناس صلاة العيد في
السنة المذكورة، وخطب عليه السلام خطبة العيد بالإسكندرية فقال:
«بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر، الله أكبر، ولا إله إلا الله، والله أكبر،
الله أكبر، لا حكم إلا الله، ولا طاعة لمن عصى الله، إلا لعنة الله على
الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، ويقتلون
الذين يأمرون بالقسط من الناس.

الحمد لله الخلاق العليم، المدبر الحكيم، الذي له مقاليد السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، أينما كانوا أحاطت بهم قدرته وعلمه، ولا يحيطون بشيء من علمه. إلا بما شاء، عنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلماً، هو الأول قبل كل أوان، وزمان، ومكان، وغاية، ونهاية، وهو اللطيف الخبير الذي خلق السموات بغير عمد ترونها، فخلق مصابيحها، وأضاء شمسها، وأنار قمرها، والأرض بعد ذلك دحلهاء، وفجر ينابيعها، وأخرج منها مائها، ومرعاهاء، فسبحان الذي لا يدل عليه إلا بآياته، وما فطر من أرضه وسمواته، وبأن لخليقتهم من تدبيره، وتكامل رسله إلى الأمم كافة من عباده، إذ قال لهم: «فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى».

مركز تحقيقات الكويت للدراسات الإسلامية

وصف حملة حباسة بن يوسف الكتامي على مصر:

أول محاولة لفتح مصر كانت على يد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، فقد أرسل المهدي القائد حباسة بن يوسف الكتامي سنة ٣٠٢هـ، فوصل حباسة الإسكندرية ثم الجيزة ولكن الجيوش العباسية هزمته وقتلت رجاله، فعاد مهزوماً إلى تونس، فوصف الشاعر ابن مهران هزيمة الجيوش الفاطمية في مصر بقوله^(١):

(١) كتاب المعقّى الكبير، المقرئ، ط ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٨٧، ص ٤١.

وأي وقائع كانت بسقطِ الأبل بين مشتول وسفطِ
وقد وافى حباسةً في كُتَامِ بكلِّ مهتدٍ وبكلِّ خطي
وقد حشدوا المصرو ودون مصر له خرط القتاد وأيُّ خرطِ
وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز بجهله حدَّ التخطي
بكُتُبِ جماعة قد كاتبوه فمن أقباط مصر وغير قبط
وكلِّ كاتبوه ونافقونا وكلِّ في البلاد له موطي
ونفهم من هذا الشعر أن المصريين كاتبوا عبيد الله المهدي يطلبون
منه المجيء، وفي القصيدة إشارة واضحة لهذا الأمر فابن مهران يؤكد
«أن الكلَّ كاتبوه» وأن الكلَّ في البلاد المصرية «له موطي».

ويصف وصول الدعم الفاطمي بقيادة سليمان بن كافي، ورغم
هذا الدعم، وبالرغم من ميل الشعب المصري لأبناء فاطمة لم يستطع
عبيد الله المهدي فتح مصر. يقول ابن مهران:
ووافانا سليمان بن كافي يخطُّ الأرض في غير المخطِّ
وحفَّت بالأمير له رماةٌ من الأتراك ممن ليس يخطي
ولا سيما وعن قسني صلابٍ وفتيان تمادت بالتمطي
ويصف وصول العساكر العباسية بقيادة تكين والقاسم بن سيما
وإنزالهم الهزيمة بحباسة فيقول^(١):

فكم بالجسر من رأس وكفٍّ ومصلوب ومشدود بشُرطِ
ومرَّ لنا مع الإقبال يوم شفى ما في القلوب لكلِّ ملطِ^(٢)

(١) كتاب المقفى الكبير، المقرئزي، م.س. ص ٤٠.

(٢) الملط: المجهول النسب.

فقل لحباسة إن كنت عنّا مضيت فإن قتلك ليس يُبْطِي
بحول الله ذاك فصّدّقوني وهذي رقعتي لكم بخطّي
وقد صدق ظن ابن مهران لأن عبيد الله المهدي قتل حباسة فور
عودته لتخاذله وانسحابه من معركة الجيزة.

أما نافع بن محمد بن عمرو فيعتبر أنّ الحرب بين حزب الإسلام
(العباسيون) وحزب الكفر (الفاطميون) فيصف المعركة بقوله^(١):

الاشُّقَّ جيب الصبر وإن كنت موجعا ولا يُلْفٍ لاح فيك للعذل مطمعا
لِمَا دهم الإسلام من فجع حادث تهَمَّ له أركانه أن تضعضعا
لمصرع إخوان على الدين صُرْعوا لنصرة دين الله يالك مصرعا
فماتوا كراماً ما استضيّموا عِزَّةً يلاقون في الله الأسنة شُرْعاً
وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم فجاؤوا سراغاً حاسرين ودُرْعاً
فصادمهم في الناكثين فأَيَّدوا وكانوا حماة الدين أعلى وأمنعا
هذا رأيه بالجيش العباسية أما الجيش الفاطمية فقد وصفها
بقوله:

فولّوا بِخَرْي طَوْقته كتامةً وقد سقيت كأساً من الموت مُثْرَعاً
الوفَّ أباد القتلُ جَمَّ عديدهم فأمسوا طعاماً للكلاب ومرتعا
ترى القوم صرعى في الحلافي جوائثا كأعجاز نخل بالبقيع تبلقعا
وطيف بهام الفاسقين على القنا وبضّع من لحمااتهم ما تبضّعا
وكانت لحزب الكفر إذ ذاك عطفةً فَقُتِلَ من أشياعنا من تسرّعا
فصلّى على تلك النفوس مليكها وعوّضها أبقى ثوابٍ وأنفعا

وجرت محاولات أخرى لفتح مصر قام بها القائم بأمر الله وأبو الطاهر منصور، وكلّهما باءت بالفشل. إلى أن قدم جوهر الصقلي مصر ففتحها.

وصف فتح مصر من قبل جوهر الصقلي:

قال الشاعر ابن هاني يصف وضع مصر قبل دخول جوهر واستيلاء الخدم عليها بعد أن كانت دار إمارة^(١):

ثغر أضاع حريمه أربابه حتى أهين عزيزه واستضعفا
يصل الرنين إلى الرنين بحادث يربدُ منه البدر حتى يكسفا
مالي رأيت الدين قل نصيره بالمشرقين وذلّ حتى خُوفاً
هم صيروا خدماً تسوس أمورهم باللزمان السوء كيف تصرّفا
وهي صورة معكوسة لوجهة نظر شاعر العباسيين، فقدوم جوهر إلى مصر، سببه قلة نصرة دين الإسلام فيها. حيث يقول:

من كلّ مُسودّ الضمير قد انطوى للمسلمين على القلى وتلقفا
عُبدانُ عُبدانٍ وتُبّعُ تُبّعٍ فالفاضلُ المفضولُ والوجه القفا
ويذكر استعانة أهل مصر بالخليفة المعزّ لدين الله للحفاظ على الأمن والإسلام في مصر فيقول:

حتى استعان بأهل بيت حمّدي من لم يجد للذلّ عنكم مصرفاً
ويصف حالة مصر الأمنية والدينية فيقول:

يا ويلكم أفعالكم من صارخ إلا بثغر ضاع أو دين عفا

(١) ديوان ابن هاني الأندلسي، م.س. ص ٧٠.

فمدينة من بعد أخرى تُسْتَبَى وطريقة من بعد أخرى تقتفى
 حتى لقد رخصت ديار ربيعة وتزلزلت أرض العراق تخوفاً
 والشام قد أودى وأودى أهله إلا قليلاً والحجاز على شفا
 فعجبت من أن لا تميد الأرض من أقطارها وعجبت أن لا تخسفاً
 ويتجه للعرب والمسلمين مقدماً لهم الحل:

هذا المعز ابن النبي المصطفى سيدب عن حرم النبي المصطفى
 في صدر هذا العام لا يلوي على أحد تلفت خلفه وتوقفاً
 وأنا الضمين له بملك قيادكم طوعاً إذا الملك العنيف تعجرفاً
 فكأنني بالجيش قد ضاقت به أرض الحجاز وبالمواسم دلفاً
 ولما جهز الخليفة المعز الجيوش بقيادة جوهر الصقلي للذهاب
 إلى مصر ولإعادة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وصف ابن هاني
 هذا المشهد بقوله:

رأيت بعين فوق ما كنت أسمع وقدر أعني يوم من الحشر أروغ
 غداة كأن الأفق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
 فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
 واين؟ ومالي بين ذا الجمع مسلك ولا لجوادي في البسيطة موضع
 وبعد أن وصف التجمعات والحشود، وأثرها في النفوس وصف
 الألوية والعساكر بقوله:

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر تخب المطايا فيه عشرأ وتوضع
 وكأنه كان على علم بقرار استحداث مدينة القاهرة وبنائها:
 إذا حل في أرض بناها مدائناً وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع
 ووصف الرماح والسيوف المشرعة أمام الخليفة المعز تتأهب

لرد الاعتبار إلى مصر وأهلها:

على وجهه نور من الله يسطع	إلى أن تبدى سيف دولة هاشم
غمائم نصر الله لا تتقشع	كان ظلال الخافقات أمامه
على البر بحر زاهر الموج مترع	كان السيوف المصلتات إذا طمت
ظباء ثنت أجيادها وهي تلتع	كان العتاق الجرد مجنوبة له
سيول نداه أقبلت تتدفّع	كان حماة الرّحل تحت ركابه
تجاوب أصداء الفلا تترجع	كان خلاخيل المطايا إذا غدت

ووصف الخليفة المعز وهو يودّع الجيوش:

لقد جلّ من يقتاد ذا الخلق كلّه	وكلّ له من قائم السيف أطوع
تحفّ به القواد والأمر أمره	ويقدمه زيّ الخلافة أجمع
برود أمير المؤمنين بروده	كساه الرضى منهنّ ما ليس يخلع
وبين يديه خيله بسروجها	تقاد عليهنّ النضار المرصع
وأعلامه منشورة وقبابه	وحجابه تدعى لامر فتسرع
ويصف بيت المال الذي حمل على أكثر من مائتي بغل ووزّع	على العسكر وعلى المصريين أثناء العملية:

تحلّ بيوت المال حيث يحلّه	وجمّ العطايا والرواق المرفّع
إذا ما ج أطناب السراشق بالضحي	وقامت حواليه القنات تززعزع
وسلّ سيوف الهند حول سريره	ثمانون ألفاً: دارع ومقنّع
وأقبل فوج بعد فوج: فشاكر	له أو سؤول أو شفيع مشفّع

ووصف بدء رحلة تحرير مصر من الغرباء والدخلاء فقال:

ونودي بالترحال في فحمة الدجي	فجاءته خيل النصر تردي وتمزّع
فلاح لها من وجهه البدر طالعا	وفي خدّه الشعري العبور تطلّع

فكَبِّرْتَ الفرسانَ لله إذ بدا وظلَّ السلاحَ المنتضى يتقعقع
وعبَّ عبابَ الموكبِ الضخمِ حوله وزفَّ كما زفَّ الصباحُ الملمَّعُ
وقدرُ تُبِتَ فيه الملوكَ مراتباً فمن بين متبوعٍ وآخر يتبع
ويعد المصريُّ بالخير الوافر والأمن والدعة بسبب قرار الخليفة
المعز دخول مصر:

رحلت إلى الفسطاط أيمن رحلة بأيمن فال في الذي أنت مُجمِعُ
وما جهلت مصرٌ وقد قيل: من لها؟ بأنك ذاك الهبرزي السميذعُ
وإنك دون الناس فاتح قفلها فأنت لها المرجو والمتوقع
فإن يك في مصر رجالٌ حلومها فقد جاءهم نيلٌ سوى النيل يهرع
ولو قد حططت الغيث في عقر دارهم كشفت ظلام المحل عنهم فأهرعوا
وداويتهم من ذلك الداء إنَّه إلى اليوم رَجَزٌ فيهم ليس يُقلع
وكفكفت عنهم من يجوز ويعتدي وأمنت منهم من يخاف ويجزع
إذا لراوا كيف العطايا بحقِّها لسائلها منهم وكيف التبرع
وأنساهم الإخشيد من شسع نعله اعزُّ من الإخشيد قدراً وأرفع
تحملت أعباء الخلافة كلَّها وغيرك في أيام دنياه يرتع

وصف فتح مصر:

ولما دخل جوهر الصقلي الفسطاط (مصر القديمة) وأعاد إلى
مصر رونقها وأمنها وبهجتها قال ابن هاني:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قُضِيَ الأمرُ
وقد جاوز الإسكندرية جوهرُ تطالعه البشرى ويقدمه النصرُ
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المعقود من جسرها جسرُ

ويعتبر الجيش الفاطمي: جيش الإله وجيش الإسلام ونبية:
وقد أشرفت خيل الإله طوالعاً على الدين والدنيا كما طلع الفجرُ
وذا ابن نبي الله يطلب وتره وكان حَرّاً أن لا يضيع له وترُ
ويخاطب المصريين بقوله:

أطيعوا إماماً للأئمة فاضلاً كما كانت الأعمال يفضلها البرُ
فإن تتبعوه فهو مولاكم الذي له برسول الله ونكم الفخرُ
أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم تنزلت الآياتُ والسور الغُرُ
ويعني بالطلاق: العباس بن عبد المطلب جدّ الخلفاء العباسيين.

ويصف الحالة السياسية المستجدة على الساحة الإسلامية بعد
دخول مصر:

الا تلکم الارض العریضة أصبحت وما لبني العباس في أرضها فترُ
فقد والت الدنيا لآل محمد وقد جرّرت أذيالها الدولة البكر
وردّ حقوق الطالبیین مَنْ رَكِبَتْ صنائعه في آله وزكا الذخُرُ
مُعزُّ الهدى والدين والرّجْم التي به اتصلت أسبابها وله الشكر
من انتاشهم من كلّ شرق ومغرب وبُدِّل أمناً ذلك الخوفُ والذعرُ
وكنا قد أشرنا كيف اتصل وجهاء مصر بعمّ أحمد بن خماوريه
واستدعوه من الشام ليؤمّروه عليهم، فجاء ونصب عليهم بعد أن
نهبهم وهرب بما نصبه ونهبه إلى الشام، وكيف أن العساكر
الإخشيدية بدأت تعيثُ فساداً بمصر وأهل مصر وأمن مصر، ممّا
اضطرّ أعيان مصر للاتصال بالخليفة المعزّ والطلب إليه أن يشمل
مصر برعايته وأمنه.

ويتجّه للمسلمين الشيعة الإمامية بقوله:

فكل إمامي يجيء كأنما
فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها
إمام رأيت الدين مرتبطاً به
هو الوارث الدنيا ومن خلقت له
ويصف جوهراً بقوله:

غدا جوهراً فيها غمامة رحمة
كأنني به قد سار في الناس سيرة
ويصف عدله ورفقه بالمصريين تنفيذاً لأوامر الخليفة المعز
لدين الله:

سننت له فيهم من العدل سنة
وأوصيته فيهم برفقك مردفاً
يقول رجال شاهدوا يوم حكمه
فحسبكم يا أهل مصر بعدله
رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
هي الآية المجلى ببرهانها السحر
بجودك معقوداً به عهدك البر
بذا تُعمر الدنيا ولو أنها قفر
دليلاً على العدل الذي عنه يفتّر
أطاع لنا، في ظلها الأمن والوقر

الحرب ضد الروم البيزنطيين

كان الفرس والروم يشكلان أعظم دولتين عالميتين قبل الإسلام، ولكل دولة منهما حضارة مميّزة. ولما جاء الإسلام قضى على الدولة الفارسية، وبدأ يتطاحن مع الدولة الرومية اليونانية التي ورثت حضارة اليونان والرومان في روما، وأخذت اسم الروم في التاريخ الإسلامي وجعلت من بيزنطية (استانبول) عاصمة تاريخية لها.

عندما غادر هرقل ملك الروم سوريا سنة ٦٢٨ ميلادية، ظنّ أنه سيرجع إليها قريباً ولكنّ عودته تأخرت كثيراً، واستمرّت حرب المسلمين على بيزنطية من أيام معاوية ومسلمة بن عبد الملك والعباسيين حتى أواخر القرن الخامس الهجري ببدء الهجوم الصليبي سنة ٤٩٢هـ. حيث توحدت قوى الروم البيزنطيين مع قوى الفرنجة وتداخلت، وشكّلت فريقاً معتدياً موحداً على الشرق العربي والساحل السوري.

ولما كان الشعراء في طليعة كلّ معركة اجتماعية وسياسية وعسكرية، كان لا مناص من إيراد رأيهم ونظرتهم وموقفهم وأوصافهم لهذه الأحداث والمعارك:

في قصيدة مدح فيها ابن هاني الخليفة المعز وضمنها وصفاً لما فعله بالروم البيزنطيين، جاء فيها^(١):

وقد حاكمته الروم في لَجَبٍ وكان لله حكمٌ غير مردودٍ
قضيت نخب المعالي من بطاركهم وللدماسق يومٌ جد مشهودٍ
ذموا قنّاك وقد ثارت اسنّتها فمات ركن وريداً غير مورودٍ
طعنٌ يُكوّر هذا في فريصة ذا كان في كلّ شلو بطن ملحودٍ
حويت أسلابهم من كلّ ذي شُطْبٍ ماضٍ ومطرّد الكعبين أملودٍ
حتى أتوك على الاقتاب من بُهمٍ خزر العيون ومن شوس مزاويدٍ
وفوق كلّ قتاد برز مُسْتَلَبٍ وفوق كلّ قنّاة رأس صنديدٍ
ويصف حالة الرعب والهلع التي أصابت الروم وما حلّ بأرضهم:

لو كان للروم علم بالذي لقيت ما هُنْتُت أم بطريق بمولودٍ
لم يبق في أرض قسطنطين مُشْرِكةٌ إلا وقد خصّها كُفْلٌ بمفقودٍ
أرض اقامت رنيناً في مآتمها يُغني الحمائم عن سجع وتغريدٍ
لقى الدمستق بالصلبان حين رأى ما أنزل الله من نصر وتأييدٍ
فقل له: حَالٌ من دون الخليج قنا سُمُرٌ وأدرعُ أبطال مناجيدٍ
قد كانت الروم محذوراً كتائبها تدني البلاد على شحط وتبعيدٍ
مَلِكٌ تأخّر عهد الروم من قَدَمٍ عنه كأن لم يكن دهرأ بموجودٍ
لو كنت سائلهم في اليمّ ما عرفوا سُفْعَ السفائن من عفر الملاحيدٍ

وقال يصف حرب المعز للروم بحرأ وبرأ ودبلوماسية:

ملك تلقى عن أقاصي ثغره أنباء ذوي دُولٍ إليه تدولُ

(١) ديوان ابن هاني الأندلسي، م. س. ص ٧٠.

لو أبصرته الروم يومئذِ دَرَّتْ أنْ الإله بما يشاء كفيلاً
قل للدمستق مورد الجمع الذي ما أصدرته لنا قنا ونصول
سلّ رهط مانويل وأنت غررتَه في أي معركة ثوى مانويلُ
منع الجنود من القفول رواجعاً تبأله بالمنديات قفول

ويصف الجيوش الفاطمية المهاجمة فيقول:

جاؤوا وحشوا الأرض منهم جحفلٌ لَجِبٌ وحشو الخافقين سهيل
ثم انتنوا لا بالرماح تقصُّدٌ بادٍ ولا بالمرهفات فلول
لم يتركوا فيها بجعجاع الردى إلا النجيع على النجيع يسيل
إن التي رام الدمستق حربها لله فيها صارم مسلول
لا أرضها حلبٌ ولا ساحاتها مضرٌ ولا عرض الخليج النيل

ويصف ما حل بالجيوش البيزنطية قائلاً:

ليت الهزقل بدابها حتى انتنى وعلى الدمستق ذلّة وخمول
تلك التي ألقت عليها كل كلاً ولها بارض الأرمنين تليل
ذرّه يجمعُ ألف ألف كتيبة فهو الثكول وجَمْعُهُ المفلولُ
لو كنتَ كلّفتَ الجيوش مرامها كلّفتها سفرأ إليه يطول
فكفاك وشكٌ رحيله عن أرضه عن أن يكون العام منك رحيل
فلتعلم الأعلاج علماً ثاقباً أن الصليب وقد عززت ذليل
ولي عبدوا غير المسيح فليس في دين الترهّب بعدها تأميل
هل كان يُعرفُ للبطارق قبل ذا بأسٍ ورأي في الجلاذ أصيل
أنى لهم همٌّ ومن عَجِبٍ متى غدت اللقاح الخور وهي فحول
أهل الفرار فليت شعري عنهم هل حدّثوا أن الطباع تحول
الأكثرين تخمطاً وتكبراً ما لم تُهزّ أسنةً ونصول

ويصف تراجعهم عن الحرب وطلبهم الهدنة والمعاهدة وإرسال
الرسل فيقول:

حتى إذا ارتعص القنا وتلمّظت حرب شُرُوبٌ لِلنَّفوسِ أَكول
رجعوا فأبدوا ذلّةً وتضرّعاً وإلى الجبلّة يرجع المجبول
إذا لا يزال لهم إليك تغلغل وسُرى وَوَحْدُ دائِمٍ وذمِيلُ
وإنابة منقادة وإتاوة ورسالة معتادة ورسول
فإذا قبلت فمنةً مشكورة لك ثم أنت المرتجى المأمول
وإذا أبيت فعزيمة مضاءة لا بد أن قضاءها مفعول
ويصف ما يحل بالروم إذا نقضوا الهدنة ورفضوا دفع الجزية
فيقول:

وليغزوئهم الأحق بغزوهم والله عنه بما يشاء وكيلُ
ولتدركن المشرفية فيهم ما ينثني عن دركه التأميل
وليسمعن صليلها في هامهم إن كان يسمع للسيوف صليل
ولتبلىغن جياذ خيلك حيث لم يبلغ صباح مسفر وأصيل
كم دوخت أوطانهم فتركتهما والمال نهبٌ والديار طلول
ولقد أتيت الأرض من أطرافها ووطئتها بالعزم وهي ذلول
واستشعرت أجبالها لك هيبةً حتى حسبن أنها ستزول
تلهيك صلصلة العوالي كلما الهت أولئك قينةٌ وشمول
وقال ابن هاني أيضاً يصف الأسطول المصري الفاطمي الذي
قيل إنه بلغ ألفاً ومئتي سفينة عسكرية، بعد أن بدأ قصيدته بمدح
الخليفة المعز لدين الله واصفاً معركة بحرية مع الروم:

لك البر والبحر العظيم عبابه فسيان أغمار تخاض وبيدُ

أما والجواري المنشآت وقد سرت
 والله مما لا يرون كتائب
 وماراع ملك الروم إلا أطلعها
 مواخر في كامي العباب كأنه
 أنافت بها أعلامها وسما لها
 من الراسيات الشم لولا انتقالها
 من الطير إلا أنهن جوارح
 من القادحات النار تضرم للظي
 إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
 فأنفاسهن الحاميات صواعق
 تشب لآل الجاثليق سعيها
 لها شعل فوق الغمار كأنها
 تعانق موج البحر حتى كأنه
 ترى الماء منها وهو قان عبابه
 وليس لها إلا الرياح أعنة
 ليس لها إلا الحباب كديد

ويصف حال ملك الروم بعد هذه المعركة بقوله:

فلا غرو إن اعززت دين محمد
 فبت له دون الأنام مشهداً
 فلولحي منهم جاحد ومكذب
 وما سرهم ما ساء أبناء قيصر
 هم بعدوا عنهم على قرب دارهم
 وقلت: أناس ذا الدمستق شكره
 فأنت له دون الأنام عقيد
 ونام طليق خائن وطريد
 وللدن منهم كاشع وعنود
 وتلك تراث لم تزل وحقود
 وجحفلك الداني وأنت بعيد
 إذا جاءه بالعفو منك بريد

وتقبيله الترب الذي فوق خذه إلى ذفرتيه من تراه صعيد
ويصف المراسلات والرسل والمترجمين ونهاية الحرب بعقد
الهدنة والاتفاق على الجزية فيقول:

تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة ويأتيك عنه القول وهو سجود
إذا أنكرت فيه التراجم لفظه فأدمعه بين السطور شهود
ليالي تقفو الرسل رسل خواضع ويأتيك من بعد الوفود وفود
وما دلفت إلا الهموم وراءه وإن قال قوم: إنهن حشود
ولكن رأى ذلاً فهانت منية وجرب خطباناً فلذ هبيد^(١)
ويعطي الجزا والسلم عن يد صاغر ويقضي وصدر الرمح فيه قصيد
يقرب قرباناً على وجل فإن تقبلته من مثله فسعيد^(٢)
وينهيها بقوله:

فليت أبا السبطين والترب دونه يرى كيف تبدى حكمه وتعيد
إذا رأى يملك تخطب سيفه وأنت عن الدين الحنيف تزود
إليك يفر المسلمون بأسرهم وقد وتروا وتراً وأنت مقيد
وقال الأمير تميم بن المعز يصف حروب أخيه الخليفة العزيز مع
الروم:

قد جاءك النصر مقروناً به الظفر عفواً وأرضاك في أعدائك القدر
لقد سبقت أمير المؤمنين إلى مفاخر لم يحزها قط مفتخر
في كل يوم فتوح للعزیز على أعدائه ورزايا فيهم كبر

(١) الهبيد: الحنظل والمر مذاق.

(٢) القربان: يعني بها الجزية التي يفتدى بها نفسه من الفاطميين.

يهنيك أسطول جيش لم تزل خدماً
حتى أتاك بأسد في الكريهة لا
قد حكمتهم رقاق البيض فاحتكموا
وأصبح الشرك للتوحيد منخفضاً
ولم تدع منهم بيض السيوف سوى
وقال ظافر الحداد يصف عودة الجيش المصري منتصراً في

إحدى المعارك مع الفرنجة في عهد الخليفة الأمر:

لله جيش مثل جيشك مُعَلَّم
لولا الضجيج لكاد يسمع ناصت
وأجر الجياد فكل طرف سابح
وشم السيوف إذا فكل مهتد
فليثبت الإفرنج منه لِقَسُور
ما مالهم وحریمهم ودمائهم
فالجبر مثل البحر من فرسانه
جمع يبيت الطير فوق رماحه
ضاقت به الكرة التي هو ماؤها
ومن شعر المعارك والحرب قال المهذب بن الزبير في حروب

ابن رزيك:

وتلقى الدهر منه بليث غاب
تخال سيوفه إما انتضاها
وتحسب خيله عقبان دجن
إذا قدحت بجنح الليل أورت
غدت سمر الرماح له عرينا
جداول والرماح لها غصونا
يرحن مع الظلام ويغتدينا
سنأ يعشي عيون الناظرينا

وإن صبحت مع الإصباح عدوا أثارت للعجاج به دجونا
 كأن الشمس حين تثير نقعا تحاذر من سطاها أن تبينا
 وما كسفت بدور الأفق إلا أسى إذا بصرت منه الجبينا
 وما اضطربت رماح الخط إلا مخافة أن يحطمها مبينا
 وما تندق يوم الروع حتى يدقُّ بها الكواهل والامتونا
 عجت لها تصافح من يديه وتوصف بالظما، بحرأ معينا
 ويوردها ولا تحظى بري نطافا من دروع الدار عينا
 وهل يشفى لها أبداً غليل وقد شربت دماء الكافرينا
 إذا لقيت عيون الروم زرقاً حسبت نصالها تكل العيوننا
 تخال البحر مُدَّبه خليج إذا ما مد بالقضب اليميننا^(١)



وصف الحروب الصليبية شعراً:

أخذت المعارك العسكرية التي خاضها الفاطميون ضد الصليبيين
 حيزاً كبيراً في شعر شعرائهم. وقد ضمَّن كل شاعر رأيه وموقفه
 ومشاعره من هذه الحروب الطاحنة.

كانت الحملة الصليبية الأولى في عهد الوزير الأفضل بن بدر
 الجمالي، وقد انصف المؤرخون هذا الوزير واعترفوا بمقاومته الفرنجة
 مقاومة شديدة، وكان يرسل الحملات البرية والبحرية من مصر إلى
 الشام والساحل السوري تباعاً، ويجري التبديل بين الحملة والحملة كل
 ستة أشهر. ولكن خروج بلاد الشام من حكم خلفاء مصر، ووقوعهم في

(١) راجع: أدب مصر الفاطمية. م.س. ص ٢٦٨.

حروب داخلية فيما بينهم، ورفضهم التعاون مع المصريين، أدى إلى خروج الساحل السوري من يد العرب إلى يد الفرنجة.

قال الشاعر المصري أبو الصلت أمية بن عبد العزيز يمدح الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ويصف معاركه مع الفرنجة^(١):

هي العزائم من أنصارها القدر وهي الكتائب من أشياعها الظفرُ
جردت للدين والأسياف مغمدةً سيفاً تُضَلُّ به الأحداث والغيرُ
وقمت إذ قصد الأملاك كلهم تذبّ عنه وتحميه وتنتصر
لله بأسك والألباب طائشة والخيل تردى ونار الحرب تستعر
الله في الدين والدنيا فمالهما سواك كهف ولا ركن ولا وُزُرُ

وبعد الملك الأفضل، تابع الجهاد ضد الفرنجة الوزراء المصريون بتوجيه من خلفائهم، فلم يتهاونوا يوماً واحداً في حروبهم ضد الفرنجة، وكان أشدهم حمساً وإعداداً لهذه الحروب، الوزير الملك الصالح طلائع بن رُزَيْك، وقد أطلق عليه المؤرخون لقب «أبو الغارات» لكثرة ما شنّ من غارات على الصليبيين الفرنجة. وقد كان يكتب زعماء الشام، يدعوهم للتوحد ونبذ الفرقة والخلاف لطردهم الفرنجة. ومن قصائده الحربية، قوله في قصيدة أرسلها إلى أسامة بن منقذ الشيزري^(٢):

ألا هكذا في الله تمضي العزائم وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتُغزى جيوش الكفر في عقر دارها ويوطأ حماها والأنوف رواغمُ
نذرنا مسير الجيش في صَفَرٍ فما مضى نصفه حتّى انثنى وهو غانم

(١) عيون الإنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، الجزء الثالث، ص ٩٢.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، ص ٨٩.

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعاً مفاوز وخذ العيس فيهن دائم
حماها له بعد الديار ولا ثنى عزيمة جهد الظما والسما
ويصف وصول الجيوش المصرية إلى ساحة المعركة في الشام
فيتابع قائلاً:

وواجههم جمع الفرنج بحملة يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنة وانطووا عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها إذا ما تلاقى العسكر المتصادم
يشبههم من لاح جمعهم له بلجة بحر موجها متلاطم
ويصف صدام المصريين مع الفرنجة فيقول:

وعادوا إلى سلّ السيوف فقطعت رؤوس وخزّت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
نقتلهم بالرأي طوراً وتارة تدوسهم منا المذاكي الصلادم
ويطلب من سلطان الشام من قبل العباسيين نور الدين محمود
زنكي لأن يتجهز لحربهم:

فقولوا لنور الدين لا قلّ حده ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فتوراً إن مضت منك حارم
هذا هو موقف سلطان مصر ووزيرها أبو الغارات من نور الدين
محمود: «لا قلّ حده ولا حكمت فيه الليالي الغواشم».

أما موقف سلطان الشام من مصر وأهلها فقد جاء على لسان
الشاعر العرقلة بقوله^(١):

(١) ديوان عرقلة الكلبي، ط ١، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٩٢، ص ٢٧.

أصبح الملك بعد آل علي مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزدهو على بغداد
ما حواها إلا بحزم وعزم من صليل الفولاذ في الفولاذ
فنور الدين أرسل جلاوزته تحت ستار محاربة الفرنجة مع
المصريين، فاحتلها وأطلق أسراب الجراد الأكراد فيها، فشئت شمل
أهلها وبذل نعيمها ببؤس وغناها بفقر، فأصبح المصري عبداً بعد أن
كان سيداً وصاحب الربع والدار، والإقطاعي أجيراً في ملكه عند
الكردي، حسب قول المؤرخ المصري أحمد بن علي المقرئ.

ويعد الملك الصالح أهل الشام بمتابعة الحرب دون تعب أو وهن:
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ونحلف جهداً أننا لن نسالم
وغاراتنا ليست تفتّر عنهم وليس ينجّي القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائراً إليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأن يجتاج باقيهم به وتحوي الأسارى منهم والغنائم
وفي قصيدة ثانية أرسلها لأسامة بن منقذ يعتبر الملك الصالح -
أبو الغارات - طلائع بن رزيك أن مواصلة الجهاد ضد الفرنجة من
أهم المهمات الملقة على عاتق المصريين وخلفائهم من بني
فاطمة^(١):

وأهمّ المهمّ أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فاشجا هم بكور منّا لهم وطروق
وأباح ديارهم فأباد الـ قوم قتل ملازم وحريق

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، م.س. ص ٢٩٢.

ويحرّض نور الدين محمود زنكي على الجهاد فيقول إنه كان
ينتظر زحفه ولكن هذا الزحف لم يتم:

وانتظرنا بزحفنا بدء نور الدين علماً أن سيفيق
وهو الآن في أمان من الله لا يعتريه أمر يعوق
قل له لا عداه رأي ولا زال بكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتتم بالجهاد أجرك كي تلقى رفيقاً له ونعم الرفيق
ويعاتب نور الدين زنكي على وعده بالمساندة وتخاذه ويترك
أمره إلى الله حيث يقول^(١):

سارت سرايانا لقصد الشام تعتسف الرمالا
نزجي إلى الأعداء جُرد الخيل أتباعاً توالى
نهضت إليهم خيلنا من مصر تحتل الرجالا
ويصف نتيجة المعركة قائلاً:

هذا وفي تلّ العجول ملأ بالقتلى التلالا
إذا مرّ «مري» ليس يلوى نحور فقتله اشتغالا
واشتاق عسكرنا له أهلاً يحبهم ومالا

ويتجه لعتاب سلطان الشام نور الدين زنكي فيقول:

فلو أن نور الدين يجعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الأجناد جهراً كي ينازلهم نزالا
ووفى لنا ولأهل دولته بما قد كان قالاً

(١) م. س. ص ٢٩٦.

لرأيت للإفرنج طُراً في معاقلها اعتقالاتاً
وتجهّزوا للسير نحو الغرب أو قصدوا الشمالا
ويتوجّه لنور الدين بقوله:
وإذا أبى إلا إطراحاً للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمور لحكم خالقنا تعالى

فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة:

وقال الملك الصالح وزير مصر يهدّد ملك الشام نور الدين
محمود زنكي ويحدّره من مهادنة الفرنجة والميل إليهم^(١):
سيوف لها في كلّ درع وجنة إذا ما اعتلت قدأ واعترضت قط
نخرنا سطاهما للفرنج لأنها بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
لهم قسطهم في الحرب منها ومالها عليهم لدى الهيجاء عدل ولا قسط
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم بحضرتنا ما يُنْبِتُ الخط لا الخط
ويصف هول الحرب القائمة بين المصريين والفرنجة فيقول:
وحرب لها الأرواح زاهقة لما تعالين والأصوات من دهش لغط
إذا أرسلت فرعاً من النقع فاحماً اثيثاً فأسنان الرماح لها مشط
كان القنا فيها أنامل حاسب أجذبها في السرعة الجمع واللقط
وكان الملك الصالح يتنبأ بالآلة الحاسبة وبطريقة عملها وشبه
الرماح بأزرار هذه الآلة لسرعة عملها في عملية الجمع والطرح
والضرب.

(١) ديوان الملك الصالح، ملاحق بن زُرَيْك. م.س. ص ٨٥.

ويؤجّه إنذاره ونصيحته لنور الدين زنكي سلطان الشام قائلاً:
وقولوا لنور الدين ليس لجائف الجراحات إلا الكيّ في الطب والبطّ
وبط الجرح الجائف المنتن، شقّه ولا ينفع هذا الجرح إلا الكيّ.
وحسم أصول الداء أولى لعاقل لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فهو يتهم نور الدين بالمرض واختلاط تفكيره وعقله.
ويقول له:

فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة بها بدا يخطي سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم قديماً وكم غدر به نُقض الشرطُ
ويستحقّه ويؤكد له بأن جيوش مصر أصبحت على أبواب الشام:
وشمّر فإننا قد أعنا بكلّ ما سألنا وجهزنا الجيوش ولن يبطلوا
ولكن كما يقول المثل في ثغر جبل عامل: الجمل بنية والجمال
بنية

فنور الدين محمود زنكي نيّته خيرات مصر، والملك الصالح
طلائع بن رُزّيك نيّته طرد الفرنجة وتحرير القدس.

وصف معركة بحرية قادها الملك الصالح ضد الفرنجة:

قال الملك الصالح طلائع بن رُزّيك يصف ما حل بالفرنجة بعد
إحدى المعارك البحرية التي خاضها الأسطول المصري الفاطمي بين
عكا وطرطوس^(١):

إن بعض الأسطول نال من الإفرنج ما لا يناله التأميلُ

(١) كتاب الروضتين، الجزء الأول، م.س. ص ٢٩٦.

سار في قلّة وما زال بالله وصدق النيات يُمنى القليلُ
وبقايا الأسطول ليس له بعد إلى جانب الشام وصولُ
فحوى من عكا وانطرسوس عدّة لم يحط بها التحصيل
جَمْعُ دَيَوِيّةٍ بهم كانت الإفرنج تسطو على الوري وتصول^(١)
قيد في وسطهم مقدّمهم يُهدى إلينا وجيده مغلولُ
بعد مئوى جماعة هلكوا بالسيف منها الغريق والمغلول
وفي نهاية القصيدة يعاتب نور الدين زنكي على معاملته
ويحذّره من غضب الله:

بلغوا قولنا إلى الملك العادل فهو المرجو والمأمولُ
سرّ إلى القدس واحتسب ذلك في الله فبالسير منك يشفى الغليلُ
وإذا ما أبطأ سيرك فالله إذاً حسبنا ونعم الوكيل
ووصلت الأخبار إلى الملك الصالح أن نور الدين يهادن الفرنجة
ويعقد معهم المعاهدات فأرسل له يحذّره من عقد الهدنة معهم
ويقول إن الحل هو باستئصالهم من أرض العرب^(٢):

نخرنا سطاها للفرنج لأنها بهم دون أهل الأرض أجدران نسطو
وقد كاتبوا بالصلح لكن جوابهم بحضرتنا ما تكتب الخط إلا الخطُ
ويعني بالخط الأولى - معاهدة الصلح والخط الثانية: السيف.
رحم الله الملك الصالح طلائع بن رزيك، أبو الغارات، مات ميّتين:

(١) الداوية: فرقة من الفرسان الإفرنج.

(٢) كتب الروضتين. م.س. ص ٢٩.

أولى عندما اغتاله جماعة ضرغام والثانية عندما اغتال سيرته
مؤرخو الدولتين الأيوبية والمملوكية.

فمن ثنايا قصيدته، نفهم أن المصريين يرفضون الهدنة
والمصالحة والمعاهدة ويرون أن الحل في «حسم أصول الداء» أي
استئصال شافة الفرنجة من الشرق العربي، بينما أكراد الشام
يهادنون ويصالحون.

ورغم كل ما شن الملك الصالح أبو الغارات من غارات للدفاع
عن الشام والساحل السوري، لكنه لم يجد من مؤرخيهم إلا
البغض والحقد والكراهة، ولسبب واحد فقط، لأنه والى أهل بيت
النبي وعترته.

يقول المقدسي أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني وكلاهما
يعتلفان من معلف الدولة الأيوبية: «الصالح أبو الغارات، طلائع بن
رزيك، سلطان مصر، نفق في زمانه النظم والنثر، وقرب الفضلاء
واتخذهم جلساء ورحل إليه ذوو الرجاء، وأفاض على القاضي
والداني العطاء، وله قصائد كثيرة مستحسنة، يذكر فيها قيامه بنصر
الإسلام». وبعد كل هذا الإطراء والتقريض، ينهي أبو شامة مداخلته
بقوله: «وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته، وإحكام مباني حكمته،
وأقسام معاني بلاغته، ويقال إن المهذب ابن الزبير، كان ينظم له،
وإن الجليس بن الحباب كان يعينه»^(١).

العجب كل العجب، ديوان الخليفة الوليد بن يزيد مطبوع، وديوان

(١) كتاب الروضتين، م. س. ص ٢٩.

الخليفة عبد الله بن المعتز متداول بكثرة، أما ديوان الملك الصالح أبو الغارات يحتاج لمن يطبعه.

وقد مدحه عرقلة الكلبى: بقصيدة جاء فيها^(١):

سقياني كأساً على نهر تورا وذراني أبولها في يزيد
أنا من شيعة الإمام الحسين لست من سنة الإمام وليد
مذهبي مذهب ولكنني في بلدة زُخرفت لكلّ بليد
كُنّا الصالح بن رُزُيك في كلّ قريب من الدُّنى وبعيد
ملك لم تزل ثياب عداه في حداد وثوبه من حديد
كل يوم عداته في هبوط حيث كانوا ومجده في صعود
وله ناصر من الله فيهم مثلما بخت نصّر في اليهود
فاز بالفائز الإمام الذي أصبح مصباح شيعة التوحيد
صفوة من محمد وعلي ليس من سعدهم ولا من سعيد
أنت بين الملوك واسطة العقد وقطب الرّحى وبيت القصيد
والعرقلة الذي استعمل التورية في شربه الكأس في تورا وبوله
إياه في يزيد، يقول عن الحالة السياسية التي اتصف بها أهل الشام،
أي نقل البندقية من كتف المغلوب إلى كتف الغالب قال في
وصفهم^(٢):

ذرا لآتراك والعربا وكن في حزب من غلبا
بجلّق أصبح فتناً تجرّ الويل والخربا
لئن تسمّت فواسفا ولم تخرب فواعجا

(١) ديوان العرقلة، م. س. ص ٢٤.

(٢) ديوان العرقلة، ص ١٢.

وصف احتلال مصر من قبل الأكراد شعراً:

من المؤكّد أن هذه الدولة العظيمة، دولة مصر الفاطمية، التي بلغت من الرقي والحضارة ما لم تبلغه أمة من الأمم حتى اليوم، والتي كان شعبها دائماً حامي نظامها السياسي، ولو لم ينقسم هذا الشعب إلى عدة شيع وأحزاب تطاحن بعضها البعض، وكل طرف لا شغل له إلا تدبير المؤامرات والاغتيالات للفريق الآخر، لما استطاع جهلة الإسلام وشذاذ الآفاق والمارقون، القضاء على مؤسسات هذه الدولة. فانقسام الشعب المصري إلى مستعلية ونزارية وطيبية واثني عشرية، أدى بمصر إلى فقدان مناعتها ومنعتها، وجعلها فريسة سهلة بأيدي جحافل الأكراد الجراد.

وبالعودة إلى ديوان العماد الأصفهاني، نجد صوراً حيّة وبالتدرّج لعملية استيلاء الأيوبيين الأكراد على مصر الفاطمية.

عندما قتل أسد الدين شيركوه آخر وزير مصري فاطمي وهو شاور بن مجير السعدي، سنة ٥٦٤هـ، وقلّد الخليفة العاضد الوزارة أسد الدين شيركوه نفسه، أرسل له العماد الأصفهاني يهنّيه بالمنصب الجديد ويحرّضه على القضاء على دولة أهل بيت النبي وأبناء فاطمة، عليهم صلوات الله أجمعين، في مصر. ومما جاء في هذه القصيدة^(١):

تَمَلُّ من ملك مصر رتبة قَصَرَتْ عنها الملوك فطالت سائر الرتب

(١) ديوان العماد الأصفهاني، ط ١، الموصل، العراق، سنة ١٩٨٢، ص ٧٥.

أعدت نعمة مصر نعمة فغدت تقول: كم شكت لله في النكب
ولو نسمع رأي المقريري بالذي حل بمصر وأهلها من صلاح
الدين لأعدنا ترتيب البيت على الشكل التالي.
أعدت نعمة مصر نعمة فغدت تقول: كم شكت لله من نُكَبٍ
وتابع مناشداً شيركوه:

ردّ الخلافة عبّاسية ودع الدعوى فيها يصادف شرّ من قلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب
وعندما مات أسد الدين شيركوه وتقلّد الوزارة بعده ابن أخيه
صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب، أرسل له العماد
الأصفهاني قصيدة يحضّنه على إتمام انقلابه وال خلاص من حكم
وخلافة أهل بيت النبي (ص) في مصر جاء فيها^(١):

لاذبالنيل شاور مثل فرعون فذلّ اللاجي وعزّ العُبورُ
شارك المشركين بغياً وقدماً شاركتها قريظة والنضير
والذي يدّعي الإمامة بالقاهرة ارتاع إنّه مقهور
ولكم عودة إلى مصر بالنصر على ذكرها تمرّ العصور
فاستردّوا حق الإمام ممن خان فيها فإنه مستعير
فصاحب البيت، ابن بنت النبي، أصبح الخائن المستعير. وأكراد
کردستان وأصفهان أصبحوا أصحاب البيت وباب الدخول إلى
الإسلام!!!.

(١) ديوان العماد الأصفهاني، م.س. ص ١٨٥.

وصف حرق حارة السودان والأرمن من قبل صلاح الدين:

ووصف العماد الأصفهاني هجوم الغزّ الاكراد على حارتي
السودان والأرمن في القاهرة وحرقهما وقتل قائد اللواء السوداني
مؤتمن الخلافة فقال^(١):

أقررت عين الإسلام حتى لم يبق فيها قذى لباطل
وما نفيت السودان حتى حُكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقاً عليهم كفة لحابل
وقد خلت منهم المغاني واقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلا بطل فكيف ولو أصيبوا بوابل
والطلّ هو الندى الذي يتركه الليل على الزهر والشجر، أما الواابل
فهو الشتاء الغدق المغرق. وقد شبّه العماد الأصفهاني العشرين ألف
قارورة نפט التي أحرق بها صلاح الدين حارتي السودان والأرمن
بالبطل وهو كان عليه أن يجلب نפט الشام كلّه ويحرق بها أحياء
القاهرة حتى يشبهها الأصفهاني بالوابل.

ويتابع واصفاً حرق القاهرة بقوله:

والسود بالبيض قد أبيحوا فهي بوازي بهم نوازل
مؤتمن القوم خان حتى غالت من شرّه غوائل
وبعد حرق السودان والأرمن وتشيتيتهم، أكمل صلاح الدين
انقلابه فوضع الخليفة العاضد في الإقامة الجبرية وقطع الخطبة
لخلفاء بني فاطمة وأقامها للخليفة المستضيء بالله العباسي. وقد

(١) م.س. ص ٢٢٥.

وصف العماد الأصفهاني هذا الانقلاب بقوله^(١):

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العاضد والقاصر الذي بالقصر
وأشعنا بها شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثبوراً وهو بالذل تحت حُجْر وحُصْرٍ
وتباهت منابر الدين بالخطبة لها شمي بأرض مصرٍ
واستعدنا من أدياء حقوقاً تُدعى بينهم لزيد وعمرو
والذي يدعي الإمامة بالقاهرة انحط في حضيض القهر
انتعش الحق بعد طول عثارٍ انجبر الحق بعد وهن وكسر
ولما توفي الخليفة العاضد أعلن العماد الأصفهاني شماتته بموته
وموت الدولة الفاطمية وكتب أنفاس المصريين^(٢):

توفي العاضد الدعي فما يفتح ذوبدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغداً يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الفؤاد وقد باح من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئماً بها وعقد السواد منتظما
لما غداً أعلننا شعار بني العباس حقاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتصراً ومن دعاة الأتراك منتقما
واهتز عطف الإسلام من جذل وافتر ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى قرحاً فليقرع الكفر سنة ندمما
عاد حريم الأعداء منتهك الحمى وفيء الطفاة مقتسما

(١) ديوان العماد الأصفهاني، م.س. ص ٢٠٢.

(٢) م.س. ص ٢٧٦.

قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذلاً وأنفسه رُغماً
تري؟ ما هي المقاييس التي وضعها علماء الإسلام لكي يعتبر
الإنسان مسلماً؟ خاصة أنني في قراءتي لكل ما صدر عن خلفاء
مصر الفاطمية من مراسيم وسجلات وخطب وأشعار وأقوال، لم
أجد فيها كلمة واحدة تدلّ على خروجهم عن الإسلام والملة
الإسلامية. أما ما قاله بعض فلاسفة الإسماعيلية وما قاله بعض
الشعراء فهذا فلسفة وشعر والاثنان لا يحدّدان إسلام مسلم أو
عدم إسلامه.

واتساءل: مائتان وعشر سنوات من حكم الخلافة الفاطمية
قضيت في الدفاع عن الثغور الإسلامية وفي بناء الجوامع والمساجد
وقراءة القرآن ورعاية الجوامع وقومتها وإجراء الرواتب للقراء
والمؤذنين وخطباء الجوامع وبداية كل أعيادهم واحتفالاتهم بقراءة
القرآن وترتيله، وإنهاء كل عيد واحتفال بمثل ما بدأوا به: بالقرآن
والترتيل حتى داعي دعائهم، هبة الله بن موسى الشيرازي يعترف
شعراً ببيعة الشيخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ويرفض
سبهما. ولكن يأبى الحاقدون إسلامهم ويرفضون قبولهم في الملة
الإسلامية.

فإذا كان الإسلام موالاة يزيد، والوليد بن يزيد، وأبي العباس
السفاح، واعتبار صلاح الدين الأيوبي بطلاً، وأولاده وأحفاده منقذي
الإسلام، والأخذ بأقوال أبي هريرة الدوسي، هي مقياس المسلم
الصحيح، فحسبنا الله من هذه المقاييس.

ملوك مصر عبيد والعبيد الأكراد ملوك:

وبعد أن وُطد صلاح الدين الأيوبي ملكه وحكمه في مصر نظم
العماد الأصفهاني قصيدة يصف فيها الوضع المستجد على الساحة
المصرية^(١):

بملك مصر أهني مالك الأمم فاسعد وابشر بنصر الله عن أمم
أوردت مصر خيول النصر عادمةً ثني الأعنة إقداماً على اللُجَمِ
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها للأمن والعزّ والإقبال كالخَرَمِ
ملوكها لك صاروا أعبداً وغداً بها عبيدك أملاكاً ذوي حُرَمِ
وكان الفقيه عمارة يعتبر عودة الأكراد الغز عن مصر إلى الشام
معجزة من المعجزات التي يصعب تحقيقها، فهو يقول في إحدى
القصائد التي يمدح فيها الوزير شاور:
لك المعجزات الخمس لم يفتخر بها سواك ولم تخفق عليه بنودها
ويعدّها بقوله:

- ١- فمنها بنورُ زيك حين أزلتهم وحرر المنيا في يديهم وسودها
 - ٢- ومنها رجوع الغز عن مصر بعدما أبيع بهم أغوارها ونجودها
- وكان الفقيه عمارة يتنبأ بأن أغوار مصر ونجودها سوف تباح
من سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) حتى سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٢م).

(١) م.س. ص ٢٨١.

شعر المواكب الاستعراضية والاحتفالات

كانت الأبهة والعظمة التي حافظ الخلفاء الفاطميون على الظهور بها في كل مواكبهم واحتفالاتهم، محرّكاً مهماً لقرائح الشعراء المصريين، حيث كانت كل آلات الموكب التي يستعملونها في هذه الاحتفالات والاستعراضات تحفاً فنية رائعة الصنع فائقة الدقة. ومهما قيل فيها من كلام وشعر ووصف، تبقى غير مستوفية حقها لما فيها من إبهار للنظر وجذب للانتباه. وكان الخلفاء الفاطميون يصرون على استعمال هذه الآات العظيمة القيمة، الفريدة الصنع، إظهاراً لعظمتهم وغناهم وترفعهم وكرمهم وفخامتهم، وعلو قدرهم الديني والدنيوي.

وصف موكب العيد:

قال المجيد بن أبي الشخباء العسقلاني يصف موكب العيد ويمدح الأفضل بن بدر الجمالي^(١):

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٦٤٧.

قد ودَّ هذا الشهر أن هلاله
 البسته تقوى وألبس حُلَّةً
 وبرزت في جيش تغص به الفلا
 لُجْبُ شكت كف البسيطة ثقله
 لا بد تُعرف بالعراق جياذهُ
 وعلى مطاه دار عون سيوفهم
 وتقيم شرع بني النبي بأرضه
 وقال الفقيه عمارة يصف موكب الخليفة العاضد إلى الجامع
 ليلقي خطبة العيد في المصلين:

عادت إليك أهلة الأعياد ببلوغ آمال ونيل مراد
 ما العيد إلا أن تراك نواظر لولاك ما اكتحلت بطيب رقاد
 وتنير تحت التاج غرتك التي تجلو صدى المرتاب والمرتاد
 وتزور مجلسك المقدس بالهنا أمم تراوح لثمه وتغادي

وصف المظلة:

ويصف المظلة فوق رأسه فيقول:
 وتلوح في ظل المظلة طالعاً كالبدرا أو كالكوكب الوقاد
 وكأنها فلك ووجهك شمسها لولا اعتماد رتاجها بعماد
 حسدت بساط الأرض فيك وما درت أن السماء لها من الحساد
 نشر المدير بها عليك غمامة ذهبية ليست بذات عهاد
 فغدا الوري يتعجبون وقد بدا من تحتها الجودي فوق جواد

(١) أيدع: أحمر اللون.

قد قلت إذ علت المظلة فوق من يعلم محل الأنجم الأفراد
ويصف وصوله إلى الجامع فيقول:

لما برزت إلى المصلّى لابساً ثوب الخشوع وهيبة الأسد
جَلَّتْ الخلافةُ عزّها في موكب يكسو ضياء الصبح ثوب جِداد
شر القتام جيادها فكأنّها مكنون سرّ في مصون فؤاد
متلاطم كال موج إلا أنّه متتابع الأمواج والأزباد
حتى إذا وافيت ساحة مجمع متضايق العرصات بالأشهاد
ويصف وقوفه على المنبر خطيباً فيقول:

قابلت محراب الصلاة وللهدى قبس على قسّمات وجهك بادي
وقضيت نافلة السجود ولم تزل لله أفضل قانتٍ سجّاد
وصعدت ذروة منبر أبقيت في شرفاته شرفاً على الأعواد
ويصف الخطبة التي أبكت المصلين فقال:

ونطقت من فصل الخطاب بخطبة عون الإله لها من الإمداد
دُرفت دموع الخلق عند سماعها واستنجدت بمدامع الأكباد
ذُكرت ناسية القلوب وإنّما نادى رشادك أهل ذاك النادي
وقال في وصف العيد والمظلة والموكب في قصيدة ثانية:

نزلت ليالي الصوم عندك منزلاً ما زال يعمره التقى والجود
ولقيت عيد الفطر منك بغرة أضحى ببهجتها يُهنّا العيد
شوّال عبدك إن رضيت وإنّما تصحيف عبد في الكتابة عيد
وفي وصف المظلة يقول:

ما السر في عود المظلة إنّهُ عود صليب المتن وهو يمد
حَسَدَتْ مظلّتك النجوم لأنّها فلك على شمس الضحى ممدود

وتشرفت لمأغدت ورتاجها
لما برزت غداة فطرك خاشعاً
وعليك من شيم النبي وحيدر
شخصت إليك نواظر الأمم التي
حتى صعدت على ذؤابة منبر
بشرت بل أنذرت بالجكم التي
لئنت قاسية القلوب بخطبة
لا منكر أن تستسكين جوارح
والوحي ينطق عن لسانك بالذي
ووصف خطبة ألقاها الخليفة العاضد في الجامع فقال أيضاً:

زرت المصلى ولولا ما خلعت على
واهتز شوقاً فلو يسطيع منبره
حتى إذا ضاق بالأشهاد واستمعت
لم يبق فصلك في الأفهام من صدا
عرفتهم من طريق الرشد ما جهلوا
ويصف موكب العودة بقوله:

وعدت نحو مقر العز في لجب
مثل الغمام ومن برق صوارمه
ترنو إليك عيون الخلق شاخصة

ويصف علم الخلافة (وهو لواء الحمد)

وراية الملك والإسلام يحملها
أشبهت هدي رسول الله حين بدت
لك اللواء الذي جبريل حمله
على شمائلك الحسنى شمائله

وفي جبينك نور من نبوته وشاهد الحق لا تخفى دلائله
وقال ابن هاني يصف موكب العيد ويمدح الخليفة المعز لدين الله
بقصيدة منها:

لبس العيد منه ما يلبس الإيمان من نصل سيفه البراق
وجلا الفطر منه عن نبوي أبيض الوجه أبيض الأخلاق
رفعت فوقه المغاوير شهياً من قنافي سماوة من طراق
وغمام من ظل ألوية النصر فمن راجف ومن خفاق
وعرين من كل ليث هصور كالح الناب أسجر الحمالق
ويصف المظلة فوق رأس المعز بقوله:

فوقه خيطة اللجين تهادي بيدي كل بهمة مصداق
من عداد البرهان موجودة للخلق فيها دلائل الخلاق
وعندما خرج الخليفة المعز لدين الله في موكبه لإلقاء خطبة عيد
النحر، وصف ابن هاني هذا الموكب بقوله:

في موسم النحر السنيح يروقني فاغض طرفاً عن سنه كليل^(١)
والجوي عثر بالأسنة والظبي والأرض واجفة تميل حميلاً
والأسد فاغرة تمطّي نيبها والدهر يندب شلوه المأكولا
والشمس حاسرة القناع وودها لو تستطيع لتربه تقبيلاً
وعلى أمير المؤمنين غمامة نشأت تظلّل تاجه تظليلاً
نُهضت بثقل الدر ضوعف نسجها فجرت عليه عسجداً محلولا
ذعرت مواكبه الجبال فأعلنت هضباتها التكبير والتهليلاً

(١) السنيح: الجميل.

قد ضمّ قطريها العجاّجُ فما ترى بين السنان وكعبه تخليلاً
رُفعت له فيها قبابٌ لم تكن ظعنأُ بأجزاء الحمى وحُمولا
أيكيّة الذهب المرصّع رفرفت فيها حمامٌ ما دعون هديلاً
وتباشر الفلك الأثير كأنما تبغي بهنّ إلى السماء رحيلاً
تتعرف الصهب المؤثّل حوله نسباً وتنكر شذقما وجدلاً
وتجن منه كلّ وبرة لبدة ليثاً ويحمل كلّ عضو فيلاً
وكانما الجرد الجنائب خرّد سفرت تشوق متيماً متبولاً
تبدو عليها للمعز جلاله فيكون أكثر مشيها تبجيلاً
إن تلتفت فكرادسا ومقانباً أو تستمع فتغمغماً وصهيلاً

وإذا أمعنا النظر في قصائد عمارة التي وصف فيها مواكب
وصلاة وخطب آخر خليفة فاطمي وهو العاضد، وأخذنا بعض
قصائد الأمير تميم بن المعز في وصف مواكب أعياد وصلاة وخطب
أول خليفة فاطمي في مصر وهو والده الخليفة المعز ووصف مواكب
واحتفالات أخيه العزيز، لوجدنا أن الخلفاء الفاطميين المصريين لم
يخرجوا عن سنة الإسلام والمسلمين في هذه الأعياد: صوم، فطر،
فصلاة، فخطبة وقد نقلنا الكثير من أوصاف هذه الاحتفالات والخطب
نثراً وسنعيد الإشارة إليها شعراً لربط أواخرها بأوائلها.

قال الأمير تميم يصف موكباً وصلاة وخطبة للخليفة العزيز:

هنيئاً لك الأعياد يا عيدها الذي به يمنح العزّ المنيع ويوهبُ
وملء فضاء الأرض حولك صاهل واسمر خطيٍّ وعضبٍ مشطَبُ
فسرت بهم مستعصماً بسكينة كأنك من لبس التقى مترقَّبُ
وقمت بهم في منبر الملك خاطباً بما لم يقم ملك سواك ويخطب

وأفصحت حتى ليس إلّاك مفصح وأسهببت حتى ليس إلّاك مُسهب
تبشّر طوراً بالإله وتارة تخوّف من عصيانه وترهب
بياناً ووعظاً قد تناهيت فيهما كأنك لم يسبقك قسٌ ويعرب
وأثبت في الاسماع برهان حكمة يقصّر عنها من يقول ويطنب

واتفق أن جاء عيد مولد الخليفة العزيز بالله نزار يوم عيد الفطر
وهو يوم جمعة فجمع الشاعر تميم بن المعز هذ الأعياد الثلاثة
ووصف بقوله:

ثلاثة أعياد تلاقين جمعةً وفطرٌ وعيد الإمام نزار
كذا قرّر الله المحاسن كلّها عليك أبا المنصور خير قرار
برزت بروز البدر ليلة تمّه وسرت برهبانية ووقار
وقمت خطيباً تورّد الحق ورده وتنصر دين الله غير مُداري
كأنّ ملوك الأرض في الأرض ظلمة وأنت على الأفاق ضوء نهار

وصف موكب الحج:

وفي معرض مدح الملك الناصر ابن طلائع بن رزيك وصف
عمارة موكب الحج المصري فقال:

مددت بساط العدل حتى تصاحبت بعدلك شاة في الفلاة وذيب
وأوجبت فرض الحج بعد سقوطه فأضحى له بعد السقوط وجوب
ويسّرت قصد البيت من بعد عسرة فضاقت بحار بالورى وسهوب
فللفلك في طامي البحار تحذّر وللعيس في بحر السراب رسوب
وكان لبيت الله في كلّ موسم عويلٌ على زوّاره ونحيب
ينادي ملوك الأرض شرقاً ومغرباً ألا سامعٌ يُدعى به فيجيب

فلما أتت أيامك البيض لانقصت ولا خطبتها للزمان خطوب
 بذلت عن الوفد الحجيج تبرعاً مواهب لم يسمح بهنّ وهوب
 سبقت بها أهل العراق وغيرهم وأنت إلى كسب الثواب وثوب
 وأبقيتها وقفاً على البرّ خالصاً وفي برج قوم خالص ومشوب

وصف عيد الغطاس:

كان الأمير تميم من أكثر محبي ومشجعي الاحتفال بعيد
 الغطاس، وقد وصف المقرئزي حراسته للمصريين الساهرين ليلة
 الغطاس على ضفاف النيل قصفاً ولهواً وشرباً ومغنى. وقد قال
 المقرئزي في وصفه نثراً: إن النساء يحملن في قفاف الباعة لشدة
 سكرهن في هذا العيد.

وقد وصف الأمير تميم احتفالات هذا العيد بقوله:

خلّ من ياتمّ بالصلبان يغدو في اختلاط
 وأغد للصهباء نسقاها ونسقى ونعطى
 غطسوا في الماء جهلاً وغطسنا في البواطى
 وشربناها عقاراً خندريساً بنشاط

وقال في وصف النوروز أيضاً:

ليهنك نوروز تباشرت العلا بسعدك فيه واضمحلت به النوب
 وزادت مدود النيل حتى كأنما انتك ارتغاباً تقذف الموج أو رهب
 كأن بنان الماء فاضت على الثرى بمسكٍ ومُجّت فيه عنبرها التُرب
 فقد غصّت الخلجان حتى كأنها مدائن تدعو من جيوشك بالحرب

وصف أخذ مقياس النيل أو احتفالات فتح الخليج:

وعندما قام الخليفة العاضد في موكبه لحضور ومباشرة احتفالات كسر سد الخليج وبلوغ النيل الارتفاع المطلوب وهو ستة عشر ذراعاً وعدة أصابع قال الفقيه عمارة يصف هذا الاحتفال:

شُرِّفَتْ أمير المؤمنين مواسمٌ أضحت تؤرّخ باسمكم وتُسَطِّرُ
قُسِمَتْ كما قُسِمَ الزمان فحاضرٌ لم ينصرم ومقدّم ومؤخّرُ
وأجلّها «يوم الخليج» فإنّه من بينها يومٌ أغرّ مشهَرُ
يوم خلعت عليه ليل عجاجة شهب الأسنة في دجاها تزهّر
يوم كان الجيش تحت قتامة سرّ باثناء الجوانح مُضْمَرُ
ويصف وفاء النيل فينفث فيه الإحساس والمشاعر والوفاء لمصر
ولاهل مصر وللخليفة فقال:

وإفاك فيه النيل وهو من الحيا خجلٌ يقدم رجله ويؤخّرُ
قد جاء معتذراً إليك وتائباً من ذنبه الماضي ومثلك يغذّرُ
لولا تعثره بأذيال الثرى ما كان مذروراً عليه العثيرُ
وعندما يتأخّر النيل عن الوفاء بمائه للمصريين فالخليفة الفاطمي يسد مسدّه:

ولقد عدمناه فنبت نيابةً عزّ الغني بها وأثرى المعسرُ
إن كان من نهر فكفك لجةً أو كان من مطر فوبلك أغزرُ
شئان بينكما: أبحر واحدٌ كيدي أنا ملها الكريمة أبحرُ
في كلّ وقت فيض جودك حاضر فينا ونائله يغيب ويحضر
وعلى الحقيقة لا المجاز فإنّه من نعمة الله التي لا تكفر
كسر الخليج عبارة عن منّةٍ أضحي بها كسر المنية يُجبرُ
فتملّ موسمه وعمراً خالداً تمضي لياليه وأنت مُعَمَّرُ

وقال في وصفه في احتفال آخر أيضاً:

ركبت إلى كسر الخليج وإنما
ولما رأيت البر بحرأ من الظبي
غدوت بفتح السد في زحف أرعن
يرد ظلام النقع فجراً كأنما
كان على البیداء منه صحيفة
إذا خفقت أعلامه وبنوده
ويصف المنطرة المعدة لجلوس الخليفة في احتفالات فتح الخليج
وللنظر منها إلى الاحتفال فقال:

وخيمت في أكناف عالية الذرى
تخاطبها الجوزاء سرّاً وخفية
هي الصرح إلا أن هـامان لم يشد
بمكنون ما لله فيك من السرّ
بنائه ولا استمطاه فرعون للكفر

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

كثرة الأعياد وتدافعها:

قال القاضي الجليس يمدح الملك الصالح طلائع رزّيك ويصف
كثرة الأعياد في مصر^(١):

وهنّئت الأعياد منك بما جد
مواسم قد جاءت تباعاً كأنما
توالت بدار تعتفيك كأنما
فكان لها الأضحى إماماً أمامها
وأعقبه عيد الغدير فلم تخل
تباغت به العليا وهامت به عشقا
تري الفجر في لقياك يا خير من يلقي
تروم لفرط الشوق أن تحرز السبقا
فأرهقه «النوروز» يمنعه الرفقا
لقرب التداني أن بينهما فرقاً

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٨١.

شعر الخمرة والمجون

يجد المطلع على شعر المجون والغزل لدى شعراء مصر الفاطمية أنَّ أغلب الذين نظموا هذا الشعر، من أعيان وعلماء وقضاة الدولة، أي أنهم من علية القوم، فمنهم من نظمه على سبيل التقليد وإظهار طول باعه في سوق النظم، ومنهم من نظمه عن ممارسة نظماً وشرباً وتهتكاً، أمثال الأمير تميم بن المعز. أما شعراء العامة أو شعراء المجالس، كأبي الرقيم وابن عنين وأبي الفتح بن قادوس وغيرهم. كانت الإباحية والتبذل صفة مرافقة لهؤلاء الشعراء. ويحتار الناقد في تحليل هذه الظاهرة: هل هي نرجسية أم شذوذ، هل هي إغراق في الملذات الحسية حتى الشبع والبحث عن غيرها في ما هو مخالف للطبيعة أم كلام بكلام؟ والنصوص التي سنستعرضها فيها الجواب الشافي.

وصف قعدة شرب:

قال الأمير تميم يصف جلسة أنس وشرب:

رُبَّ صفراء علّلتني بصفراء وجنح الظلام جون الإزار

بين ماء وروضة وكروم وندامى لو لم يكونوا من الإنس
 ولباب منيفة وصحاري لماناسبو سوى الأقمار
 بت أسقيهم ويسقونني الراح على طيب صحة الأوتار
 لم نزل نلثم الكؤوس إلى أن دفن الليل في فؤاد النهار
 وقال أيضاً:

أنا ما بين ندامي وراحي وسقاتي
 تملّ لا أعرف الصحو ولا وقت الصلاة
 وإذا نوّمني السكر على تلك الهيات
 لم ينبهني سوى جسّ مثاني الغانيات

وصف دير:

وقال علي بن يحيى بن الصقلي في وصفه^(١):

ألا قم فأسقني راحاً ثوّت في دير قسّيس
 فجاءت وهي في رقة دين الشيخ إبليس
 لدى خزم بستان كهامات الطواويس
 ورثات النّواعير وأصوات النّواقيس
 الأيادي للساري بظلماء الحناديس
 مصابيحك أطلعن نجومأ في فوانيس

وقال الصقلي أيضاً في وصف الخمرة:

خمر ثوى في الشمس حيناً دنّها قبل الثواء بحانة الخمّار
 من عهد كسرى أودعت محفوظة تُحسى مزنة بلا زّار

(١)

لبست قميصاً من تضرّج لونها ومن الحباب تقنّعت بخمار

وينصح نديمه ببيع كلّ ما يملك في سبيلها فيقول:

بادر إلى اللذات مختلساً لها ما دمت فيها غير ذي إقتار

ولك في ابتياعك للعقار إذا خلت كفاك يحسن بيع كلّ عقار

وقال الأمير تميم يصفه^(١):

عمرّت المغاني واجتنبت النواويسا وساعدت في الدير القصيري إبليسا

وهل يهجر اللذات إلا مسوّق ويتركها إلا أمرؤ بات منحوسا

رُبّ عظمتهنّ النصاري ولم أزل أعرس باللذات فيهنّ تعريسا

أصول بقرع البمّ والزير بعده إذا قرعوا عند الصلاة النواقيسا^(٢)

وإن عظمت فيه النصاري صليبهم وحركت الناقوس أو عبت عيسى

فرزعت إلى دين النبي محمّداً وقدّست فيه ربّ أحمد تقديسا

وقال أبو الفتح بن قادوس في وصفها^(٣):

قُمّ قبل تأذين النواقيس وأجل علينا بنت قسيّس

عروس دنّ لم يدع عتقها إلا شعاعاً غير ملموس

مذهبة اللون إذا صُفّقت مذهباً لهمم والبوس

لا غرو ما تأتيه من ريبة لأنّها عنصر إبليس

ليس لها عيب سوى أنّها حسرة أقوام مغاليس

فاغتنم اللذات في دولة صافية من كلّ تعكيس

(١) ديوان الأمير تميم بن المعزّ، م. س. ص

(٢) خريدة العصر، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

(٣) البم والزير: من أسماء أوتار العود.

أهمية شعبان قبل رمضان عند شعراء المجون:

لما كانت رقابة الحكومة المصرية تزداد خلال شهر رمضان وتقيم الحد على كل ماجن وداعر وسكران، كان شعراء المجون يستغلون ضعف الرقابة خلال شهر شعبان ويقضون وطهرهم من الدنيا عن شعبان ورمضان. يقول الشاعر المصري الفاطمي عبد الله بن محمد بن أبي الجوع^(١):

شعبان قد صار نضواً ولم ننفد فيه لها
وليس ذلك منّا جهلاً ولا كان سهواً
فبالمودة إلا بكرت للقصف عدواً
حتى تقوم فنرفو ما خرّق الدهر رفو
من بعد تقديم جذي مُسَمَّنٍ ظلّ يُشوى
له ثلاثون يوماً يحبو إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه عوّضته البقل حشوا
وقد عنيت بجام ملأته لك حلوى
وقهوة بننت كرم صفت من الذم صفوا
ما شعثت قط إلا سطت على الهم سطوا
جنّبت لها كل وغد يمحوا المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا عذب الخلائق حلوا
وشــــاد ن ذى دلال يشدو فيلهيك شدوا
إمّا غناء وإمّا عجائباً عنه تروى
حتى تظلّ بما فيه من وقار كخلوا

(١) الحياة الفكرية والأدبية في مصر، م.س. ص ١٨٢.

وعندنا لك ورد يحدو المسيرة حدوا
ريحانه لا يوازي لونا وعطرا وسروا
فما اعتذارك في أن تفنني زمانك صحوا
وانت بعد ذليل بسالصوم والله تطوى

شرب الخمر في رمضان:

وقال أمية بن أبي الصلت المصري يصف شوقه إلى الخمر في رمضان^(١):

أشهر الصوم ما مثلك عند الله من شهر
على أنك قد حرمت فينا لذة الخمر
وقرع الكأس بالكأس ورشف الثغر بالثغر
وأنني والذي شرف أوقاتك بالذكر
لمسرور بأن تفنى على أنك من عمري

وصف سكران:

يروى المسبّحي أن الكاتب أبا طالب زيد بن أحمد السندي جاء
لزيارة صديقه أبي عبد الله محمد بن جعفر الأنصاري فأخبره
خادمه أنه سكران غائب عن الوعي فترك له أبو طالب هذه الرقعة^(٢):
جئت ياسيدي ومولاي سعيأ لارى وجهك الجميل المحيا
فسالت الغلام عنك فنأدى: هو في داره صريع الحميا

(١) المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد المغربي، ط ٢، القاهرة، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٤، ص ٢٦٢.

(٢) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٤٦.

بنت شمس يسعى بها بدرتُم جمعت للكرام رُشداً وغياً
 فتحققت أن هذين لَمَّا جُمعاً لم يُبقَيا فيك شيئاً
 سرَّك الله كلُّ يوم سروراً دائماً نامياً ولا زلت حياً

وصف أثر الخمرة في الجسم:

ووصف علي بن حبيب الراني الخمرة وأثرها في الجسم
 فقال^(١):

أدر الكأس والمدمام كماء حامل جذوة من النيران
 وعُقار تمازج الروح راحاً لست من حبَّها الغداة بواني
 ذات جسم أرق من رقة الآل وفعل أمضى من الهندواني
 سلسبيل تريك سبل المعاصي كسبيل الصلاح والإيمان
 برزت العقل من ذوي اللَّب جهراً ورميت جرمها على الأديان
 وجرت في العروق كالدم جرياً وأتت بالسماح من كيوان
 وكانت الخمرة تعصر وتصنع في أديرة القبط والنصارى في
 جميع أنحاء الممالك التابعة للدولة الفاطمية في مصر، لذلك وصفها
 الشعراء المصريون في خمرياتهم وقصائدهم المأجنة. ومن هذه
 القصائد يصف، الشاعر المصري أمية بن أبي الصلت دير مار يوحنا
 بقوله^(٢):

يادير مارحنا الناليلة لو شُرِيت بالنفس لم تبخس

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٥١.

(٢) الديارات، أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، ط ٢، بغداد، مطبعة دار المعارف، سنة ١٩٦٦، ص ٤٠٦.

الأئمة الأربعة لم تمنع شرب الحشيشة:

كنا قد أشرنا إلى أن المقرئزي أفرد فصلاً كاملاً عن الحشيشة وتاريخ ظهورها في مصر وأثرها في النفس وأطلق عليها لقب: حشيشة الفقراء.

يقول محمد بن علي بن الأعمى الدمشقي في وصفها^(١):

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبي من التترك أغيد يميز على غصن من البان أملد
يرنحها أدنى نسيم تنسّمت فتقفوا إلى برد النسيم المردّد
وفيها معان ليس في الخمر مثلها فلا تستمع فيها مقال مُفَنّد
هي البكر لم تنكح بماء سحابة ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبث القسيّس يوماً بكأسها ولا قربوا من دنّها كلّ مُقَعِد
ولا نصّ في تحريمها عند مالك ولا حدّ عند الشافعي وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عيّنّها فخذها بحدّ المشرقي المهند
وكفكف الهمّ بالكف واسترح ولا تطرحنّ يوم السرور إلى غد

وقال في وصفها أيضاً أبو الحسن علي بن عبد الله الينبُعي^(٢):

رُبّ ليل قطعتّه ونديمي شاهدي وهو مُسعمعي وسميري
مجلسي مسجّد وشربي من خضراء تزهب بحسن لوّنٍ نضير
قال لي صاحبي وقد فاح منها نشرها مزرباً بنشر العبير
أمن المسك؟ قلت ليست من المسك ولكنّها من «الكافوري»

(١) الخطوط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٢٧.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٧٥.

وهو يعني أنها مأخوذة من البستان الكافوري الذي كان أحد أهم منتزهات الفاطميين، ورائحة العبير تصبح مزرية أمام رائحتها. وشبه الشاعر مجلس التحشيش بالمسجد. وكلها معان جديدة لم يسبقهم أحد إليها.

وصف تهتك الناس وسكرهم يوم الخليج:

كانت احتفالات أخذ مقياس النيل أو كسر الخليج من الاحتفالات والأعياد المهمة عند المصريين في الدولة الفاطمية. وكانت هذه الاحتفالات تستمر أكثر من أربعة أيام بلياليها، ويشترك فيها الخليفة والوزير وكبار القواد والأمراء. وكان للخليفة منظر (مقصورة) عالية في وسط النيل يحيط بها الماء من جميع الجهات، يقف فيها الخليفة وكبار موظفي الدولة حوله للنظر إلى طريقة فتح السدود وأخذ المقياس. وقد كان السكر وشرب الخمرة يصل بالناس إلى حد التهتك. وقال المقرئ أن النساء المغمورات كنَّ يُحمَلن في قفاف الحمالين من شاطئ إلى شاطئ. وقد وصف شهاب الدين ابن العطار هذا التهتك بقوله:

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم ما أحسن السر قالوا العفو مأمول
ستر الإله علينا لا يزال فما أحلى تهتكنا والستر مسبول

والتخليق: رش العطور، فقد كان من عادة الفاطميين أن يرشوا عمود المقياس بالعطور تكريماً للنيل، ثم يعودون ويرشون وجوه الصبيان: «يخلقونهم».

التهتك أطيب من التستر:

قال الشاعر أبو محمد ابن وكيع التنيسي يذم التستر والوقار في الشرب ويفضل عليهما مداعبة المردان^(١):

لا تأمرني بالتستر في الهوى فالعيش أجمل في ركوب العار
إن التوقر للحياة مكدر والعيش فهو تهتك الاستار
من تابعت أم المروءة نفسه فنيت من الحسرات في الأفكار
خوفتني بالنار جهدك دائباً ولججت في الإرهاب والإنذار
خوفي كخوفك غير أنني واثق بجميل عفو الواحد القهار
والسرور لا يوجد إلا في حانة الخمار:

فانهض بنا نحو السرور فإنه ما زال يسكن حانة الخمار
فاشرب معتقة كأن نسيمها مسك تضوؤه يد العطار
أحكامها في العقل إن هي حكمت أحكام صرف الدهر في الأحرار
يرضى على الأقدار شاربها الذي ما زال ذا سخط على الأقدار

ويصف الساقى وبالطبع هو إما يهودي أو نصراني:

لا سيما من كف أغيد شادين يسبي العقول بطرفه السمّار
قد غيب الزنار دقة خصره حتى ظننناه بلا زنار
وبالرغم من أنه نصراني ولكن حجة على المسلمين قوية بسبب حسنه وجماله:

متنصر قويت على إسلامنا بالحسن فيه حجة الكفار
قالوا: أيصنع مثل هذا ربكم ويرى فساد صنيعه بالنار

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، الجزء الأول، م.س. ص ٣٩٠.

ويصف مُغَنٍّ عواد شريكهم في جلسة الأنس والشرب فيقول:

مع مُسْمِعٍ حلفت له أوتاره أن لا تنافر رنة المزممار
فَطِنْ يَحْرِكْ كُلَّ عَضْوٍ ساكن تحريكه لسواكن الأوتار
شَدَوْ إِذَا الحُلَمَاءُ زار حُلومهم باعوا بطيب السخف كلُّ وقار
والشدوا أحسنه الذي لم يستمع إلا أطار العقل كلُّ مطار
وقال أيضاً في وصف الساقى^(١):

لا سيما من كفَّ ظبِّي لم يُشْنُ بفرط طول لا، ولا فرط قَصْرُ
له سهام من لحاظٍ ضَيِّبٍ كأنما يرمين عن قوس القَدْرُ
مُتَزَنَرٌ شَكَّ كُنِي في دينه حتى أحلت الكفر فيمن قد كَفَرُ
لأنه كالخور في تصويره والخور لا يسكنها الله سُقْرُ
لو لم يكن زناره في وسطه يمسك ضعف الخصر منه لا نبتر
وبان منه نصفه عن نصفه لكنَّه جاء له على قَدْرُ
إن قلت يحكي قمرأ عَنَّفني عقل له أعدمه عند القمر
يا لك منه منظرأ أشهى إلى قلبي من جنة عدن أو أسر

وقال أبو عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن فلاح في وصف
خذَّ معشوقه الذي لا فرق بينه وبين الورد^(٢):

قرنت بالورد خدًّا أرقُّ مننه وأندي
فضارع النور نوراً وعانق الورد وردا

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، م.س. ص ٣٨٨.

(٢) أخبار مصر في سنتين، المسبحي، م.س. ص ١٠٥.

وقال علي بن عبد الرحمن الحاسب المقرري يصف نعومة خدّ
محبوبه الذي شابه المرأة في صفائه^(١):

يجري النسيم على غلالة خدّه وأرقّ منه ما يمرّ عليه
ناولته المرأة ينظر وجهه فعكست فتنة ناظره إليه

علي بن حبيب الراني يتغزل بيهودي:

وقال علي بن حبيب الراني الدلال يتغزل بولد يهودي^(٢):

رقّ لي رحمةً وعنيّ فإني قد عناني من النوى ما عناني
أنت سمعي وناظري وفؤادي وحياتي ومهجتي وجناني
وعذابي وكشف فرط عذابي وأماني وروعتي في أماني
لك خدّ أرقّ من رقّة الماء وقلب كالصخرة الصوّان
إن عيناً تراك في كل يوم هي عندي من العمى في أمان

أبو الرقعق يصف ما يسبب له الشبق الجنسي من مشاكل:

قال أبو الرقعق يصف ما يسببه له الشبق الجنسي من مشاكل
مع الجميلات والغلمان المردان^(٣):

كل يوم أنا من (...) في أمر عجاب
ليس يخليني من هم وحزن واكتئاب
لم يدع لي ذهباً إلا رماه بالذهب

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع السادس، م.س. ص ٣٠٠.

(٢) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٥٤.

(٣) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٣٢٨.

وابتدى المشؤوم أن يعمل في أمر الشباب
 هل مجير لي منه أهل ودي وصحابي
 وإلا تبت والرحمن من لعب الكعاب
 أنا مبلي من بلاياه بنصب وعذاب
 أنا لولاه لالفيت قليل الإضطراب
 وتجريت بنزر من طعام وشراب
 لعنة الله عليه وبراغيث الكلاب
 فلکم أوقفني موقف خزي واكتئاب
 ولكم أغلقت باباً من هواه دون باب
 رب قد أبليتني منه بمعتوه مصاب
 عينه في كل من دب على وجه التراب
 ثم لا يرضيه منه غير دبر مستطاب

الشریف ابن هبة الله العلوي، بفضل العیش بین غادة وأغید^(١) :

خلعنا الصُّبَا ولبسنا الوقارا	وكان الشباب رداء مُعَارا
وياربماليلة قد خَطَرْتُ	إلى اللهو يُرْخى مَراحى الإزارا
أردُ مشورة رأى النُّهَى	عليه وأرْضى الهوى مستشارا
ليهنك يا عاذلي أَنني	ملكْتُ على صَبَوَاتي الخيارا
رَقْتُ دمعهُ الشوق من ناظري	وخَلَفْتُ غيري يبكي الديارا
ولم تُنسِنني عَفَّتِي غادة	تَزِينُ المعاصمُ منها السَّوارا

(١) خريدة العصر، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ١٢١.

إذا انتقبت قلت بدر التما م لاث عليه الغمام الخمارا
ولا أغيد الجيد أمسى يدي ر من طر فيه ويديه العقارا
إذا هو أزعف إبريقه كست يده كاسه الجلائرا
تخال فواقعها لؤلؤا وفي سلوكه ودموعا غزارا
إذا الماء عائب أخلاقها رأيت الشقائق منها بهارا
تضيء لنا فحومات الظلا م من قبل أن يقبس الفجر نارا
وبين الوشاحين منه القضيبة وتحت الحقاب نقأ حيث دارا

شعر المباسطات الإخوانية

الشعر الإخواني أو شعر المباسطات الإخوانية، قديم قدم الشعر العربي، وهو شعر السخف والهزل والهجاء في معرض المزاح والتسلية، وكان هذا الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام، يمر لمحات قصيرة في القصيدة الواحدة، وخاصة في شعر الحطيئة وشعر شعراء النقائض، جرير والأخطل والفرزدق، ولم يأخذ شكل المقطوعة أو القصيدة الكاملة إلا في العصر العباسي الأول، في شعر شعراء المجون والشعر الإباحي أمثال النواصي والحسين بن الضحاك، الخليل، وبشار بن برد، وكشاجم والسري الرفاء الموصلي.

وإذا كانت الدعابة والنكتة الحلوة وما تزال من أهم مميزات الشعب المصري، فكيف ولو صيغت هذه الدعابة أو هذه النكتة بكلام جميل موزون مقفى مموسق مغنى؟.

جلسة شعر على أكلة دجاج:

قال الحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط يدعو الأمير المختار محمد بن عبيد الله المسبّحي على ديك «مصلوق»^(١):

عندي شراب مُرَوِّق وبركة تتدفق
وصائح أسكتته سيّكيننا وهو يُصلق
وأَمَّه وخسوات في جاحم النار تحرق
وبنت بُرّعليها أدهانها تترقرق
فاسبق إليّ فما زلت في المكارم أَسْبَقُ
ولا تواني فما زلت من تسوانيك أفرق
وكلّ ما قبلت في الشعر فهو يهوى ويغشّق
وسوف تلقى مطاياي تحت دارك تَعْتَقُ
فكلّ من باع لهواً بضدّه فهو أحْمَقُ

لعبة الصفع:

عندما كنت طفلاً وذلك في منتصف القرن العشرين سنة ١٩٥٠ وكان لي من العمر سبع سنوات، كان الأولاد يلعبون لعبة اسمها لعبة الصفع، ومفادها، أن يعطى أحدها ظهره ويضع يداً على خده يغطي بها طرفه واليد الثانية مبسوطة على طرف ظهره، ونبدأ نحن بصفعه على يده، وعليه أن يعرف من صفعه، وإذا عرفه، فيقف مكانه يتلقّى الصفعات، وهكذا دواليك. وربما هذه اللعبة ورثناها عن أهلنا

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٢٠.

وآبائنا، وقد وصف هذه اللعبة أبو الرقعق بطريقة تشير إلى أنه كان مغرماً بها.

يقول أبو الرقعق^(١):

تحيّرت فما أدري الذي أصنع في أمري
ولكنّي للحيرة سكران بلا سكر
كأنّي لست مخلوقاً لغير الجهد والضرّ
فماذا أصنع في مصر إذا لم أحظ في مصر
وفي الأفاق أقوام يميلون إلى شعري
ونُبتت بأن القوم لا يخلون من ذكرى
فقيم التّرك للسّير؟ وهل في ذاك من عذرٍ
وقد قدّمت أثقالاً وسيري غرّة الشّهر
فأما كثرة الحمق فقد سيّرت في البحر
وباقية معي يذهب فسي البرّ على ظهري
ولا أترك في مصر لذكر الحمق من أثر
ومن يلعب في الرّأس من العصر إلى العصر
ومن من شدّة الصّفْع له رأس بلا شعْر
ومن هامتْه أقوى على الصّفْع من الصّخر
ومن يضطرّ في الذّقن بلا كيّل ولا حزر
ومن ينتف بالدبق سبالات بني البظر
ولكنّي فلا كنت لمافي من الكبر

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٢٢٢.

أذا أمراني الصفع تجشّأت من الدبر
وهيهات ترى صفعاً لغيري أبداً يُمري

وقال في وصف لعبة الصفع أيضاً:

عجب ما مثله عَجَبُ فعلوا بي غير ما يجب
قرقرت بطني فواحنني ذقن من بالسلح يختضب
هرباً من شرّها هرباً فعسى أن ينفع الهرب
حزني أني مُذْزَمَن ما لعبناه ولا لعبوا
ولكم بتنّاعلي طرب رؤوس القوم تستلب
وكؤوس الصفع دائرة ملؤها اللذات والطرب
وانتهبناها وهامهم وأكف القوم تصطخب
وكان الصفع بينهم شغل النيران تلتهب

وصف ممارسة العادة السرية:

وقال أبو الرقعمق يصف ما فعلت به كثرة ممارسته العادة
السرية^(١):

قد أجمع الناس أن حُمَقي أحسن من عَفَتي وديني
قد عشت دهرأ أعول عقلي والناس إذ ذاك يبعدوني
فمذتحامقت قد كسانني حمقي وقد عالني جنوني
ومن بلائي أبو عمير مُعَرِّضٌ لي إلى المنون
منتصب ما ينام وقتاً وليس يهدأ من الرنين
من كان ذا زوجة فإني لشقوتي زوجتي يميني

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٢٤٢.

عميرة قد جلدت حتى خشيت والله يجلدونني
فراقبوا الله في أموري فطلقوها وزوجوني

باب الأمير مغلق:

جاء عمارة اليمني لزيارة الأمير نجم الدين بن مجير السعدي
شقيق الوزير شاور، فوجده مغلقاً فترك له هذه الرقعة مع الحارس:
أتيت إلى بابك المرتجى فألفيته مغلقاً مرتجاً
فقلت لبوابه سائلاً أيغلق باب النهى والحجاء
فقال: أراك كثير الكلام وعندي من الرأي أن تخرجاً
ولا تنتفت سبيل المديح والحقها بسبيل الهجاء

خطير الملك يعد الفقيه عمارة بعمامة ملوكية:

وعد خطير الملك الفقيه عمارة بعمامة دمياطية مخرمة مؤشاة
وتأخر في إرسالها فكتب إليه الفقيه عمارة^(١):

رأيتك في المنام بعثت نحوي بحاملة الحيا وهي الغمامه
فاولت الحيا حياك مني وصحفت الغمامة بالعمامه
فأنفذلي بأطول من حسابي إذا حضرث في يوم القيامة
ولاتك يا خطير فدتك نفسي قديمة مدة لحقت قدامه
وأرسلها وختم الشرب فيها كخود فوق وجنتها عرامه
كان بياضها وجه نقي وحسن الرقم فوق الخدشامه
ولا تبعث بقيمتها فإنني أراه من التكلّف والغرامه

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الثاني، ص ٩٥٢.

وليس القصد إلتاج فخر يطول قامة ويصون هامه
وما هذا المديح سوى أذان فقل لنداك حيي على الإقامة

الشاعر الوضيع يحيى بن علي مفتي الديانة النواسية:

قال الشاعر الوضيع يحيى بن علي يصف ديانة الحسن بن
هاني أبي نواس^(١):

أنا نائب الشرع النواسي دعني وباطيتي وكاسي
أهوى الغزاة كاعباً وأهيم بالظبي الخماسي
من كل معتدل رشيق القدم مشوق خلاسي
متعكرش فإذا اختبرت وجذت منحل الأساس
لكن لإفلاسي حبيت البسامري بلام أساس
لي منزل لا شيء فيه كأنه كيسسي وراسي

رخاء عراق العباسيين خراء:  مركز تحيية تكملة لدراسات

قال الشاعر المصري جعفر ابن الزبير بعد عودته من العراق^(٢):
وكم قائل لي سافر إلى بلاد العراق تقع في الرخاء
لعمري لقد صدقوا في الرخاء وقعدنا ولكن بتقديم خاء
ويتأسف على المقادير التي ساقته إلى بغداد فيقول:
وما قصدنا بغداد شوقاً لأهلها ولا خفيت مذقاً أخبارها عنا
ولا أننا اخترنا على مصر بلدة سواها ولكن المقادير ساقتنا

(١) خريدة القصر الجزء الثاني، ص ٥٧.

(٢) م.س. ص ٦٧.

وتزعج هذه الأبيات العماد الأصفهاني فيعلق عليها بقوله: «هذه
الأبيات أودعها الشاعر رسالة عملها في ذم بغداد وكفاك ذلك دليلاً
على غباوته وقساوته وغلظ طبعه ومرض قلبه».

ابن مكنسة على طريقة أبي الرقعمق^(١):

أنا الذي خدّكُم عنه أبو الشُّمقُمق
وقال عَسُنْسي إنسنسي كنتُ نديم المُتَّقِي
وكنْتُ كنتُ كنتُ من رُماسة البُنْدُق
حتى متى أبقي كذا تيساً طويل العُنُق
بل خِيّة مُسبّلة وشارب مُخَلَّق
يا ليتها قد خلقت من وجه شيخ خَلَق
وقال أيضاً^(٢):

عشتُ خمسين بل تزيد رقيعاً كماري
أحسبُ المُقلُّ بُندُقاً وكذا الملح سُكُراً
واظنُّ الطويل من كـ لُ شـيءٍ مُدَوِّراً
قد كِبِرْ بِرْ بِرْ بِرْ بِرْ وعسقلسي إلسي ورا
عجباً كيف كلَّ شـيءٍ أراه تُفْـيـراً
لا أرى البَيْضَ صارِيؤُ كلِّ الأُمُقْـشُـراً
وإذا نُقِّ بالـحـجـا رزجـاجٌ تـكـسـراً

(١) م.س. ص ٢١٤.

(٢) راجع: الحياة الفكرية والأدبية في مصر، م. س. ص ١٨٧.

ابن قلاقس يداعب صاحباً له اسمه ابن عدلان^(١):

يا بُنَّ عَدْلان يا أخس الرجال	والذي تستحقُّ نتفَ السُّبَالِ
لك وجه الحمار لكن عليه	لحية علقت كبعض المخالي
مذ عددناك في الشهود علمنا	أن بعض الشهود شرطُ النُّعالِ
باشرت رأسك الفراء فلاقت	جلدها في صلابة السندالِ
أي شيء سمعت يا أحمق النّا	س بأن عَشَّرت إناث البغالي
يضع الخط بالشهادة جهلاً	وهو خط مخطط الأشكالِ
إن عرفت الهجاء والخط فاقراً	بعض ما قد أتى من الأقوالِ
قد جعلنا على دماغك حقاً	كل جيم وكل لام ودالِ
ورأينا المسافرين من الغر	ب اتونا عنه بداء عُضالِ
أخبرونا بأن عندك بنتاً	وهي تنمى إلى ثلاثِ رجالِ
شركة في النساء كالشرك بال	لقد بوئت خاسراً بالضلالِ
والعبيد الذين عندك قبلاً	عندك قولاً يقضي بصفع القذالِ

سرقة ثياب ابن قلاقس وهو يسبح:

وقام بعض أصحابه فسرَقوا له ثيابه وهو يسبح فنظم هذه القصيدة^(٢):

إن كنت يوماً مُعِينِي عند نازلةٍ	فالْيَوْمَ إِنِّي بَيْنَ الظفرِ والنابِ
ما زلت أملكُ أسلاب الملوك إلى	أن مُلِّكْتُ سوقَ الأَقْوامِ أسلابي
وكم فتى بات محراب الوغي فغدا	بغارة اللصِّ محروباً بمحرابِ

(١) ديوان ابن قلاقس، ص ٢٧١.

(٢) ديوان ابن قلاقس، ص ٢٦٩.

قالوا الثواب عن الأثواب قلت لهم
واضيعة العضب لا جفن يُصان به
وقد دعوتك والاسماع مصفية
وسوف اكسوك من نسج الثنا حلاً
فجد بها عمة كالتاج باهية
وهذه قسمة بالحق ناطقة
كم واصل الدهر من هم وأوصله
خُذُوا ثوابي وِرْدُونِي لِاثوابي
وأي جفن لماضي الحد قرصاً
إلى استماع جواب منك جواب
مطرزات بتصنيع وآداب
ودع سواك لإحرام وجلباب
رُوس لروس وأذناب لأذناب
وكم فتى من بني الجباب جباب

وقال ابن قلاقس يصف لحيه صاحبه^(١):

جاءنا يحمل ذقناً حسبك الله وخسبي
شعرها لو كان شعراً كان مثل المتنبي
تركبت صدرته السبابة داء منها تحت قلب
وهي فوق الصدر قدس تدنو من شرق الغرب
لحيه ردة في التنا من لا ضرر طعة وفب

أبو الرقعمق يتحامق^(٢):

كُتِبَ الحصير إلى السرير
فلما لها ضرب الأمية
فلا منعن حمارتي
لا هم إلا أن تطي
فلا خبرنك قصصتي
أن الفصيل ابن البعير
رأى طباهاجة بغير
سنتين من علف الشعير
ر من الهزال مع الطيور
فلقد وقعت على الخبير

(١) ديوان ابن قلاقس، م.س. ص ٢٧٦.

(٢) بيتمة الدهر، الثعالبي، الجزء الأول، ص ٣٣٩.

إن الذين تصافعوا
 أسفوا علي لأنهم
 لو كنت ثم لقائل: هل
 ولقد دخلت على الصديق
 متشمرأ متبخرأ
 فأدرت حين تبادروا
 يا للرجال تصافعوا
 لا تغفلوه فإنه
 هو في المجالس كالبحر
 ولا تذكرن إذا ذكر
 ولا حرزن لأنهم
 رخلوا وقد خبزوا الفطير
 لا والذي نطق النذير
 ما للإمام أبي علي
 بالقصر في زمن القشور
 خضروا ولم أك في الحضور
 من أخذ بيد الضرير؟
 ق البيت في اليوم المطير
 للصفع بالدلو الكبير
 دلوي فكان عمى المدير
 فالصفع مفتاح السرور
 يستل أحقاد الصدور
 ر فلا تملأوا من بخور
 ث أحبتي وقت السحور
 لما دنأ ضج القدر
 ر ففائهم أكل الفطير
 في بفضل يوم الغدير
 في في البرية من نظير

أبو الرقعمق يحدّد مواصفات البنت التي أحبها^(١):

أظن ودادهما من غير نيّه
 فتاة لا تمل عذاب قلبي
 ولا ذنب له إلا التوافي
 ويعجبني التمنع والتشاجي
 فوا أسفعا على حرّ عزي
 وهل هي فيه إلا مدعيّه
 ولا تخليه وقتاً من أذيّه
 لمن في الحب ليست بالوفيه
 من الخور الممنعة الشجيه
 أخارز على عظم الرزيّه

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٣٢٩.

ومنها:

وذلك أن (...) فيه رطلٌ
ومن بعث المدام فليس بد
فَئِمَّ هناك حرٌّ شافعي
ونفسي غيرُ مائلة إليها
أحبُّ دنوها وتحبُّ قربي
وما لاقيتها إلا تلاقِي
وهذا الرأي لا رأيي سواه
ولا عيش سوى تقلاب بظر
على أني أقول بكل شيء
ولا السوي على أحدي راني
ولكنني أقول بمدح قُرم
ومن نال العلا حَجًّا ومجداً
تشابه خلقه والخلق حسناً
تشاهد منه طوداً مشمخراً
له الأعلام كيف يشاء تجري
كانَّ اللفظ في القرطاس زهر

ونظم ابن قلاص هذه القصيدة على طريقة أبي الرقعمق^(١):

يا هذه لا تنطقي
أما علمت أنني
أصبحت صبا هائماً
بسُّكٍ لا تنقنقي
أصبحتُ شيخَ السحمق
بثوبِي الممزوق

(١) ديوان ابن قلاص، م.س. ص ٦١٨.

فطَبَّلي من بعدنا
وارعدي من غضب
ودفّفي وبعدنا
أنا الذي فقت الوري
أنا الذي طفت بلا
أنا الذي يا اخوتي
والتين والجوز مع الـ
يا هذه تعطّفي
أما أما أما
في جوسقي مرتفع
ها فانظري وجهه هلا
كزورقي من ذق
والماء في النهار غدا
كذلك لون الاقحوا
والورد كالخد كما النـ
ويلاه من مهفهف
ذي وجنة اسيلة
وشعرة مسودة
وقامة تسمى كالـ
يا حسنه يختال في
فشمر الكم إلى
ورام أن يقفز بالـ
علقتة وصرت من

إن شئت أو فبوقتي
علي أو فابريقي
فإن أردت صفّقي
من قبل لبس البخنق
دالغرب ثم المشرق
أحب أكل الفستق
فاني يد ثم البندي
توقفي ترفّقي
أن لنا أن نلتقي
ناهيك به من جوسقي
للفطر فوق الأفق
أكرم به من زورقي
مثل الحسام الأزرق
نمثل لون الزئبق
رجس مثل الحديق
ممنطق مقرطق
محمرة كالشفق
مثل اسوداد الغسق
غصن الرطيب المورق
ذاك السقباء الأزرق
دورين رأس المرفق
بلى عريض الخندق
فرط الهوى في قلبي

إيه ومن وجدي به أمسكته في الطريق
ولا أخاف عاذلاً يعذلني في حرقى
ولست بالصب الذي قول الوشاة يتقي
يا عاذلي دع عذلي فليتني لم أخلق
فالناس لا شك إذا منهم سعيد وشقي
أما السعيد فالإما الحافظ البر التقي
وكل من يحسده فهو مدى الدهر الشقي

ثم انظر إلى هذه المقطوعة في وصف منزله وما به من صور
ضاحكة ساخرة:

لي بيت كأنه بيت شعر لابن حجاج من قصيد سخي
سابقته بنات وردان حتى أنا فيه كفارة في كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله، وهو مثل عقلي الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحى والأنوف
بقعة صدم مطلع الشمس عنها فأنا مذكنتها في الكسوف
فتباً لريح السراويل فهي أوقع من الحتوف في الأنوف.

وقد وصف الكاتب محمد كامل حسين هذا النوع من الشعر
بقوله: «ولا نستطيع أن نذكر هنا هذه الأشعار الكثيرة الماجنة التي
جرت على السنة شعراء مصر في هذا العصر لما فيها من فحش،
فهي لون من ألوان الأدب المكشوف الذي عرفت به مصر في هذا
العصر والعصور التي تليه، ولا سيما في الأدب المصري الشعبي.

ومهما يكن من شيء فإن الشعر المصري الرقيق استمر تياره طوال
العصور الوسطى، وتطور في أيامنا هذه إلى هذا الشعر الحديث الذي

يتعمّد فيه الشعراء إلى طرح عمود الشعر القديم والعناية بالصورة الفنية والموسيقى الداخلية دون الاهتمام بالوزن والقافية».

وبعنوان شعراء التحامق قال كامل حسين أيضاً:

ظهر في هذا العصر الذي نؤرّخه فن يكاد يكون أقرب فنون الشعر إلى نفسية الشعب المصري، وهو شعر فكاهي خالص يتعمد فيه الشاعر إلى إضحاك الناس ولكن الضحك يكون من الشاعر نفسه في أغلب الأحيان، فهو يصوّر نفسه في صور كاريكاتورية متتابعة، ويصف نفسه بصفات ساخرة، وكثيراً ما يتعمّد إلى السخف في القول وفي الصور حتى يظهر حمقه، وأحياناً كان يعمد الشاعر إلى القصائد القديمة المعروفة بين الناس فيمسخها ويغير ألفاظها حتى تظهر القصيدة القديمة في مظهر جديد فكاهي. أحب المصريون هذا اللون من الشعر الفكاهي، وعمد إليه بعض شعراء الفكاهة في كلّ العصور الوسطى بل لا نزال نراه إلى الآن في مصرنا الحديثة في هذه الآثار التي نقرأها للمرحوم حسين شفيق المصري وعبد السلام شهاب ومحمد الهياوي ومحمد مصطفى حمام من شعراء الفكاهة في العصر الحديث فقد أطلقوا على شعرهم (الشعر الحلمنتيشي) بينما نطلق عليه شعر التحامق، على أن شعراء التحامق كانوا يجيدون في إنشاد الشعر الجزل الرصين بجانب شعرهم الفكاهي، فالشاعر أبو الرقعمة الذي عاش في عصر الأخشيديين وأدرك عصر الفاطميين كان أكثر هؤلاء الشعراء نظماً لهذا النوع من الشعر^(١).

(١) الحياة الفكرية والأدبية في مصر. م.س. ص ١٨٤.

الفخر والحماسة

كان الإنسان العربي ولا يزال سجين ذاته، محباً للظهور، مقارناً نفسه بغيره من أبناء جنسه وعشيرته وقومه. يتفاخر بما يملك ويفخر الآخرين ببطولاته ومواقف عزه.

والفخر هو إظهار مميزات الإنسان على غيره من أهله بكلام جميل يتوافق مع هدف الإظهار، أو إظهار تمايز عائلة على عائلة أو قبيلة على قبيلة أو أمة على أمة، بكلام حماسي يثير المشاعر ويدعو للنشوة والاستعلاء والزهو.

وقد عرف الأدب العربي الفخر منذ عُرف الأدب، فالشعراء الجاهليون تفاخروا بأحسابهم وأنسابهم ومعاركهم وأيامهم وخيولهم المميّزة الأصيلة وسيوفهم الصقيلة.

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة والانفعال العميق، جاء شعر الفخر والحماسة حافلاً بالمغالاة، مضخّم الخيال، كما جاءت الحقائق التاريخية فيه أقرب إلى الأسطورة، لتدافع الألفاظ وتنافر الحروف وتفجّر النفوس المرافقة لقعقة السلاح وصهيل الخيول.

ولم يخرج شعر الفخر والحماسة المصري أيام الدولة الفاطمية
عن إطار الصورة العامة للفخر والحماسة في الشعر العربي.

فالإنسان العربي المصري بمسلميه ومسيحيه، من نسيج هذه
الامة، وشعره الحماسي جزء من الملحمة الشعرية العربية عبر
التاريخ، وخاصة إذا انتسب شعراؤه إلى أهل بيت النبوة، «علي
وبنوه، أشرف الخلق ووارثو علم النبي وخلفاؤه على الأرض».

الأمير تميم يفتخر:

قال الأمير تميم يفتخر ويتفاخر بأصله ونسبه ومحتده:

أنا ابن المعزّ سليل العلا وصنو العزيز إمام الهدى
سمابسي مَعْدُ إلى غاية من المجد ما فوقها مُرتقى
فرحت بها فاطمي النجار حُسينيّة علوي الجنى
ومنا الإمام العزيز الذي به عاد سيف الهدى منتضى
يقود إلى الحرب من جنده أسود رجال كأسد الشرى

ويخاطب أخاه الخليفة العزيز مفتخراً فيقول:

فيا بن الوصي ويا بن البتول	ويا بن نبي الهدى المصطفى
ويا بن المشاعر والمروتين	ويا بن الحطيم ويا بن الصفا
لك الشرف الهاشمي الذي	يُقَصِّرُ عنه عُلّا من علا
فمن حدّ سيفك تسطو المنون	ومن بطن كفك يُبغى الندى
ولو فاخرتك جميع الملوك	لكانوا الظلام وكنت السنا

الأمير تميم يفتخر بالدولة الفاطمية:

وقال يفتخر بانتسابه للدولة الفاطمية:

إمامة مهديّة اللواء ودولة دائمة البقاء
محفوفة بالعزّ والبهاء عمّمت بالعدل بني حواء

ويخاطب أخاه الخليفة العزيز مفتخراً به:

كأنك المقدار في الإمضاء وكلّ من عاداك في ضراء
وكلّ من والاك في سراء أنت اعتمادي وبك اعتلائي
لا والدم الجاري بكر بلاء ومن بهامن دائم الثواء
بني عليّ وبني الزهراء ذوي التناهي وذوي العلاء
ما حلت عن مستحسن الصفاء فيك ولا عن خالص الوفاء

وقال يتفاخر على بني العباس:

أنا ابن من بشر المسيح به وقُدِّمْتُ نعت وصفه الرسلُ
محمد خير من بدا وقدى وخير من يحتفي وينتعلُ
أبي الوصي الذي به اتضحت للناس طرق الرشاد والسُّبُلُ
وأمي البرّة البتول ومن كل نساء الوري لها خول
رھط بني الهوى وأسرته والخلفاء الأئمّة الدلّ
شرّدتم جعفرأ وشيعته بغير ذنب جنوا ولا افتعلوا
والحسينيّون طالما تلفوا بحدّ أسيا فكم وما قتلوا
ثم قتلتم موسى الرضا خدعاً لأمّكم بعد قتله الهَبْلُ
ويع بني عمّ أحمد شربوا ولحم أبناء بنته أكلوا

يا آل عباس أنتم لبني
 لا حجتني يدي ولا اتسعت
 إن لم أزركم بجحفل لجب
 الزهراء ثارٌ وقد دنا الأجلُ
 إلى بلوغ العلا بي السُّبُلُ
 سماؤه البيض والقنا الذُّبُلُ
 ويفاخرهم بجده فيقول:

أجدكم كان مثل جدّهم
 بدرٌ وأخذٌ وخيبرٌ وربا
 ومن أطاع النبي مجتهداً
 لله آل الوصي من نفر
 هم ليوث الأنام إن جبنوا
 يا آل عباس ما ادعأؤكم
 قدّمنا الله ثم أخرجكم
 نحن بنو أحمد الذين بهم
 نحن كفلنا النبي منذ بدا
 ونحن أبناؤه وعترته
 كأننا في دُجى الأمور ضحى
 صلّى علينا الإله ما نُصِرَتْ
 والحرب بالمشركين تشتعل
 مكة يعلمن من له الأولُ
 مجاهداً لا يعوقه كسل
 مانكبوا عن ثقي ولا عدلوا
 وهم هداة العباد إن جهلوا
 إن شألنا السهل منه والجبلُ
 غنا فما أن لكم بنا قبلُ
 يدعوا إلى ربّه ويبتهل
 حتى استطالت بأمره الطولُ
 ونحن أنصار دينه القُتْلُ
 وأنتم في صوابها خَطْلُ
 بنا العلا والسماح والمِلْلُ

وقال الأمير تميم قصيدة يفتخر بها بنسبه وأهله على بني العباس^(١):

جَاذَكَ الْغَيْثُ مِنْ مَحَلَّةِ دَارٍ	وَتَوَى فَيْكَ كُلُّ غَادٍ وَسَارٍ
يَا طُلُولَ الْوَيْ غَدَوْتَ رَسُولاً	دَارِسَاتِ الْأَعْلَامِ وَالْأَحْجَارِ
بَعْدَ مَا كُنْتَ مَأْلَفَ الْعَزِّ وَالْحَسَدِ	نَ وَمَلَهَى لِأَعْيُنِ النَّظَارِ
وَكِذَاكَ الزَّمَانُ مَنْقَلَبَ الْحَا	لَيْنَ بَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ
يَا بَنِي هَاشِمٍ وَلِسْنَا سِوَاهُ	فِي صِفَارٍ مِنَ الْعِلَافِ أَوْ كِبَارِ
لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمِثْلِ عَلِيٍّ	هَلْ تَقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ
مَنْ لَهُ الْفَضْلُ وَالتَّقَدُّمُ فِي الْإِسَدِ	لَامٍ وَالنَّاسِ شَيْعَةُ الْكِفَارِ؟
مَنْ لَهُ الصِّهْرُ وَالْمَوَاسَاةُ وَالنُّصْرُ	رَةِ وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي بِالْشَّرَارِ؟
مَنْ دَعَاكَ النَّبِيُّ خِذْنَاهُ وَسْمًا	هَ أَخَافِي الْخَفَاءَ وَالْإِظْهَارِ؟
مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنِّي كَهَارُ	نَ مِنْ مُوسَى أَكْرَمُ بِهِ مِنْ نِجَارِ؟
ثُمَّ يَوْمَ الْقَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ	خَصَّهِ دُونَ سَائِرِ الْخُضَارِ
مَنْ لَهُ قَالَ: لَا فَتَى كَعَلِيٍّ	لَا وَلَا مُنْصُلُ سِوَى ذِي الْفَقَارِ؟
أُبْعِدِ الْإِلَهَ أَمْ بِحَسْسِينَ	وَأَخِيهِ سُلَالَةَ الْأَطْهَارِ ^(٢)
يَا بَنِي عَمَّنَا ظَلَمْتُمْ وَطَرْتُمْ	عَنْ سَبِيلِ الْإِنْصَافِ كُلِّ مَطَارِ
أَيْنَ كَانَ الْعَبَّاسُ إِذَا ذَاكَ؟ فِي الْهَجِّ	رَةِ أَمْ فِي الْفِرَاشِ أَمْ فِي الْغَارِ
الْكُمِّ مِثْلُ هَذِهِ يَا بَنِي الْعَدِّ	بَّاسٍ مَأْثُورَةٍ مِنَ الْأَثَارِ
الْكُمِّ حُرْمَةٍ بِعَمِّ رَسُولِ الْ-	لَهُ لَيْسَتْ فَيْكُمْ بِذَاتِ تَوَارِ
وَلِنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَع-	مَامِ وَالسَّبْقِ وَالْهَدْيِ وَالْمَنَارِ

(١) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي. م.س. ص ١٨٥.

(٢) عبد الإله تحوير للاسم عبدالله ويعني به عبد الله بن عباس.

ولنا هجرة المهاجر قدما
ولنا الصوم والصلاة وبذل
نحن أهل الكساء سادسنا الرؤ
نحن أهل التقى وأهل المواسا
فدعوا خُطّة العُلال لذويها
أجعلتم سقى الحجيج كمن آ
أو جعلتم نداء عباس في الحر
كوقوف الوصي في غمرة المو
حين ولّى صاحب النبي فرارا
واسألوا يوم خيبر واسألوا
واسألوا يوم بدر من فارس الإس
يا بني هاشم اليس علي
فبماذا مـلـكـتـم دوننا إن
أيقربى؟ فنحن أقرب للمو
أم بلارث ورثتموه؟ فإننا
تحت أعلامه من الفاطميين
فاصدروا عن موارد الملك إننا
ولنا العز والسمو عليكم
يا بني فاطم إلى كم أقيكم
فخذوها منى نتيجة فهم
سلمت من تعصب وغلو
غير أن البيان يظهر فيها
حجج كل ما تأملها العا

ولنا نصرة من الأنصار
عُرف في عُشرنا وفي الإيسار
ح الأمين المهيم من الجبار
ة وأهل النوال والإيثار
من بني بيت أحمد الأبرار
من بالله مؤمنا (لا يداري)
ب [وقد] فر عن لقاء الشفّار
ت لضرب الرؤوس تحت الغبار
وهو يحمي النبي عند الفرار
مكة عن كرهه على الفجار
بلام فيه وطالب الأوتار
كاشف الكرب والرزايا الكبار
ث نبي الهدى بلا استظهار
روث منكم ومن مكان الشعار
نحن أهل الآثار والأخطار
ن أسود تدمي شبا الأظفار
نحن أهل الإيراد والإصدار
والمساعي وقطب كل مدار
بلساني ومُنْصلي وانتصاري
بين حد الإقلال والإكثار
وتبرّت من سوء كل اختيار
ساطعا نوره بغير استتار
لم بانته له بيان النهار

المهذب بن الزبير: إما العلا وإما الردى:

وقال المهذب بن الزبير يفتخر^(١):

جلت لدي الرزايا بل جلّت هممي وهل يضرّ جلاء الصارم الذكر
غيري بغيره عن حسن بشيمته صرف الزمان وما يأتي من الغير
لو كانت النار للياقوت محرقّة لكان يشتبه الياقوت بالحجر
لا تغترين بأطماري وقيمتها فإنما هي أصداف على دُرّ
ولا تظنّ خفاء النجم من صغر فالذنب في ذاك مَحْمُول على البصر
تشابه الناس في خلق وفي خُلُقٍ تشابه الناس والأصنام في الصور
ولم ابت قطّ من خلق على ثقة إلا وأصبحت من عقلي على غرّ
لا تخدعني بمرثيٍّ ومُسْتَمْعٍ فما أصدق لا سمعي ولا بصري
وكيف آمن غيري عند نائبة يوماً إذا كنت من نفسي على حذرٍ
تأبى المكارم والمجد المؤثّل لي من أن أقيم وأمالي على سَفَرٍ
إنّي لأشهرُ في أهل الفصاحة من شمس وأشيرُ في الآفاق من قمر
وسوف أرمي بنفسي كلّ مهلكة تسري بها السهب إن سارت على خطر
إمّا العلا وإليها منتهى أملي أو الردى وإليه منتهى البشر
وقال أيضاً:

لا تُطْمِعْنِي فِي أَرْضٍ أَنْ أَقِيمَ بِهَا فليس بيني وبين الأرض من نسبٍ
إنّي اغتربت فلي من عفتي وطن أوي إليه وأهل من ذوي الأدب
لولا التنقّل أعيان يبين على باقي الكواكب فضل السبعة الشُّهُبِ

(١) الخريدة، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، ص ٢٢٥.

عمارة اليمني يتفاخر على توران شاه الأيوبي:

وفي معرض مدح توران شاه بن أيوب تفاخر الفقيه عمارة عليه.
وقد جاء في القصيدة:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم	وشفرة السيف تستغني عن العلم
كأنني بالليالي وهي هاتفة	قد صمّ سمعُ رجال دونها وعمي
أصبحت بالشعر ملحوظاً بمنقصة	ولم أزل بين أهل العلم كالعلم
من معدن الدرّ عن كفّ تقبّلها	ومعدن الدر والياقوت فهو قمي
والعصر يعلم أنني فيه جوهرة	رخيصة السعر بالغالي من القيم
ما أفقر الدهر من مثلي وأنت بما	أقول أدري ولكن قلّة القسم
وصحّة الجسم لا يُدرى بقيمتها	إن لم ينبّه عليها عارض السقم
وما حسدت جهولاً فضل ثروته	والريش ينبت فوق النسر والرخم
ولا رضيت لوجهي أن أجوده	على بخيل ولا استسمنت ذا ورم

وقال أبو الصلت المصري أمية بن عبد العزيز يفتخر^(١):

وقائلة ما بال مثلك خاملاً أنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبي إلى القوم أنني لمالم يحوزوه من الفضل حائز

(١) الفلاكة والمفلوكون، شهاب الدين أحمد بن علي الدُلّجي، ط ١، بغداد، طبعة مكتبة

الاندلس، سنة ١٣٨٥ هـ، ص ١٤٦.

شعر الغزل عند شعراء مصر الفاطمية

الغزل، بمفهومه العام، هو تغني الرجل بجمال المرأة، وهو مظهر من مظاهر الحضارة المتقدمة، حيث ينقل الإنسان شعوره وأحاسيسه تجاه المرأة، ويصبغها بلونه على صورة من إحساسه ومن صور تقاليد، الرقيقة والمختلفة السبك. ولكنها تسلك طريقاً واحداً، وهو إخراج مكنونات القلب والعقل من الوجد والصبابة والتوله بالمرأة وجمالها.

وقد تركت كل الشعوب وكل الحضارات والآداب القديمة منذ أن عرفت الإنسانية معنى الحضارة، الكثير من تعابير الحب والغزل، منها ما نقش تصاوير على الحجر داخل الكهوف والمغاور ومنها ما حفر على أوراق البردي والطين المشوي. ومنها ما نقلته لنا الشعوب محفوظة على اللسان كإلياذة اليونان وإنيادة الرومان وشاهنامة الفرس ومها بهارات الهند وأغاني رولان عند الفرنسيين وكلها وصف للمرأة بألوان قومية، تجعلها غاية الرجل وأمنيته وهواه وأغنيته وتصوره ومحل خياله.

وقد احتل أدبنا العربي بشكل عام، وأدب مصر الفاطمية بشكل

خاص صفحات كثيرة وقصائد جمّة، تمجّد المرأة والحب والأنثى بشكل عام، وتصور مشاعر الإنسان المصري تجاه المرأة، ملكة، وأم وزوجة، ومحبوبة وجارية ومغنية وخادمة، ولكننا، سنكتفي في هذا الفصل، بإعطاء نماذج شعرية عن مشاعر الشعراء المصريين تجاه المرأة الأنثى المحبوبة، والجارية المرغوبة، والمغنية الجذابة الطروبة.

غزل ومجون وخمرة:

قال ابن قلاقس يصف مجلس أنس^(١):

ورجعت الأطيّار ألحان شجوها وجاوبها الدولاب لمّا ترئّما
وحثابه كأس المدام فإنّها تزيد الفتى ظرفاً وخلقاً مُكرّما
ولا سيما من كفّ أحور ساحر بالحافظه ردّ الخميس العرمرما
ألّم في مجلس اللهو وانثنى وقد أودع الأحزان قلباً مُتّيما
فوالله ما أدري إذا ما لقيته أشمس الضحى ألقى أم البدر في السما

أبو الفتح منصور بن البيني يعشق جارية سوداء:

وقال ابن البيني متغزلاً بجارية سوداء^(٢):

وغزالة غاللتها في المقس من أولاد حام
نظرت بعينيّ ظبية ونظرت من عينيّ قطامي
وتبسّمت فكانها برقّ تألّق في غمام
تُمتّ مشّت مشّي المها وتبعتهارتك النعام

(١) ديوان ابن قلاقس، م.س. ص ٤٩.

(٢) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٧٠.

حتى وصلنا بيتها فحصلت في البيت الحرام
وجعلت أفتح ميمها لما جثوت لها بلا مي
فسكانني إذ ذاك أولجت النهار على الظلام
ضدان لم تجمعهما إلا المحبة للحرام
كانت لعمرك ساعة جمعت غراباً مع حمام

اينظر إلى المسجد أم إلى النهدين^(١):

وقال أبو القاسم الحسن بن علي المعري عندما أطلّ من المسجد
فشاهد صدرأ بضاً تخرج منه رمّانتان^(٢):

ولقد يميل بناظري عن مسجد غصن من الرمان أكمل ينّعه
متبرّج بهداه يكتّم حُسْنَه خصرأ فطبعهما يخالف طبعه
ابدأ يشق صَدَارُهُ بنهودة ولو أنني صيرت درعي برّعه

ابن مجير الصقلي يهوي هيفاء الخضر راجحة الأكفال:

لم يختلف ابن مجير الصقلي في تفضيله شكل المرأة التي يهوى
عن بقية الشعراء العرب، فكلهم يحبّها: هيفاء لفاء، مصقولة العوارض،
مكورة الساق، منبترة الأرداف. يقول ابن مجير الصقلي المصري
في وصف حبّه وعشقه لمحبوّته^(٣):

أترى يفيق من الصبابة عاشق قذفت به الأهوال في الأهوال

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٦١.

(٢) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، المجلد ٣، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩١، ص ٤٣٥.

(٣) نفح الطيب، الجزء الثاني، ص ١٠٩.

مُغَرِّى محبِّ الغانيات هفت به
غرس القضيب على الكتيب بقدها
تترددُ الأبصار فيها حيرة
غراء غرَّتْها الشبيبة فاكتست
ممكورة مكرت بقلبي والهوى
حلَّت حواشي الوفاء وحلَّت
وقال ظافر الحداد يتغزل^(١):

لو كان بالصبر الجميل ملاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه
لم يبق فيه مع الغرام بقية
من كان يرغب في السلامة فليكن
لا تغررُك بالفتور فإنه
يا أيها الرشاش الذي من لحظه
دري لوح بفيك: من نظامه
وقناة ذاك القد كيف تقومت؟
رفقا بجسمك لا يذوب فلأنني
هاروث يعجز عن مواقع سخره
تالله، ما علقث محاسنك امراً
أغریت حبك في القلوب فاذعنث
مالي أتيث الحظ من أبوابه

هيف الخصور ورُجِّع الأكفال
فأتت بمياد على منهل
في الحسن بين الخال والخلخال
تية الدلائل وعزة الإدلال
يستضعف المحتال للمختال
في الحب قتلي وهو غير حلال

ما سح وإبل نموه ورذاذه
حتى وهى فتقطعت أفلاده
إلا رسيس تحتويه جذاده
أبدأ من الحديق المراض عياده
مرض يضر بقلبك استلذذه
سهم إلى حب القلوب نفاذه
خمر يجول عليه: من نبأذه؟
وسنان ذاك اللحظ ما فولاده؟
أخشى بأن يجفو عليه لآذه
وهو الإمام فمن ثرى أستاذذه؟
إلا وعز على الورى استنقاذه
طوعاً وقد أودى بها استخوذاه
جهدي، قدام نفوره ولو آذه؟

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٢٧.

دالية ابن دريد استهوي بها قوما غداة نبت به بغداده
دانوا الرُخرف قوله فتفرقوا طمعافهم صرعاه أو شذأذه
من قدر الرزق الذي لك أيما قد كان ليس يضره إنفاذه

جفون الحبيبة تحول شقائق النعمان إلى بنفسج:

وقال أمية بن أبي الصلت يصف محبوبته يوم وداعها^(١):

لا تسألني عن صنيع جفونها يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خذها للثمته حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
لو كنت أهجع لاحتضنت خيالها ومنعت ضوء الصبح أن يتبأجا
وثبتت في الظلماء كحل جفونها وعقدت هاتيك الذوائب بالدجى

والذي يثبت أن أكثر غزليات أعيان مصر هي من باب النظم ليس
إلا، وليست من باب تصوير الفعل، ذكر رد أبي بكر الطرطوشي
المصري على الواواء الدمشقي، فقد ذكر ابن بسام، أن الطرطوشي
«سمع، رضي الله تعالى عنه منشداً يُنشد للوأواء»:

قمرأتى من غير وعد في ليلة طرقت بسعد
بات الصباح إلى الصباح معانقي خذاً بخد
يحتار في وناظري ماشئت من خمرو شهد
فقال الطرطوشي: أو يظن هذا الدمشقي أن أحداً لا يحسن نظم

الكذب غيره؛ لو شئنا لكذبنا مثل هذا. ثم أنشد لنفسه يعارضه^(٢):

قمرأتى من غير وعد حُفَّت شمائله بسعد

(١) نفح الطيب، الجزء الثاني، م. س. نفسه، ص ٨٩.

(٢)

قَبَّلْتَهُ وَرَشَقْتَ مَا فِي فِيهِ مِنْ خَمْرٍ وَشَهْدِ
فَرَشَقْتَ مِزْنَ السَّلْسَبِيلِ بِزَنْجَبِيلٍ مُسْتَعِدِّ
وَلَثُمْتَ قَاهُ مِنَ الْغُرُوبِ إِلَى الصَّبَاحِ الْمُسْتَجِدِّ
وَسَكَرْتَ مِنْ رَشْفِي الْعَقِيقِ عَلَى أَقْحَاحٍ تَحْتَ رَنْدِ
فَنَزَعْتَ مِنْ فَمِهِ فَمِي وَوَضَعْتَ خَدًّا فَوْقَ خَدِّ
وَشَمَمْتَ عَرْفَ نَسِيمِهِ الْجَارِي عَلَى مَسْكَ وَنَدِّ
وَصَحَوْتَ مِنْ رِيَا الْقَرْنِفَلِ بَيْنَ رِيحَانٍ وَوَرْدِ
وَالَّذِي مِنْ وَصْلِي بِهِ شَكَّوَاهُ وَجَدًّا مِثْلَ وَجْدِي

وقال أمية بن أبي الصلت يصف محبوبته^(١):

جَدُّ بَقْلَبِي وَعَبَبْتُ ثُمَّ مَضَى وَمَا أَكْثَرْتُ
وَآخِرَ بَأَمِنْ شَادِنٍ فِي عُقْدِ الصَّبْرِ نَفْتُ
يَقْتُلُ مِنْ شَاءَ بَعِينِيهِ وَمِنْ شَاءَ بَعَثْتُ

مركز توثيق التراث الحضاري والحضاري

التغزل بنساء لابسات ثوب الحداد:

وقال الأمير تميم بن المعز متغزلاً بنساء لابسات ثوب الحداد

فقال:

دَعَادَ مَعُهُنَّ فِرَاقٌ فَجَادَا وَأَعْجَلُهُنَّ التَّنَائِي فَزَادَا
فَلَمْ أَرِدْ مَعَاكَ أَذْمُوعَهُنَّ يَهِيضُ الْحَشَى وَيَذِيبُ الْفَوَادَا
وَلِمَا يَتَيَقَّنُ أَنَّ الْفِرَاقَ يَزُودُ عِشَاقَهُنَّ الْبِعَادَا
تَأُولُنَّ أَنْ لِبَاسَ الْحَدَادِ أَحَقُّ بِمَنْ صَيَّرَ الْحُزْنَ زَادَا
فَنَثَرْنَ مَا قَدْ طَوَتْ خَمْرُهُنَّ لِيَلْبَسَنَّ شَعَرَ النِّوَاصِي جَدَادَا

(١) نفع الطيب، الجزء الثالث، ص ٣٥٧.

ولولا مراعاة عين الرقيب لبسّ الثياب جهاراً سواداً
وقال الأمير تميم يتغزل أيضاً:

رقّ عن الحسن وهو محسوس وباين اللمس وهو ملموس
وغاب عن كل مقلّة فرقاً وحُبّه في القلوب محبوس
مباين للعيون منظره وشخصه في النفوس مغموس
يشرق من نوره النهار كما تطلع من شغره الحناديس
مُبْتَسِمٌ عن مُقْبِلٍ يَقْقِي كأنما الدرّ فيه مغروس
ما خطّ عشاقه لديه سوى أن تعتريهم به وساويس
لولا له لم يعص ربّه أخذٌ ولا أضلّ العباد إبليسُ

فالحناديس هي الليالي الحالكة السواد وهي «لون شعر محبوبته
واليقق وهو الشديد البياض أي لون مُقْبِلها أي قَمَها».

الأمير تميم يعشق الفتيات الشقراوات:

وضعيفة الألفاظ ساحرة زادت لواظها على السحر
صفراء يحسبها محدّثها ذهباً يكاد بضاضه يجري
أي يكاد الناظر يشعر أن لونها الأشقر يسيل على وجهها
وشعرها. ويتابع وصفه للشقراء بقوله:

فكأنّما خفر الحياء بها سُقْمٌ غدت منه على سكر
وكان رقّة لفظها جمعت طيب الوصال ولذّة البشر
فحديثها كالبرء أو كرضاً المحبوب بعد السُخط والهجر
إن قل أدته بلا لبّثٍ أو طال نصّته بلا هدر
ترتج من ثقل روادفها حتى تنوء بدقة الخصر

فكأنها قمر على غصن قد لاح في ليل من الشَّغَرِ
 في صفرة كالخمر شاهدة إنَّ الجمال المحض للصُّفَرِ
 فإذا مشت من لينها اضطربت مثل اضطراب الموج في البُحْرِ
 وكأنها تخطو إذا نهضت فوق المناصل أو على الجمر
 فتصوّر فتاة شقراء بارعة الجمال تمشي وتخطر كأنها تمشي
 على رؤوس السيوف أو على الجمر، فكيف تكون مشيتها؟

خبر ابن مياح والبدوية مع الخليفة الأمر:

رَدَدَت أغلب كتب التاريخ التي اهتمت بتاريخ مصر الفاطمية خبر
 الخليفة الأمر وتسَلَّطه على بدوية حسناء، تزوّجها غصباً وفرّقها عن
 ابن عم لها، نشأت معه منذ صغرها واسمه «ابن مياح».

وتقول الكتب أن الخليفة الأمر تعلّق بها وبنى لها القصر
 المعروف «بالهودج» في جزيرة الروضة. وقد تداول المصريون
 أخبار البدوية وابن مياح كتداولهم لقصة عنتره وقيس وليلى وغيرها
 من قصص الحب والغرام.

يقال أنّ البدوية أرسلت الأبيات التالية لابن عمها ابن مياح:

يا ابن مياح إليك المشتكى مالك من بعدكم قد ملكا
 كنت في حبي طليقاً أمراً نائلاً ما شئت منكم مدركا
 فانا الآن بقصر موصدٍ لا أرى إلا حبيساً ممسكا
 كم تثنينا كأغصان اللوى حيث لا تخشى علينا دركا

فأجابها ابن مِيَّاح بقوله^(١):

بنيت عمي والتي غذيْتُها بالهوى حتى علا واحتبكا
بُخْتُ بالشكوى وعندي ضِعْفُها لو غدا ينفع منا المشتكى
مالكُ الأمر إليه يُشتكى مالكُ وهو الذي قد أهلكا

لحظ الرشا يصطاد الأسد:

قال الملك الصالح طلائع بن رُزَيْك يتغزل^(٢):

عاذلي عذلك سهم في الحشا كيف كتمانني وسري قد فشا
صار مابي من غرام كامن ظاهراً ينقله واش وشى
من رأى قبلي ياريم الفلا أسداً يقتله لحظ رشا

الناس طوع يدي الملك الصالح وهو طوع يدي محبوبه:

وقال الملك الصالح يتغزل أيضاً:

ومهفّف ثَمَل القوام سرت إلى إعطافه النشوات من عينيه
ماضي اللحاظ كأنما سلّت يدي سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذا خطّ العذار بمسكه في خدّه السقيّه لا لاميّه
ما الشعر دبّ بعارضيه وإنّما أصداعه نفضت على خديه
الناس طوع يدي وأمرى نافذٌ فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فأعجب لسلطان يُعدُّ بعدله ويجور سلطان الغرام عليه

(١) نفع الطيب، ابن بسام الشنتريني، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٩١.

(٢) ديوان الملك الصالح طلائع بن رزيك، ط ١، العراق، النجف الاشرف، المكتبة الاهلية،

سنة ١٩٦٤، ص ٨١.

والله لولا اسم الفرار وأثمه متقبح لفررت منه إليه
وقال أيضاً^(١):

ظبيّ يحير في الملاحه كلّما كررت طرفي في بديع فنونه
أشكو إليه صبابتي فيجيبني ورد يبرّد لوعتي بمعينيّه
قسمأبه وبوردة من خده وتماّم قامته وسحر جفونه
لو أنّ ركبا في الفلاة تحيروا لسروا بضوء من هلال جبينه



(١) ديوان طلائع بن رزيك، ص ١٦٢.

شعر الهجاء

إذا تعمقنا بالأسباب التي تدعو الشعراء لنظم القصائد الهجائية في الآخرين نجدها تنقسم إلى سببين:

السبب الأول: وهو الخصومة الشخصية المباشرة التي تولد بين الشاعر وبين المهجو لخلاف على إرث أو ملكية شيء أو على مركز أو حسداً من شاعرية الشاعر الخصم.

والسبب الثاني: هو الخصومة السياسية والدينية. وفي التاريخ الإسلامي لا فرق بين السياسة والمذهب الديني، فالمذهب الديني هو المذهب السياسي للدولة وللخليفة والسلطان والشاعر.

لذا نجد أن أكثر قصائد الهجاء التي نظمها الشعراء المصريون تندرج تحت هذين العنوانين، ما عدا القصائد التي سطرها الشعراء الشوام، شعراء الدولة الكردية في هجاء الخلفاء المصريين ومصر، والشماتة بما حلّ بهم على يد الأكراد.

والهجاء هو كلام موزون مقفى يصور الخصم بما ليس فيه ويظهر حقد الشاعر وضعيفته وحسده ضد المهجو. وقد راوحت معاني الهجاء في قصائد شعراء مصر الفاطمية، بين الذم والاحتقار والاستهزاء تارة، وبين السخرية والتقريع والشتم طوراً.

وبعض الشعراء هجا أخصام الفاطميين من باب التكسب والتقرب منهم. وكما اختلفت قصائد مديح الخلفاء عن قصائد مديح الوزراء وكبار القادة، كذلك سنجد أن قصائد هجاء أعداء الدولة الفاطمية من أمويين وعباسيين تختلف عن هجاء أعداء الوزراء وكبار القادة والموظفين.

أما هجاء صغار الموظفين والعامّة، فهي أصدق أنواع الهجاء، لأنها قيلت بسبب خصومة مباشرة بين الشاعر والمهجو، دون أن تدخل الخصومة السياسية فيها.

هجاء الخلفاء المصريين:

يقول ابن ظافر الأزدي أن عبيد الله المهدي / وقد سمّاه / - عبد الرحمن بن سعيد المنعوت بالمهدي - نظم قصيدة طويلة يتباهى بها على العباسيين مطلعها^(١):
طربت ولم أطرب إلى الخرد العرب وما الهزل من شأني ولا اللهولي أرب
ولم أستطع الحصول على هذه القصيدة كاملة، وقال الأزدي أن أبا الحسن أحمد بن يحيى المنجم ردّ عليه بقصيدة جاء فيها:

الست قريباً كنت تدعو إلى امرئ سواك إمام كان عندك مرتقب
فصرت الذي قد كنت تزعم أنه إمامك يا مخذول ذا أعجب العجب
متى صار مولى الباهليين ملحقاً بآل رسول الله يوماً إذا انتسب
فلأنك في دعواك إنك منهم كمن يدعي أن النحاس من الذهب

(١) أخبار الدول المنقطعة، ابن ظافر الأزدي، ط ١، القاهرة، معهد الآثار الشرقية، سنة ١٩٧٢، ص ٤.

وهجاه أبو بكر الصولي بقوله:

ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً يذبّون عنها بالأسنة كالشهب
ولم تقتل الأطفال في كلّ بلدة وتركب من أماتهم شرّاً مرتكب
فكم مصحف حرّقته، فرمأه مقدّمة للريح من حيث ما شهب
وعمّك يكنى بالشلعلع ساقط وجدّك مولى بأهل اللوم فأتبّ

وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم من معاصري عبيد الله المهدي، مما يعني أن أمر الطعن بنسب الفاطميين كان قائماً منذ قيام الخليفة المهدي بأمر الدولة. ولكن السؤال الذي يتبادر لذهننا: لماذا لم يتم الخليفة العباسي الراضي بجمع علماء المسلمين وعلماء الأنساب وبتسيطر محضر يثبت فساد انتساب عبيد الله المهدي إلى علي وفاطمة عليهما السلام؟. ولماذا انتظر العباسيون مئة سنة أخرى وسطروا هذا المحضر؟ ولو قام الراضي بجمع العلماء والنسابة وأصدر، محضر الطعن سنة ٣٠٠ هجرية فلربما ردّ عليه المهدي بأدلة وقرائن تثبت صحة انتسابه لأهل بيت النبي وعترته الطاهرة، وكنا نحن كمؤرّخين محايدين نقارن محضر الطعن ومحضر إثبات النسب ونحكم على صحة هذا أو خطأ ذاك.

أما ادّعاء أبي بكر الصولي من إقدام المهدي على قتل الأطفال وهتك الحرمات وركوب الأمهات فهي لا تعدو عن كلام وشتائم وهجاه، لأنّ المؤرّخين الذين أرخوا لهذه الحقبة من تاريخ المغرب، حدّثونا عن المجازر التي ارتكبت بحق الشيعة والتشيع في هذه البلاد، كابن الأثير، والمقرئزي، وابن خلدون. أما ادّعاءات أبي بكر الصولي، فلا أثر لها في كتابات المؤرّخين.

كما أنّ إقدام الصولي وغيره على هجاء عبيد الله المهدي لا يعتبر من ضمن الشعر المصري الفاطمي، وسنلاحظ أن طيلة الحكم المصري الفاطمي، لن نجد قصيدة هجاء واحدة بحق الخلفاء المصريين، باستثناء آخر خليفة مصري وهو الخليفة العاضد لدين الله، والقصائد التي قيلت في هجائه، لم تكن موجهة إليه مباشرة، بل كانت موجهة للدولة الفاطمية المصرية التي أزالها الأكراد الأيوبيون، وإن قيلت هذه القصائد فقد قيلت على السنة شعراء أكراد أيوبيين وليس على لسان الشعراء المصريين. فالشعراء المصريون قتل من قتل منهم، أمثال عمارة اليمني وهرب من هرب. ومن بقي في مصر انزوى في بيته، هذا إذا ترك له الأكراد بيتاً وسكت، بل توقّف عن نظم الشعر، لأن الدولة الكردية الجديدة، كانت دولة «الجوعانين» التي يهملها بطلونها لا امتلاء عقولها.

هجاء الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ:

عندما خرج الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ عن طاعة والده: وجمع حوله جيشاً من الأوباش والزعران، هجاه بعض الشعراء ومنهم الشاعر المعتمد بن الأنصاري حيث قال فيه^(١):

لم تأت يا حسن بين الوري حسناً ولم تر الحق في دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب والجور في أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب تيه الملوك وأخلاق المجانين
والملاحظ أن الهجاء هو لحسن، سببه تصرفاته الحمقاء بحق الناس والدولة.

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، الجزء الثامن. م.س. ص ٢٤٧.

هجاء ناصر الدولة بن حمدان:

عندما وقعت الفتنة بمصر وبدأت المجاعة والشدة التي دامت سبع سنوات، كان من أهم أسبابها تعدي الأتراك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان على الخليفة والخلافة، ونهبهم للقصور الفاطمية ولمصر والمصريين، وبعد أن استطاع الخليفة المستنصر القضاء على ناصر الدولة، هجاه أبو علي الفكيك بقوله^(١):

ولئن غلطت بأن مدحتك طالباً جدواك مع علمي بأنك باخل
والدولة الغراء قد غلطت بأن سمّتك ناصرها وانت الخاذل

هجاء الوزير شاور:

قال عرق الكلب يهجو الوزير شاور^(٢):

إن أمير المؤمنين الذي مصر حماه وعلي أبيه
نص على شاور فرعونها ونص موساه على شيركوه
وعندما قتل صلاح الدين الأيوبي شاوراً هجاه بقوله:

لقد فاز بالملك العظيم خليفة له شيركوه العاضدي وزير
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه عليّ لديه شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جلّ خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكرو ونكير

(١) اتعاظ الحنفاء الجزء الثاني، ص ٢١٠.

(٢) ديوان العرقله، م.س. ص ١٠٨.

هجاء وزراء الدولة الفاطمية:

وكان بمصر أيام الخليفة العزيز والوزير يعقوب بن كلّس شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي، وكان كثير الهجاء، فهجا يعقوب بن كلّس وموظفيه بقصائد منها^(١):

قل لأبي نصر كاتب القصر والمتأني لنقض ذلك الأمر
انفض عرى الملك الوزير تفز منه بحسن الثنا والذكر
واعطِ وامنع ولا تخف أحداً فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به وهو إذا درى فمما يدري
وهجا ابن كلّس وقائده الفضل بن صالح والخليفة العزيز بقوله:

تنصّر فالتنصّرين حقّ عليه زماننا هذا يذلّ
وقل بثلاثة عزّ وأوجّلوا وعطّل ما سواهم فوعطل
وقال أبو محمد القاسم بن أحمد الرّسّني^(٢):

توقّ معزّ الدين شوّم ابن كلّس ولا تقبلن منه مقال مدّلس
فإنّا أردناه لكافور شربة فزاد على تقديرنا ألف مجلس

هجاء الأفضل بن بدر الجمالي:

قال الشاعر المصري المدعو: الناجي يهجو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي^(٣):

قلّ لابن بدر مقال من صدقة لا تفرحن بالوزارة الخلقة

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، م.س. ص ٢٩٨.

(٢) بيتيمة الدهر للثعالبي، ج ١، ص ٤٣٠.

(٣) خريدة القصر الجزء الثاني، ص ١٠٣.

إن كنت قد نلتها مراغمةً فهي على الكلب بعدكم صدقه
وفي هذا البيت إشارة إلى إقدام بدر الجمالي والد الأفضل على
إجبار الخليفة المستنصر بالله على تسميته الأفضل خلفاً لوالده
بدر الجمالي في الوزارة، وأن الأفضل لم ينلها عن جدارة بل
اغتصبها بالقوة.

هجاء الوزير عباس:

وعندما أقدم الوزير عباس الصنهاجي على اغتيال الخليفة الظافر،
 وإقامة ولده الفائز مكانه وهو لم يبلغ الخامسة من عمره، للاستفراد
 بالحكم، أقدمت نساء القصور الفاطمية على إرسال الرسائل وفيها
 خصلات شعورهن لفارس المسلمين أبي الغارات، والي الإسكندرية -
 أنثى - طلائع بن رزيك، يستنجدنه لتخليص مصر والإمامة والخلافة
 من تسلط الوزير عباس. فلبى أبو الغارات النداء، وهاجم مصر وقتل
 الوزير عباس. فمدحه الفقيه عمارة على هذا العمل ووصف عودته
 المظفرة بقوله^(١):

لكم يا بني رُزِيك - لا زال ظلكم -	مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض عزائم	قهرتم بها سلطانه وهو قاهر
ولو لم تغيبوا فاز بالنصر فائز	وخلص من ظفر المنية ظافر
حفظتم لآل الحافظ الحرمة التي	رعى حقها منكم قديم وآخر
أبوك سقى في مثلها ابن مدافع	كؤوساً بها خمر المنية دائر
وأنت كفيت العاضد بن محمد	عدواً أتاه ثائراً وهو ثائر

(١) ديوان عمارة اليعني، الجزء الأول، ص ٤٦٢.

فأنتم لهذا البيت كفّ وساعد وأنت لهذا الدست سمع وناظر

هجاء أعداء الدولة الفاطمية: بني أمية

قال ابن هانئ الأندلسي يذكر عزّ مصر والمصريين ويطالبهم
بأخذ ثأرهم من بغداد ويطالبهم بالأّ ينسوا ما فعله بنو أمية بأهل
بيت النبي وأنصارهم^(١):

وللعزّ في مصر يُردّ سريره إلى ناعب بالبين ينعق أسحم
وللملك في بغداد إن ردّ حكمه إلى عضد في غير كفّ ومعصم
لأنّ حكم الإسلام في بغداد أصبح بين زقّ وساقية. وأصبح
خليفته:

إلى شلوميت في ثياب خليفة وبضع لحام في إهاب مؤرّم
سوام رتاغ بين جهلٍ وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم
ويعود ويحمّس الفاطميين على الثار من بني أمية:

ولا عذب الماء القراح لشارب وفي الأرض مروانية غير أريم
الا أن يوماً شامياً أظلمهم يطير فراش الهام عن كلّ مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة على كلّ موار الملاط عثمثم
وغد غصّت البیداء بالعين فوقها كرائم أبناء النبي المكرم
فما في حريم بعدها من تحرّج ولا هتك سيّرها بمحرّم
ويطالب بأخذ الثار (الوتر):

الا إن وتراً فيهم غير طائع وطلاب وتير منكم غير نؤم

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسي، م. س. ص.

ويصف الأمويين بقوله:

أناس هم الداء الدفين الذي سرى
هم قد حوا تلك الزناد التي ورت
وهم رشحوا تيما لإرث نبيهم
على أي حكم الله إذ يافكونه
وفي أي دين الوحي والمصطفى له
ويصف كيف بدأوا الشر فيقول:

بأسيف ذاك البغي أول سلها
وبالحقد حقد الجاهلية أنه
وبالثأر في بدر أريقت دماؤكم
وقيد إليكم كل أجر د صلد

هجاء النصارى:

كان النصارى واليهود من الطوائف المقدمة على غيرها في
الدولة الفاطمية، باستثناء عهد الحاكم بأمر الله، الذي ذقت كل
الطوائف مرارة أحكامه المتقلبة.

وكان سبب تقديم هاتين الطائفتين لتمرسهما وخبرتهما الطويلة
بأعمال الدواوين والحسابات والطبابة. لذلك جاء منهم الكثير من
الوزراء والكتاب، منهم من أسلم فعلياً ومنهم من تستر بالإسلام،
ومنهم من بقي على دين النصرانية أو الموسوية.

قال ابن الخلال الشاعر يصف تحكّمهم بالمصريين أيام الخليفة
الحافظ:

إذا حكم النصارى بالفروج وغالوا بالبغال وبالسروج

وذلت دولة الإسلام طراً وصار الأمر في أيدي العلوج
 فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج
 وقال الفقيه عمارة يهجو أحد الموظفين النصاري وقد وصله
 خبر أنه يذمه ويتكلم بحقه بالفحش:

الله أعلى وأعلم بما جرى وهو أحكم
 لقد جرّث لي أمور من مثلها يُتوجّم
 بُليت من كل نذل بذمنا يُتّهجّم
 على القبيح بلفظ من المحال يُترجّم
 يفتابني ثم يبدو بوجهه يُتّبسّم
 ويستبيع لعرضي ليزدريه ويُثّلّم
 يا رب أنت بصير وإنّك بالغيب أعلم
 إنني عن الفحش ناء متقشّف متبرّم

وإن من رام صنع الجميل مع غير مسلم
 يكون هذا جزاءه من كل نغل ومجرم

هجاء اليهود:

وكان وضع اليهود في مصر الفاطمية مرتاحاً كوضع النصاري،
 بالرغم من أنّ النصاري الأقباط، هم أهل مصر الأصليين وأطباع
 اليهود، هي هي، في كل عصر ومصر.

قال الشاعر عبد المحسن الإسكندراني المعروف بابن الرقيق
 يهجوهم^(١):

(١) خريدة القصر، قسم شعراء مصر، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.

يا يهود هذا الزمان أنتم حميرٌ وتيوس بكم تقاس التيوس
حين أضحي شمويل فيكم رئيساً وبقدر المرووس يأتي الرئيس
هو ثور ورُبُّه كان عجلأً من قديم وصهره جاموس

هجاء منشأ ابن إبراهيم القزاز الكاتب اليهودي:

عندما تسلّم الخليفة العزيز مقادير الخلافة، وكانت أمه كما يقال
- نصرانية - قرّب النصارى واليهود منه وأطلق أيديهم في الحكم
فبغوا وتسلّطوا. ومن هؤلاء منشأ ابن إبراهيم القزاز اليهودي، وكان
منشأ من أكبر موظفي الدولة الفاطمية في دمشق فظلم الناس وتحكّم
وحكم. فهجاه الشعراء، ووصلت أهاجيه إلى الخليفة العزيز.

قال الشاعر الواساني - أبو القاسم الحسين بن الحسين بن
محمد يهجو منشأ بن إبراهيم القزاز الكاتب اليهودي^(١):

إن منشأ قد زاد في التيه وزاد في شامنا تصديه
فلا ابن هند ولا ابن ذي يزني ولا ابن ماء السماء يدانيه
ويشير إلى كرهه للإمام عليّ (ع) بسبب دحيه باب خير:

وهو مغيظ على الوصي ومن يعزى إليه ومن يواليه
يذكر أيام خيبر بهم وهم قذى جال في مآقيه
وقد حكي أن فاه أطيّب من سُرمي وإني ممّن يعاديه
ومن يقول القبيح فيه ومن أصبح بالسمع ضلات يرميه
وقد عزله الخليفة العزيز وسجنه.

(١) يتيمة الدهر للثعالبي، الجزء الأول، ص ٣٥٣.

وقال الواساني يهجو الحاكم المصري في دمشق بسبب إطلاقه يد منشأ ابن إبراهيم في أذية أهل الشام، وكان هذا الحاكم أسود اللون زنجي وهو يوسف بن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي المصري.

يبدأ الواساني قصيدته بقوله^(١):

كنت على باب منزلي سحراً أنتظر الشاكري يسرج لي
فمربي ظلام أسود كالفيل عريض الأكتاف ذو عضل
أشقى له منخر ككوة تنور وعين سجراء كالشعل
ومشفر مسبل كخبّ رحي على نيوب مثل المدى عُصْل
مشقق الكعب أقدع اليد والرجل طويل الساقين في سمل
ومنها في هجائه أيضاً:

فكر نحوي عجلان يعثر في مرط كسواء مبرغت قمل
وقدمذي والمذي يقطر من غرمولة في الذيل كالوشل
وظن أنني صيد فابرزلي فيشلة كركبة الجمل
سوداء قد طوقت بطوق خرا أصفر تُرْهَى به على الحجل
وقال: لـج داركم لأولجها فيك وإن كنت لم تبل قُبْل

ويتابع في وصف فيشله قائلاً:

هذا على أنها مؤدبة من الفياشل المروضة الذل
وطال والله ما خدمت بها الملوك خلف الستور والكلل
وكننت أغشاهم على فرش الخبز بلا سقطة ولا زلل

(١) يتيمة الدهر، م.س. ص ٢٦٥.

لأنها صنعتي وصنعة آبائي قديماً في الأعصر الأول
ويتابع في هجائه فيقول:

في فيه نتن وتحت عصعصه عين تمجّ الصديد في دغل
له إذا ما علوته نَفْسٌ أمضى من السيف في يد البطل
يصرع طير السماء في الأفق الأعلى ويُوْهي مخارم القلل
أنتن من كل ما يقال إذا بالغ في الوصف ضارب المثل
وروى ابن بسام الشنتريني في ذخيرته أن الخليفة الحاكم بأمر
الله الفاطمي، سمع بهذه القصيدة، فجمع مجلس شعره وقال: أريد
سماع هذه القصيدة مُغَنّاة من رجل حسن النشيد جميل الصوت،
«ف قيل له: لا أحد يجاري إلقاء ولا صوت الذي قيلت»، أي يوسف بن
جعفر الفلاح، فاستقدمه من الشام، وأجبره على إلقائها بمجلسه
مُغَنّاة. ولم انتهى يوسف بن جعفر من إلقائها، سأله الحاكم: لماذا لم
تقطع لسانه؟ واعتبر عدم معاقبة الواساني عليها دليل صدقه وإدانة
ليوسف بن جعفر، فعزله عن ولاية الشام^(١).

هجاء موظفي الدولة الفاطمية:

عندما كان علي بن أحمد الجرجرائي يعمل كاتباً في إحدى
الدواوين أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، ضبطه يتلاعب
بالأرقام والحسابات، فقطع يديه من المرافق، ثم عفا عنه ورفع في
الوظائف حتى كلفه بالوزارة.

(١) راجع: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، الجزء السابع، ص ٩٤.

ولما كان أقطع اليدين لا يستطيع التوقيع على المعاملات صنع
لنفسه ختماً يختم به المعاملات ويوقعها عنه القاضي أبو عبد الله
القضاعي. وكانت علامة ختمه: «الحمد لله شكراً على نعمته». وأخذ
يتظاهر في تعامله مع الناس بالأمانة الزائدة. فهجاه الشاعر المصري
المدعو: جاسوس الفلك بقوله^(١):

يا أحمقاً أسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق
أقمت نفسك في الثقة وهبك في ما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى قطعت يدك من المرافق
هجاه قاض:

قال الشاعر أبو الشرف الجرجاوي يصف قاض مخاتل^(٢):

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما إلى الخصام بحكم غير منفصل
يبدي الزهادة في الدنيا وزخرفها جهراً ويقبل سرّاً بكرة الجمل
مهلّلٌ والدهر لا في وقت هيلة ويلزم الصمت وقت القول والعمل
وما أسميه لكني نعت لكم نعتاً أدلكم فيه على الرجل

هجاه الكاتب المعروف بالجعل:

قال الفقيه عمارة اليمني يهجو الكاتب المعروف بالجعل^(٣):

لو كان للشعر عند الله منزلة ما ساغه الله من أشداقه الجعل
إن كوسج النتف خديه وشاربه فإن لحيته فوق الخصى خصل

(١) الدرة المضية، م. س. ص ٣١٤.

(٢) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٦٩.

(٣) النكت العصرية، م. س. ص ٣١٢.

يا كاتباً فوق خُصْيَيْهِ وعانتَه من المداد ومن حبراسته كُتِلُ
ومن يَحْكُ أَكَالاً تحت عصصه لا تَأْكُلَنَّ مع الأملاك إن أكلوا
وقال عمارة اليمني يهجو الكاتب ابن دخان وكان يمنعه من
مقابلة الملك الصالح طلائع بن رزّيك^(١):

من كلِّ قَدُمٍ لا يزال لسانه مغرى بحرف الرءاء أو بالقاف
ويبدو أن ابن دخان كان الثغ يلفظ الرءاء قافاً أو غيناً.

إن كان يحسب أن خَسَةَ أهله تحميه من حمتي ومرز عافي
فالأسد تفترس الكلاب إذا غدت أطوارها والأسد غير ضعاف
دعني أثقل بالهجاء لجامه إن البغال كثيرة الاخلاف
لا تأمنن أباً الرذائل بعدها واحذر أمانة سارقٍ خطاف
فالمرتجي عند اللئام أمانة كالمرتجي ثمرأمن الصفصاف

هجاء ابن كازوك لفرضه الخَوَات والجَعالات على أهل الغربية^(٢):

بان عنّا أهل المحبّة واعتضنا بأهل البغضاء والشنآن
نحن أشقى بختاً وأتعس حظاً إذ قضانا بصفقة الخسران
وصفقة الخسران هو ابن كازوك جابي الضرائب والعشور في
منطقة الغربية في الإسكندرية:

وأخسّ الوري وأهونهم بين الرعايا قدراً على السلطان^(٣)
إذرعانا بأبغض الخلق مذكان وكانوا الكلّ قاص وداين

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الثاني، ص ٦٩٩.

(٢) خريدة العصر، الجزء الثاني، ص ٤٩.

(٣) أهونهم أي أكثرهم ذلاً وهواناً.

رجلٌ صيغ من حمأ شيب بالشرة خلطاً والشؤم والخذلان
والزنا والبغاء والجهل والإفك وسوء الطباع والبُهتان
ما ظننا من قبله أننا لنلقى جميع السؤات في إنسان
يتلقاك كالحأ عابس الوجه بقلب خال من الإيمان
وله إخوة أفعالهم في المال فعل الذئب بالحملان
ويتوجّه لصاحب ديوان الضرائب بقوله:

حَرَ قلبي على متولي الباب وقولي لصاحب الديوان
أيها الألمعي أعوزك الرعيان حتى استرعت بالذؤبان؟
ويتوجّه لابن كازوك ومن ورائه يطالبهم بأن يكفوا بلاءهم عن
الناس ويكتفوا بما يجبوه من الولايات والحمايات والغرامات
والجعالات فيقول:

فاتركونا معاشر الجند واغنوا بـدُرُورِ الأرزاق كلَّ أوانٍ
والولايات والحمايات والغُرم وأخذ الأفعال من كلِّ خان
والمعاصير والسواقي وتسويغ الضياع المفردات الحسانِ
وينصحهم بالاكْتفاء بما يجبوه من ضرائب للدولة ويكتفوا بها
بل يرتعوا في نداها ولحمها الطيب ويكفوا شرهم عن المصريين:

وارتعوا في جُزُورِ الدولة الهامي نداها في أطيب اللُحمانِ
واشغلونا بما به يُشغَلُ الهرُّ لنفع أو خيفة العدوان
بالطحال المسدود أو طَرْفِ الرية أو بالمعلاق والمُصران

هجاء كتاب الدواوين المرتشين ومن يحميهم من المسؤولين:

قال رضي الدولة داود بن مظفر ابن مقدم المحلي من المحلة الكبرى بديار مصر، يهجو موظفي الدولة لكثرة فرضهم الرشوة ولهم حمات يحمونهم من كبار المسؤولين^(١):

وقد بكرت تلوم على خمولي كأن الرزق يجلبه احتيالي
تقدر أنني بالحرص أحوي الثراء وذاكم عين المَحَالِ
تقول إنارات إرشاد قولي فُبلت ألا تهب إلى المعالي
فلو أدليت دلوك في دلاء متحت به من الماء الزلالِ
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بَلَلٍ يُردُّ على قذالي
وكم علقت أطماعي رجاء بخُلبٍ بارق ووميض آلِ
فلا أنا بالكفاف النزر راضٍ ولا أنا عن طلاب الكرّس آلِ
وبعد أن يستعرض حالته وصعوبة تحصيله الرزق، يضع اللوم على موظفي الدولة لكثرة فرضهم الرشوى لهم ول كبار المسؤولين الذين يحمونهم فيقول:

أمن أجل العناء أحلتموني على بقاء ذي داء عضال
يكلّفني مع البرطيل «جهرأ» وذلك بيننا سبب التقالي
فمالي ماله فيه مجال ومالي ليس يفضل عن عيالي
وكُتاب لهم أبدأ حُماءة تُعدّلها الرقي مثل الصُّلالِ
وكلهم يجرّ إليه نفعاً فعادته احتجاجي واعتزالي
بأيدي تبترن إلى الرشاوى كأيدي الخيل أبصرت المخالي

(١) خريدة القصر وجريدة العصر. القسم الثاني، ص ٤٧.

ويبدو كأن ابن مقدم المحلاوي كان معقبا للمعاملات ووسيطاً
بين أصحاب المعاملات وبين الموظفين فأقصوه وحرموه نصيبه من
الرشاوى فهجاهم.

ويتابع واصفاً علاقته بهؤلاء الموظفين فيقول:

ولست أزورهم إلا بشعر أنمقه وذلك جُل مالي
فاغشى بالمحال الصرف منه مجالسهم فأرجع بالمُحال
وكم قبلت من كفي ولكن يهون على مُقبلها سبالي
واحضر من ركاب في ركاب إلى أن خف من ثقل طحالي
وهذا يستطيل علي زهواً وذلك يعلنني كأس المطال
وقد علموا وإن لم يصرفوني بيأس أن سيصرفني ملالي
وحالي كل يوم في انتقاص ومن باب التمثل قول حالي

هجاه الطبيب علي بن رضوان طبيب الخليفة المستنصر:

كان علي بن رضوان أسود اللون وكان بينه وبين الطبيب
البغدادي ابن بطلان مراسلات ومنازعات، وقد هجاه، ابن بطلان
بقوله^(١):

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تَسْتُرُاً ألا ليتنا تركناه في الرحم
وقال أبو الصلت المصري يهجو طبيباً اسمه جرجس وكنيته أبو
الخير^(٢):

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، الجزء الثاني، ص ٢٤١.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، م.س. الجزء الثالث، ص ١٧٧.

إِنَّ أَبَا الْخَيْرِ عَلَى جَهْلِهِ يَخْفَى فِي كَفْتِهِ الْفَاضِلُ
 عَلَيْهِ الْمَسْكِينُ مِنْ شَوْمِهِ فِي بَحْرِ هَلْكَ مَالِهِ سَاحِلُ
 ثَلَاثَةٌ تَدْخُلُ فِي دَفْعَةٍ طَلَعَتْهُ وَالنَّعْشُ وَالْغَاسِلُ
 وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً:

لَأَبِي الْخَيْرِ فِي الْعِلَاجِ يَدُ مَا تَقْصُرُ
 كُلُّ مَنْ يَسْتَطْبَهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يُقْبِرُ
 وَالَّذِي غَابَ عَنْكُمْ وَشَهِدْنَاهُ أَكْثَرُ

وصف خرفان (خَرْفٌ):

وقال ابن الرقيق الإسكندراني يصف رجلاً خرفاً اسمه ابن عبد
 القوي^(١):

قُلْ لَأَبْنِ عَبْدِ الْقَوِيِّ يَا خَرْفُ عَلَامُ ذَا التَّيَةِ مِنْكَ وَالصِّلَفُ
 لَا يَغْرِرُنَاكَ الثِّيَابُ أَبْيَضُهَا فَإِنَّمَا مِنْكَ تَحْتَهَا جِيفُ
 فَالْدَرُ مَسْتُودَعٌ حَشَا صَدْفٍ وَأَنْتَ دَرٌّ فِي جَوْفِهِ صَدْفُ

وصف رمد العين:

قال ابن مكنسة يصف رمد العين^(٢):

مَا لِنَهَارِي كَأَنَّهُ الْغَسَقُ وَمَا لِلَّيْلِ مَا شَقُّهُ الْفَلَقُ
 وَمَا لِعَيْنِي أَرَى بِهَا عَجَباً تُغْرَقُ فِي مَائِهَا وَتَحْتَرِقُ

(١) خريدة العصر، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.

(٢) خريدة العصر، الجزء الثاني، ص ٢١٢.

ولي طبيب تشكو مرأوده وتستغيث الجفون والحدق
شيافه تطرد الشفاء إذا مرزن بعيني وكخله الأرق
وإن تمادى علي زرتكم وقائداي العصي والخلق
لم يبق من صيغه المدام سوى جفون عين كأنها الشفق
طبعي ووجه البخيل في قرني هذا وهذاك ليس ينطلق
يا عين ختام أنت باكية قد نفذ العين فيك والورق

وصف أعور:

وقال الرقيق يصف أعور اسمه نصر^(١):

لنصر خبُرٌ يحقُّ الخبر فهو على حالتيه ذقن خرا
وأعور العين قُبُحٌ منظره أثر في عين دهرنا عورا
ما كنت أدري قبيل انظره أن المسيح الدجال قد ظهرا
من قال إن الإله خالقه فإنه بالإله قد كفر

هجاء أهل يافا:

قال خالد بن سنان الإسكندراني الشاعر يذم أهل يافا^(٢):

مقامي بين أظهر أهل يافا مقام غضنفر بين الكلاب
تصور أنه يعدو عليها فتنبحه وتسرع بالذهاب
ولو علموا باني ذولسان يغادر عرضهم خلق الإهاب

(١) م.س. نفسه. ص ٢٢٤.

(٢) معجم الأذباء، الجزء الأول، ص ٥١٩.

هجاء الرشيد بن الزبير:

قال أبو الفتح بن قادوس يهجو الرشيد ابن الزبير وكان أسود اللون^(١):

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسراً في العلم لا راسخاً
سلخت أشعار الوري كلها فصرت تدعى الأسود السالخا
وقال فيه أيضاً:

إن قلت من نار خُلِقْتُ وفقت كل الناس فهما
قلنا: صدقت فما الذي أضناك حتى صرت فحما

هجاء إبليس:

وقال القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيساني يهجو قواداً لتشبهه بإبليس في الغواية^(٢):

مالك يا إبليس من خلفنا تطلبنا بالماء والزاد
أمس من الجنة أخرجتنا بحية من ذلك الوادي
واليوم قد عُذْتُ إلى جنة من وجنات ذات إيقاد
بالأمس في إخراجهِ والداً واليوم في إخراج أولاد
تريد أن تهبطنا ثانياً إلى متى أنت بمرصاد
يا شيخُ سرعنا في دهرنا ما جاء معشوق بقواد

(١) معجم الأدباء، الجزء الأول، ص ٥١٩.

(٢) ديوان القاضي الفاضل، ص ٣٢.

هـاء الءولة الفاطمية بعء ءءميرها

بعء نءاء الانءلاب الاءوبي الكرءي في مصر واستيلاء الأكراء على الءكم؁ قام بعض الشعراء الأكراء والشوام بهءاء العاضء؁ آءر ءليفة فاطمي وهءاء الءولة الفاطمية وإظهار الشماءة بها وبالمصريين.



هءاء ابن أبي ءصيبة ورء عمارة عليه وءاهياً:

لم تكن عملية إءءام الفقيه عمارة اليمني بءءمة ءءبير انءلاب مضاء على الاءوبيين؁ بنت ساءءها؁ بل ءانت ءما يقول المءل العاملي: «ليست رمانة»؁ بل «ءلوب ملائة» بالءقء والغل من قبل الأكراء الاءوبيين على عمارة؁ بسبب وفائه للءولة الفاطمية؁ رغم اءءلافه المذهبى مع أهلها وءلفائها ووزرائها. وأول هذا الءقء؁ ءان عءء إءءام الءليفة العاضء على إسءان نجم الءين أيوب في ءصر اللؤلؤة ءءريماً وءشريفأ له. وءان أن أقءم الشاعر المصري الأءب بن أبي ءصيبة في ءلسة سمر؁ على مءء نجم الءين أيوب والءم بالفاطميين؁ وءان الفقيه عمارة أءء الشعراء الءاضرين في اللؤلؤة.

قال المقرئزي أثناء وصفه لقصر اللؤلؤة: «ولما قدم نجم الدين أيوب من الشام على ولده صلاح الدين يوسف، وخرج الخليفة العاضد لدين الله إلى لقائه، أنزله بمنظرة اللؤلؤة. فسكنها حتى مات سنة ٥٦٧هـ. واتفق أن حضر يوماً عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمني، والرضي أبو سالم يحيى الأحذب ابن أبي حصيبة الشاعر في قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد، فأنشد ابن أبي حصيبة نجم الدين أيوب قصيدة قال فيها^(١):

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفاً منها وما كان منها لم يكن طرفاً
قد عجل الله هذي الأرض تسكنها وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها فالبس بها العز وتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفاً والدار لؤلؤة وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا
فلما سمع الفقيه عمارة هذا الغدر وهذه الخيانة والخسة، انتفض
بوجه ابن أبي حصيبة راداً عليه مدافعاً عن الفاطميين والدولة
الفاطمية بقوله:

أثمت يا من هجا السادات والخلفا وقلت ما قلته في ثلبهم سُخفا
جعلتهم صدفاً خلوا بلؤلؤة والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هي دار حلّ جوهرهم فيها وشف فأسناها الذي وصفنا
فقال لؤلؤة عجباً ببهجتها وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه من البرية إلا كل من عرفا

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٦٩.

لولا تجسّمهم فيه لكان على ضعف البصائر للأبصار مختطفاً
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة لأنّ فيه حفاظاً دائماً ووفاء
أبعد هذا الدفاع عن الفاطميين وفي مجلس نجم الدين أيوب إقامة
أو حياة للفقير عمارة؟.

الأكراد الأيوبيون عيونهم على مصر وخيراتها:

نحن نعلم أنّ الهدف من مجيء الأكراد الأيوبيين إلى مصر،
كان ظاهره، محاربة الفرنجة ووحدة الصف العربي الإسلامي بين
مصر والشام، هذا من جهة مصر والزعماء المصريين، أما من جهة
الشام. وأكراد الشام، فكانت النوايا مبيتة: السيطرة على مصر ونهب
خيراتها. فالعماد الأصفهاني وهو من الجوقة الأيوبية، نظم سنة
٥٦٢هـ قصيدة يشير فيها إلى النوايا المبيتة وقد وجهها إلى
نجم الدين أيوب في الشام والد صلاح الدين الأيوبي وشقيق
أسد الدين شيركوه جاء فيها^(١):

أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما بالله، والنصر وعُدٌّ غير مكذوب
هما هما مان في يومٍ وغى وقرئ تعوذاً ضرب هام أو عراقيب
غداً يُشَبَّان في الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشَبَّان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأنيس وتطريب
ويستقر بمصر يوسف وبه تقرّ بعد التنائي عين يعقوب
فالفاطميون عند العماد الأصفهاني كفّار وعند الفقير عمارة

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الثاني، ص ٢٦٩.

سكنوا الآيات والمصاحف. فمن نصدّق؟ وكلاهما من أهل السنة؟.

وأرسل العماد الأصفهاني يحرّض صلاح الدين الأيوبي على الفتك بالخليفة العاضد وإنهاء حكم أهل بيت النبي (ص) في مصر^(١):

والذي يدّعي الإمامة بالقا هرة ارتاع إنّه مقهور
عادم من مصر يوسف وإلى يعقوب بالتهنّئات جاء البشير
فلأيوب من إياب صلاح الدين يوم به تُوفّي السنذور
ولكم عودة إلى مصر بالنصر على ذكرها تمر العصور
فاستردّوا حق الإمامة ممن خان فيها فإنّه مستعير
عجبا هذا القول، ابن فاطمة وعلي يستعير الإمامة من كردي أبى
قاتل، وليت هنا المصيبة، بل المصيبة أنّ ٧٥٪ من عالمنا الإسلامي
اليوم يعتقد هذا الاعتقاد.

وقال يحرّض عمّه أسد الدين شيركوه على إقامة كربلاء جديدة
في مصر وقتل أبناء بنت النبي (ص)^(٢):

يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من نادى فعرف خير ابن بخير أب
تملّ من ملك مصر رتبة قصرت عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر وأرجوان تصير بها ميسراً فتح بيت القدس عن كذب
ردّ الخلافة عبّاسية ودع الدعوى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسله فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب

(١) م.س. ص ٣٧٢.

(٢) م.س. ص ٤٠٤.

لقد أصبح أسد الدين شيركوه والعماد الأصفهاني من أبناء
الحسب والنسب، والعاقد العلوي الفاطمي الطالباني الهاشمي القرشي
الذي سطر الكتب والمجلدات والمؤلفات في حسبه ونسبه الشريف،
دعياً مجهول الحسب والنسب.

وبعد نجاح الانقلاب الكردي الأيوبي، نظم العماد الأصفهاني
قصيدة يهنئ بها نور الدين محمود زنكي جاء فيها^(١):

أوردت مصر خيول النصر عادمة ثني الأعنة إقداماً على اللجم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها للأمن والعز والإقبال والكرم
ملوكها لك صاروا أعبداً وغداً بها عبيدك أملاكاً ذوي حرم
ولم يكذب العماد الأصفهاني، فقد شرح هذا الوضع المؤرخ
المصري، المقرئزي، ووصفه وصفاً دقيقاً كيف أصبح المصري
خادماً في داره وحارساً على باب بساطينه عند الأكراد الأتین من
الشام.

وصف سرقة نهر النيل وجزه إلى الشام:

الرمز في اللغة والشعر، أسلوب تحريض يحرّض المستمع
والقارئ والمتلقّي على الغوص في معاني البيت الشعري: وعندما
يصف لنا المقرئزي كيف هجم الأكراد مثل الجراد على خيرات مصر
ونهبوها، فلا نستبعد أن يعني الشاعر بهذا البيت تصوير ضخامة
وعملية نهب مصر، حيث يقول العماد الأصفهاني مادحاً

(١) م.س. ص ٤٤٤.

صلاح الدين، بعد أن وصله شيء من منهوبات قصور الخلافة في القاهرة^(١):

يا صلاح الدين الذي أصلح الفاسد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشام نوالاً أم سال نيل ثاني
وصلت أعطيانك الفرغ غزراً فتلقّت آمالنا بالتهاني
خلع راقى العيون ورقّت وعلا وصفها عن الإمكان
مذهبات كأنها خلع الرضوان قد أهديت لأهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيات الحسان الرفيعة الأثمان
فالعمامات كالغمامات والطروز بروق كثيرة اللمعان

وبالطبع فثياب الخلفاء الفاطميين هي ثياب الرضوان هدية من الله لأهل الجنة، ومن غيرهم أهل الجنة.

وفي العاشر من محرم سنة ٥٦٩ هـ، توفي العاضد وأعلن الخبر في جميع الممالك الإسلامية بوفاة، وبدفن الدولة الفاطمية المصرية. فنظم العماد الأصفهاني شماته بموته هاجياً له وللدولة الفاطمية^(٢):

توفي العاضد الدعي فما يفتح ذوبدعة بمصرفما
وعصر فرعونها انقضى وغدا يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد باح من الشرك كل ما اضطرمما
وصار شمل الصلاح ملتئماً بها وعقد السداد منتظما

(١) م.س. ص ٤٤٦.

(٢) م.س. ص ٤٩٦.

لما غدا معلناً شعار بني العباس حقاً والباطل اكتتما
 عاد حريم الأعداء منتهاك الحمى وفيء الطغاة مقتسما
 قصور أهل القصور أخرجها عامر بيت من الكمال سما
 أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذلاً وأنفه رغما
 يتساءل القارئ لهذه القصيدة:

- لماذا شعار بني العباس هو شعار الحق وشعار أبناء بنت
 النبي هو شعار الباطل؟

- لماذا يعتبر الخلفاء المصريون طغاة رغم أنهم صدّروا الحرية
 إلى جميع أنحاء العالم وأنّ الأكراد الأيوبيين هم صانعو الحرية؟

- لماذا يسمو الكردي المخرب ويعمر بيته وترمى قصور الخلفاء
 المصريين بالتقصير والقصور!

- هل أصبح الإكراه وإذلال الساكنين الوادعين فخراً؟

وبعد إقامة أول خطبة عباسية في مصر، هلّ لها العماد
 الأصفهاني وكبّر ونظم قصيدة في هذا المعنى، وكان العاضد
 لا يزال مسجوناً من قبل صلاح الدين في الإقامة الجبرية
 بقصره^(١):

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
 واشعنا بها شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
 وتركنا الدعي يدعو ثبوراً وهو بالذلّ تحت حجر وحصر
 عرف الحق أهل مصر وكانوا قلّة بين منكر ومقرّ

(١) كتاب الروضتين، الجزء الثاني، م.س. ص ٥٠٤.

وشبهه العماد مصر بالبنت البكر وهو الذي افترعها دون الآخرين
وفض بكارتها:

هو فتح بكر، ودون البرايا، خَصَّنَا الله بافتراع البكر
ونشرنا أعلامنا السود قهراً للعدا الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من ادعياء حقوقاً تُدعى بينهم لزيد وعمرو
والذي يدعى الإمامة بالقاهرة انْحَطَّ في حضيض القهر
ويروي المقدسي أبو شامة مقطوعة في هجاء الدولة الفاطمية
ومدح الأيوبيين دون ذكر صاحبها يقول فيها^(١):

الستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يُسْرُونَ كُفْراً يظهرون تشيعاً ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل
وإذا كان المقدسي أبو شامة قد جمع كل هذه النصوص
المعروفة المصدر والمجهولة في شتم وهجاء الفاطميين والدولة
الفاطمية؟ يكفي، رداً عليها، قصيدة الشريف الرضي، التي جاء فيها:
أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيّداً الناس جميعاً: محمّذ وعلي
ونحن نلاحظ أنّ الشاعر الوحيد الذي اختص بهجوم هو العماد
الأصفهاني، فقط، وهو موظف في ديوان الإنشاء عند أسد الدين

(١) م.س. ص ٥١٧.

شيركوه ونور الدين محمود زنكي في دمشق، أما العرقله، فهو إذا
تَفَلَّت ببعض الأبيات فبيته المشهور:

ذِ الأتراك والعربا وكن في حزب من غلبا
يدل على الأسباب التي دعت به إلى تغليب بعض الأبيات.

وقد لاحظنا كيف رفع العاد الأصفهاني من وتيرة هجائه
وشماتته بالمصريين بعد أن ذاق حلاوة وطلاوة بعض المسروقات
التي وصلتته من قصور الخلافة المصرية..

شعر المدح

شعر المدح هو الشعر الذي يمجّد فيه الشاعر محاسن غيره من
صفات خلقية وفكرية ودينية وتاريخية، كرفعة الحسب وعمق
النسب، ومن إقدام وكرم خلق ويد وعفة ونزاهة وسماحة.

وقد تميّز شعر المديح لدى شعراء مصر الفاطمية عن غيره من
شعر المديح لدى شعراء بني العباس ومعاصريهم من سلاطين
وملوك بصدق العاطفة واحترام الشاعر للممدوح قلباً وقالباً. وبعده
عن التكلف واصطناع المعاني الغير موجودة في الممدوح، فجاءت
قصائدهم وصفاً دقيقاً لصفات موجودة فعلاً في ممدوحهم. وكان
ذلك لسببين:

السبب الأول: هو أنّ الخلفاء هم سليّة بيت النبوة وعترّة النبي
وأهله وأبناء فاطمة البتول وسيد البلغاء علي بن أبي طالب - عليهم
السلام أجمعين -

والسبب الثاني: أنّ الكرم المنقطع النظير والرواتب المرتفعة

التي أغدقها الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد على الشعراء، جعل من هؤلاء الشعراء شركاء في الحكم ومستشارين، لا مدّاحين. ويكفي أن نطلع على دواوين بعض هؤلاء الشعراء كديوان الأمير تميم وديوان عمارة اليمني، وديوان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وديوان أبي الرقعمق وشعر غيرهم من شعراء مصر الفاطمية لنتأكد من صدق عاطفة هؤلاء الشعراء تجاه مدوحيههم، وإيمانهم بصدق وصحة الصفات التي وصفوهم بها.

وما ردّ عمارة اليمني على هجاء ابن أبي حصيبة للخليفة العاضد إلاخير دليل وأفضل قرينة على تماهي هؤلاء الشعراء مع مدوحيههم.

مدح الخلفاء:

قال الشاعر سعدون الوريحي يمدح الخليفة المهدي بالله! قصيدة، قيل أنّ المهدي عندما سمع أولها بكى، فتوقف الشاعر عن القول، فأوماً إليه المهدي بعد أن مسح عبرته بكمّهِ أن أكمل وكان قد قال^(١):

قف بالمطّي على مرابع دور لبست معالمهنّ ثوب دثور
لعبت بها حتى محت آثارها ريحان: ريح صبا وريح دبور
فلما انتهى إلى قوله:

وسفيهة هبت تصدّ عن النوى ويد النوى ملكت عنان مسيري
خافت عليّ من الخطوب لأنني من قبل غبت فأبّت بعد دهور

(١) كتاب المقفّي الكبير. م.س. ص ٩٥.

ثم اجتمعنا بعد ذاك فيا لها مأسورة جمعت على مأسور
فلما سمع المهدي هذا البيت بكى وتلقى دموعه بكمه فتوقف
سعدون الورجيلي عن النطق، فأوما إليه المهدي أن قل. فتابع قائلاً:
أعني بن فاطمة تصدين امرأ بنت النبي وعثرة التطهير
كفي عن التثبيط إنني زائر من أهل بيت الوحي خير مزور
هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور
حتى يفوز من الخلافة بالمنى ويفاز منه بعدله المنشور
يا من تخير من خيار دُعائه أرجاهم للعسر والميسور
حتى استمال إليه كل قبيلة ورمى إليه قياد كل عثور
أشبهت موسى وهو حيثك التي تلقى فتلقف إفك كل سحور
وقال يعقوب بن إسحاق يمدح الخليفة المهدي بالله^(١):

أأنت أمير المؤمنين على الظمى أحب إلى قلبي من البارد العذب
فوالله ما أدري إذا غبت ساعة وداداً وشوقاً أين عقلي ولا لبّي
فديتك يا خير البرية كلها إمامي الذي أرجو به الفوز من ربّي
أتيت ببرهان من الله واضح وفسرت ما استعمى علينا من الكتب
فأصبح دين الله بعد دروسه جديداً كما أنبأ به جدك المنبي
وقد سعد الأشياخ منك بنظرة وفازوا بها دوني فأوجعني قلبي
قدمت على الأيام في كل نعمة مليكاً على أهل المشارق والغرب

(١) عيون الاخبار، فنون الآثار، السبع الخامس، م.س. هـ ١٥٥.

فلما انتهت الأبيات إلى المهدي بالله سلام الله عليه، أمر بدخوله من ساعته، فدخل إليه وأنشد الأبيات بين يديه.

وتزايدت العلة بأمير المؤمنين المهدي بالله سلام الله عليه، حتى كانت وفاته بالمهدية في ليلة الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأول أحد شهور سنة ٣٢٢هـ، وعمره يوم وفاته صلوات الله عليه ورضوانه، ورحمته، وبركاته، وسلامه، ثلاث وستون سنة، لأن مولده كان في سنة ستين ومائتين، وكنتم أمير المؤمنين القائم بأمير الله سلام الله عليه، خبر وفاته مائة يوم، ثم أظهر نعيه، يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وأظهر عليه من الحزن ما لم يعرف من أحد من قبله، فنيح عليه في أمصار المغرب ومدنها، وبواديها، ورثي بمراثي كثيرة، وممن رثاه صلى الله عليه وآله عثمان بن سعيد الصيقل من أهل القيروان شعراً^(١):

وهت مرة الصبر فأنجلت	ورثت عرى الحزم فاجتثت
وأى سبيل إلى سلوه	وأوعية الدمع قد فضت
وكيف العزاء وقد خدشت	خدود الخرائد وأربدت
جنود التجلد قد ولت	وألوية الوجد قد صفت
وداهية قد أتت فجأة	فمنها المسامع قد سكّت
توالت فلم أر لي مذهباً	كأن المسالك قد سدّت
فأومات أرمق نحو السما	وأرنو إليها هل انشقت
ألا ليت شعري هل ميّزت	أكف المنية من برزت

(١) عيون الأخبار، فنون الآثار، السبع الخامس، م.س. ص ١٥٦.

وهل علمت من رمته الخطوب
 فليت الحوادث لم تخترم
 إمامي الذي اخترمته المنون
 وقائلة إذا رأت عبرتي
 جزعت وقد كنت جلدأعلى
 وكيف العزاء ولم يدر ما
 لآية أحدىثة أسعدت
 أَكُوْرَتْ الشمس أم زلزلت
 فقلت لها الخطب فوق الذي
 فلا غرو أن سفحت عبرة
 ثوى علم الأرض فارتجت
 وكادت تزلزل بالراسيات
 فلما تجلّى إمام الهدى
 ولولم يعزيها بتدبيره
 فالبست الأرض جلابها
 ولما بدى القائم المرتضى
 وأقسمت الريح إذبان من
 فلما سرت نفحات الإمام
 فازمعت المزن إذ غاب من
 فلما رأت سبب كف الإمام
 فأولع بالجواظلامه
 وذابت نفوس السورى رقة
 وهل درت الأرض من ضمت
 وليت يد الدهر قد شلت
 لو قد ترى أنه استحييت
 سجاماً على الخد قد سحت
 صروف الخطوب إذا كرت
 تضمّن قلبي وما قضت
 شؤون جفونك فانهلت
 جبال البسيطة أم نكت
 ظننت وأضعافه قد صمت
 ولا عذر إن لم تفض يامهجتي
 ومالت من الوجد فانهدت
 لإحدى الكبائر إذ حلت
 عليه السلام لها قرت
 أبو القاسم المصطفى خرت
 لفقد الخليفة فاسودت
 وقابلها نوره ابيضت
 تباريه بالجود لا هبت
 واستنشقت عرفه حنت
 له ينزل السفيث لادرت
 فلم تمالك بأن أروت
 وأخفقت الأرض فاغبرت
 لفرط الرزية فاعتلت

فلولا الإمام وإنعاشه قلوب الرعية لانفتت
 فيا حجة الله في أرضه عزاءك عنها وإن حلت
 ليهنني الخلافة ما أحرزت من المجد والشرف المصلت
 وقال الشاعر الفزاري يمدح الإمام المنصور بالله ويسأله العفو
 عن أخطائه^(١):

لعمرك ما أوس ابن سعد بقومه ولا سيد الأوبار قيس ابن عاصم
 ولا كان ذو الجدين بين كتائب لها ميم من بكر وحيّ اللهازم
 ثم ذكر كبراء العرب وملوكها وذوي البأس منها إلى أن قال:

ولا كان قعقاع ابن ثور إذا احتبى جلي سأل له لم «يشقى» بين الأقدام
 بأمنع منّي في جوار خليفة عطوف على أهل البيوتات راحم
 كريم الأيادي والمساعي تمت به أبوة صدق من ذؤابة هاشم
 شريف الأداني والأقاصي مقدّم إذا ما عدنا فضل أهل المكارم
 له من إمام المرسلين و«ضوءه» عليّ معال ثابتات الدعائم
 معال هي الفخر الصحيح وغيرها معالي مجاز بين واه وسالم
 ومن ذا يقيس الشمس في رونق الضحى إلى كوكب في غيب الليل عاتم
 وما عذر مشحوذ اللسان مثقف يرى الشكر في الأنعام ضربة لازم
 أبيت أمير المؤمنين سوى التي يزيد ثناء ذكرها في المواسم
 تقى وندى ما بين حلم ونجدة وعفو وإمضاء على كل ظالم
 وكذبت أطماع البغاة فأدبروا لأعقابهم ما بين خاز ونادم

(١) عيون الأخبار، وفنون الآثار، السبع الخامس، م.س. ص ٣٠٨.

رجوا من فساد الملك ما أطمعتهم
 فصَبَّ عليهم محصّدات كأنها
 ولولا حذار من عقابك أرجفوا
 وأنّي لأدري أنّ أبغض من بها
 ظلوم وكذاب المقال وفاجر
 وللكذب المشتقّ في القلب سورة
 أمنت بك النكد اللثام وبغيهم
 بقافية لو حصّلت لتطايرت
 أيحسبها المغرور تنشد بعده
 وما هي إلا كالقسي إذا انحنت
 وإنّ التي أنشدتها بثنائكم
 رأيت عدواً باسماً غير عابس
 يكاسرني والعين أعدل شاهد
 وكان غراب البين قد طار قبله
 وأنّي لأرجو منك أجراً يقرّني
 ولا شيء إلا في يد الله إن قضى
 ومدّ بها الوهاب نفساً كريمة
 فمثلي يبقى شكره و ثناؤه
 تغنّي بها الركبان في كلّ بلدة
 أمانيتهم والله ليس بئنائم
 شأبيب قطر كوكف الغيم ساجم
 فعافوا وعاف الناس طير الأشائم
 إليك وأن أولاك نصيح مداوم
 وباغ وعات مستحلّ المحارم
 أضرّ من الداء العياء الملازم
 وتسوية من جاهل غير عالم
 شعاعاً ولم تثبت على فكر ناظم
 وتنقل من قرطاسها المتقادم؟
 أعاليه تطرح من جياذ الدراهم
 محبّرة مادام نسل لأدم
 وكان زماناً عابساً غير باسم
 على غيب ودأودفين سخائم
 يهزّ ذنابه كسير القوادم
 على رغم مجدوع المفاطس راغم
 بها يسرت في كفّ أروع صارم
 معودة بذل النهى والكرائم
 ومثلك يرجى للأمور الجسائم
 ويحدو بها خوص الركاب الرواسم

مدح الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدي بالله:

قال خليل بن عدنان بن إسحاق التميمي مخاطباً الخليفة القائم بأمر الله^(١):

ولقد ركبت الخيل أحمل سكّتي مثل النعامة
ونصرت آل محمد وأذقت شانيهم جمّامة
والخيل تعرف أنّني في الحرب أصدقها شهامة
وأعزّها نفساً وأكرمها وأكثرها صرامة
لا والذي خصّ الخليفة بالخلافة والإمامة
وحباه بالنبا العظيم وبالفضيلة والكرامة
ولقد وفيت لمن هويت كما وفي كعب بن مامة
لا خير في الدنيا لمن لا يرتجى داراً مقامه
مدح الخليفة المنصور بالله ابن القائم:

قال داعي الدعاة جعفر بن منصور اليمني يمدحه بعد انتصاره على مغل بن كيداد الخارجي صاحب الحمار^(٢):

يهنيك نصراً بما قد حزت من سبب يا سيّد الخلق من عجم ومن عرب
في كلّ يوم يرينا الله معجزة من نصرة لك تجلو غمّة الكرب
وأنت في كلّ حال تبتنّي رتباً في المجد فازدّد علا في المجد والرتب

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الخامس، م.س. ص ١٩٢.

(٢) م.س. نفسه، ص ٢٧٤.

وَيَصِفُ مَعَارِكَهُ مَعَ مَخْلَدِ بْنِ كَيْدَادَ فَيَقُولُ:

وَسَيِّدُ الْخَلْقِ إِسْمَاعِيلُ حِينَئِذٍ	فِي مَوْكَبِ الْخَيْلِ مِثْلَ الْبَدْرِ وَالشَّهَبِ
فَارْتَاعَ بَعْضُ نَوَاحِي الْخَيْلِ وَاضْطَرَبَتْ	وَسَيِّدُ الْخَلْقِ لَمْ يَفْشَلْ وَلَمْ يَهَبْ
وَسَيْفُ جَدِّهِ أَعْنَى ذَا الْفَقَارِ بِهِ	إِلَى الرِّشَادِ اسْتَقَادَتْ جَمْرَةُ الْعَرَبِ
يَا بَنَ الْأَثَمَةِ يَا تَاجَ النَّبِوَةِ يَا	مَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ
اللَّهُ أَعْطَاكَ مَلَكاً وَارْتَضَاكَ لَهُ	لَمَّا اصْطَفَاكَ بِلَا شَكٍّ وَلَا كَذِبِ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً دَائِماً أَبَداً	حَمْدُ امْرِئٍ فِي مَزِيدِ اللَّهِ مَرْتَغِبِ

وَمَدَحُهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْأَبْرُوطِيِّ بِقَوْلِهِ^(١):

تَقَلَّدَهَا مِنْ هَاشِمٍ خَيْرِ هَاشِمٍ	وَأَشْرَفَهَا بَنِيَانِ مَجْدٍ وَأَرْفَعَا
تَحَمَّلَ مِنْهَا مَا لَوْ أَنَّ أَقْلَهُ	عَلَى كَاهِلِ الدَّهْرِ انْكَفَا وَتَضَعُضَعَا
أَطْلَعَ عَلَى الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْقَ جَانِبٌ	مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا اخْضَرَ نَبْتاً وَأَمْرَعَا
رَمَى الْخَائِنَ الدَّجَالَ إِذْ حُمَّ حَيْثُهُ	فَمَارَاحَ حَتَّى عَادَ شَلَوْاً مُورَعَا
فَلَمْ أَرَ كَالْمَنْصُورِ بِاللَّهِ نَاصِراً	لِدِينٍ وَلَا أَحْمَى لِمَلِكٍ وَأَمْنَعَا
هُوَ الْمَلِكُ الْمَخْصُوصُ بِالنَّصْرِ مَلِكُهُ	وَحَافِظُ مَا قَدْ كَانَ ضَاعَ وَضِيْعَا
أَلَمْ تَرِ يَوْمَ الْقَيْرَوَانَ وَقُوفَهُ	وَقَدْ كَادَتْ الْأَكْبَادُ أَنْ تَتَّصِدُعَا
فَأَبْرَزَ وَجْهَهُ لِلْحَفِيظَةِ أَبْيَضاً	يُقَابِلُ وَجْهَهُ لِلْكَرِيهَةِ أَسْفَعَا
إِذَا اسْتَقْبَلَ الْأَبْصَارَ وَهِيَ طَوَامِحُ	ثَنَاهَا وَلَمْ تَسْتَكْمِلِ اللَّحْظَ حُشْعَا
إِمَامَ الْهَدْيِ أَقْبَلَتْ وَالدَّهْرُ مُقْبِلٌ	وَقَدْ عَادَ عَوْدُ الدَّهْرِ رَطْباً فَأَيْنَعَا
وَمَا أَحَدٌ يَسْعَى لِيَدْرِكَ غَايَةَ	مِنَ الْفَخْرِ إِلَّا كُنْتَ بِالْفَخْرِ أَشْفَعَا

(١) كتاب المقفى الكبير، م.س. ص ١٧٤.

مدح الخليفة المعز لدين الله:

كان الخليفة المعز لدين الله أكثر الخلفاء تشبهاً بجده الإمام علي - عليه السلام - في الحكمة والبلاغة والشجاعة والكرم والعفة وحب العفو، لذلك شطّ فيه بعض الشعراء في مدائحهم وشبّهوه بالذات الإلهية، وكان لمغالاتهم في مدحه، حجة أخذها المؤرخون المعارضون للدولة الفاطمية وللإسلام الشيعي، لإخراج الفاطميين وفرق الشيعة من الملة الإسلامية. ومن هذه القصائد، القصيدة التي قالها ابن هاني الأندلسي، وقد جاء فيها^(١):

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشّرنا به في كتبها الأحبار والأخبار
هذا إمام المتقين ومن به قد دُوخ الطغيان والكفار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يُسخط الإضر والاوزار
هذا الذي تُجدي شفاعته غداً حقاً وتخمد إن تراه النار
من آل أحمد كل فخر لم يكن يُنمى إليهم ليس فيه فخار

وبقية الأوصاف التي أسندها ابن هاني للخليفة المعز تدحض مزاعم المتخرّصين، وصفاتهم هي:

أبناء فاطم هل لنا في حشرنا لجأسواكم عاصم ومُجار
أنتم أحبباء الإله وآله خلفاؤه في أرضه، الأبرار

(١) ديوان ابن هاني الأندلسي، م.س. ص ١٠١.

أهل النبوة والرسالة والهدى
والوحي والتأويل والتحريم
إن قيل: من خير البرية لم يكن
لو تلمسون الصخر لانبجست به

ويهنته بدخول مصر بقوله:

أُمِرْ دِينَ اللَّهِ إِنَّ زَمَانَنَا
هَذَا أَنْ مَصْرَ غَدَاةٍ صُرْتُ قَطِينَهَا
شَرَفَتْ بِكَ الْآفَاقُ وَانْقَسَمَتْ
جَلَّتْ صِفَاتُكَ أَنْ تَحْدَ بِمَقُولٍ
وَاللَّهُ خَصَّكَ بِالْقُرْآنِ وَفَضَّلَهُ
بِكَ فِيهِ بِأَوْجُلٍّ وَاسْتَكْبَارٍ
أُحْرَى لَتَحْسُدَهَا بِكَ الْاِقْطَارُ
بِكَ الْأَرْزَاقُ وَالْأَجَالُ وَالْأَعْمَارُ
مَا يَصْنَعُ الْمَصْدَاقُ وَالْمَكْثَارُ
وَإِخْجَلَّتِي مَا تَبْلُغُ الْأَشْعَارُ

وبالرغم من كل هذه الصفات والنعوت التي أسبغها ابن هاني
على الخليفة المعز، يعتذر خجلاً لأنه لم يبلغ بشعره ما بلغه القرآن
الكريم في تكريم أهل البيت.

وقال ابن هاني يمدحه أيضاً:

مَلِكٌ أَنَاخَ عَلَى الزَّمَانِ بِكُلِّ كَلٍ
يَمْضِي الْمَنَايَا وَالْعَطَايَا وَادْعَاً
وَافِيً بِهَيْبَةِ ذِي الْفَقَارِ كَأَنَّمَا
وَكَأَنَّ جَدَّكَ فِي فَوَارِسِ هَاشِمٍ
أَعْلَيْكَ تَخْتَلِفُ الْمَنَابِرُ بَعْدَمَا
أَوْتِيَتْ فَضْلَ خِلَافَةِ كُنْبُوَّةٍ
أَخْلِيْفَةُ اللَّهِ الرُّضَى وَسَبِيلُهُ
فَأَذَلَّ صَعْباً فِي الْقِيَادِ جُمُوحَا
تَعَبَتْ لَهُ عَزَمَاتُهُ وَأُرِيحَا
وَشَحَّتْهُ بِنَجَادِهِ تَوْشِيحَا
مِنْهُمْ بِحَيْثُ يَرَى الْحُسَيْنَ ذَبِيحَا
جَنَحْتَ إِلَيْكَ الْمَشْرِقَانِ جَنُوحَا
وَنَجِيَّ إِلَهُامِ كَوْحِي يَوْحِي
وَمَنَارُهُ وَكِتَابُهُ الْمَشْرُوحَا

نطقت بك السبع المثاني أسناً
 أخشاك تُنسي الشمس مطلعها كما
 صُورَتْ من مَلَكُوتِ رَبِّكَ صورةً
 أقسمت لولا أن دعيت خليفة
 شهدت بمقدمك السموات العلى
 وتنزل القرآن فيك مديحاً
 وهذه الصفات التي وصف الشاعر بها الخليفة المعزّ سنجدتها
 ملازمة لمدائح الشعراء في الخلفاء المصريين طوال قرنين ونيف من
 الزمن، فصفات المهدي بالله هي نفسها صفات المعزّ لدين الله هي
 نفسها صفات العاضد لدين الله.

وقال أيوب ابن إبراهيم يمدحه بقوله^(١):

يا ابن الإمام المرتضى وابن الوصي المصطفى وابن النبي المرسل
 الله أعطاك الخلافة وأهباً ورآك للإسلام أمانع معقل
 نلت الخلافة وهي أعظم رتبة نيلت وليست من عُلاك بأفضل
 فمنعت حوزتها وحطت حريمها بالمشرفيّة والوشيح الذبّل
 وعندما ودّعه القائد خليل بن إسحاق منطلقاً لقتال بعض الخوارج
 خاطب الخليفة المعزّ بقوله^(٢):

وما ودّعت خير الخلق طراً ولا فارقتَه عن طيب نفسٍ
 ولكنّي طلبت به رضاه وعفو اللّه يومَ حلول رمسٍ
 فعاش مملّكاً ملاح نجمٍ على الثقلين من جنٍّ وإنسٍ

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٨٧.

(٢) م.س. نفسه. ص ٨٧.

صفات الخليفة بنظر الشعراء المصريين:

كتب الشاعر تميم بن المعز يصف أخاه العزيز فقال:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تنأهى منك جوهره تنأهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق مُتَّحِلٌ وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آيته من نسل مرسله وأنت خيرته الغراء من مضر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها مثوى وكنت ملك الأنجم الزهر
ولو تفاظنت الأبواب فيك درت بأنّها عنك في عجز وفي حصر

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح الإمام العزيز بالله ليس كغيره من الملوك لأنّ نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلّت في جسم كثيف ترابي، وأنّ هذه النفس اللطيفة تناسب العقل الكلي - الذي سمّاه الشاعر هنا العلة الأولى - وبما أنّ العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولى، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل، أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو متصل بالله تعالى لأنّ ممثوله العقل الأول متصف بالله تعالى، وأنّ الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد لأنّ ممثوله العقل هو آية الله الكبرى، وهكذا يستمر الأمير تميم في استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح شقيقه الإمام العزيز بالله بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا المديح دون التوسل إلى ذلك بتطبيق «نظرية المثل والممثل»^(١):

(١) راجع: الحياة الأدبية الفكرية في مصر، محمد كامل حسين. م.س. ص ١٦٤.

مدائح الخليفة العزيز بالله:

كان العزيز أكثر الخلفاء الأئمة سماحة خلق ودمائة أخلاق ومُجِبّاً
للأمن والسلام والدعة. لذلك نجد المدائح التي قيلت فيه، تمجد
الخلافة والإمامة والصفات النبوية التي ورثها عن أجداده.

ومن مدائح الأمير تميم به:

عزيزُ به عزّت خلافة هاشم وراح عمودُ البغي وهو كسير
تباشرت الدنيا به وبملكه وأشرق منه منبر وسرير
فيا بن الذين استنبط الوحي عنهم وأضحى بهم وجه الزمان ينير
ويا بن الملوك الشّم من آل هاشم ومن طاب منهم ظاهر وضمير
إذا عدّ قومٌ للفخار عشيرةً غدا لك من آل النبيّ عشير
وقال يمدحه أيضاً:

سما فطال النجوم مبتدئاً وجاد عفواً فأخجل المطرا
يبذل قبل السؤال نائله ثم يلاقي العفاة معتذرا
أبلج يستعصم الأنام به ويسمع الدهر منه ما أمرا
وللمعالي عليه أبّهة تملأ قلب الشجاع والبصرا
ياملكاً أمّ ماله أبداً تفقده قبل يبلغ الكبرا
جود يصوب الأنام عارضه منك وينهلُ مزنه دُرّاً
يا بن مُعزّ الهدى وحسبك أن تغدوبه سامياً ومفتخرا
يا صفوة الله من بريّته وسرّ عليائه الذي ظهرا
إنك من معشرهمُ جمعوا شمل المعالي ودوخوا البشر

وديوان الأمير تميم يضم العديد من قصائد المدح في الإمام
المعزّ والإمام العزيز وكلّها تمجد حسبهم ونسبهم الشريف وورعهم

وتقاهم وانتسابهم للعترة النبوية الطاهرة، كما تشير إلى همهم الأول والأخير: الذب عن الإسلام ونشر راياته في مشارق الأرض ومغاربها.

ويقول المقداد بن الحسن يمدح الخليفة العزيز^(١):

هذا الإمام وبغية الله التي ما جلّها خلق ولا مفسوب
حرب الجيوش وعاد يحرب ماله بعطائه فكأنه المحروب
وقال فيه أيضاً:

إمام إذا ما قدر الأمر أبرمت سوابق علم الله ما كان قدراً
تردّى رداء النصر حتى كأنما تكنّى أبا المنصور حتماً لينصرا
وقال يمدحه:

إمام تتوج تاج الفخار فوافق مفرقه واعتدل
يعزّ التراب إذا مشى عليه فتكثرفيه القبل
وقال سلمان بن فلاح في مدح الخليفة العزيز أيضاً:

فلأنثرن فرائد الدهر التي من حقّه في وصفه أن تنثرا
بل لا أزال مدى حياتي داعياً أن لا يزال مملوكاً ومعمراً
والله أهل أن يجيب دعاء من لوأنه يهديه كونا أقصرا
وقال عبد المحسن السوري يمدح الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين^(٢):

جفن على شوك القتادة يطبق وجوى إلى حيث اللبنة يسبق

(١) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، م.س. ص ٢٥٥.

(٢) ديوان عبد المحسن السوري، ابن غلبون، م.س. ص ٣٢٠.

ويكون كالظن البعيد لعائدي
 أيطيق كتمان الصبابة من له
 وكان ما دم قلبه من جفنه
 وكان وجنته حزية عاكف
 الحق سرائرك التي أركبت لها
 لا تعجبين لنا ظري إذا هما
 فالشاهدان الشاهدان على الهوى
 أنا للنوى إن لم أشد مع النوى
 حيث الصوارم والجماجم صخرة
 وبحيث عهد المشرفية للطلی
 ظلمات ذي القرنين كن مسالكی
 ورايت نورا في نزار كلما
 وبحيث مصر للغيوب كفاية
 يلقاك نور الحق قبل لقاءه
 آل النبي هم النبي وأنما
 أبت الإمامة أن تليق بغيرهم
 فترى الأكارم إنما اكتسبوا الندى
 وكان ما خلق العزيز نسالهم
 أمطلق الدنيا ثلاثا بالندى
 كم موزي ما زلت تشرع مضدري
 فأسير والحدثان لي مستيقظ
 سبقت لعبد المحسن الحسنى بكم
 كمدي فما ينفك أو يتحقق
 في كل جراحة لسان ينطق
 نار يطير لها شرار محرق
 والدمع قنيديل عليه معلق
 (تحت) الدموع فأنها لا تلحق
 سفحا وفي يدك الفؤاد الأشوق
 سالك ما فعل الأسير المطلق
 عزمي إلى حيث التفريق يفرق
 والبيض بالبيض الرقاق تفلق
 من عهدنا لك بالمودة أوثق
 فأنشق لي منها صباح مشرق
 القاه من وصي وتلقى الأينق
 بغيوب راحته التي تتدفق
 فيها وبينكما دروب تغلق
 بالوحي فرق بينهم فتفرقوا
 أهل الرسالة بالإمامة أليق
 من فضل ما جادوا به وتصدقوا
 من قبل خلقه جسمه فتخلقوا
 زهدا فليست بالثلاث تطلق
 عنه ورايات العلى لي تخفيق
 وأعود وهو من المهابة مطرق
 وبحبكم فطريقه تستطرق

ولقد تبين عجزه عن مدحكم كل التبئين وهو غال مغرر

وقال أبو الرقعمق يمدح الإمام العزيز بالله^(١) بقصيدة مطلعها:

قلبي - لك الخير - بالأفراح معمور مستبشر جذل بالفتح مسرور

يقول فيها:

خُذْ فِي هَنَاتِكَ مِمَّا قَدْ عُرِفَتْ بِهِ مِمَّا بِهِ أَنْتَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ
وَأَحْكِ الْعَصَافِيرَ صَصَى صَصَى إِذَا تَجَاوَبْنَ فِي الصَّبْحِ الْعَصَافِيرُ
فَفِيكَ مَا شِئْتُ مِنْ حُحْمٍ وَمِنْ هَوَسٍ قَلِيلُهُ لَكَثِيرِ الْحُمِّ إِكْسِيرُ
كَمْ رَامَ إِدْرَاكَهُ قَوْمٌ فَأَعْجَزَهُمْ وَكَيْفَ يُذَرِّكُ مَا فِيهِ قَنَاطِيرُ
لَا تَنْكُرُنَّ حِمَاقَاتِي لِأَنَّ بِهَا لَوَاءَ حُحْمِي فِي الْأَفَاقِ مَنْشُورُ
وَلَسْتُ أَبْغِي بِهَا خَلًّا وَلَا بَدَلًا هِيَهَاتَ غَيْرِي بَتَرَكَ الْحُمِّ مَعْذُورُ
لَا عَيْبَ فِيَّ سِوَى أَنِّي إِذَا طَرَبُوا وَقَدْ حَضَرْتُ يَرَى فِي الرَّأْسِ تَفْجِيرُ
وَالْأَخْذَعَانَ فَمَا زِلَا يُرَى بِهِمَا لِكثْرَةِ الْمَرْحِ تَوْرِيمٍ وَتَحْمِيرِ
وَذَا الْفَعَالِ مَعَ الْإِعْرَاضِ مُطَرِدٌ صَفْعٍ وَنَقْعٍ وَتَيْسِيرٍ وَتَعْسِيرِ
فَذَا وَذَاكَ وَهَذَا ثُمَّ ذَاكَ وَذَا كَذَا اللَّيَالِي لَهَا صَفْوٌ وَتَكْدِيرُ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا قُلْتُه عَبَثًا لَغَيْرِ شَيْءٍ، وَمَا فِي الصَّحْفِ مَسْطُورُ
أَقُولُ لِلنَّفْسِ لَمَّا اسْتَشْعَرَتْ جَزَعًا وَبَاتَ يَرْدَعُهَا خَوْفٌ وَتَحْذِيرُ
إِنَّ الْإِمَامَ نِزَارًا مَدَحَهُ فَثَقِي نُحْرٌ لِمِثْلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَذْخُورُ
هُوَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ فِي النَّاسِ مَحْمُودٌ وَمَشْكُورُ
مُشَمَّرٌ فِي الْمَعَالِي ذَيْلٌ مُجْتَهِدٌ وَمَا لَهُ فِي سِوَى الْعُلِيَاءِ تَشْمِيرُ

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

قصيدة ذات الدوحة:

يقول الشاعر الإسكندراني يمدح الخليفة العزيز:

سئمت من البين الذي ليس يصدق	فلست بغير الحق والصدق أنطق
أمدح رهطاً غير رهط محمد	وفي الجيد عهد للإمام موثق
ولا فضل لي في ذابل الفضل فضل من	بهم يحرم الله الأنام ويرزق
أئمة دين الله مذاقاً دينه	وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق
محبّتهم فرض على الناس واجب	وعصيانهم كفر إلى النار موبق
هم العروة الوثقى، هم منهج الهدى	هم الغاية القصوى التي ليس تلحق
ولولا هم لم يخلق الله خلقه	ولم يك في الدنيا ضياء ورونق
هم دوحة الدين التي تثمر الهدى	وباليمين والتقوى تظل وتسبق
تجير من الأيام من يستظلها	وتحي من الموت الجهول وتطلق
سقاها غمام الوحي علماً فأينعت	بمكنون علم الله فالدين مونق
جرت في تخوم المحكمات عروقها	وفوق الثريا فرعها متعلق
هم الأصل منها والأئمة فرعها	ففي كل عصر نورها يتألق
إلى أن تسامت بالعزیز ولم تكن	بغير أبي المنصور لو كان يلثق
فباهت على الأيام أيامه التي	تكاد لها صمّ الجنادل تورق
سحائب جود لا يغيب غمامها	وبحر سماح بالندى يتدفق
لئن فقد الناس المعز لدينه	لقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيا علينا بيمينه	فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا الجود ممنوع ولا المجد خامل	ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق
تضوّع نشر العدل في كل بلدة	ونشر الثناء الطيب للطيب يعبق
ملأت قلوب العارفين محبة	فكل على مقداره يتشوق

فلا صامت إلا بحبك ناطق
فضائل مولانا العزيز جليلة
غرس على بيت من الشعر دوحة
فألفت من بيت بيوتاً كثيرة
فسبع وسبع عن يمين ويسرة
بمدح أمير المؤمنين لأنها
عليه صلاة الله ما لاح كوكب
وتلك هي الأبيات السبعة الأولى المأخوذة من البيت الأساسي:

كسى الدين والدنيا نزار جلابيا
١- كسى الشرق والغرب الإمام غرائب
٢- كسى الدين من لا دين له إلا بحبه
٣- كسى الدين والدنيا العزيز جلابياً
٤- كسى الدين والدنيا نزار هداية
٥- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً
٦- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً
٧- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً

أما الأبيات السبعة الثانية فهي كالتالي:

١- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً
٢- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً
٣- كسى الدين والدنيا نزار جلابياً
٤- كسى الدين والدنيا نزار سلامة
٥- كسى الدين والدنيا حقائق نعمة

من اليمن والإيمان فالشك مغلق
من اليمن والإقبال فالدهر مطرق
مجددة في نعمة ليس تخلق
تزيد على طول الزمان وتسبق
فروض ترى الإيمان بالزهر مونق

٦- كسى الدين بالمعروف والجود جنة تحصنه ممن يحيد ويمرق
 ٧- كسى عدله الايام نوراً وبهجة فها السن الايام بالشكر تنطق
 فإذا تمعننا جيداً بالطريقة التي اتبعها الشاعر في إنهاء قصيدته
 التي شبهها بالدوحة وجعلها أغصان من بيت الشعر الاساسي الذي
 اعتبره الجذع، نجد أنه قسم هذا البيت إلى ست نوتات صوتية فرعية
 ونوتة أساسية استعملها في بداية كل بيت. وبدأ يستعمل هذه
 النوتات من أولها إلى آخرها ثم عاد بها واستعملها من آخرها إلى
 أولها وهذه النوتات هي:
 النوتة الاساسية: كسى.

النوتات الفرعية:

١ - الدين.

٢ - والدنيا.

٣ - نزار.

٤ - جلابياً.

٥ - من اليمن.

٦ - والإيمان.

أما القافية فلم يعتبرها نوتة صوتية لأنها مماثلة لبقية القوافي.

«فالشاعر هنا قد ألزم نفسه بأن يبني بيتين من الشعر على كل
 كلمة من كلمات البيت الأخير، وأن يفرع عن يمين وشمال هذا البيت
 الأخير أربعة عشر بيتاً، سبعة أبيات عن يمين. وسبعة عن شمال

حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة، وما رأينا أحداً من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمي^(١).

مدح الخليفة الحاكم بأمر الله:

كانت تصرفات الحاكم بأمر الله مصدراً لهجوم المؤرخين على الفاطميين بشكل خاص، وعلى الطوائف الإسلامية الشيعية بشكل عام، كما كانت مصدراً لتحريض وتعبئة الأمة الإسلامية على الشيعة والتشيع، لذا نجد الكثير من شتائم للحاكم نثراً وشعراً، أما مدائحه فقد مُجيت وأحرقت كما أحرق التراث الإسلامي الشيعي الفاطمي المصري بمعظمه.

عندما ولد الحاكم، مدحه عمه الأمير تميم بن المعز بقوله:

ليهن الملك مالكة الجديد	ووارثه وإن رغم السحسود
أتيت به أبا المنصور فرداً	تخبر به الليالي وهي سود
يلوح عليه منك هديّ وفضل	ويظهر فيه منك حجى وجود
وليد كانت الدنيا تُرجى	ولادته وترقبه السعود
وكم رَصَدْتُهُ أَمالُ البرايا	حوافل قبل يظهره الوجود
وكم رجيت الخلافة أن تراه	كما يرجوا حبثه العميد
إلى أن تمُّ أمراً الله فيه	ولام السعد واقترب البعيد
وأعطيت الخلافة ما تمننت	به والله يفعل ما يريد
عزيزي نزارى عليك	له الدنيا ومن فيها عبيد
فآيات القرآن له تراث	وأبناء النبي له جود

(١) راجع: أدب مصر الفاطمية، محمد كامل حسين، م.س. ص ١٧٥.

ومدحه محمد القيسي بقوله^(١):

إن كان قد غاب العزيز فلم يغب حتى أقام لنا الإمام الحاكم
إن سار سار الفخر تحت ركابه والعزم يعزم إن رآه عازما
من لم يكن مستمسكاً بلوائه وبحبه في الحشر أصبح نادما
وقال أيضاً:

تألق برق الحق في سحب الهوى فسح علينا منه غيثاً وأمطرا
وأشرفت الأحكام بالحاكم الذي به عاد غصن الدين ريان أخضرا
تكلم هذا الدهر عنه بعدله وأفصح بالقول الزمان وخبراً
وأصبحت الأيام بيضاً نواضراً وعاد غنياً كل من كان مقتراً

في مدح الحاكم أيضاً:

وأنشد علي بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن
منهوكة أبي نواس يمدح فيها الحاكم بأمر الله، منها قوله:

إن الزمان قد نضضر بالحاكم الملك الأغر
في كفه غضب ذكر فقد دعا على القصر
من غره على الفرر يمضي كما يمضي القدر
في سرعة الطرف نظر أو السحاب المنهمر
بادر بإنفاق البدر بدر إذا لاح بهر

وقال محمد بن القاسم المعروف بصناجة الدوح في مدح الحاكم،
وقد حدثت زلزلة في مصر^(٢):

(١) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، م.س. ص ٣٠٩.

(٢) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ١٩٨.

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا نجل العلا وسليل السادة الصلحا
مازلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحا
وقال حسين بن أحمد الواسطي يمدح الإمام الحاكم بأمر الله^(١):

من مثلكم يا آل طه أنتم سبب إلى البركات والغفران
بكم عرفنا الله جلّ جلاله وضمنكم للحق خير ضمان
ومن قصيدة يمدح بها الخليفة الحاكم بأمر الله قال الشاعر
العاطلي عبد المحسن الصوري^(٢):

ما طول الليل القصيرا ونهى الكواكب أن تغورا
حتى إذا ما الحاكم المنصور قام لها نصيرا
ظهرت دلائل لم تجذ من دون دولته ظهيرا
يا مستمدا من مناقبه يسطر لها سطورا
هل كان عندك أن في الأقلام ما يُقني البحورا
وفي قصيدة ثانية يقول قصيدة مطلعها^(٣):

خلا طرفه بالسقم دوني يلازمه إلى أن رمى سهماً فصرت أساهمه
عدد أبيات القصيدة خمس وعشرون، تغزل واشتكى من السهر،
وذكر المحرم وظلم بني أمية، ونصح الباكين على مصرع الحسين
أن يتركوا البكاء عليه إلى الصوارم، وأن الظالمين خسروا الدارين، ثم
امتدح تدبير الوزير (برجوان) وذكر وقعة باسيل ملك الروم مع
المسلمين على عهد العزيز بالله واندحاره أمام المسلمين. وهكذا

(١) الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، م.س. ص ٣٠٩.

(٢) ديوان عبد المحسن الصوري، ابن غليون، م.س. ص ٨.

(٣) م.س. نفسه، ص ٩.

انتهت القصيدة ولم يرد مدح الحاكم بأمر الله إلا في بيت واحد، هو:
وجدد عهد المصطفى بعض أهله وحكم في الدين الحنيفي حاكمه

مدح الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم:

قال داعي الدعاة هبة الله الشيرازي يمدح الخليفة الظاهر ابن الحاكم^(١):

قد عز دين الله بالظاهر	مولى الأنام الباطن الظاهر
نجل الإمام الحاكم المجتبي	وابن الإمام الطيب الطاهر
يا بن رسول الله يا خير من	أنشئ من باد وحاضر
من ذا يباريك وضوء الضحي	مقتبس من نورك الباهر
يا ظاهراً، وجه التقى ناضراً	مستبشراً من وجهه الناضر
يا ملجأ الضعفا ومنجأهم	ويا مقبلاً عثرة العائر
أنت الذي قد تمت من أحمد	حقاً مقام القلب والناظر
أنت الثريا والورى كالثرى	وأنت قصوى مفخر الفاخر
يا صفوة الأبرار يا خير من	قد قام من ناه ومن أمر
يا «بلد الله الأمين» الذي	قد زاغ عنه بصر الكافر
وكاسراً باطل ما أبدعوا	نفسى فداء الكاسر الجابر
صلّى عليك الله سبحانه	ما يسمع التغريد من طائر

ومدحه الحسن بن أحمد الكاتب المعروف بابن الخياط^(٢):

جمعت لمصر جوامع الأوطار مولى الملوك وسيّد الأنهار

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، م.س. ص ٢٤١.

(٢) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١١٤.

ظهرت إمارات الرضى من ربنا بالظاهر بن الحاكم بن نزار
وغدا يقسم نيله في أرضه كما يفيض به على الأقطار
هو ماؤه حيناً وحيناً ماله يهمني على القاصين والحضار
وإذا قارنا بين تشبيه ابن الخياط للخليفة الظاهر بالنيل وتشبيه
ابن هاني الأندلسي لجده المعز لدين الله «بالواحد القهار»، لرأينا
هزال الصورة الشعرية عند ابن الخياط وترهلها. وعند الشيعة
الإمامية اعتقاد بأن الدنيا كلها خلقت لأجل أهل بيت النبي، فما يكون
النيل أمام الدنيا؟.

وجاء أيضاً في قصيدة ابن الخياط:

عصر الإمام الظاهر المولى الذي أبداً نتيه به على الأعصار
شمس الملوك ووارث البيت الذي أنواره غطت على الأنوار
أمنت رعيته وخاف عدوه وتبدل الأشرار بالأخيار
ومدحه أبو القاسم عبد العزيز بن أبي الكرام بقوله^(١):

يا من تتوج بالخلافة فاكتست غرراً بفرّة وجهه وحجولا
إن المِعْدُك في المعاد ذخيرة بلغ المراد وأدرك المأمولا
لولا الرسول، ولا دفاع لفضله ما كنت أدفع أن تكون رسولا
وقال فيه أيضاً:

يا ذا الذي يُزهى عليّ بحسنه وهو الخلافة بالإمام الظاهر
ملك يلين إذا استلين تعطفاً ويعزّ في الهيجاء عزّة قادر

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٥٧.

مدح الخليفة المستنصر:

قال المؤيد في الدين، داعي الدعاة، هبة الله بن موسى الشيرازي
يمدح الخليفة المستنصر وكان حين تولى الخلافة طفلاً:

الله ينصر راية المستنصر بالله مولانا الإمام الأطهر
ويديم دولته ويجبر كسرنا في «الظاهر» الغصن الرطيب الأخضر
السيد المولى الموارى في الثرى غصن الشباب بنور وجهه أقمري
صلّى الإله على مقدّس روحه أبداً وجسم في ثراه مطهر

ويخاطب الخليفة الطفل بقوله:

أشبهت عيسى في الذي أوتيته طفلاً من النعماء ولمّا تُقصر
أنت الذي يعنو الزمان لباسه صغراً فتلبسه لباس مُسَخَّر
يا ابن النبي المصطفى ووصيه وبتوله وابن الصفا والمشعر
صلّى عليك الله ما كشف الدجى عن وجهه ضوء الصباح الأزهر

وفي قصيدة ثانية خاطبه بقوله:

يا إماماً كلّ الفخار وراء في قياس إليه وهو أمام
أنت مما تقدّمت به الأقدام في كلّ مُعْجَزٍ قُدّام
بكم آدم استجار بدياً واستفاد الفخار نوح وسام
وكلّيم الإله بعد خليل ومسيح قوائم الصوام
يا وليّ الإله يا من به تقبل منا صلاتنا والصيام
يا وليّ الإله صلّى الله عليك ما غردت بشجوح حمام
وتجلّى صبح وأظلم ليل وتقضى عام وأقبل عام

وقال فيه أيضاً^(١):

نجل النبي المصطفى	مولى به العشواء تجلو
وابن الأولى بهداهم	فينا بدا خرم وجل
الراكعين الساجدين	عليهم يا قوم صلوا
الطاهرين الظاهرين	فجل مولانا وجلوا
مولى مواليه الأعز	كمأمعادييه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى	والمرتضى يسمو ويعلو
يامن ملوك الأرض ملك	يديه والعُبدان كل
وله ملائكة السماء	جميعها خيل ورخل
صلى عليك إلها	مادام بعذودام قبل

المستنصر ثامن الخلفاء وثامن الكواكب السبعة:

وقال ولي الدين أحمد بن حران الكاتب يمدح المستنصر^(٢):

إن الحقائق قد تبلج نورها	لما تتوج بالهدى المستنصر
هو ثامن الأملاك قام وثامن	الأفلاك أعلى في النفوس وأكبر
سادت معاليه كواكب سبعة	بضياؤها تحيا النفوس وتبصر
شرف الزمان بهم فصارت أرضه	فلكأهم فيها كواكب زهر

وقال ابن أبي حصينة في مدحه أيضاً^(٣):

هو حجة الله العلي فلا تكن متعلقاً أبداً بغير حباله

(١) ديوان المؤيد في الدني داعي الدعاة، م.س. ص ٢٤٣.

(٢) الدرة المضية، م.س. ص ٤٥٤.

(٣) الدرة المضية، م.س. ص ٤٥٥.

وعلا سرير الملك من آل الهدى من لا تَمُرُّ الفاحشات بباله
أوفى البرية كلَّها بعهوده واشدَّها حنقاً على أحواله
لورام تحويل الزمان ونقله عن طبعه لأماله عن حاله
وقال عبد الباقي التنوخي يمدحه ويذكر بأخذه بغداد^(١):

أنت الذي نطق الكتاب وبشّرت بقدومك العلماء والأحبار
تمحى برؤياك الذنوب كأنما رؤياك عند المذنب استغفار
هذا الإمام معدُّ أفضل كلِّ من ولدت معدُّ قبله ونزار
سائل بني العباس عنه فعندهم خبر الذي هو عندنا استخبار
لما طغى فرعونهم صارت إلى أن حاط منك به قوًى ودمار
لم يكف أن دكت أسرة ملكه حتى حواه بعد ذاك أسار
من يعتقدي من سواك إمامة فإمامه خزي له وشنار
صغنا لك الأشعار يا من صيغت الآيات فيه فضاغت الأشعار

الناس آمنون في عهد المستنصر:

ومدحه ابن أبي حصينة المعري أيضاً^(٢):

ظهر الهدى وتجمّل الإسلام وابن الرسول خليفة وإمام
مستنصر بالله ليس يفوته طلب ولا يعتاص عنه مرام
حاط البلاد وبات تسهر عينه وعيون سكان البلاد نيام
قصر الإمام أبي تميم كعبة ويمينه ركن لها ومقام
لولا بني الزهراء ما عرف التقى فينسا ولا تبع الهدى الأقوام

(١) م.س. نفسه. ص ٤٥٧.

(٢) ديوان الشاعر ابن أبي حصينة، الجزء الثاني، ص ٣٤٦.

يا آل أحمد تُبَّتْ أقدامكم وتزلزلت بعدادكم الأقوام
لستم وغيركم سواء أنثُمُ للدين أرواحٌ وهم أجسام
يا آل طه حُبُّكُمْ وولاؤُكم فرض وإن عذل الوشاةً ولا مواء
وإشارة ابن أبي حصينة إلى حالة الأمن والأمان التي ينعم بها
المصريون سببها حالة الفوضى وانعدام الأمن التي كان يعيشها أهل
بر الشام، رغم وقوعهم تحت حكم الخلافة المصرية. لكنَّ حكامهم
كانوا يخطبون لمن يدفع أكثر. لذلك كانت عواصم الشام مهددة
بالانقلابات السياسية والعسكرية الكثيرة.

مدح الخليفة المستعلي:

قال الشاعر عبد الباقي التنوخي يعزِّي بالمستنصر ويبايع
المستعلي بالله^(١):

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى ولا رزؤه أمرٌ يقاس به أمرٌ
لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر
وأجرت عليه حين مات دموعها السماء وقال الناس: لابل هو القطر
وقد بكت الخنساء صخراً وأنه يبكيه من فرط المصاب به الصخر
وقلَّدها المستعلي الطهرُ حسبما عليه قديماً نصّ والده الطهر
وفي هذا البيت إشارة إلى أنَّ المستعلي ورث الخلافة والإمامة
بالنصّ من والده المستنصر، والتاريخ أشار إلى أنَّ المستنصر نصّ
على ولده البكر والأكبر نزار الذي كان له من العمر حين وفاة أبيه

(١) الدرّة المضيّة، م. س. ص ٤٥٧.

خمسون سنة، وبينما كان للمستعلي من العمر تسع عشرة سنة. ولا يعقل أن يرتكب الإمام المعصوم غلطة شنيعة بحق الإمامة والخلافة والإسلام كمثل هذه الغلطة، لأنَّ بها ستكون نهاية الإمامة والخلافة وهكذا كان، فسبب انشقاق الإسلام الشيعي الإمامي في مصر إلى مستعلية ونزارية، دقَّ أول اسفين في نعش الإمامة والخلافة والدولة.

وقال ابن عبد الباقي في المستعلي أيضاً:

إن كان قد أوصى مَعْدُفَانظَرُوا المستعلي العالي ابنه وتبصروا
تجدوا الإمام أبا تميم نيراً ما غاب حتى لاح منه نُيُورُ
وكذا الإمامة كالحديقة لم تنزل غصن بها يذوي وآخر يُثْمِرُ

وقال أيضاً:

عاد عود العلواء غصناً طرياً واستجد الزمان خلقاً رضيعاً
ورأينا المستعلي العالي الجد كأنما به رأينا النبياً
وشهدنا معه المعز مع القائم يتلو المنصور والمهديا
وحبائهم وعدأ به فاتاهم إنَّه كان وعده مأتياً
صلوات الإله تترى عليه آخر الدهر بكرة وعشياً
وكان المستعلي اسمه أحمد فقال ابن عبد الباقي أيضاً يمدحه
ويذكر بأهمية هذا الاسم وأهميته لمصر:

لقد فضل الخلاقُ أحمد في الوري وفضل في البلدان من أجله مصرا
تَحَدَّى رسول الله اسماً وكنية وطهراً فأضحى مثل آبائه طهرا
فيارب هنيئنا به وأطل به كوالده المنصور الباع والعُمرا

ومدحه محمد بن محمد الحسن بن بقوله^(١):

سليل النبي وفرع الوصي طال فخاراً وطاب اختيارا
وارث الخلافة حق له إذا ما سواه ادعى واستعارا
وإن تميزوا فيه بعد اليقين فحاميم أكرم من أن تُمارى
وقد ذكر الشاعر الناس بقوله تعالى في سورة الشورى الآية ٢٢:
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. - وهذه الآية هي
إحدى الآيات التي تفسرها الشيعة الإمامية أنها نزلت في الإمام علي -
عليه السلام - وأنها نصاً صريحاً بولايته وإمامته وخلافته للنبي (ص).

ومدحه الحسن بن حيدرة بقوله:

مَلِكٌ التِي مَا أَنْ تَنَالَ بِحِيلَةٍ بَلْ مَوْلِدٌ يَقْضِي بِهَا وَنَجَارُ
سَرُّ تَنْقُلُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى أَتَتْهُ بِمَحْضِهَا الْأَسْرَارُ

مدح الخليفة الأمر:

قال محمد بن محمد الحسن بن محمد الخليفة الأمر^(٢):

أهدى الزمان لنا بشائر سعه ووفى لأبناء الرجاء بوعده
واستل من جفن المعالي صارماً يفري الخطوب القادحات بحده
نور النبوة والإمامة أصبحا يتالقان على ضياء فرنده
ومدحه الحسن بن حيدرة أيضاً فقال:

ذخر الخلافة أبدته سعادتها وكان في عينها من قبل مكتتما
سر من الله تخفيه إرادته عن الجهول وتبديه لمن علما

(١) الدرة المضية، ص ٤٥٨.

(٢) الدرة المضية، م.س. ص ٤٥٩.

وقال فيه أيضاً:

ورث الخلافة كابرأ عن كابر شهدت بذاك بواطن وظواهرُ
شفع النبوة بالخلافة إنّه فيها بأحكام المهيمن أمرُ
ومدحه محمد بن القاضي الموفق فقال:

يا عاشر الخلفاء والمحيي لهم ذكرأ روايتنا له عن طاهها
أخجلت بالكرم السحاب بعدما كانت تُفاخرُ بالندى وتباهها
وحسمت أدواء القنوط لأنفس فجعلتها تقوى على تقواها
فأسلم على رغم الليالي أمراً فيها فانت سناؤها وسناها
وقال فيه أيضاً:

إمام تذل الحادثات لعزّه يعيد ويبدي والليالي رواغم
تداركنا والمكرمات دوائرُ يعمّ صداها والمعالي معالم
وقال ظافر الحداد يمدح الخليفة الأمر أيضاً:

لامر الأمر انتهت الليالي على خالي وفاق واختلاف
فهنّ لحزبه كالشهد لكن لمن عاداه كالسمّ الزعاف
مدحتك واختصرت وذاك معنى أشير به لأفهام لطاف
ومدحك في كتاب الله نصّ وحسبك منه كافٍ أيّ كافٍ
وقال أيضاً:

صلّى الإلاه عليك يا بن رسوله وهدي لطاعتك الوري لسبيله
فبك استقرّ الحق واتّضح الهدى وأبان للثقلين وجه دليله
يا بن الأئمة من ذؤابة هاشم شرف سما بفروعه وأصوله
ومبيد ملك الروم بالنصر الذي نطقت به الآيات من إنجيله
أنت الذي بعث الإله لنابه أباءه فتمثلوا بمثوله

ماذا يقول المادحون وقد بدا
 وتقول مكة عند ذاك وطيبة
 هذا ضياء الله والمعنى الذي
 هذا ابن من أدناه منه إلهه
 هذا ابن من نطق الذراع لجده
 أغنت هباتك قطر مصر عن الحيا
 الأمر المنصور والجبل الذي
 هو واحد والناس طراً بعضه
 وقال ظافر الحداد يمدح الخليفة الأمر أيضاً:

هذا الإمام إمامي حاضر بادي
 هذا مقام سماع عن كل مرتبة
 ها غرة الأمر المنصور مشرقة
 يا ابن الأولى سلفوا من هاشم ولهم
 كم قدر مدحي ومدح الخلق فيك وقد
 يا عروة فاز المستمسكون بها
 فخراً لفسطاط مصر إذ حللت به
 نهر تخافسه الدنيا وتحسده
 لأنك وارث ملك الأرض قاطبة
 وسوف تكمل ما استوجبت حوزته
 بجند نصرك فرسان ملائكة
 بها أمدأباك الله في أحد
 بقيت يا جملة الفضل التي عظمت
 فاليوم أشرف أيامي وأعيادي
 تسمولها في المعالي نفس مرتاد
 في الدست يبهجها مدحي وإنشادي
 مدح يكرره الشادي على النادي
 مدحت بالوحي وهو السابق البادي
 أنت الشفيع وأنت المرشد الهادي
 مستوطناً ولوادي النيل من وادي
 عليك دجلة في أكناف بغداد
 ومدعيه سواك الغاصب العادي
 بمُنزَل الوحي لا أخبار آحاد
 لا ما يرى الناس من خيل وأجناد
 وفي حنين وبدر أي إمداد
 عن أن تُقاس بأمثال وأنداد

فأنت للخلق روح طاهر وبه يحيا ولولاك أضحى رم أجساد
وينهي القصيدة بذكر عوايد الخلفاء المصريين في الأعياد فيقول:
فاخطب، وصل، وعيّد وانحر البدن العظمى، وثنّ بأعداء وحساد
إشارة إلى خطبة العيد وصلاتها، وتوزيع الهدايا والعطايا في
الأعياد ونحر أكثر من ثلاثة آلاف رأس ما بين غنم وبقر يبدأها
الخليفة بيده فينحر ما لا يقل عن مائتي رأس بقر.

مدح الخليفة الحافظ لدين الله - أبو الميمون عبد المجيد:

قال الشاعر الإسكندراني ظافر الحداد يمدح الخليفة الحافظ لدين
الله^(١):

إن الخلافة لم تزل عن أصلها بل أصبحت في ملك ناظم شملها
صارت إلى من لحوها غير ما كان مضطرباً بأيسر ثقلها
وفي هذين البيتين إشارة إلى الخطر الذي تهدد مركز الخلافة
الشيوعية الفاطمية في مصر بعد وفاة الأمر، لأنه لم يتخلف بوريت
يرثه، مما اضطر للبحث عن وريث فكان عبد المجيد، «أبو الميمون» -
وقال فيه أيضاً:

يا حجة الله التي وجبت على أهل الزمان بفرعها وأصلها
واعتبر انتقال الخلافة والإمامة من الأمر إليه كانتقال النبوة
والإمامة والخلافة من النبي (ص) إلى الإمام علي (ع):
ورث ابن عم محمد من بعده حق الخلافة منصفاً في نقلها

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٢٦٢.

وورثت أنت عن ابن عمك حقها
يا حافظاً للدين حُفْظَ حياطة
يا ابن النبوة والخلافة والألى
الفرض طاعتكم وطاعة غيركم
إن الصلاة بكم تصحُّ وذكركم
قد كان قبلك نيل مصر مقصراً
حتى ولّيت فأدركتها رحمة
وقال يمدحه أيضاً:

يا من مضى فاعتضت عن أيامه
الحافظُ الدين الذي غمر الوري
إن قالت الشعراء فيه فأفصحت
ولئن أطال المادحون فلم يدع
أنت ابن من ركب البراق إلى العلا
وأمامه جبريل حتى استفتحا
يا ابن البتول لقد سما بك منصب
أغليت شعر الشعر بل أعليته

وقال أبو الحسن الأخفش الدمشقي يمدحه أيضاً^(١):

ذَكَرَ الدَّوْحَ بِشَاطِئِ بَرْدَى
وَحَبَابِ أَفِيهِ يَطْفُو بَرْدَا
وَالصُّبَا تَمْرُخُ فِي أَرْجَائِهِ
فَتَصْوَغُ الْمَوْجُ مِنْهُ زَرْدَا
يَتَمَنَّى الْقِرْنَ أَنْ يَلْبَسَهُ
بَيْنَ أَبْطَالِ الْوَغَى لَوْجَمَدَا

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٤٠.

رَكَدَتْ سَارِحَةُ الرِّيحِ بِهِ فَجَرَتْ خَيْلاً وَمَرَّتْ سَرِداً
 يَنْثُرُ الْبَدْرُ عَلَيْهِ فَضَّةً وَتَذِيبُ الشَّمْسُ فِيهِ عَسجداً
 رَشَّاءُ لَوْلَمْ تَكُنْ رِيْقَتُهُ قَهْوَةً صَافِيَةً مَا عَرَبِداً
 تَحْجِبُ الْكَلَّةُ مِنْهُ قَمراً وَيَحْوِزُ الدَّرْعُ مِنْهُ أَسْداً
 قَمَرٌ إِنْ هَزُّ رَمَحاً فِي الْوُغَى هَزُّ مَنْ عَطْفِيهِ غَصْنًا أَمْلداً
 لَيْتَهُمْ إِذْ مَنْطَقُوا أَعْطَافَهُ بِالْثَرِيَا قَلْدُوهُ الْفَرْقِداً
 طَافَ بِالرَّاحِ التِّي لَمْ تَدْرِغْ بِحَسَامِ السَّمِزْجِ إِلَّا زَبِداً
 فَعَلَاهَا دُرُّهُ يَأْقُوتَةً ذَابَ سَقْمًا جَسْمَهَا فَاطُّرْدَا
 صِرْفُ جِرْيَالٍ يَرَى تَحْرِيْمَهَا مَنْ يَرَى الْحَافِظَ فَرْدًا صَمَّداً
 بَشَّرُفِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ نَوْرٌ وَهْدَى
 جَلُّ أَنْ تَدْرِكَهُ أَعْيُنُنَا وَتَعَالَى أَنْ تَرَاهُ جَسَّداً
 فَهُوَ فِي التَّسْبِيحِ زُلْفَى رَاكِعٍ سَمِعَ اللهُ بِهِ مِنْ حَمْدَا
 تَدْرِكُ الْإِفْكَارُ فِيهِ زَبَاباً كَأَنَّهُ مِنْ إِجْلَالِهِ أَنْ يُعْبِدا

مدح الخليفة الفائز:

قال الفقيه عمارة يمدح الخليفة الفائز بنصر الله، ويمجد مقام الإمامة والخلافة اللذين يمثلهما الخليفة الفاطمي:

هذا المقام الذي لولا كرامته ما أشرقت في السماء السبعة الشهبُ
 نور النبوة في ذا الدست مؤتلفٌ بالناظرين ونار العزم تلتهبُ
 تمسي وتصبح في إيوانه أبداً بيض المنى والمنايا السود تصطبُ
 في صدره فائز بالنصر محتجب بنوره وبتاج العزِّ معتصبُ
 انظر إلى وجهه تنظر إمام هدى خير الوري رضي الأملاك أم غضبوا
 لا يستوي وملوك الأرض في شرف إلا كما يتساوى الصفر والذهب

لولا الصلاة عليكم ما استجيب لمن يدعو ولا رفعت عن دعوة حُجُبُ
 وأنتم العروة الوثقى فلا انفصمت وحبُّكم في دخول الجنة السبب
 لله في أهل هذا القصر سابقاً من الإرادة من أسرارها عجب
 وقال يمدحه ويقارن بين تسميته خليفة وبين تسمية النبي (ص)
 لجدّه عليّ بن أبي طالب وصياً بمناسبة الإحتفال بعيد الغدير:

ورثت الهدى عن نص عيسى بن حيدر وفاطمة لا نصّ عيسى ابن مريم
 وقال أطيعوا لابن عمي فإنّه أمين عليّ سرّاً الإله المُلَكُّم
 كذلك أوصى المصطفى في ابن عمّه إلى مُنْجِدِ يوم الغدير ومُتَّهِم
 عليّ يستوي فيه قديمٌ وحادث وإن كان فضل السابق للمتقدّم
 ملكت قلوب المسلمين ببيعة أمّدت بعقدٍ من ولائك مُبْرَم
 وأوتيت ميراث البسيطة عن أب وجدّ مضى عنها ولم يتقسم
 لك الحقّ فيها دون كلّ منازع ولو أنّه نال السماك بسُلّم
 ولو حفظوا فيك الوصيّة لم يكن لغيرك في أقطارها دور درهم
 ليُعْلَمَ أنّ الله جلّ جلاله أفادك معنى العلم قبل التعلّم
 وأنت نور للهدى متجسّد ولست كأجساد من اللحم والدم
 وأنت محروس المكانة عنده حراسة معصوم البصيرة ملهم
 ولولا التّغالي قلت فيك مقالة يخلّدها في جبهة الدهر ميسمي
 ولكن كفاني أنك خالد المناقب في أيّ من الذكر محكم
 وكلّ زمان أو مكان رضيتم به فهو في الإسلام أكرم موسم
 إذا كان هذا القول يصدر من شاعر سني المذهب ويعتبر نفسه
 غير مُغالٍ بالخلفاء المصريين، فلن نلوم الشعراء المصريين الشيعة
 إذا غالوا أمثال ابن هاني الأندلسي وغيره.

مدح الخليفة العاضد:

الخليفة العاضد هو آخر الخلفاء الفاطميين والمدائح التي قيلت فيه لا يختلف مضمونها وتوجهاتها عن مدائح أجداده الثلاثة عشر خليفة السابقين، فهم من نبعة الخلافة وشجره الإمامة لا يعلو عليها عال ولا يسبقها في مجال الفخر مجال.

وكيف وإذا كانوا يعملون ليلاً نهاراً من أجل سعادة شعبهم ورعاياهم وأتباعهم في الدنيا والآخرة؟.

وفي ديوان عمارة اليمني الكثير من القصائد العاضديات وسنكتفي باقتضاء بعضها، وهي كافية لإيفاء الموضوع حقّه لأنها من غرر المدائح ودرر الكلام.

قال الفقيه عمارة يمدح العاضد في معرض رثائه للوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك:

وأشد ما كلّفت خاطر شاعر	صعب المعاني في الكلام الأسهل
لكن مدح العاضد بن محمد	مفتاح أبواب الكلام المعضل
لو كنت أمدح غير آل محمد	لرفعته فوق السماك الأعزل
والشعر بالقرآن يخفى نوره	كالنجم يخفى بالضياء المنجلي
قوم إذا ما أسندوا خير العلى	جاؤوا بأصدق مسند عن مرسل
ورثوا الإمامة حاضراً عن غائب	وتداولوها آخراً عن أوّل
من «ظافر» أو «فائز» أو «عاضد»	بيت خلافته على النصّ الجلي
أوصى إليك بها ابن عمك بعده	نصّاً كما نصّ النبي على علي

وقال يمدحه أيضاً: العاضد بقية الله في الأرض:

خلعت عليك مواسم الأيام	حَلَى الجلال وجلَّة الإعظام
جلت الخلافة منك فوق سريرها	كنز الهدى وذخيرة الإسلام
وبقية الله التي ببقائها	تجري الأمور على أتمّ نظام
بالعاضد المهديّ قُدُسَ ذُكْره	صَحّت لنا الأيام بعد سقام
متحدّر من نسل حيدر طاهر	إنّ الطهور العذب نسل غمام
شاهدته لم أدِر هل شاهدته	بمقام ملك أم بدار مقام
حجبت جلالة قدره أبصارنا	واستأذنت لبصائر الأفهام
هذا ابن مقتلع الدروب بخيبر	في الله وابن مكسّر الأصنام
هذا بن بنت المصطفى وبنو الفتى	أولى من الأصحاب والأعمام

وهو يذكّر بالخلاف الإسلامي السنّي الشيعي الطويل: أهل البيت
أولى بالخلافة من الصحابة وأولى من أبناء عمهم بني العباس.

ويحث الناس على المزاخرة للفوز بنظرة من العاضد فيقول:

هذا الذي حسدت ثريّاه الثرى	حسد الجباه مواطني الأقدام
زاحم لعلّك أن تفوز بنظرة	منه فتحرز أوفر الأقسام

مدائح الوزراء الفاطميين

يجد المطلع على أدب مصر الفاطمية أن أوصاف ونعوت الوزراء تبقى ضمن الأوصاف الإنسانية ولا تصل إلى مراتب الإمامة والنبوة والذات الإلهية، فهذه الأوصاف خُصّصت فقط للأئمة الخلفاء.

ومن أهم الأوصاف والنعوت الجديدة التي تميّز بها الوزراء الفاطميين هي رتبة كفيل الخلافة والإمامة، بما معناه أن الوزارة أصبحت شركة تأمين مهمتها تأمين حماية الخلافة والإمامة من كل شر وأذى وتعدّ. وقد ردّها معظم الشعراء المصريين والدمشقيين في مدائحهم للوزراء المصريين.

مدح جواهر الصقلي:

كان جواهر الصقلي أول قائد فتح مصر وأول وزير ومدبر لأحوال الدولة الفاطمية في مصر وقبل مصر. وكان وقتها منصب الوزير لم يتبلور بعد. وعندما تواترت الأخبار بدخول جواهر الصقلي مصر. قال ابن هاني الأندلسي:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قُضي الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر تطالعه البشرية ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المعقود من جسرها جسرُ
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفرُ

ويعصف الجيوش الفاطمية بأنها جيوش الإله فيقول:

وقد أشرفت خيل الإله طوالعاً على الدين والدنيا كما اطلع الفجرُ
وذا بن نبي الله يطلب وتره وكان حراً أن لا يضيع له وترُ

ويقول في مدح جوهر الصقلي:

غدا جوهرٌ فيها غمامة رحمة يقي جانبيها كلَّ حادثة تعرُّو
كأنِّي به قد سار في الناس سيرة توذِّلها ببغداد لو أنَّها مصر
وتحسدها فيه المشارق أنه سواء إذا ما حلَّ في الأرض أو القطرُ
وليس الذي يأتي بأول ما كفى فشذَّبه ملك وسدَّبه ثغر
فما بمداه دون مجد تحلَّف ولا بخطاه دون صالحه بُهرُ
سننت له فيهم من العدل سُنَّة هي الآية المجلى ببرهانها السحر
وأوصيته فيهم برفقك مردفاً بجودك معقوداً به عهدك البرُ
يقول رجالٌ شاهدوا يوم حكمه! بذاتُ عمر الدنيا ولو أنَّها قفرُ

وقد أثبت التاريخ أنَّ مصر فعلاً قد عمرت طيلة العهد الفاطمي
وأصبح الشعب المصري أغنى شعوب العالم وأترفهم وأكثرهم
رفاهية ودعة. وكان ابن هانيء تنبأ بهذا الأمر ويتابع مخاطباً
المصريين:

فحسبكم يا أهل مصر بعدله دليلاً على العدل الذي عنه يفتر
رضينا لكم يا أهل مصر بدولة أطاع لنا في ظلها الأمن والوفر

وقال أيضاً علي بن عبدالله التونسي يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام، ويذكر القائد جوهراً من قصيدة^(١):

وإن اعتلى حسن الثناء بجوهرٍ فلقد كرمتم قايداً ومقوداً
بدرٍ يسير بأنجمٍ وغضنفرٍ يجتزُّ من أجمِ الرماح أسوداً
صان الخلافة باذلاً من دونها رايأ على جل الخطوب سديداً
ومكائداً جاشت أمام جيوشه فترك ركن ركن عداته مهدوداً
فإذا مضى الخطي في آثارها لم يلق إلا مشرعاً موروداً
وإذا الأئمة عدت أسيافاً لم يلق إلا الأول المعدوداً
وإذا كريم الطبع قرَّبهُ من النَّا ثين كان المستعاب بعيداً
ذو النية الخالصاء يصفو مذهباً ويطيب أعراقاً ويكرم عوداً
والله قدَّم وعده لوليِّه فتنجزوا بعبداكم الموعدوداً
والخيل حافية إذا لم تنتعل في وسط مرتكم النجيع حديداً
وقال عبد الله بن الحسن الجعفري السمرقندي، من قصيدة
طويلة يمدح جوهراً أيضاً^(٢):

أفليقر الله عين الهدى فكم جلبت بها من نعمة لشكورها
لئن خبرت عن أرض مصر فإنها إلى الأرض تومي سهلها ووعورها
فبورك للإسلام في نيل ثاره وهنيت الدنيا بعدل أميرها
فشدت عرى الإسلام بعد انقصاصها وردت عواري الملك من مستعيرها
وقام بحق الله في الخلق قائم أنار سبيل الحق بعد دثورها

(١) عيون الأخبار، وفنون الآثار، السبع السادس، م.س. ص ١٦٠.

(٢) م.س. نفسه، ص ١٦١.

ولما فشأ طغيان مصر واكثرت
فجاء مقيماً قدحها غير فائز
وقابلت النعمى بكفر فأصبحت
غداة أبت الإنفاق شرَّ عصابة
رأت أن قطع الجسر وصل حياتها
وصادمها من جوهري صلدُ صخرة
وأجرى بحار الجيش فوق بحارها
وما شعروا إلا به وسط دارهم
ففرقهم أيدي [سبا وكأنهم]
كان رقاب القوم والهام وسطها
فقل لبني العباس شيموا سيوفكم
وليتم أمور الناس شرّ ولاية
فإن قلتُم إنّا قتلنا أمية
فإنّا وجدناكم تسيرون بعدها
سفكتُم دماً قلتُم طلبنا بثاره
دم من كرام لا تطل دماؤها
ولا بد أن تسقوا بكاس سقيتم
الأسلموا تلك العواري فإنها
نوادبها من ويلها وثبورها
ومرت عليها بارحات طيورها
وقد [زادت البؤس] بأكناف دورها
أصاغت إلى ضلّيلها وغرورها
فقصّر ذاك الرأي باقي قصيرها
ففضّ من الأعداء صلدُ صخورها
وبانت له أراؤه عن جسورها
فأكرم بها من روضة وغديرها
حصيد رمته جذوة بسعيرها
حروف بدت للشكل بين سطورها!
فقدماً عصيتُم ربكم بصدورها
فبدلتُم معروفها بنكيرها
بتبديل غاويها وكفر كفورها
بأقبح من منهاجها ومسيرها
وهل يدرك الأوتار كف وتورها
ولا تعدل الدنيا [بوال صغيرها]
بها من يدي مجتثها ومبيرها
وإن رَغِمَت أنافُكم لمعيرها

مدح الوزير يعقوب بن كلس:

قال الشاعر العاملي عبد المحسن الصوري يمدح يعقوب بن
كلّس^(١):

رَدُّ الْكَتَائِبِ فَاسْتَغْنَتْ سِيَاسَتُهُ عَنْ نَصْرِ كُلِّ مُحَلَّى الْوَجْهِ مَكْتُوبِ
فَرَأَيْتُهُ فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ رَأْيَتُهُ وَجَيْشُهُ فِيهِمْ جَيْشُ التُّجَارِيْبِ
رَأَوْهُ بَدْرًا وَكَمْ هُمُ ابْزُورَتَهُ غَزَاوًا وَذَا الدَّهْرِ ذُو عَكْسٍ وَتَغْلِيْبِ
مَهْلًا وَزِيرًا مِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ غَرَقْتَ بِالْفِكْرِ فِي بَحْرِ الْأَعَاجِبِ
هَلْ حَازَ طَرَفُكَ أَطْرَافَ الْبِلَادِ فَمَا لَ مَحْجُوبٌ عَنْكَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَحْجُوبِ
أَمْ هَلْ بَلَغْتَ وَلَمْ تَبْرَحْ بِحَضْرَتِهِ أَقْصَى الْخَوَاصِرِ مِنْهُمْ وَالْأَعَارِبِ
أَمْ هَلْ بَلَغْتَ مُقِيمًا كُلَّمَا بَلَغْتَ صُفْرًا مِنَ الْخَيْلِ فِي رَكْضٍ وَتَقْرِيْبِ
إِذَا أَتَى الرَّأْيُ مَنْسُوبًا إِلَيْكَ أَتَى فِي الرُّوعِ يُغْنِي عَنِ الْجُرْدِ الْمَنَاسِبِ
وَحَيْثُ تَرْمِي بِهِ فِي النَّاسِ تَثْبِثُهُ وَلِلضَّرَاعِمِ اثْبَاتُ الْمَخَالِبِ
ومدحه أبو الرقعمق بقصيدة جاء فيها^(٢):

قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَهُ وَاعْتَذَرَهُ وَأَقْلَنَاهُ ذَنْبَهُ وَعِثَارَهُ
وَالْمَعَانِي لِمَنْ عَنَيْتُ، وَلَكِنْ بِكَ عَرُضْتُ فَاسْمَعِي يَا جَارَهُ
مَنْ مَرَادِيهِ أَنَّهُ أَبَدُ الدَّهْرِ رَتَسَرَاهُ مُخَلَّلًا أَزْرَارَهُ
عَالِمٌ أَنَّهُ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ مُبَاحٌ لِأَعْيُنِ النَّظَّارِهِ
هَبَّتْكَ اللَّهُ سِتْرَهُ فَلَكُمْ هُبُّ لَكَ مِنْ ذِي تَسْتَرِ اسْتَارِهِ
سَحَرْتَنِي الْحَاضِلُ وَكَذَاكَ لَمْ يَلِغْ لِحَاضِلِهِ سَحَّارُهُ

(١) ديوان عبد المحسن الصوري، الجزء الأول، م. س. ص ٥٥.

(٢) بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، الجزء الأول، ط ٢، القاهرة، مطبعة السعادة، سنة ١٩٥١، ص ٣٢٦.

ما على مؤثر التباعد والإع
وعلى أننى، وإن كان قد عدّ
لم أزل لا عديمته من حبيب
ويقول أيضاً فيه:

لم يدع للعزیز فی سائر الار
فلهذا اجتنباه دون سواه
لم تشيّد له الوزارة مجداً
بل كساها وقد تخرّمها الده
كل يوم له على ثوب الده
ذوید شأنها الفرار من البخ
هي قلت عن العزيز عداه
هكذا كل فاضل يده تم
فاستجره فليس يأمّن إلا
فإذا ما رأيته مطرقاً يغ
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً
لا، ولا موضعاً من الأرض إلا
زاده الله بسطة وكفاه
وقال فيه أيضاً:

إن يعقوب قد أفاد وأقنى
سل سيفاً من البصيرة والرا
بإذ لا للعزیز دون جماء
لم تزل دونه تخوض المنايا
وأعاد الندى وأغنى الضعيفا
ي فأغناه أن يسئل السيوف
مُهْجَة حرة ورأيا خَصِيفا
وترد الردى وتلقى الصفوفا

ناصحاً مُشفقاً محبباً ودوداً
 ليس يخشى فساد أمرت ولا
 ما رأينا قط إلا رأينا
 ورأينا قوماً كبيراً همما
 لذّ طعم العطاء وهو إذا جا
 خلق منه، منذ كان كريماً
 ويريش الفقير بالبذل والجود
 وقال عبد المحسن السوري، ابن غلبون في مدح عيسى بن
 نسطورس^(١):

فلما أتى الخطبُ الأجلُ ذكرتُ سيّدنا الأجلُ
 فكانَ ذِكْرِي بِذَلِكَ ونَدَاهُ كَانَ نَدَى وَقْضَا
 منعَ النّوائِبَ ذِكْرُهُ من أن تُحِلَّ بِحَيْثُ خَلَا
 مَرِضَ الشُّأَمِ لِبُعْدِهِ وَلَكُونَهُ فِيهِ أَبْلَا
 واثقَ أَمْرَتِهِ مَذْلَلُ عَمَّ مَخَافَةَ أَنْ تَذَلَّ
 وَلِذَلِكَ اتَّخَذَ الزُّمَّا نَ لِنَفْسِهِ قَيْدًا وَغُلَا
 ثُمَّ اسْتَمَلَ خِصَالَهُ فَقَدْ اسْتَمَالَ بِمِ اسْتَمَلَا
 وَتَسَاوَى فِي الْحَمْدِ جِنَ تَسَاوَى أَكْرَمًا وَقَضَلَا
 وَأَرَاكَ يَا عِيسَى لِفَضْلِ السَّبْقِ بِالتَّفَضُّيلِ أَوْلَى
 أَوْثَامُورُ الْمُلِكِ مِنْ لَكَ إِلَى الْمُجَلِّيِّ وَالْمُعَلَّى
 فَوَلِيَّتْهَا لَهُ مَا نَظَرَ الْمُؤَلَّى فِي الْمُؤَلَّى

(١) ديوان عبد المحسن السوري، م. س. ص ٣٥٩.

إِنِّي لَأَذْكُرُ كَيْفَ كُنْتُ بِظُلِّ عَرْكَ مُسْتَظِلًّا
مَا سَهَلَ النُّكْبَاتِ لَوْ كَانَ الْوُصُولُ إِلَيْكَ سَهْلًا

وقال أيضاً يمدح الأمير أبا الجيش حامد بن ملهم بطبرية:

قَدْ سَلَّمَ النَّاسَ إِلَيْكَ الْمَدَى فَارْفُقْ أَبَا الْجَيْشِ عَلَى النَّاسِ
إِنْ كَانَ يَوْمٌ فِيهِ بَوْسٌ فَمَا يُلْحَقُ فِي النُّجْدَةِ وَالْبَاسِ
لَوْ أَجْدَبَ الْعَامُ فَكُلُّ أَمْرٍ يَلْقَاكَ مِنْهُ طَاعِمٌ كَاسٍ
مَا عَرَفْتُ كَفْكَ غَيْرَ النَّدَى وَقَائِمَ الْمُرْهَفِ وَالْكَاسِ
تَسْتَوْحِشُ النُّعْمَةَ مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى تُلَاقِيَهَا بِإِنْسَانِ

وقال أيضاً يمدح أبا منصور عيسى بن نسطورس:

أَلَمْ فَانْذَكِرْهُ مَا نَسِي خَيْالُكَ فِي غَسَقِ الْجِنْدِ
لَأَشْتَفِلَنَّ بِهَا أَوْ تُظَنُّ عَزَائِمَ عَيْسَى بْنِ نَسْطُورِ
فَتَى يُسْتَدَلُّ بِلَيْلِ الْمِدَا دِ عَلَى صُبْحِ الْفَاظِلِ الْمُشْمِسِ
أُخُوهُمَّةٍ فَتَكُتْ بِالنُّجُومِ وَخَصَّتْ بِفَتْكَتِهَا مَبْخَسِي
فَأَمَّا تَنَاهَى إِلَيْهِ التُّنَا فَقُلْ لِلْمُجْدِبِ أَخْبِسِ
كَذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُو نَ وَقَفَا عَلَى الْأَنْفَسِ الْأَنْفَسِ
أَلَمْ يَكُ دَاعِي النُّوَى أَخْرَسَا فَفَهُمَنَّا دَعْوَةُ الْأَخْرَسِ
أَحَقُّ أَمْرٍ أَجْلَسَتْهُ الْعُلَى لِيَفْعَلَ أَمْرَيْنِ فِي مَجْلِسِ
أَقُولُ عَلَى غَفْلَةٍ لِلزُّمَا نِ وَالْأَفْعَهْدِي بِهِ مُبْلِسِي
إِذَا الْمَجْدُ مَا بَالَ جَدِّي أَرَا هُ إِذَا مَا جَدَّدْتُ بِهِ مُتْعِسِي
وَمَا زِلْتُ قَبْلَكَ أَهْدِي الْقَرِيرَ خُضْ إِلَى كُلِّ مَرَزِيَّةٍ مُوَكَّسِ

مدح الوزير: أبو محمد الحسن بن عمار:

قال أبو الحسن محمد بن عثمان الملقب بالفصيح يمدح الحسن بن عمار^(١):

وعندك إذا ما أشكل الأمر نفسه بطون له محمودة وظهور
وأخذ بأطراف البلاد وإنها تموج بمن في أرضها وتمور
لقد بات يرعى سرب آل محمد حليم إذا طاش الرجال وقور
وزاد حمى الإسلام منك مُشيع إذا نام عنه الذائدون شهوور
وجهزت جيش الله أمره ذوو فزحف وأما فمسه فزئير
جري لجة فيه الحديد وررفت على قصب المران فيه طيور
فلا يحسب الأعداء صمتك رهبة وأنت - وإن أغفلت هن - قدير
وإن السيوف الحاكمة قطع وعند رقاب الخالعين تؤور
إذا ما اجتبى للأمر قوم نره عليم بتقويم الأمور خبير
أمين أمين الله قاده وإن ترفع قدراً أن يقال وزير

مدح الوزير المغربي:

كان الوزير المغربي شاعراً مقدراً للشعر وللكمة المنظومة، بل كان ناقدًا. وقد أتينا على شيء من شعره ونقده.

قال الشاعر ابن حيوس يمدحه^(٢):

بالحول نلت ونال الناس بالحيل فسُد جميع الوري مستوجباً وطل
هذي الفضائل لم نعرف لها شهباً ضل الوري حين قالوا الفضل للأول

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ٦٤.

(٢) ديوان ابن حيوس، الجزء الثاني، ص ٤٥٤.

ويتعجب كيف أن الله ألهم الإمام المستنصر بتكليفه بالوزارة
فيقول:

لله رأي إمام الخلق كيف سرى إليك والوقت داج مظلم السُّبُلِ
ألفى الوزارة لم تسند إلى وزر يوماً ولم يخلُ طرفُ العين من خَلَلِ
أشرقت حين تركت الشمس شاحبة كأنما ألبتْ دُكْناً من الخُلَلِ
وراح نقعك في أجفانها كحلاً وما عهدنا بجفن الشمس من كَحَلِ
قد أصبحت صفحات الملك مشرقة وما منحتك بتسليم يد الدول
فاحكم بسعدك فيما أنت فاعله وجاوز الحكمَ بالجوزاء والحَمَلِ
وقال يمدحه ويشير إلى الأمن والسلام الذي ساد مصر والدولة
الفاطمية في وزارته فقال:

ورأى الناس من زمانك في اليقظة ما لا تريحهم الأحلامُ
جلّ عن سائر العصور فقد قيل منام فدام هذا المنامُ
أمنوا مذ قضى على الدهر خرقُ كلِّ أحكامه له إحكامُ
تبعث رأيك الولاية فعفت وتأسّت بعدك الحكامُ
ثم أنعمت صافحاً عن ذنوب ما استخفت بمثلها الأحلامُ
كم قريب لديك سَكْنُهُ فضلك إذ طوّحت به الأوهامُ
لم يُجَلِّك السلطانُ عن رأيك الأوّل فيه بل ضوعف الإكرامُ
ويصف الوزارة وإقدامه عليها فيقول:

أخفق المترف الجنوح إلى الخفض وفاز المخاطر المقدامُ
وحمل حوزة الوزارة قسراً من لديه الإرغام والإنعامُ
فالعوادي موصولة كالأيدي والرزايا مثل العطايا جسامُ
وعسير على العدى هدمٌ عزُّ شيدته السيوف والأقلامُ

وبنوا المغربى أهل المعالي قعدوا عن طلابها أو قاموا

مدح الوزير البابلي:

قال الشاعر ابن حيّوس يمدح الوزير البابلي ويصف وزارته
وكان قد صرف عنها ثم أعيدت إليه مجدداً:

وزارة لوت الأعناق خاضعة لعزها وعهدنا ليها صيدا
فارقته لا كغيث حُدد عن بلد يشكو الظما بل كروح فارقت جسدا
وعدت واليوم قد ألوت به فتن لأجلها دُمّ عيش طالما حمدا
فعمت في كفّ كفّ الخطب حين سطا وثبت في صرف صرف الدهر حين عدا

ويصف ثقة الخليفة المستنصر به فيقول:

إن الإمام حمى الملك الأعز بمن لا تستطيع الليالي حل ما عقدا
تصفح الناس ثم اختار أحسنهم فيه وفي بيته رأياً ومعتقدا
أعد للبعث ذخراً من ولائهم يبقى إذا كُُلّ ذخِر صالح نفدا
ولم تزل في اجتياح الإفك منصلتاً وفي جهاد عداة الدين منصلتاً
معظماً قبل تعظيم الإمام له والسيف يخشى ويرجى سُلّ أو غمدا
متى تزره لعلم واكتساب غنى فاض الندى بياناً والبنان ندا
إن السعادة عمّت مذ خصصت بها فأسلم على رغم حُساد وكبت عدا
رُقّت الإمامة في قول وفي عمل فبلُغت بك هذا المرتقى الصُعدا
هل كنت في القوم إلا بانياً شرفاً ومصلحاً فاسداً أو موضحاً رشدا
عممت بالجود حتى لم تدع أملاً وبالتجاوز حتى ما بسطت يدا
ما حدث عن آية في العفو منزلة ولا نبذت حديثاً فيه قد وردا
وليس يلقيك مأمور بمعصية إلا ندى طالما أخفيته فبدا

بددت وفرك في فرض ونافلة وسنة فجمعت السؤدد البددا
وقال الشاعر أبو الحسن التهامي يمدحه أيضاً^(١):

صعب أبي النفس سهل الندى إن المعالي شدة في سماح
تذكر التيجان آباءه به وتلك القسمات الملاح
يختم ما استفتح آباؤه وللمعلى خاتمة وافتتاح
شرقت نفسي بامتداحي له فقد تعجلت بثوب امتداح
لما أناخ الجود في كفه نادى بأعلى صوته لا براح

مدح الوزير «أبو محمد اليازوري»:

أبو محمد عبد الرحمن بن علي اليازوري، كان وزيراً بذي الوزراء
بحكمته ورجاحة عقله وحسن تصرفه. قدم للدولة الفاطمية وللخليفة
المستنصر أروع الأمثلة في الحكمة والتبصر، لكن مصيره كان
مصير كل محسود، المؤامرات ثم القتل.

أكثر مدائحه كانت بلسان الشاعر المصري ابن حيوس. قال
يمدحه^(٢):

يسروق فؤاده نائي وعود يغذ السير لاناي وعود
ويصحب الهنود إلى الأعادي مشيحاً لا القدود ولا النهود
وقد شاكل الشاعر بين الناي أي الابتعاد والعود أي العودة وهما

(١) ديوان أبي الحسن التهامي، شرح وتحقيق علي نجيب عطوي، ط ١، بيروت دار الهلال،
سنة ١٩٨٦، ص ٨٩.

(٢) ديوان ابن حيوس، الجزء الأول، ص ١٨٥.

صفتان من صفات الفرسان أي يروق فؤاده الكرّ والفرّ، ويكره
ويشيع بنظره عن الناي والعود وهما من آلات الطرب، فلا يطرب
بهما بل لا يطرب اليازوري إلا:

ويطربه صليل البيض فو ق القوانس لا البسيط ولا النشيد
مؤمّله يفيد غنى وعزاً وشانيه بغصّته يفيد
وكل هذه النعوت والأوصاف هي في خدمة الخلافة الفاطمية
والخلافة:

حللت من الخلافة في مكان به عديم المباشرة والحسود
ولم يحلم بشرواك التمني ولا جاد الزمان ولا وجود
وقال يمدحه أيضاً^(١):

علوت بحكم لا يقارنه هوى ومحض وفاء لا يقارنه خثر
وعدل سواء فيه سخطك والرضى ودين سواء فيه سرّك والجهر
وطبقت الأفاق أخبارك التي إذا نشرت في بلدة كسد العطر
ويذكر موقعه من الخلافة والخليفة المستنصر فيقول:

أحلك فوق الخلق قدراً ورتبةً وديناً ودنياً من له الخلق والأمر
خليل أمير المؤمنين بك انجلت حنادس لا شمس جللتها ولا بدر
كفاك الردى من أنت ناصر دينه فلم يفتخر إلا بأفعالك الدهر
فقد حان هذا العصر منك ومنهما فضائل لم يظفر بأيسرها عصر
وأهدت إلى مصر دمشق على النوى نظائر ما تهويه دارين والشحر

(١) ديوان ابن حيوس، الجزء الثاني، ص ٢٧٦.

وقال يمدحه ويصف ما حلّ بالمعز بن باديس الصنهاجي عندما
تصرّف تصرفاً غير لائق بحق اليازوي، حيث لم يأت بنفسه إلى
القاهرة لتهنئته، واكتفى بتكليف سفيره بالقاهرة للقيام بواجب
التهنئة. والقصة موجودة أثناء الحديث عن وزارة اليازوي^(١):

منيع الجناب إذ الدهر صال	سريع الجواب إذا السيف صل
فما ارتحل المجد مذخله	ولا انفصل الحمد منذ اتصل
تخير ذوالعرش للمسلمين	غياثاً كفى الدين أن يبتذل
يحلّونه بسواد القلوب	ضئاً به عن سواد المقل
رعاهم بطرف كثير الدنو	وقلب من الله جمّ الوجل
وقد بات يحرسهم لم ينم	ومذ ظلّ يكلوهم ما غفل
يا علم المجد وقاضي القضاة	ويا سيد الوزراء الأجل
سطوت على الدهر لما اعتدى	وقد كان ذاميل فاعتدل
وجردت رأيك قبل السيوف	فاغنى مواضيها أن تُسل
واعملتّه وأطرخت الرماح	لما في عواملها من خطل
وإن الإمام مَعْدَأ رآك	خير مُعِدُّ لأمرجل
فقلّك الحكم في ملكه	كما قلّك المشرف في البطل

ويصف ما فعله بالمعز بن باديس الصنهاجي فيقول:

أَنخُتْ بصنهاجة النائبات ففات زعيمهم وما أمل
وكان يُسمّى مُعِزّاً قُمُذُ تحدّيته صار يدعى مُذَلُّ

(١) ديوان ابن حيوس، الجزء الثاني، م.س. نفسه. ص ٤٨٦.

مدائح بدر الجمالي وابنه الأفضل وأحمد ابن الأفضل «كتيفات»:

قال الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي يمدح بدر الجمالي^(١):

نحن التجار وهذه أعلامنا نُرّو وجود يمينك المبتاع
قلْبٌ وفتشها بسمعك إنمّا هي جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشّام وكلّما قلّ النفاق تعطل الصنّاع
فأتاك يحملها إليك تجارها ومطيها الأمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا من دونك السمسار والبيّاع
فوهبت ما لم يعطه في دهره هَرَمٌ ولا كعبٌ ولا القعقاع
وسبقت كلّ الناس في طلب العلى والناس بعدك كلّهم أتباع
يا بدر، أقسمُ لو بك اعصتم الورى ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وقال ظافر الحداد يمدح بدر الجمالي في معرض مدحه لولده
الأفضل، ويروى في مدائحه ما قام به أمير الجيوش من عملية إنقاذ
لمصر وللوضع الاقتصادي المصري^(٢):

يا أفضل الناس أفعالاً وتسمية وأعدل الخلق نفساً حُرّة وأبا
لم يعدم الملك نصراً من سيوفكما فيما نأى من قديم الدهر أو قرباً
أما أبوك الذي ردت عزائمه للملك فيما مضى الحق الذي اغتصبا
وأمن الأرض بالخوف الذي نهبت أدنى سراياه فيها أمن من نهبا

وفي قصيدة أخرى يمدح بدر الجمالي بقوله:

يا ابن محي الملك من بعد النوى وهوى كلّ من يابى السحب
ومجير الدولة الغراء من جور باغ رامها بالسلب

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٣٢٠.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ابن الإسكندرية، م.س. ص ٣٦.

وميّز الأرض بالأمن وقد أصبحت من خوفها في غيب
والذي لبى مجيباً صوتها بعد أن نادت بمن لم يجب
ثم شامت منه برقاً صادقاً لم يكن منذ خفا بالخلب
فاتاه أسيله محتملاً كل ذي لب على ذي لب
وقال يمدح بدر الجمالي شاهنشاه^(١):

وكم للخبّ مثلي من صريع [بحدّ] البيض والسمر الملاح
واغيد من ظباء الحسن حياً بورداً أو تبسّم عن أقاحي
شربنا من شمائله شمولاً لنشوان التثنّي وهو صاح
لقلبي الثأر فيه عند عيني فبعض جوارحي أدمى جراحي
لئن عاصيت عذالي عليه ولم يقتد ملامهم جماحي
فإن نوال شاهنشاه قبلي عصى عذل العواذل في السماح
إذا أعطى تبلّج في العطايا كما يفتّر مبتسّم الصباح
ملوك إن دجاليل جأوه بلا لآء الترائك والصفاح
كان الخيل تحت النقع منها شققن الأرض عن بيض الأداحي
نثرن عجاجة في كل فج كان الأكم تنسفها المساحي
مناقب سطرتهن المواضي فما يسمو إليها كفّ ماحي
وقال حسن بن زيد الأنصاري يمدح بدر الجمالي شاهنشاه أمير
الجيوش^(٢):

أطارق طيف أم خيال مرجم أراك به مرأى اليقين التوهم
سرى وكان الأفق صفحة لجة كواكبها فيها سفائن عوم

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ١٢٧.

(٢) م. س. نفسه، ص ٧٠.

وكم للكرى من منة قبل هذه
وما شيم الأيام أن تمنح المني
ولكن رأت نعمى شهنشاه في الورى
ومنها:

إذا كسفت شمس النهار فإنها
وما أطلع الأفق النجوم لريبة
وليس صليل البيض إلا لأنه
وما غرد ابن الأيك إلا بمدحه

وقال المعوج الرقي يمدح بدر الجمالي بعد أن كباه فرسه^(١):
لا ذنب للطرف إن زلت قوائمه
وليس يلحقه من عائب دنس
حملت بأساً وجوداً فوقه وندي
وليس يقوى لهذا كله الفرس
قالوا افتصدت فما عقل الغلامعها
خوفاً عليك ولا نفس بها نفس
كف الطبيب دعا كفاً نقبلها
ونطلب الرزق منها حين ينحبس

وقال أمية بن أبي الصلت في مدح الأفضل بن بدر الجمالي^(٢):
تردي بكل فتى إذا شهد الوغى
نثر الرماح على الدروب كعوبا
قد لوحت يد الهواجر فاغتدى
مثل القناة قضاة وشحوبا
تخذوا القنا أشطانهم واستنبطوا
في كل قلب في الطعان قليباً
تعطي الذي اعتطكه سمر القنا
أبدأ فتغدو سالباً مسلوباً
وأنا الغريب مكانه وزمانه
فاجعل صنيعك في الغريب غريباً

(١) بدائع البدائع، علي بن ظافر الأزدي، م.س. ص ٢٤٧.

(٢) نفح الطيب، الجزء الثاني، م.س. ص ١٠٦.

وأقدم الشاعر ابن مكنسه على رثاء رجل نصراني، فغضب منه الوزير الأفضل وأبعده عنه دون أن يقطع راتبه، فأرسل إلى الوزير الأفضل يعاتبه ويتقرب منه بقوله^(١):

بمثلي بمصر وأنت ملكٌ يقال ذا شاعر فقيرُ
عطاؤك الشمس ليس يخفى وإنما حظي الضريرُ
وقال ابن الشخباء العسقلاني يمدحه^(٢):

والله أكرم أن يعذب مهجةً غذيت بأخلاق العلا أعضاؤها
فإذا طمت جسم الخطوب عرامة أربى على فيض الحياء حباؤها
لو كان ينكر ملكها رتب العلا أحذلكان شهودها أعداؤها
شابت بك الأيام عن جهلاتها وتوقرت من أهلها سفهاؤها
وبعدل حكمك زال عنا ظلمها وبنور مجدك أشرقت ظلماتها
نار اعتزامك ما يبوح ذكاؤها وسماء عزك ما تغيب ذكاؤها
وعراض فضلك لم تضق أرجاؤها وعفاة جودك ما يخيب رجاؤها
وقال ابن الصياد يمدح الوزير الأفضل بن بدر الجمالي^(٣):

اضحت لوائه شرداً من بأسه فلديهم سعة الفضاء مضيقُ
لم يضربوا طنباً لخوفهم فهم مثل الوعول إذا حواها النيقُ
إن غاب فيهم وجهه فخياله ليلاً كما هو في النهار طروق
لو هبت الريح اغتدى لسماعها قلب الشجيع القلب وهو خفوق
جعلوا الهزيمة عنه براً إذ لهم لسواه في شق العصي عُفوق

(١) الخريدة، قسم شعراء مصر، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٠٣.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٦٤١.

(٣) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٤٤.

وقال الشريف ابن هبة الله العلوي يمدح الافضل^(١):

ما خلتُ والايامُ ذاتُ عجائبِ أني أَعُدُّ من المتاعِ الكاسدِ
وأكونُ للدهرِ الخوونِ عقيرةً وأعاضُ منه شامتاً من حاسدِ
فأسالمُ الخصمَ الذي لا يُتَّقَى وأثيبُ عذالي ثوابَ الحامدِ
أحبُّ من الفتیانِ كلَّ مشيِّعٍ ركوبُ إلى العلياءِ ظهرَ الشدائدِ
يضمُّ علي فضل العفافِ ذيولَهُ ويرغبُ عن ضمِّ الثُّدي والنواهدِ
إذا دَحَرَتْ فيه النعامي حسبتَهُ حبيكَ دروعِ أو متونَ قلائدِ
ينمُّ بسرُّ القاعِ حتى تخاله أسدُ تتعارَ حصاهُ من عقودِ الخرائدِ
نزلنا به والشمسُ يُهدي شعاعها له التبرُّ إلا أنه غيرُ جامدِ
لدى روضةٍ قد نُشِرَ العَصَبُ نبثُها ونُثِرَ فيها النورُ دُرُ القلائدِ
كانَ ذيولُ الافضلِ انسحبتَ بها يُضمُّها منه أريجُ المحامدِ
كريمٌ أَعَدَّ المالَ وقفاً على الجدا فأضحى نداه قاصداً كلَّ قاصدِ
إذا مَدَّ يومَ الفخرِ باعاً لمفخرٍ جوى طَرْفِيهِ من طريفٍ وتالدِ
ومنها:

جمعتُ سعودَ المشتري ووقارَهُ إلى باسِ بهرامٍ وحذقِ عُطاردِ
ومنها:

وما نمتَ عن شاني وقد نامِ دونهُ رجالٌ فلم أنبذ حياةً لرايدِ
ولو كنتَ ممن يجعلُ الفحشَ لفظه لنبَّهَهُمُ مني عقابُ القصائدِ
وعَضُّ لحاظِ القومِ في كلِّ مجمعٍ قوافٍ كأطرافِ الرماحِ الحدائدِ
أَغْضِي على ضميمٍ وعزِّكَ ناصري وأخفقُ في مجدٍ ونُجْحِكَ رائدي

(١) خريدة القصر، الجزء الاول، ص ١٢٨.

وقال حسن بن زيد الأنصاري يمدح الوزير الأفضل^(١):

خَلَعَ الزمانُ عليَّ حُلَّةَ مَفْخَرٍ	شَرَفاً بِمَدْحِ الْأَفْضَلِ الْمِفْضَالِ
أَضْحَى بِهِ لَيْلِي نَهَاراً بَعْدَ مَا	غَبَرَتْ بِهِ الْأَيَّامُ وَهِيَ لَيْالٍ
قَرَمٌ إِذَا مَا جَالَ فِي رَهْجِ الْوَعَى	أَضَحَتْ بِهِ الْأَجَالُ فِي الْأَوْجَالِ
وَتَهَزُّ كَفَّاهُ طَوَالَ ذَوَابِلِ	تَغْدُو بِهَا الْأَعْمَارُ غَيْرَ طَوَالِ
يَلْقَى الْمَدَائِحَ بِالْمَنَائِحِ وَاهِباً	وَيُصَدِّقُ الْأَقْوَالَ بِالْأَفْعَالِ
وَسَمَتْ بِهِ الْعَلِيَّاءُ صَبَحَ حَافِظاً	مَا ضَيَّعَ الْأَغْفَالَ بِالْإِغْفَالِ
وَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ سَوَابِقُ نِعْمَةٍ	كَفَلْتَ مَوَاهِبَهُ لَهَا بِنَوَالِ

وقال يمدحه أيضاً^(٢):

مَجْدًا فَقَدْ قَصَرَتْ عَنْ شَاوِكَ الْأُمُ	وَأَبَدَتْ الْعَجَزَ مِنْهَا هَذِهِ الْهِمَمُ
أَخِيمةً مَا نَصَبْتَ الْآنَ أَمْ فَلَكُ	وَيَقْظَةُ مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ حُلُمُ
مَا كَانَ يَخْطُرُ فِي الْأَفْكَارِ قَبْلَكَ أَنْ	تَسْمُوَ عُلُوًّا عَلَى أَفْقِ السُّهْلِ الْخِيَمُ
حَتَّى أَتَيْتَ بِهَا شَمَاءَ شَاهِقَةٍ	فِي مَارِنِ الدَّهْرِ مِنْ تِيهِ بِهَا شَمَمُ
إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَى تَكْوِينِهَا فَلَكَا	أَنْ احْتَوَتْكَ وَأَنْتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
يَمُدُّ مَنْ فِي بِلَادِ الصِّينِ نَاطِرُهُ	حَتَّى لِيَبْصُرَ عِلْمًا أَنَّهَا عِلْمُ
تَرَى الْكِتَاسَ وَأَرَامَ الظُّبَاءِ بِهَا	أَضَحَتْ تَجَاوَرَهَا الْأَسَادُ وَالْأَجْمُ
وَالطَّيْرُ قَدْ لَزِمَتْ فِيهَا مَوَاضِعُهَا	لَمَا تَحَقَّقْنَ مِنْهَا أَنَّهَا حَرَمُ
لَدَيْكَ جَيْشٌ وَجَيْشٌ فِي جَوَانِبِهَا	مُصَوِّرٌ وَكَلَا الْجَيْشِينَ مُزْدَجَمُ
إِذَا الصُّبَا حَرَكَتْهَا مَاجَ مَوَكِبُهَا	فَمُقَدِّمٌ مِنْهُمْ فِيهَا وَمُنْهَزِمُ
أَخِيلُهَا خَيْلُكَ اللَّاتِي تُغِيرُ بِهَا	فَلَيْسَ تُنَزَعُ عَنْهَا الْحُزْمُ وَاللُّجْمُ

(١) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ٨١.

(٢) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ٦٨.

عَلِمْتَ أَبْطَالَهَا أَنْ يُقَدِّمُوا أَبْدَاً
أَمْنَتَهُمْ أَنْ يَخَافُوا سَطْوَةَ لِرْدَى
كَانَهَا جَنَّةً فَالْقَاطِنُونَ بِهَا
عَلَتْ فَخَلْنَا لَهَا سِرّاً تُحَدِّثُهُ
إِنْ أَنْبَتَتْ أَرْضُهَا زَهراً فَلَا عَجَبٌ
يَا خِيَمَةَ الْفَرَجِ الْمِيْمُونَ طَائِرُهَا
ومنها:

مَا قَالَ لَا قَطْ مَذْشُدَّتْ ثَمَائِمُهُ
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ شَعْرِي حِينَ أَنْظِمُهُ
أَزْرَتُكَ الْيَوْمَ مِنْ فِكْرِي مُحَبَّرَةٌ
تَرَى النُّجُومَ لِلْفُظْيِ فِيكَ حَاسِدَةٌ
وَقَالَ أَيْضاً^(١):

هَمَّ الزَّمَانُ عَلَى الْوَرَى بِجَنَائِيهِ
فَلَوْ اسْتَطَاعَ النُّطْقُ أَصْبَحَ سَائِلاً
اللَّهُ أَكْرِمُ أَنْ يُضَيِّعَ دَوْلَةً
سَدَّتْ أَيْادِيكَ الطَّرِيقَ عَنِ الرُّدَى
وَلَقَدْ رَأَى اللَّهَ أَسْنَى خَلْقِهِ
أَتَاكَ مَا لَمْ يُؤْتِ خَلْقاً مِثْلَهُ
خَلَعَ خَلْعَنْ مِنَ الْعُدَاةِ قُلُوبَهُمْ
لَمَا بَرَزَتْ بِهَا بَهَرَتْ فَلَمْ يُطِقْ

فَأَتَاكَ قَبْلَ وَقْعِهَا وَتَنَصَّلَا
فِي الْإِذْنِ أَنْ يَطَأَ الْبَسَاطَ مُقْبِلَا
أَصْبَحْتَ أَنْتَ بِنَصْرِهَا مُتَكَفِّلاً
عَنْهَا فَلَمْ يَعْرِفْ إِلَيْهَا مَدْخَلاً
فَضْلاً وَقَدَّرَ أَنْ تُسَمَّى الْإِفْضَلاً
وَحَبَاكَ مِنْ غُرَرِ اللَّيَالِي مُجْزِلاً
وَمَلَأَ بِالْإِشْرَاقِ أَبْصَارَ الْمَلَا
طَرَفٌ إِلَيْكَ مِنَ الشَّعَاعِ تَأْمُلاً

(١) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ٧١.

غَضَّتْ وَقَدْ نَظَرْتَكَ مِنْ أَجْفَانِهَا
وَبَدَأَ عَلَيْكَ التَّاجُ نُظْمَ دُرَّةٍ
وَقَالَ فِي مَدْحِهِ أَيْضاً:

أَعْطَاعَ أَمْرِكَ فِي أَعْدَائِكَ الْقَدَرُ
أَيَّامُكَ الْغُرُّ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
أَخْمَلَتْ ذَكَرَ مَلُوكٍ كُنْتَ خَاتِمَهُمْ
أَيُّنَ الَّذِي أَنْتَ مَبْدِيهِ مُعَايِنَةُ
وَمَا يَدَانِيكَ فِي الْعُلِيَاءِ مِنْ أَحَدٍ
بَعْضُ الْوَرَى أَنْتَ لَكِنْ فَقَتْهُمْ شَرْفًا
لِلَّهِ عَزْمُكَ مَا أَمْضَى مَضَارِبَهُ
ظَلُّوا حُسَامَكَ سَيْفًا فِي يَدَي مَلِكٍ
وَمِنْهَا أَيْضاً:

لَمْ تَجْتَمِعْ يَدُهُ وَالسَّيْفُ يَوْمَ وَغَى
بَثُّ اللَّهِ هَارِغِبًا فِي الْحَمْدِ يُحْزَرُهُ
يَرْضَى وَقَدْ غَضِبْتَ بَيْضُ السَّيُوفِ لَهُ
تَخَالُ رَاحَتَهُ وَالْمَشْرِفِي بِهَا
يَلْقَى الْكِتَابَ فَرْدًا وَهُوَ مُبْتَسِمٌ
وَمَدْحُهُ بِقَوْلِهِ أَيْضاً:

سَرَى وَاصِلًا طَيْفُ الْكَرَى بَعْدَ مَا صَدَا
وَلَمَّا أَتَى عُطْلًا مِنْ الدُّرِّ جِيدُهُ
سَلَّ اللَّيْلَ عَنْهُ كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ
أَبَانَتْ لَهُ طُرُقَ الْمَكَارِمِ نَفْسُهُ
فَهَلْ خَطَأُ أَهْدَى الزِّيَارَةِ أَمْ عَمْدَا؟
نَظَّمْتُ دَمُوعِي فَوْقَ لَبَاتِهِ عِقْدًا
يُخْبِرُكَ عَنْ أَمْضَاهُمَا فِي الْوَرَى حَذَا
بَغَيْرِ دَلِيلٍ وَالْمَكَارِمُ لَا تُهْدَى

ومذ صار للإسلام سيفاً وللظُّبَا إليه انتسابٌ غادرت معه الهنداً
 لأضحى ندى كفيك للنيل ثانياً وقد عهدته أرض مصر بها فرداً
 ولو قاس بين اللجّتين مُحَقَّقُ رأى البحر في تيّاره وشلاً ثمّداً
 وقال أبو الفضل جعفر بن المفضل المعروف بشلعلع يمدح
 الوزير نجم الدين بن مصال^(١):

شكرتُكَ غيرَ مُلتَمِسٍ مزيداً من النُّعمَى تزيدُ على مزيدك
 ولولم ألقَ منه سوى التلقّي ببشرِك ذاك كان أسراً جودك
 ولا شيءٌ أُمّنت على زمانِي به إلا أنتظامي في عبيدك
 فيا كهفَ الوَرَى لقد أتقّاني زمانِي إذ رآني في وفودك
 وصالَحتني على دخْلٍ ومَكْرٍ مخافةً أن أضِفْتُ إلى جنودك
 وإن أصمت عن الشكوى فحالي إليك عليّ من أزكى شهودك
 خضوعُ الفقْرِ في عزِّ التعازي وحالٌ لا يسرُّ سوى صدودك
 وقال فيه أيضاً:

حجبوك يا نجمَ الهدى فأضلّنا ذاك الحجابُ وحارَ فيك القاصدُ
 والنجمُ يهدي ما بدأ فإذا اختفي عمي البصيرُ له وأكدى الرائدُ
 فتجلّ للأبصارِ تجلُّ من العمى واقربُ ليقرُبَ نورُها المتباعدُ
 وقال ابن أبي الشخباء العسقلاني في مدحه أيضاً:

يا ماجداً نصرَ الشريعة حيث لا بيضُ تشام ولا ذوابل تشرعُ
 والنصبُ منصوب اللواء وشائعُ في أهله بغضُ الذي يتشيعُ
 ويعني بالنصب: مناصبة أهل بيت النبي العداء، وانتشار بغض

(١) خريدة القصر، الجزء الثاني، ص ١٢٧.

شيعة علي وفاطمة في صفوف الناس. ويتابع قائلاً:

عمّت عوارفه فمامن موضع	إلا ونائله إليه موضح
سائل به ودم الفوارس سائل	يسقاه ظمآن التراب فينقع
واليوم قد كتبت سنابك خيله	نقعا جبين الأنف منه مقلع
فهناك تلقى الصدر لامتضايق	والروع لا نخب الضلوع مروّع
والشمس تهوى أن تقبل كفه	فتزاد بالسمر اللدان وتمنع
فاقنع بما ملكت يداك من العلا	إن كنت بالشهب الثواقب تقنع

وقال ابن الشخباء يمدحه أيضاً:

ما زال يختار الزمان ملوكة	حتى أصاب المصطفى المتخيّرا
قل للآلى ساسوا الورى وتقدّموا	قدماً هلموا شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة منكم	صدراً وأحمد في العواقب مضدراً
إن كان رأياً شاوروه أحنفاً	أو كان بأساً نازلوه عنترأ
قد صام والحسنات ملء كتابه	وعلى مثال صيامه قد أفطرا
ولقد تخوّفك العدو بجهد	لو كان يقدر أن يرّد مقدراً
إن أنت لم تبعث إليه ضمراً	جرداً بعثت إليه كيداً مضمرا
خطرنا إليك فخطرنا بنفوسهم	وأمرت سيفك فيهم أن يخطرا
عجبوا حلمك أن تحوّل سطوة	وزلال خلقك كيف عاد مكذراً
لا تعجبوا من رقة وقساوة	فالنار تقدح من قضيب أخضرا

ويصف موقعه من الخلافة الفاطمية والإمامة فيقول عن رأي الخليفة المستنصر فيه:

فلذاك عدك حين يعرض عارض	وسطى البنان وعد غيرك خنصرا
لورام قسطنطينة لا جلقاً	بك لم يدع في أرضها متنصراً

ولقد قضت أي الكتاب لكل من نصر الشريعة أن يُعان وينصرا
وقال ظافر الحداد يمدح أبا علي كتيفات، أحمد بن الأفضل بن
بدر الجمالي بقصيدة منها^(١):

حوى الملك ملك أغاث النفوسا فأي نفيس تولي نفيسا
وإن تك أفعال آبائه بدورا فقد تبدت فيها شموسا
وحقك يا باني الأفضلين يميناً أبدت بره لا غموسا
لقد سئتما الملك والعالمين فأعجزتما ملكاً أن يسوسا

مدح الوزير المأمون البطايحي:

عندما زيد في نعوت الوزير ابن المأمون البطايحي قال ابن
قادوس يمدحه^(٢):

قالوا أتاه النعت وهو السيد المأمون حقاً والأجل الأشراف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها ما زادنا شيئاً على ما نعرف
قال ظافر الحداد الإسكندراني يمدح الوزير المأمون بن
البطايحي في قصيدة منها^(٣):

إن الخلافة ما اصطفتك لنفسها حتى اختبرت لكل أمرٍ محمد
فاشتقت الألقاب فيك لأنها وصف جميل في صفات تُوجد
فدعتك بالمأمون وهي جبلّة ممّا يثبتها لديك المولد

(١) أخبار الدول المنقطعة، ابن طاهر الأزدي، ط ١، القاهرة، مطبوعات المعهد العلمي
الفرنسي للآثار الشرقية، سنة ١٩٧٢، ص ٩٥.

(٢) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٤١.

(٣) ديوان ظافر الحداد، م.س.، ص ١٢٢.

تاج الخلافة وهو تاج فضائل
 وإذا وجيه الملك قيل فإنه
 نعم الذخيرة أنت للأمر الذي
 يزهي بك التشريف والخلع التي
 ما خاب فيك دعاؤنا ورجاؤنا
 كم من قريح القلب في ظلم الدجى
 وضعيفة تحنو على أطفالها
 وقال يمدحه أيضاً^(١):

ملك لو اقتدت البحار بجوده
 أبداً يسابق جوده أنفاسه
 غمر البرية نائلاً فكأنه
 قاضي القضاة ومن نشيد بعدله
 نصح الخلافة فهي شاكرة له
 ساس الأمور لها برأي صائب
 شكرته حتى الطير في أوكارها
 للحرب والمحراب منه مواقف
 للسيف والقلم النحيف بكفه
 نظر الإمام له بعين حقيقة
 فرآه عيناً للزمان بصيرة
 إن هم فهو جنانه أوقال

لم ينج من تيارهن سفين
 بالمكرمات فما لهن سكون
 بجميع أرزاق العباد ضمير
 هادي الدعاة ومن إليه ندين
 حرماً تميد الأرض وهورزين
 إن كان منه شراسة أولين
 فلها بطيب ثنائيه تلحين
 عمرت بها الدنيا وعز الدين
 فعل يكون به منى ومنون
 لم ترمها بين الشكوك ظنون
 والناس هذب حولها وجفون
 فهو لسانه أوصال فهو يمين

(١) م.س. نفسه. ص ٣١٩.

وكفاه من يثني عليه خليفة أحد الرواة لمدحه جبرين
أصبحت سيفاً للخلافة خالياً حيث ازدهى بك عاتق وجبين
فافخر فانت وزيرها ومشيرها وأمينها وظهيره الميمون

مدائح آل رُزَيْك:

يجد المطلع على ديوان الفقيه عمارة اليمني أن علاقة عاطفية كانت تربطه بهذه العائلة المصرية، فهو إن مدحها، وصفها بصفات توازي صفات الإمامة والأئمة، وإن رثاها، بكأها بكاء الوالد لولده، وإن مدح غيرهم حتى ولو كانوا من أعدائهم، أشار إليهم واعتذر عن عدم قدرته على تناسيهم. وخاصة زعيمهم ومؤسس ملكهم وعائلتهم، الملك الصالح، طلائع بن رزيك، ولربما حافظ الشعب المصري على ذكر هذه العائلة حتى اليوم، بعدم تغيير اسم الساحة التي كان ينثر فيها الملك الصالح الدنانير على الفقراء والشعراء والمساكين: ساحة الملك الصالح، فهي باقية إلى اليوم لم يستطع الأيوبيون ولا المماليك ولا الأتراك انتزاعها من ضمير المصريين، ولا من قلوب أبناء مصر وعقولهم.

قال الفقيه عمارة يمدح الملك الصالح طلائع بن رزيك وأخوته وأولاده وآل رُزَيْك^(١):

لقى الكفيل «أبو الغارات» كلـكـله على الزمان فضاغت حيلة النُوبِ
بين الندى والردى زجراً وتكرمة فكل قلب رهين الرعب والرَّغْبِ

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٤٦.

ويحكى قصة تمرد الوزير بهرام على الخليفة، وإقدام شريفات
قصر الحضرة إلى إرسال الرسائل وشعورهن بداخلها، يستنجدن
بأبي الغارات - طلائع بن رزّيك:

لما تمرّد بهرام وزمرته جهلاً وراموا قراع النبع بالغرب
صدعت «بالناصر» المحي زجاجتهم وللزجاجة صدع غير مُنْشَعِبِ
أسرى إليهم ولو أسرى إلى الفلك الأعلى لخافت قلوب الأنجم الشهب
ظنّوا الشجاعة تنجيهم فقارعهم أبو شجاع قريع المجد والحسب
وأبو شجاع هو شقيق الملك الصالح، بدر بن رزّيك.

وسقوا بأسكر سُكْر لا انقضاء له من قهوة الموت لا من قهوة العنب
حلّ الردى بينهم بالحيّ فانقرضوا وما حلول الردى بالحيّ من عجب
ألم تر القوم لما أن طغوا وبغوا واستحقبوا الذم ما عاشوا على الحُقبِ
وانكروا من ظهور الخيل ما عرفوا واستوثبوا فخانتهم ولم تشبِ
ويصف صولات وجولات آل رزّيك في حربهم ضد بهرام فيقول:

لله عزيمة «محي الدين» كم تركت بتربة الحيّ من خدّ امرئٍ تُربِ
سما إليهم سمّو البدر تصحبه كواكب من سحب النقع في الحجب
في فتية من «بنّي رُزّيك» تحسبهم عن جانبيه رُحى دارت على قطب
قوم إذا الحرب قامت سوقها جلبوا من النفوس إليها أنفوس الجلب
كانّ لمع المواضي في أكفهم صواعق في الوغى تنقض من سحب
فما تروح بها الأرواح في صُعْدِ إلا وتغدو بها الأجسام في صَبَبِ
ويخص الملك الصالح زعيم آل رُزّيك بقوله:

رُفّاهم رتبته العليا أخوهم لم يأخذ الملك بالتدريج في الرتب
تلَقّب «الصالح الهادي» وليس به مع صدق أفعاله فقد إلى اللقب

مُتَوَجِّعٌ مِنْ بَنِي رُزَيْكَ تَنْسِبُهُ بِيضُ الْمَسَاعِي إِلَى جَرَثُومَةِ الْعَرَبِ
وَقَدْ نَسَبَهُ الْفَقِيهَ عِمَارَةَ إِلَى الْعَرَبِ. عَلِماً أَنَّ اسْمَهُ يَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِ
الْأَرْمَنِيِّ، بَيْنَمَا أَشَارَ مُحَقِّقُ دِيْوَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ طَلَّاعُ بْنُ رُزَيْكَ إِلَى
إِنِّهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْعَرَبِ إِلَى أَرْمِينِيَا^(١).

زَاكِي الْأَرُومَةِ إِلَّا أَنَّ مَنْصِبَهُ فِي الْمَجْدِ أَعْظَمُ أَنْ يَعْزَى إِلَى نَسَبِ
مَا أَلِيقَ التَّاجَ مَعْصُوباً بِمُفْرَقِهِ وَرَبِّ مَعْتَصِبٍ بِالتَّاجِ مَغْتَصِبِ
وَصَامِتٍ أَعْرَبَتْ عَنْهُ زَمَاجِرُهُ بِنَاطِقٍ مِنْ صَهِيلِ الْخَيْلِ مُصْطَخِبِ
كَالسَّيْلِ وَاللَّيْلِ لَا يَنْجُو طَرِيدُهُمَا مِنَ الْمُنْيَةِ فِي الْإِمْعَانِ بِالْهَرَبِ
بَيْتٌ مِنَ الْمَجْدِ لَمْ يُمَدِّدْ لَهُ عَمَدٌ سِوَى الْوَشِيحِ وَلَمْ يُشَدِّدْ إِلَى طَنْبِ
أَغْرَابِ الْجَوْدِ وَضَّاحٌ تَخْرُلُهُ صَيْدُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَذْقَانِ وَالرَّكْبِ

العرقلة يشرب الخمرة ويبولها في نهر يزید:

وَقَالَ الْعَرْقَلَةُ يَمْدَحُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ طَلَّاعُ بْنُ رُزَيْكَ^(٢):

سَقْيَانِي كَأَسَا عَلَى نَهْرٍ «ثَوْرًا» وَذِرَانِي أَبُولَهَا فِي يَزِيدِ
وَبِالتَّأَكِيدِ ضَمَنْ الْعَرْقَلَةُ هَذَا الْمَعْنَى السَّمْعَ لِمَا فِيهِ تَعْرِيزٌ بِاسْمِ
يَزِيدٍ، تَقَرُّباً مِنَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ، وَتَابِعَ يَمْدَحُهُ بِقَوْلِهِ:

أَنَا مِنْ شِيعَةِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ لَسْتُ مِنْ سُنَّةِ الْإِمَامِ وَلِيدِ
وَالْعَرْقَلَةُ كَذَّابٌ فَهُوَ مِنْ شِيعَةِ الدَّرْهَمِ وَالْدِينَارِ
مَذْهَبِي مَذْهَبٌ وَلَكِنِّي فِي بَلَدَةٍ زُخْرِفَتْ لِكُلِّ بَلِيدِ
كَثَّنَا الصَّالِحُ بْنُ رُزَيْكَ فِي كُلِّ قَرِيبٍ مِنَ الدُّنْيِ وَبَعِيدِ

(١) راجع: مقدمة ديوان طلائع بنم رزيك.

(٢) ديوان العرقلة، م.س. ص ٢٢.

ملك لم تسزل ثياب عداه في حداد وثوبه من حديد
 ووزيره في الفضل أوفى من الفضل بن يحيى في ظل ملك الرشيد.
 فاق عبد المليك في العلم والحلم بليغ يفوق عبد الحميد
 كل يوم عداؤه في هبوط حيث كانوا ومجده في صعود
 وله ناصر من الله فيهم مثلما بخت نصر في اليهود
 فاز بالفائز الإمام الذي أصبح مصباح شيعة التوحيد
 صفوة من محمد وعلي ليس من سعدهم ولا من سعيد
 سيف هذا الإمام لأقل حدأك ولا زلت نار قلب الحسود
 أنت بين الملوك واسطة العقد وقطب الرحى وبيت القصيد
 وكتب العرقلة يشتكي منعه من الدخول إلى أحد بيوت آل رزيك.

وكان منعه الحارس ويسمى عز الدين^(١).

على بابكم يا آل رزيك شاعر قنوع كفاه منكم الود والبشر
 وقدرته البواب جهلاً بوجهه «كما ردها يوماً بسوئته عمرو»
 وهو يستعمل شطر أبي فراس الحمداني الذي وصف تصرف
 عمرو بن العاص حين كشف عن عورته أمام علي بن أبي طالب (ع)
 في حرب صفين، مما دفع بالإمام علي أن يبصق عليه ويشيح
 بوجهه عنه، فذهبت القصة مثلاً: حافظ عمرو بن العاص على حياته
 بسوئته. وإذا قالها العرقلة، فهي من باب التزلّف والمداهنة.

وقال أيضاً:

تمنيّتكم حتى إذا ما طرّبتم بعدتم وما بيني وبينكم بشر

(١) ديوان العرقلة، م.س. ص ٤٨.

وقد كان مشتاقاً إليّ طلائعُ فواعجبا لِمَ قد أبى صحبتي بدرُ
وحتى حسينٌ وهو سيّد مذهبي زوى وجهه عني كأنني الشمرُ
وزاد عليّ الدهرُ نجلَ محمد على أنّه في كلّ أنملة بحر
وما كلّ ماضٍ كالْحَسامِ لدى الوغى ولا كلّ مصر في جلالتها مصر
ولكنّ عز الدين قد ناب عنهم فتى قد تساوى عنده التبن والتبرُ
والعرقلة هو القائل بعد الانقلاب الكردي الأيوبي في مصر
الفاطمية^(١):

أصبح الملك بعد آل عليّ مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغدادِ
ما حواها إلا بحزم وعزم من صليل الفولاذب الفولاذِ
لا كفرعون والعزيز ومن كان بها كالخصيب والاستاذِ
ويعني أن صلاح الدين الأيوبي ليس كفرعون والعزيز ولا مثل
كافور الإخشيدي / الأستاذ / كوتيتي طاهر سوي
وليس بكثير عليه فقليل ما نجد شاعراً كالفقيه عماره اليمني
وفاء. فمن قول العرقلة:

ذرا لأتراك والعربا وكن في حزب من غلبا
وقال الفقيه عماره يمدح بدر بن رزيك، وآل رزيك:
أرى الناس جسماً آل رزيك رأسه و«بدر» له تاج و«رزيك» جوهر
دعوا يا بني الأخبار «يحيى» و«جعفر» فكلّ بني «رزيك» يحيى وجعفر
ولا تذكروا «كعباً» و«عمراً» و«عنتر» فخدامهم كعب وعمرو وعنتر

(١) م.س. نفسه، ص ٣٨.

وصف مقتل الوزير عباس بن تميم الصنهاجي:

قال الشريف أسعد الجواني، أبو البركات أسعد بن علي الحسيني
يمدح الملك الصالح ويذكر نوبة مقتل الوزير عباس الصنهاجي^(١):

لئن كنت قد نجيت عباس من ظبا فرنجة لمالم يجد عنك مستعفى
وأنقذته من أسره وهو ذاهل يرد عن الأحوال في المأزق الطرفا
فقد سقته إذ فر منك إلى مدى تمدداه نحو مقلته الحتفا
وما فر من وقع الأسنة صاغراً وجدك إلا حين لم ير مستخفى
وقل الطعان المر للملك الذي يراه حياً عندما يهب الالف

مدح الملك الصالح:

وقال الشريف أسعد الجواني يمدح الملك الصالح طلائع بن
رزيك^(٢):

إن في كف ابن رزيك لمن يبتغي الرغد لأمالاً خصابا
وبيم من فارس الإسلام قد أجري البحر الذي عب عبابا
كم له في الشام من معجزة ومقام لم يكن إلا احتسابا
جرب الإفرنج من أفعاله في صناديدهم أمراً عجابا
ويقول فيه أيضاً:

ومن يهو إدراك المعالي فإنه يعد المنايا من ملابسه طمرا
قريع الرزايا والقنا يقرع القنا خطير العطايا يستقبل الجدا خطراً
يخطط بالخطي في النقع موطناً يحوز العلا والموت يلحظه شراً

(١) خريدة العصر، الجزء الأول، ص ١١٩.

(٢) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ١٢٠.

إذا اهتزَّ بالفسطاط غرباه لم يدع فؤاداً بأقصى روضة لم يمت ذعرا
وقال القاضي الجليس ابن الحباب السعدي يمدحه أيضاً^(١):

سيوفك لا يُقْلُ لها غرار فنوم المارقين بها غرار
يجردها إذا أخرجت سُخْطُ على قوم ويغمدها اغتفار
طريدك لا يفوتك منه ثار وخصمك لا يقال له عثار
وفيما نلت من كلِّ باغ لمن ناواك - لو عقل - اعتبار
فمرياً صالح الأملak فينا بما تختاره فلك الخيار
فقد شفعت إلى ما تبغيه لك الأقدار والفلك المدار
ولو نوت النجوم له خلافاً هَوَتْ في الجوى ذروها انتشار
عدلت وقد قسمت وكم ملوك أرادوا العدل في قسم فجاروا
ففي يد جاحد الإحسان غل وفي يد حامد النعمى سوار
ويصف مقتل والي الإسكندرية طرخان بن سليط الذي ثار عليه
فيقول:

لقد طمحت بطرخان أمان له ولمثله فيها بوار
وحاول خطّة فيها شماس على أمثاله وبها انفار
هل الحسبُ الغني بمستقل إذا ما عزّه الحسب انفار
أتتك بخائن قدماء سعيأ كما يسعى إلى الأسد الحمار
وشان قرينه لما أتاه كما قد شان أسرته قدار
ووقف القاضي الجليس ذات يوم في دار الوزارة يخطب مادحاً
الملك الصالح نثراً وشعراً فقال: هو الوزير الكافي والوزير الكافل،

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، م.س. ص ١٩١.

والملك الذي تُلقى بذكره الكتاب وتهزم باسمه الجحافل. من جدّد
رسوم المملكة، وقد كاد يخفيها دثورها، وعاد به إليها ضياؤها
ونورها:

وقد خفيت من قبله معجزاتها فأظهرها حتى أقرّ كفورها
أعدت إلى جسم الوزارة روحه وما كان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً وهذا أوانُ قرّئها وطهورها
من العدل أن يحيا بها مستحقّها ويخلعها مردودةً مستعيرها
إذا خطب الحسناء من ليس أهلها أشار عليه بالطلاق مشيرها
فقد نشرت أيامه مطوى الهمم، وانتشرت رفات الجود والكرم،
ونفقت بدولته سوق الآداب بعدما كسدت، وهبت ريح الفضل بعد ما
ركدت، إذا لها الملوك بالقيان والمعاذف، كان لهوه بالعلوم
والمعارف، وإن عمروا أوقاتهم بالخمر والقمر، كانت أوقاته معمورة
بالنهي والأمر:

ملك إذا الهى الملوك عن ألها خمارٌ وخمرٌ هاجر الدلّ والدنا
ولم تنسه الاوتاد أوتار قينة إذا ما دعاه السيف لم يثنه المثني
ولو جاد بالدنيا وعاد بضعفها لظنّ من استصغاره أنه ضناً
ولا عيب في إنعامه غير أنّه إذا منّ لم يتبع مواهبه منّا
ولا طعن في إقدامه غير أنّه لبوس إلى حاجاته الضرب والطعنا
والأعجب من ذلك، أنّ العماد الأصفهاني يستكثرها على المادح
والممدوح، فيقول: «ولا شك أنّ هذه الأبيات لغيره»^(١).

(١) خريدة العصر، الجزء الأول، م.س. ص ١٩٤.

ومدحه المهذب بن الزبير بقوله^(١):

وتلقى الدهر منه بليث غاب
تخال سيوفه لما انتضاها
وتحسب خيله عقبان دجن
إذا قدّخت بجنح الليل أورث
وإن جَنَحَتْ مع الإصباح عدواً
كان الشمس حين تثير نقعا
وما اضطربت رماح الخطأ إلا
وما تُنْذِقُ يوم الروع حتى
عجبت لها تصافح من يديه
ولا يشفى لها أبداً غليل
وقد شربت دماء الكافرينا
إذا لقيت عيون الروم زرقاً
وقال ابن الصياد يمدحه ويذكر قتله أرنولد (أرناط) مقدم
الصلبيين الفرنجة^(٢):

عن سيف دين الله سل أرناطا
والمشرفية قد حكّت في جيشه
قد شام طير الكفر منه مفسراً
هو ملبس جثث العدا في الحرب من
فجياده تشكو مزاحمة القنا
وترد فرسان الرماح سياطا
حيث المنية كأسها يُتَعاطى
في العلّ والنهل القطا الفُرّاطا
أشغى وعاین مخلصاً عطّاطا
حلل النجيع مجاسداً ورياطا
وترد فرسان الرماح سياطا

(١) م.س. ص ٢٠٥.

(٢) م.س. ص ٢٤٣.

هو فارس الإسلام يحفظ بالظُّبا من دينه الأطراف والأوساطا
 كم قد أنار من الاسنة أنجما لما أثار من العجاج غطاطا
 فتخاله ملكاً رمى بشهابه في الروع شيطان الحروب فشاطا
 وقال أيضاً المذهب بن الزبير يمدح الملك الصالح طلائع بن
 رزّيك^(١):

أَقْصِرْ - فَدَيْتُكَ - عَنْ لَوْمِي وَعَنْ عَذْلِي أَوْ لَا فَخْذَلِي أَمَاناً مِنْ يَدِ الْمُقْلِ
 مِنْ كُلِّ طَرْفٍ مَرِيضِ الْجَفَنِ تَنْشِدُنَا الْحَاضِلُ «رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِي تُعَلِّ»
 إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا وَهُوَ السَّقِيمُ شِفَاءً فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلِّ
 إِنْ الَّذِي فِي جَفُونِ الْبَيْضِ إِذْ نَظَرْتُ نَظِيرَ مَا فِي جَفُونِ الْبَيْضِ وَالْخَلِّ
 كَذَاكَ لَمْ يَشْتَبِهْ فِي الْقَوْلِ لَفْظُهُمَا إِلَّا كَمَا اشْتَبَهَا فِي الْفَعْلِ وَالْعَمَلِ
 وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى الْأَطْلَالِ أَحْسَبُهَا جِسْمِي الَّذِي بَعْدَ بُعْدِ الظَّاعِنِينَ بُلِي
 أَبْكِي عَلَى الرَّسْمِ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ فَهَلْ عَجِبْتُ مِنْ طَلَلٍ يَبْكِي عَلَى طَلَلِ
 وَكُلَّ بَيْضَاءٍ لَوْ مَسَّتْ أَنْامِلُهَا قَمِيصَ يَوْسُفَ يَوْمَ أَقْدُ مِنْ قُبُلِ
 يُغْنِي عَنِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَبْسِمُهَا لِحُسْنِهَا فَلَهَا حَلِيٌّ مِنَ الْعَطَلِ
 بِالْخَذِّ مِثْلِي أَثَارُ الدَّمُوعِ كَمَا لَهَا عَلَى الْخَذِّ أَثَارٌ مِنَ الْقُبُلِ
 كَانَ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ خَجَلٍ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حُمْرَةِ الْخَجَلِ
 هُوَ الْحَمَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ زَهْوًا فَيَفْتِكُ بِالْأَسْيَافِ وَالِدُولِ
 إِذَا بَدَأَ عَارِيّاً مِنْ غَمِّهِ خَلَعَتْ غَمْدَ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةُ الْبَطْلِ
 وَإِنْ تَقَلَّدَ بَحْرًا مِنْ أَنْامِلِهِ رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانُ الرِّزْقِ بِالْأَجْلِ
 مِنَ السَّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا فِي أَنْمُلٍ هِيَ سُحْبُ الْعَارِضِ الْهَاطِلِ

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٠٦.

فجاءنا لبني رزّيك مُعْجِزُها
تبدو شمساً هم أقمارُها فَنَرَى
قد غَايَرَت فيهم السمرَ الرقاقَ رقا
إن عانقوا هذه في يوم معركة
ولقد لقوا كل من غاروا بمُشْبِهه
وضارب الروم روم من سيوفهم
وهزم لصهيل الخيل تحت صهيل
فالدّمُ خمرٌ وأصواتُ الجياد لهم
والخيلُ قد أطربَتها - مثلما طربوا -
من كل أجردٍ مختالٍ بفارسه
وكل سُلْهَبَةٍ للريحِ نَسِبَتُها
أفارسُ المسلمين أسمع فلا سَمِعَت
مقالَ ناء غريبٍ الدار قد عدم الأ
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتسعت
يرجوك في دفعها بعد الإله وقد
وكيف ألقى من الأيام مَرِزْنَةً
لولا هم كنتُ أفري الحادثات، إذا
وكيف أخلع ثوبَ الذلِّ حيث كَفِيت
فما تخافُ الردى نفسى وكم رَضِيتُ
إنى امرؤٌ قد قتلت الدهر معرفةً
إن يزو ماء الصُّبا عودى فقد عَجَمَت
تجاوزت بي مَدَى الأشياخِ تجربتي

بأية لم تكن في الأعصُرِ الأوّلِ
شُهَبَ القَنَا في سماءِ النقع لم تُفَلِ
قُ البيض خلف سُجوفِ النقع في الكلّ
لاحت لهم بتلخّلي تلك كالشُعَلِ
حتى لقوا النُجْلَ عند العَرَضِ بالنُجْلِ
وطاعنَ العُربِ أعرابٌ من الأسَلِ
البيض ما هزّ أعطافَ القَنَا الخَطَلِ
أصوات مَعْبَدٍ في الأهزاج والرَّمَلِ
أفعالهم، فهي تمشي مِشْيَةَ الثَمَلِ
إلى الطَّعان جريحِ الصُّدرِ والكَفَلِ
لكنها لو بَغَتها الريح لم تُنْزَلِ
عِذّاك غيرَ صليلِ البيض في القُلَلِ
نُصارٍ لولاك لم يَنْطِق ولم يَقُلِ
فضاقَ منها عليه أوسع السُّبُلِ
يُرَجى الجليلُ لدفعِ الحادثِ الجَلَلِ
جَلَّتْ ولي من بني رزّيك كلُّ ولي
نابت، بنهضة ماضي العزم مُرتَجَلِ؟
لُ الحرِّ بالعزِّ وَخَدُّ الأيْنُقِ الذُّلِّ
بالعجزِ خوفَ الردى نفسٌ فلم تُبَلِ
فما أبِيتُ على ياسٍ ولا أَمَلِ
مني طروقُ الليالي عودَ مُكْتَهَلِ
قَدَمًا وما جاوزت بي سنٌ مُقْتَبِلِ

وأول العمر خير من أواخره وابن ضوء الضحى من ظلمة الأضل
دوني الذي ظن أني دونه فله تعاظم لينال المجد بالجيل
والبدر تعظم في الأبصار صورته ظناً ويصغر في الأفهام عن رُحل
ما ضر شعري أني ما سبقت إلى (أجاب دمعى وما الداعي سوى طلل)
فإن مدحي لسيف الدين تاه به زهواً على مدح سيف الدولة البطل

وقال يمدحه أيضاً: (١)

أعلمت حين تجاور الحيان أن القلوب مواقد النيران
وعرفت أن صدورنا قد أصبحت في القوم وهي مرائب الغزلان
وعيوننا عوض العيون أمدها ما غادروا فيها من القدران
ما لوخذ هز قبابهم بل هزها قلبي عشية سار في الأظعان
وبمهجتي قمر إذا ما لاح للست أري تضاءل دونه القمران
قد بان للعشاق أن قوامه سرقت شمائله غصون البان
وأراك غصناً في النعيم [تميل] إذ غصن الأراك يميز في نعمان
للمرح نصل واحد ولقده من ناظريه إذا رنأ نصلان
والسيف ليس له سوى جفن وقد أضحى لصارم طرفه جفنان
والسهم تكفي القوس فيه وقد غدا من حاجبيه للحظه قوسان
ولرب ليل خلت خاطف برقه ناراً تلفع للدجى بدخان
كالماثل الوسنان من طول السرى جوزاؤه، والراقص السكران
ما بان فيه من ثرياء سوى إعجامها والدال في الدبران

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٠٩.

وترى المجرة في النجوم كأنها
لولم يكن نهراً لما عامت به
نادمت فيه الفرقدين كأنني
وترفعت هممي فما أرضى سوى
وأنفت حين فُجعت بالأحباب أن
واعترضت من جود الوزير مواهباً
يا كاسراً الأصنام قم فانهض بنا
فالشام ملكك قد ورثت ثرائه
فإذا شككت بأنها أوطانهم
أورمت أن تكلو محاسن ذكرهم
ما زللت أرض العدا بل ذاك ما
وأقول إن حصونهم سجدت لهما
والناس أجدر بالسجود إذا عدا
وقد بعثت إلى الفرنج كتائباً
لبسوا الدروع ولم نخل من قبلهم
وتيمموا أرض العدو بقفرة
عشرين يوماً في المغار و ليلة
حتى إذا قطعوا الجفار بحفل
أغريتهم بحمي العدا فجعلته
عجلت في تلك العجول قراهم
لما أبوا ما في الجفان قرينهم
وثلثت في يوم العريش عروشهم

تسقي الرياض بجدول ملآن
أبدأ نجوم الحوت والسرطان
دون الوري - وجذيمة أخوان
شهب الدجى عوضاً من الخلآن
الهوا عن الإخوان بالخوان
أسلت عن الأوطار والأوطان
حتى تصير مكسر الصلبان
عن قومك الماضين من غسان
قدما فسل عن حادث الجولان
فاسند روايتها إلى حسان
بقلوب أهلها من الخفقان
أوتيت من ملك ومن سلطان
لعلاك يسجد شامخ البنيان
كالأسد حين تصول في حقان
أن البحار تحل في عُدران
جرداء خالية من السكان
يشرون تحت كواكب الخرسان
هو في العديد ورملة سيان
بسطاك بعد العز دار هوان
- وهم لك الضيفان - بالذيفان
بصوارم سلّت من الأجفان
بشبا ضرب صادق وطعان

أَلْجَأَتْهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعَابِحَرَانِ
مُدِحَ الْوَرَى بِالْبَاسِ إِذْ خَضِبُوا الظُّبَا فِي يَوْمٍ حَرِبَهُمْ مِنَ الْأَقْرَانِ
وَلَأَنْتَ تَخْضِبُ كُلَّ بَحْرٍ زَاخِرٍ مِمَّنْ تَحَارَبُ بِالنَّجِيعِ الْقَانِي
حَتَّى تَرَى دَمَهُمْ وَخَضِرَةَ مَائِهِ كَشَقَائِقِي نِثْرَتٍ عَلَى الرِّيحَانِ
ومنها في وصف الأسطول:

وَكَاثُ بَحْرِ الرُّومِ خُلِقَ وَجْهُهُ وَطَفَتْ عَلَيْهِ مَنَابِتُ الْمَرْجَانِ
وَلَقَدْ أَتَى الْأَسْطُولُ حِينَ غَزَا بَمَا لَمْ يَأْتِ فِي حِينَ مِنَ الْأَحْيَانِ
أَحْبَبَ إِلَيَّ بِهَا شَوَانِي أَصْبَحْتُ مِنْ فَتْكِهَا وَلَهَا الْعُدَاةُ شَوَانِي
شُبَّهَنْ بِالْغَرْبَانِ فِي الْوَانِهَا وَفَعَلَنْ فَعَلْ كَوَاسِرَ الْعَقْبَانِ
أَوْقَرَتْهَا عُذْدَ الْقِتَالِ فَقَدْ غَدَّتْ فِيهَا الْقَنَا عَوْضًا مِنَ الْأَشْطَانِ
فَأَتَتْكَ مُوقِرَةٌ بِسَبِي بَيْنَهُ أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةً الْأَذْقَانِ
حَرْبٌ عَوَانٌ حَكَمْتِكَ مِنَ الْعِدَا فِي كُلِّ بَكْرٍ عِنْدَهُمْ وَعَوَانِ
وَأَعَدَتْ رُسُلُ ابْنِ الْقَسِيمِ إِلَيْهِ فِي شَعْبَانٍ كِي يَتَلَاءَمَ الشَّعْبَانِ
وَالْقَالَ يَشْهَدُ بِاسْمِهِ أَنْ سَوْفَ يَفْدُو الشَّامُ وَهُوَ عَلَيْكُمَا قِسْمَانِ

وقال ابن قصير الاسكندراني يمدح الملك الصالح أيضاً^(١):

الصَّبْرُ عَنْ بَانِ الْحَمَى وَعَقِيقُهُ فِي حَقِّ سَاكِنِهِ أَجَلٌ عُقُوقُهُ
ظَبْيٌ ظُبَا الْحَاظِلِ فَتَّاكَةٌ تُغْنِيهِ يَوْمَ الرُّوعِ عَنْ إِبْرِيْقِهِ
سَيَانٍ عِنْدِي الْخُمْرُ فِي إِبْرِيْقِهِ أَوْ مَا حَوَاهُ ثَغْرُهُ مِنْ رِيْقِهِ
لَا فَرْقَ بَيْنَ خِيَالِهِ وَوَصَالِهِ فِي سَرْدِ مَا طَلَّهِ وَفِي تَحْقِيقِهِ

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٤٦.

ومنها:

والله ما للشمس في إشراقها
كالرُّثمِ حالَ نِفَارِهِ والبدر عند
لا تجعلِ الهجرانَ بعضَ عقوبتي
وأرفقُ فمن دينِ المُرُوءَةِ في الهوى
والله ما صدقَ الملامُ ولا جرى
كلُّ الجوارحِ في يديه فأَيُّها
فَذَرِ الملامَ فحبذاه لذكره
يا راكبَ المَهْرِيِّ أضحى ظله
بلَّغَ إلى المَلِكِ الهمامِ أمانةً
حتامَ حظِّي في الحضيضِ؟ وإنه
مثلى بمصرَ وأنتَ مالِكُ رِقِّي

ومنها:

والله خُلْفَةُ صادقٍ وبرِّبها
لو كنتُ أَرْضَى الشُّعْرَ خُطَّةً فاضلٍ
إنَّ الحديدَ صلاحُه بصلاح
والصيرفي يَبِينُ عندَ محكِّهِ
ولقد أشاعَ الناسُ أنَّكَ في الوري
ولقد أشاعَ الناسُ أنَّكَ في الوري
أَبْطَلُ بنورِ العقلِ سلطانَ الهوى

فأجابه الملك الصالح بن رزيك بقصيدة منها:

نفق التأدُّبِ عندنا في سُوقِهِ وبدا اليقينُ لنا بلمعِ بروقِهِ

أهدى لي القاضي الفقيه عرائساً
فأجلت طرفي في بديع رياضه
أدب سعى منه إلى غاياته
ولقد علمت بأن فضلك سابق
فلذا اقتصرْتُ ولم أَرِ الإمعان في
وأرى الزمان جرى على عاداته
والشوق في قلبي تضرّم وهجّه
والدمع من عيني يسحُ فهل يُرى
نُزّهت في بستانِ نظمك ناظري
يا من تدلُّ فنونُ ما ياتي به
أنت امرؤ من قال فيك مقالة
وأنا زى تقديم حاجة صاحبي
وكذا الكريم فمهملٌ لأموره
هذا النجاح، فكل ما قدرُمته
ففيها بديعُ الوشى من تنميّقه
من ورده وبهّاره وشقيقه
وأتى فسَدَّ عليه مرُّ طريقه
يُعتدُّ من جاره من مسبوّقه
شأٍ امرئ أصبَحْتُ غيرَ مطيقه
في جمعه طوراً وفي تفريقه
فمتى أراه يكفُّ عن تحريقه
من بحرهِ يوماً نجاه غريقه
فَحَظِيْتُ من زهرِ الرُبى بأنيقه
من حلي منطِقِه على توفيقه
الغالي فكلُّ الخلق في تصديقهِ
من دون حاجاتي أقلُّ حقوقهِ
لا مُهملٌ أبداً أمورَ صديقهِ
قد تمّ فانظر منه في تحقيقهِ

وقال الحسن بن علي الاسواني المعروف بالمهذب ابن الزبير
يمدح الملك الصالح طلائع بن رزيك^(١):

كأن في سيف سيف الدين من خجل
هو الحسام الذي يسمو بحامله
إذا بدا عارياً من غمده خلعت
من عزمه ما به من حمرة الخجل
زهواً فيفتك بالأملاك والدول
غمداً الدماء عليه هامة البطل

(١) الطالع السعيد، الجامع لأسماء نجباء الصعدي، أبو الفضل جعفر بن ثعلب الادفوي، ط ١،
القاهرة، دار المصرية، سنة ١٩٦٦، صفحة ١٩٩.

وإن تقلد بحرأمن أنامله رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل
من السيوف التي لاحت بوارقها في أنمل هي سُحْبُ العارض الهطل
فجاءنا لبني رزّيك معجزها بآية لم تكن في الأعصر الأول
وقال فيه أيضاً:

للمرح نصل واحد ولقدّه من ناظريه إذا رنا نصلان
وترى المجرّة في النجوم كأنها تسقي الرياض بجدول ملآن
لو لم يكن نهرألما عامت به أبدأ نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيه الفرقدين كأنه -دون الوري- وجذيمة أخوان

مدح ضرغام:

وبعد مقتل آل رزّيك ومحو آثارهم، أُسند منصب الوزارة إلى
ضرغام. فمدحه الفقيه عماره: ويصف منصب الوزارة والمهمات
المطلوبة منه:

همّ الزمان بها فمذكّلفتها أضحي يوالي نصرها ويوالي
وأجبت داعية الفرنج بديهةً قبل الروية بارتحال رجال
أطفأت جمرتها بإخوتك الألى يتسئمون غوارب الأهوال
لم أدر والتشبيه يقصر عندهم أغيوث نُزْل أم ليوث نزال
طالت بأيديهم قصار صوارم بانّت بها الأعمار غير طوال
وخلطتم أنصاركم بنفوسكم والناس من مولى لكم وموالي

ويصوّر عمارة الوزارة بأنها هي التي ترنو بطرفها لضرغام
وهي المحتاجة إليه وليس العكس:

هل للوزارة حاجة أم حُجّة ترجو تتمتها ببعض كمال

هذا الذي ما زال طرفك دائماً يرنو إليه في الزمان الخالي
 هذا الذي عضلوك عنه لتخرجي من عزة حرمت ومن إجلال
 وأحق من وزر الخلافة، من مشى في حرة الإعظام والإجلال
 واختص بالخلفاء وانكشفت له أسرارها بقرائن الأحوال
 وتصرف الوزراء عن آرائه كتصرف الأسماء بالأفعال

مدح شاور:

عندما أقدم شاور على اغتيال ضرغام رغم تحالفهما على قتل آل
 رزيك واستئصال شأفتهم وآخرهم رُزيك بن الملك الصالح. وقدموا
 رأسه في «طشت» إلى شاور، وهو بدار الوزارة - تالم الفقيه عمارة
 لهذا المنظر وقال:

اعزز عليّ أباشجاع أن أرى ذاك الجبين مضرّجاً بدمائه
 ما قلبته سوى رجال قلبوا أيديهم من قبل في نعمائه
 وجلس شاور في دار الوزارة فقال بمدحه دون أن يعرض بآل
 رزيك، بل العكس يذكر أيامهم الوادعة معتذراً من شاور إذا ذكرهم
 بجميل الصنع وذكر بهم^(١):

صحت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
 زالت ليالي بني رُزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرم
 كأن «صالحهم» يوماً وعادلهم في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
 ويصف عملية الانقلاب على آل رزيك فيقول:

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الثاني، ص ٩٤٧.

هم حرّكوها عليهم وهي ساكنة
 كنّا نظنّ - وبعض الظنّ مائمه -
 فمذ وقعت وقوع النسر خافهم
 ولم يكونوا عدوّاً ذلّ جانبه
 وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
 ولو شكرت لياليهم محافظة
 ولو فتحت فمي يوماً بذمّهم
 والله يأمر بالاحسان عارفة
 والسلم قد يُنبِتُ الأوراق في السّلمِ
 بأنّ ذلك جمع غير منهزمٍ
 من كان مجتمعاً من ذلك الرّخمِ
 وإنما غرقوا في سيلك العرَمِ
 تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلمِ
 لعهد ما لم يكن بالعهد من قدَمِ
 لم يرض فضلك إلا أن يسُدّ فمي
 منه وينهي عن الفحشاء في الكلمِ

مدح أسد الدين شيركوه:

قال حسان بن نُمير الكلبي - العرقلة - يمدح وزير العاضد أسد
 الدين شيركوه ويذكر بمقتل شاور^(١):

رحلت من الشقيف: إلى العراق
 ونكست الأعادي منه قهراً
 وما نخشى على الإسلام بأساً
 وشاوركم تشاور كلّ خبّ
 اتصبر إن أتتك بحار خيل
 متى رفعت لك السودان رأساً
 وعيشك ماله من مصر بُدّ
 هو الأسد الذي ما زال حتى
 بعزم كالْمِهْنْدَة الرقاق
 ومجدك في ذرى الجوزاء باقٍ
 إذا هلك الجميع وأنت باقٍ
 وتنفق عند مثلك بالنفاق
 وقدا ما صبرت على السواقي
 وقد خلاهم مثل الزقاق
 ومن عندي ثلاثاً بالطلاق
 بنى مجداً على السبع الطباق

(١) ديوان العرقلة، م.س. ص ٦٨.

عمارة يمدح نجم الدين أيوب ويطالبه بإعادة رواتبه ومستحقاته
المقطوعة منذ دخولهم مصر:

قال الفقيه عمارة يمدح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين
ويطالبه بإعادة رواتبه المقطوعة منذ خمس سنوات^(١):

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم ووجهه بدوام العزيتسم
أيامه الفر لا زالت مغلدة ساعاتها فُرصٌ للأجر تغتنم
ويعاتبه قائلاً:

هل أنت مُصنِعٌ إلى دعوى أُخْبِرُها إلى علاك فانت الخصم والحكم
ما زال في الثغر لي رزق سحائبه تهمني على روض آمالي وتنسجم
ولكن عندما أتى نجم الدين وأولاده؟؟

حتى مَلَكْتَ فلانجم أسير به إلى علاك ولا نار ولا علم
واليوم خمسة أعوام محرمة لم يسقني لك لا طل ولا ديم
ويذكره كيف كانت حالته من الملوك المصريين:

وكان لي من ملوك النيل قبلكم مكانة عرفت بها العرب والعجم
وبالرغم من الخصومة المذهبية بين عمارة وبين الفاطميين فلم
يقطعوا رواتبه:

وكان بيني وبين القوم ملحمة في حربها السن الأديان تختصم
وما تزال إلى داري عوارفهم تمشي إلى بابها الإكرام والنعيم
ويذكره بنفسه ومن هو:

ولست بالرجل المجهول موضعه ولا لنزُر من الإحسان أغتنم

(١) ديوان عمارة، الجزء الثاني، ص ٩٣٧.

وإنما أنا ضيف الملوك ولي دون الضيوف لسان ناطق وفم
ويذكر نجم الدين أيوب أنه كان معزراً مكرماً عند أخيه أسد
الدين شيركوه. والحقيقة غير ذلك فقد كره الأيوبيون عمارة وكره
عمارة الأيوبيين. فهو شاعر عربي كريم الحسب والنسب واليد
عاش بين خلفاء أئمة عرب هاشميين قرشيين يقدرون الكلمة
ويعرفون قيمتها. أما هؤلاء الأكراد الأيوبيون «فيادوب» يفهمون لغة
التخاطب اليومي. أي أن لا الشعر ولا الآيات الكريمة ولا الحديث
النبوي الشريف يهز كيانهم أو عقلهم، فهمهم كروشهم وقروشهم
وفروجهم، ويذكر بالملك الصالح طلائع بن رزيك:

- لهفي على أسد الدين الهمام وكم جرت عليه دموع العين وهي دم
- قد كان يرفعني في صدر مجلسه العالي ويبسط أنسي حين احتشم

مدح آخر وزير مصري فاطمي: صلاح الدين الأيوبي:

عندما يبدأ الفقيه عمارة بمدح صلاح الدين يبدأ بتصوير ألمه
وشكواه من الحالة الجديدة التي وصلت إليها مصر فيقول^(١):

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثة مصدور وأنة موجه
وعى كل صوت تسمعين نداءه فلا خير في إذن تنادى فلا تعي
ويصف ما حل به بعد سيطرة الأيوبيين على الحكم في مصر:

تقاصر بي خطب الزمان وباعه فقصر من ذرعي وقصر أذرعي
واخرجني من موضع كنت أهله وانزلني بالجور في غير موضعي

(١) ديوان عمارة اليمني، الجزء الثاني، ص ٦٨٦.

وبدل أن يمدح صلاح الدين الأيوبي يمدح الخلفاء المصريين
الشيعة:

فَيُمُتُّ مَصْرًا أَطْلُبُ الْجَاهَ وَالْغِنَى فَنَلْتُهُمَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ مُّمنَعٍ
وَزَرْتُ مَلُوكَ النَّيْلِ إِذْ زَادَ نَيْلُهُمْ فَأَحْمَدُ مَرْتَادِي وَأَخْصَبُ مَرْتَعِي
وَفَزْتُ بِأَلْفٍ مِنْ عَطِيَّةٍ فَائِزٍ مَوَاهِبِهِ لِلصَّنْعِ لَا لِلتَّصْنَعِ
وَكَمْ طَوَّقْتَنِي مِنْ يَدٍ عَاضِدَةٍ سَرَتْ بَيْنَ يَقْظَى فِي الْعَيُونِ وَهُجَّعِ

ولا يكتفى أن يذكر صلاح الدين بكرم الخلفاء المصريين فيُعَدُّ
له كرم الوزراء المصريين أيضاً:

وَجَادَ ابْنُ «رَزَّيْكَ» مِنَ الْجَاهِ وَالْغِنَى بِمَا زَادَ مِنْ مَرْمَى رَجَائِي وَمَطْمَعِي
وَلَيْسَتْ أَيْادِي شَاوِرَ بِذَمِيمَةٍ وَلَا عَهْدُهَا عِنْدِي بِعَهْدٍ مُضَيِّعِ
وبالرغم من أن الوزير شاوراً قد قتل على يد صلاح الدين، فلم
يردع هذا الأمر الفقيه عمارة على مدحه وتذكير صلاح الدين الأيوبي
به في نفس القصيدة التي مدحه فيها. ويتابع قائلاً:

مَلُوكُ رِعْوَالِي حَرَمَةً صَارْنَ بَتَهَا هَشِيمَا رَعْنَةُ النَّائِبَاتِ وَمَارُعِي
وَرَدَتْ بِهِمْ شَمْسُ الْعَطَاءِ لِرَفْدِهِمْ كَمَا قَالَ قَوْمٌ فِي عَلِيٍّ وَيُوشَعِ
مَذَاهِبُهُمْ فِي الْجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةٍ وَإِنْ خَالَفُونِي فِي اعْتِقَادِ التَّشْيَعِ

وبعد هذه المداخلة يبدأ الفقيه عمارة بمعاتبة صلاح الدين. وكيف
يصيخ له صلاح الدين السمع وقد صدّر قصيدته بمدح الخلفاء
والوزراء المصريين أعداء صلاح الدين فيقول:

فَقُلْ لَصَلَاحِ الدِّينِ - وَالْعَدْلِ شَأْنُهُ - مَنْ الْحَكَمُ الْمُضْغَفِي إِلَيَّ فَأَدْعِي
أَقَمْتُ لَكُمْ ضَيْفًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أَقُولُ لِقَلْبِي كُلَّمَا ضَاقَ وَسُعِ

أَعْلَلْ غِلْمَانِي وَخَيْلِي وَنَسَوْتِي بِمَا صَغَتْ مِنْ عَذْرِ ضَعِيفٍ مُرْقِعٍ
 وَضَايِقْنِي أَهْلَ الدِّيُونِ فَلَمْ يَكُنْ سِوَى بَابِكُمْ مِنْهُمْ مَلَاذِي وَمَفْزَعِي
 فَيَا رَاعِي الْإِسْلَامِ كَيْفَ تَرَكْتَنَا فَرِيقِي ضِيَاعَ مَنْ عَرَايَا وَجُوعٍ
 وَلَمَّا اغْصَ الرِّيقُ مَجْرَى حُلُوقِنَا أَتَيْنَاكَ نَشْكُو غَصَّةَ الْمُتَوَجِّعِ
 وَيَذْكُرُهُ بِأَنَّهُ مُسْلِمٌ سَنِيٌّ شَافِعِي وَأَنَّهُ فَقِيهٌ فِي الشَّافِعِيَةِ عَلَيْهِ يَرْقُ
 لَهُ قَلْبُهُ وَيَعِيدُ لَهُ رَوَاتِبَهُ فَيَقُولُ:

فَإِنْ كُنْتَ تَرَعَى النَّاسَ لِلْفَقْهِ وَحَدَهُ فَمِنْهُ طِرَازِي بَلِّ لثَامِي وَبَرْقَعِي
 أَلَمْ تَرَوْعْنِي «لِلشَّافِعِي» وَأَنْتُمْ أَجَلُ شَفِيعٍ عِنْدَ أَعْلَى مَشْفَعٍ
 مَلَكَتْ عَنَانَ النُّصْرَةِ ثُمَّ خَذَلْتَنِي وَحَالِي بِمِرْأَى مَنْ عَلَكَ وَمَسْمَعٍ
 فَحَالُكَ لَا تَوْسِعُ عَلَيَّ وَتَلْتَفَتَ إِلَيَّ التَّفَاتِ الْمُنْعَمِ الْمُتَبَرِّعِ
 وَيَذْكُرُهُ بِأَن رَاتِبَهُ الْمُقْطُوعَ مُقَرَّرٌ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ:

وَهَاجَرْتَ أَرْجُو مِنْكَ إِطْلَاقَ رَاتِبِ تَقَرَّرَ مِنْ أَزْمَانٍ «كَسْرِي» وَ«تَبْعِي»
 فَيَا وَاصِلَ الْأَرْزَاقِ كَيْفَ تَرَكْتَنِي أُمِدَّ إِلَيَّ نَيْلَ الْمُنَى كَفًّا أَقْطَعِ
 غَدَا الْأَمْرِ فِي إِيْصَالِ رِزْقِي وَقِطْعِهِ بِحُكْمِكَ فَا بَذَلْ كَيْفَمَا شِئْتَ أَوْ أَمْنَعِ
 وَأَرْسَلْ لَهُ مُعَامَلَةَ إِطْلَاقِ الرَّاتِبِ لَكِي يَوْقَعُ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ بَدَلْ أَنْ
 يَوْقَعَ عَلَى إِطْلَاقِ رَاتِبِهِ وَقَعَ عَلَى مُعَامَلَةِ تَعْلِيْقِهِ عَلَى جَذْعِ نَخْلَةٍ:

وَقَدْ صَدَرَتْ فِي طَيِّ ذَا النِّظْمِ رَقْعَةٌ غَدَا طَمَعِي فِيهَا إِلَى خَيْرِ مَطْمَعِ
 أَرِيدُ بِهَا إِطْلَاقَ دِينِي وَرَاتِبِي فَاطْلُقْهُمَا وَالْأَمْرَ مِنْكَ وَوَقْعِ
 إِلَى هَهْنَا أَنْهِيَ حَدِيثِي وَأَنْتَهِيَ وَمَا شِئْتَ فِي حَقِّي مِنَ الْخَيْرِ فَاصْنَعِ
 فَصْنَعُ بِهِ شَرًّا وَلَمْ يَصْنَعْ بِهِ خَيْرًا. وَكَأَنَّ بِي وَالْفَقِيهَ عِمَارَةَ يَظُنْ
 أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْفِكْرِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَسُودُ مِصْرَ الْفَاطِمِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ هِيَ نَفْسُ
 الْحُرِّيَّةِ الَّتِي سَادَتْ مِصْرَ الْكُرْدِيَّةِ الْإِيُوبِيَّةِ.

وقد ظن عماره أنه يخاطب الملك الصالح طلائع بن رزيك بشعر يعلمه فيه مقاطعة مجلسه بسبب سبّ الشيخين أبي بكر وعمر (رض) فيه، أو أنه يرد عليه بقصيدة يرفض ترك التسنن والدخول إلى التشيع، أو أنه يخاطب الوزير شاور. فكانت الحرية في مصر الفاطمية سبباً في قتله.

مدح كبار الموظفين في مصر الفاطمية:

كنا قد أشرنا إلى أنّ مدائح الخلفاء كانت تصل لتشبيههم بالأنبياء، حتى أن بعض الشعراء توصل لتشبيههم بالذات الإلهية، أما مدائح الوزراء فكانت أكثر ما تصل، تصل إلى كفالة الخلافة من أي شر وحماية الإسلام والمسلمين ولكن بتوجيه من الخلفاء. أما مدائح كبار الموظفين فهي لا تصل إلى المستوى الإلهي أو الإسلامي العام بل تبقى أسيرة معان عادية موجودة في كلّ إنسان مميز.

مدح القاضي المكين أبي المعالي ابن الحباب السعدي:

قال الفقيه عماره يمدح القاضي المكين، ابن الحباب السعدي:
وَحَقَّ الْمَعَالِي يَا أَبَاهَا وَصَنُوهَا يَمِينُ أَمْرِيءَ عَادَاتِهِ الْقِسْمُ الْبَرُّ
لَقَدْ قَصَّرْتَ عَمَّا بَلَغْتَ مِنَ الْعُلَا وَأَحْرَزْتَ أَنْبَاءَ دَهْرِكَ وَالْدَهْرُ
مَتَى كُنْتَ - يَا صَدْرَ الزَّمَانِ - بِمَوْضِعٍ فَرْتَبْتَكَ الْعُلْيَا وَمَوْضِعُكَ الصَّدْرُ
وَقَالَ ابْنُ غَلْبُونٍ يَمْدَحُ جَيْشَ ابْنِ الصَّمْصَامَةِ^(١):

١ - يَا جَيْشُ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ يَا صَاحِبَ الْمَالِ الْوَسَاعِ

(١) ديوان عبد المحسن الصوري، م.س. ص ٢٨٨.

- ٢- يَأْمَنُ يُجِيبُ الدَّاعِيَيْنِ إِلَى النَّدَى وَإِلَى السِّقْرَاعِ
٣- أَدْعُوكَ لِمَا أَنْ دَعَا حَالِي مِنَ الْحَدَثَانِ دَاعٍ

مدح أهل البيت:

قال سعيد بن مكي النيلي يمدح أهل بيت النبي وعترته^(١):
قَمَرٌ أَقَامَ قِيَامَتِي بِقَوَامِهِ لَمْ لَا يَجُودُ لِمُهْجَتِي بِذِمَامِهِ
مَلَكَتُهُ قَلْبِي، فَأَتْلَفَ مُهْجَتِي بِجَمَالِ بَهْجَتِهِ وَحَسَنَ قَوَامِهِ
وَبِنَاضِرِ غَنَيجٍ وَطُرْفِ أَحْوَرِ يُصَمِّي الْقُلُوبَ، إِذَا رَنَا، بِسِيَّهَامِهِ
وَكَأَنَّ خَطَّ عِذَارِهِ فِي حَسَنِهِ شَمْسٌ تَجَلَّتْ وَهِيَ تَحْتَ لِثَامِهِ
وَكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرَةٍ مَمْرُوجَةٍ بِالرُّسْلِ عِنْدَ رِضَاعِهِ وَفِطَامِهِ

ومنها في مدح أهل البيت عليهم السلام:

دَعُ يَا (سَعِيدُ) هَوَاكَ، وَاسْتَمْسِكْ بِمَنْ تَسْعَدُ بِهِمْ، وَتَرَاهُ مِنْ آثَامِهِ
بِ-(مُحَمَّدٍ)، وَبِ-(حَيْدَرٍ)، وَبِ-(فَاطِمٍ) وَبَوْلَدِهِمْ عَقَدُوا الْوَلَا بِتَمَامِهِ
قَوْمٌ، يُسَرُّ وَلِيُّهُمْ فِي بَعَثَتِهِ، وَيَعْضُ ظَالِمُهُمْ عَلَى إِبْهَامِهِ
وَتَرَى وَلِيَّ وَلِيِّهِمْ، وَكِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَالنُّورُ مِنْ قُدَامِهِ
يَسْقِيهِ مِنْ حَوْضِ النَّبِيِّ (مُحَمَّدٍ) كَأَسَاءَ، بِهَا يَشْفِي غَلِيلَ أَوَامِهِ
بِيَدَيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَسْبُ مَنْ يُسْقَى بِهِ كَأَسَاءَ بِكَفِّ إِمَامِهِ
ذَاكَ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا اتَّضَحَّتْ لَنَا سُبُلُ الْهَدَى فِي غُورِهِ وَشَأْمِهِ
عَبَدَ الْإِلَهَ، وَغَيْرُهُ مِنْ جَهْلِهِ مَا زَالَ مَعْتَكِفًا عَلَى أَصْنَامِهِ

(١) خريدة القصر وجريدة العصر، الجزء الرابع، ص ٢٠٤.

ما (أصف) يوماً، و(شمعون الصفا) مع (يوشع) في العلم مثل غلامه
وقد عاقب العماد الأصفهاني الشاعر النيلبي لمدحه أهل البيت
حيث قال:

«من ها هنا دَخَلَ في المُغالاة، وخرج عن المصافاة، فقَبَضْنَا اليَدَ
عن كُتُب الباقي، ورددنا القَدَح على السَّاقِي. وما أَحْسَنَ التَّوَالِي،
وأَقْبَحَ التَّغَالِي»^(١).

مدح نقيب الطالبين:

إذا قارنا بين مدائح الأئمة الخلفاء المصريين وبين مدائح نقيب
الطالبين في مصر والدولة الفاطمية، نجد تقارب معاني مدائحهم،
لانتماء الفريقين إلى العترة النبوية الطاهرة، وتبقى العصمة ومشاركة
الأنبياء والأئمة في صفاتهم من اختصاص الأئمة الخلفاء.

قال ابن حيّوس يمدح نقيب الطالبين الشريف فخر الدولة أبا
يعلى حمزة بن الحسن^(٢):

فخرها وابن فخرها معدن السؤدد	ربُّ العلاءِ تَرْبُ العفافِ
الشريف الأعراف والنفس والهمة	والمكرمات والأوصاف
وحمدت الزمان عند هُمام	غير عافٍ ذراه من ألف عاف
لم يذموا بظله العيس في مشتي	ولا مربيعٍ ولا مصطافٍ
مجتديه مُجدٍ وراجيه مَرْجُوٌّ	وأضيافه ذوو أضياف

(١) م. س. نفسه ص ٢٠٨.

(٢) ديوان ابن حيّوس م. س. ص ٣٨٧.

ليس يخلو من الندى وهو يقظان ويغشاه طارقاً وهو غاف
يا قليل الآلاف في رتب المجد انفراداً وواهب الآلاف

ثم تتغير نغمة المديح ويبدأ التقارب مع مدائح الأئمة الخلفاء:

كم أخ في الزمان فاق أخاه بفعال بها يبين الشافي
مثلما فات عبْدُ شمس ثناءً حازه هاشم بن عبد مَنَافٍ
طاف كلُّ بباب دارك يرجو ما يُرْجَى الحجيج عند الطواف
أنتم عصمة الأنام ولو بُنْتُمْ وكلاً رَدَّوا بغير خلافٍ
قد حللتهم صدور أندية الفخر وحسب الكرام بالأطراف
وقال يمدحه أيضاً^(١):

ما كان قبلك في الزمان الخالي من يسبق الأقوال بالأفعال
حتى أتيت من ارتياحك ما كفى ذُلَّ السؤال وهيبة الآمال
لم يكفك الترفُّ الذي ورثته حتى شفعت معالياً بمعالي
ونسجت سيرة آل برمك منعماً في الشد ما عفى على الإرقال
فإذا لبست من الثناء ملابساً جُدد أَرْضُوا بملايسِ أسمالٍ
خصَّ الإله محمّداً من بينكم لا زال محروساً بأكرمِ بالٍ
وأبو الرسول فجذكم أولى به من دون إخوته بلا إشكالٍ
أنى يكون شريكه في عَمِّه كشريكه في عَمِّه والخالٍ
نَسَبُ بنو العَلَاتِ عنه بمعزل وبذاك تقضي سورة الأنفال
شمخت بفخر الدولة الهمم التي حازت مدى الإعظام والإجلال

(١) ديوان ابن حيّوس، الجزء الثاني، ص ٥٠١.

وقال الشريف الأخفش يمدح الشريف إمام بن حيدرة الحسيني الطالببي قاضي بلبيس^(١):

لنجران، فالبرق الحجازي أبرقا
شريف يد الشرع انتقت منه قاضيا
خلائقة في العدل تُرضى وتُرتجى
إذا ما تعدى مارد لسمائه
يُخبث من لم يرق في ذروة العلاء
وسباق غايات بإبطاء وثبة
هو الغيث يُممه إذا كان مُطرأ
وما أصفر لون التبر عند اجتماعه
فلا طمحت بي نحو غيرك عزيمة
وقال أبو الرقعمق أيضاً يمدح نقيب الطالبين الرسي^(٢):

عجب مامثله عجب
قرقرت بطني فواخرني
هرباً من شرها هرباً
ذهب الناس فما أخذ
حزني أني مُذمن
ولكم بئنا على طرب
وكؤوس الصفع دائرة
وانتخبناها وهامهم
فعلوا بي غير ما يجب
ذقن من بالسُلح يختضب
فعسى أن ينفع الهرب
يشتهي أن تنفخ القرب
مالعبناه ولا لعبوا
ورؤوس القوم تستلب
ملؤها اللذات والطرب
وأكف القوم تصطب

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٤٢.

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، م.س. ص ٣٢٤.

وكان الصفح بينهم
 والعمى منهم وإن شغلوا
 سوف يدرون أيما رجل
 بسيوف شركها آدم
 وعجيب والحسين له
 أن شربي عنده رنق
 وله الورذ المعاذبه
 وهو الغيث المثلث إذا
 والى الرسي ملجونا
 سيد شادات علاه له
 وله بيت ثم ذلك
 حسبه بالمصطفى شرفاً
 رتبة في العز شامخة
 ذاك فخر ليس تنكره
 ولانتم من بفضلهم
 واليسكم كل منقبة
 وبكم في كل معركة
 وبكم في كل عارفة
 وإذا سمر القنا اشتجرت
 ومدحه بقوله أيضاً:

باح وجداً بهواه
 حين لم يفسط مناه
 مغرم أغرى به السقم فما يرجى شفاه

كَاد يُخْفِيهِ نَحُولُ الْجِسْمِ حَتَّى لَا تَرَاهُ
 لَوْ ضَنَّأَ يَخْفَى عَنِ الْعَيْنِ لِاخْفَاءِ ضَنْأِهِ
 حَبِّذَا الرُّسُيَّ مَوْلى رَضِي النَّاسُ وَلَاه
 جَعَلَ اللَّهُ أَعَادِيهِ مِنَ السَّوْءِ قِدَاهُ
 فَلَقَدْ أَثَقَّنَ بِالْثَرِّ وَهَ مَنُ حَـلُّ ذَرَاهُ
 مِنْ رَقَى حَتَّى تَنَاهَى فِي الْمَعَالِي مُرْتَقَاهُ
 فَاتَ أَنْ يَبْلُغَ فِي السَّوْءِ نَدِيَّ الْمَجْدِ مَدَاهُ
 مَلِكٌ مُذْ كَانَ بِالْسُّطُوَّةِ مَمْنُوعٌ جَمَاهُ
 بِحَرْجٍ يُدِيرُ لَيْسَ يَذِرِي أَيْنَ مِنْهُ مُنْتَهَاهُ
 لَمْ يَخْضِعْ مَنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي النَّاسِ رَجَاهُ
 لَا، وَلَا يَفْرُقُ مَنْ صَرَّ فَزَمَانُ إِنْ عَرَاهُ
 مَنْ بِهِ اسْتَكْفَى أَدَى الْأَيَّامِ وَالِدْفَرِ كَفَاهُ
 كَيْفَ لَا أَمْدُحُ مَنْ لَمْ يَخْلُ خَلْقٌ مِنْ نَدَاهُ
 وَقَالَ أَبُو الرِّقْعَمَقِ يَمْدَحُ الْأَمِيرَ تَمِيمَ بْنَ الْمُعِزِّ الشَّاعِرَ (١):

وَبِإِحْسَانِ تَمِيمٍ عُذْتُ مِنْ عَظَمِ مَصَابِي
 بِالْأَمِيرِ السَّيِّدِ الْمَاجِدِ وَالْقَرَمِ اللَّبَابِ
 وَالْهَمَامِ الْمَنْعَمِ الْمَفْضَلِ وَالْبَحْرِ الْعُجَابِ
 وَالَّذِي لَا فَرْقَ مَا بَيْنَ جَدَاهُ وَالسَّحَابِ
 تَنْثَنِي مِنْهُ إِلَى ذِي كَرَمٍ رَحْبِ الْجَنَابِ
 رَافِعٍ دُونَ بَنَنِي الْأَمَالِ أَسْتَارِ الْحِجَابِ

(١) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ، ج ١، م. س. ص ٢٣٩.

للم أزره قسطاً إلاً بستُ محموداً الأيابِ
 ذكره أعذب في النفس من ذكر الشبابِ
 ولقد رقتُ عن الماء وعن طبع الشرابِ
 أكثمتُ في الرأي، والفضلُ وقسُّ في الخطابِ

وأبو الرقعمق شاعر ماجن داعر سكير، لا يهتمه الأوصاف الدينية
 التي ينتمي إليها الأمير تميم، فهو يراها محض هراء وخرافات، بينما
 الشرب والمجون والسكر هي أهم بكثير من أية صفات مقدسة
 أخرى.



مركز بحوث وتاريخ العلوم الإسلامية

مدح الدولة الفاطمية

في معرض المدائح المعزية، مدح ابن هاني الأندلسي الدولة الفاطمية، ونعوتها هي نعوت دولة الرسول محمد بن عبد الله (ص)، خليفة الله على الأرض:

لكم دولة الصدق التي لم يقم بها نُتَيْلَةٌ والأيام هُوجُ رِكائِكُ
إماميةٌ يُخبرها رُونُ سعيها ولا أشركت بالله فيها البرامك
تردُّ إلى الفردوس منكم أرومة يصلي عليها ربكم والملائكُ
ولما التقت أسيافها ورماحها شِراعاً وقد سُدَّتْ عليّ المسالك
أَجَزْتُ عليها عابراً وتركتها كأنّ المنايا تحت جنبي آرائك

ويقارنها بالدولة الأموية فيقول:

وما عرفت كَرَّ الجياد أميةً ولا حملت بَزَّ القنا وهو شابك
ولا جردوا نصلاً تخاف شُباته ولكن قولاً ذأغداً وهو وانك
ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء عوارك
بني هاشم، قد أنجز الله وعده واطلع فيكم شمسُه وهي دالك
ونادت بثارات الحسين كتائبٌ تمطّي شراعاً في قناها المعارك

ولا يسعنا إلا أن نذكر بقول الشريف الرضي: عندما أقدم الخليفة العباسي (القائم بالله) على إصدار محضر طعن بنسب الأئمة الفاطميين المصريين الخلفاء، وكان الحاكم حينها لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، ومما جاء فيه:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيّدا الناس جميعاً محمّد وعلي

مدح أقرب إلى الغزل بالدولة الفاطمية:

قال ابن الكيزاني يمدح الخلفاء الفاطميين بشعر غزلي رقيق^(١):
أي طريّق أسبلك وأي قلب أملك
وأي صبر أبتغي وهو بكم مستهلك
أدارني حُبّكم كما يدار القلبك
أنثني وكلّ عضو فيه منكم شرك
أخلصت فيكم باطناً فيه هوى لا يدرك
جلّ فمافي صفوه شوبّ ولا مشترك
ولاؤكم لي مذهب وذكركم لي نسك
ومهجتي مملوكة يساحبها المملوك
وإن أردتم فاحقنوا وإن أردتم فاسفكوا

(١) خريدة العصر، الجزء الثاني، ص ٢٩.

ما أنتم ممن يُخْلَى حُبُّهُ وَيُثْرَكَ
وقال المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى الشيرازي
يمدح الدولة الفاطمية^(١):

ولايتي لآل طه عصمة	تنعشني بعد عثار وزلل
هم الأولى بهم تجلّى ربنا	لخلقه سبحانه عز وجل
هم الأولى جدّهم خير الرسل	هم الأولى ملثّهم خير الملل
فديت خیرامة قد أخرجت	للناس تنفي الريب عنّا والخلل
الراكعون الساجدون في الدجى	والطاهرون الطيّبون والنبيل
الفاطميون الصناديد الأولى	هم من جبال الفضل والفخر القلل
قد أورثوا مجدهم المولى الذي	ما وضعت مثلاً له ذات حبل
مولى ترى منه الأولى فوق الثرى	والدين والدنيا جميعاً في رجل
الظاهر بن الحاكم الزاكي الذي	حكّمه الله تعالى فعَدَل
متّعكم ربّي بما أولاكم	من دولة تعبدوها كلّ الدول
وخصّكم بالصلوات دائباً	هداه من زكّى وصلّى وابتهل

وقال الأمير تميم يمدح الدولة الفاطمية:

إمامة مهدية اللواء	ودولة دائمة البقاء
محفوفة بالعز والبهاء	عمّمت بالعدل بني حواء
سالمة من فتن الأهواء	ولم تزل تسعى على سيّساء
حتى غدا الظالم في اختفاء	وعاد ميل الدين لاستواء

(١) ديوان المؤيد في الدين. م.س. ص ٢١٤.

وقال المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي يمدح
الفاطميين^(١):

الراكمون الساجدون في الدجى والطاهرون الطيبون والنبيل
الفاطميون الصناديد الأولى هم من جبال الفضل والفخر القل

وقال فيهم أيضاً:

أهل بيتٍ عليهم نُزل الذكر وفيه التحريم والتحليل
هم أمان من العمى وصراط مستقيم لنا وظل ظليل
هاكم منهم بمصر إماماً هو بالنفي للشكوك كفيل
جده المصطفى، أبوه عليّ أمه صفوة النساء البتول
الإمام الذي له دعوة الحق ومادون علمه تعليل
دعوة قد دعا بها الأرض طراً فأجابت حُزونها والسهول
فله في الهند ناس وجيل وله بين عرصة الروم جيل

وقال الفقيه عمارة في الفاطميين في معرض مدح الخليفة
العاقد:

يا عاضد الدين من المهد ووارث القائم والمهدي
كم للعدى من غارة فيكم يعصر منها عرق الطيد
والله ما فوق الثرى مثلكم في الأم والوالد والجـد
لما غدوتم أمةً وحدكم غدوت فيكم أمةً وحدي

(١) ديوان داعي الدعاة، م.س. ص ٢١٣.

ويقول الكاتب محمد كامل حسين تعقيباً على قصيدة للشاعر
عمارة اليميني^(١):

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر
في العصر الفاطمي، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين، فأكثر منها في
شعره، بل بلغ به تأثره بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثنى عليهم في
الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين، وشمّت بهم أعدائهم
العباسيون وجمهور أهل السنة، فعمارة اليميني السني المذهب كان
وفياً لهم الوفاء كله، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

رمى يادهر كف المجد بالشّلّ وجيده بعد حسن الحلّي بالعطل
وهي أهم قصيدة ذكرت في مدح دولة أو في رثاء دولة، وقد
أشرنا إليها مراراً في الكتب السابقة كما أثبتناها في الكتاب الأول،
ومجزأة في فصل لاحق.



مركز بحوث التاريخ والحضارة الإسلامية

(١) راجع: أدب مصر الفاطمية، م.س. ص ٢٥٧.

شعر العتاب والاعتذار

في العتاب والمعاتبة جلاء للقلوب وإعادة لوصل الود المنقطع، هذا، إذا كان هناك ودٌ من الطرفين، أما إذا كان أحد الطرفين حاقداً يضمّر الشر للآخر، فلا نفع للعتاب ولا المعاتبة.

وكان الوليد بن هشام، من ولد عبد الرحمن الداخل المدعو في التاريخ الفاطمي - أبو ركة - قد خرج على الخليفة الحاكم بأمر الله، فحاصره الحاكم في برقة بطرابلس الغرب واعتقله واقتيد إلى مصر بعد أن طيف به على حمار أعرج وخلفه قرد يصبّ عليه اللبن ويصفعه على قفاه، وبعد تطويفه، اعتقل، فأرسل قصيدة إلى الخليفة الحاكم يعتذر منه ويطلبه بالعفو، ورغم أنّ العفو كان صفة ملازمة للخلفاء الفاطميين، لم يعف الحاكم عنه. ومما جاء في هذه القصيدة^(١):

فررت ولم يغن الفرار ومن يكن مع الله لم يعجزه في الأرض هاربٌ
ووالله ما كان الفرار لحاجة سوى فزعي الموت الذي أنا شاربٌ

(١) نفح الطيب، المجلد الثاني، ص ٦٥٩.

وقد قاذني جرمي إليك برمّتي كما اجتزّ ميتاً في رحي الحرب سالبُ
 وأجمع كلّ الناس أنّك قاتلي فياربّ ظنّ ربّه فيه كاذبُ
 وما هو إلا الانتقام وينتهي وأخذك منه واجباً وهو واجب
 وقال المسبّحي عن لسان الحاكم بأمر الله، أنّه كان يؤدّ العفو
 عنه، ولكن جرت أمور أدّت إلى قتله.

وعندما أقدم الوزير المغربي على تحريض أبي الفتوح بن جعفر
 الحسني أمير مكة على إعلان الإمامة والخلافة لنفسه، وإطماعه بتمكّن
 مصر، اعتقله الحاكم وأودعه السجن، بعد أن تراجع أبو الفتوح عن
 دعوته. فكتب الوزير المغربي قصيدة يعتذر فيها إلى الحاكم. ومما
 جاء في هذه القصيدة^(١):

سلامٌ ملء أسماع النديّ يفيض حياً عليه من الحيّ
 تجوز به ملائكة كرامٌ على قصر الإمام أبي عليّ
 تحية نازح يزداد شوقاً لدى خطرات ذي البين الوصيّ
 وما يعتدّ من ذنب ولكن تهيبّ سطوة الليث الجريّ
 وخاب بأن يلمّ به عقابٌ على حقّ من الملك الأبّي
 وألثم تربة فيما تولّى هناك لفيصل الخطب الجليّ
 أياماً ملكاً يشعّ البحر خوفاً لساكب فضله العذب الهنيّ
 موالاةً على الأيام كانت لكم تدعى لآل المغربيّ
 فهل بعد التفرّق من زمان يضم قوادم الشمل القصيّ
 فجاد عليه أمير المؤمنين بالصفح والعفو. وقد عاش الوزير

(١) عيون الاخبار وفنون الآثار، السبع السادس، ص ٢٧٥.

المغربي حتى أيام المستنصر، وقد كلف بالوزارة أكثر من مرة.
ولما كان الخلفاء والوزراء المصريون لا يتركون مجالاً لشاعر أن
يعاتب لأنَّ حقّه يصله دون منّة، إضافة إلى المخصّصات السنوية من
كسوة وهدايا بمناسبة الأعياد وهي كثيرة، لذلك لن نجد شعر العتاب
في مصر إلا بعد مجيء الأكراد الأيوبيين. وأكثر ما وجدناه، في
ديوان الشاعر عمارة اليميني.

في معرض مدحه الأمير جمال الدين فرج وهو أحد أمراء
الأكراد، قال عمارة يعاتب بني أيوب^(١):

قصائدي لم تزل في كلّ جارحة من حسنّها نشوات الخمر والطرب
كانت مكرّمة المثوى منزّهة في أرض مصر عن التصريح بالطلب
فأصبحت في جوار النيل ظامئة تحوم حول لآل الماء والعشب
حتى كأنّ بني أيوب ما علموا بأنني في زماني أفصح العرب
ضاقت عليّ لياليهم وقد رُحِبْتُ للواقدين إلى الساحات والرّحَب
حتى كأنّ أذى قلبي يطيب لهم كالعود لولا حريق النار لم يطب
وأرسل عمارة إلى صلاح الدين الأيوبي قصيدة مكتوبة وضع
لها العنوان التالي: «شكاية المتظلم ونكاية المتألم» جاء فيها^(٢):

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثة مصدور وأنة موجه
وعى كلّ صوت تسمعين نداءه فلا خير في أذن تنادى فلا تعي
تقا صرّبي خطب الزمان وباعه فقصر من ذرعي وقصر أذرعي

(١) ديوان عمارة اليميني، الجزء الثاني، ص ٢١٧.

(٢) م.س. نفسه. ص ٦٨١.

ويصف كيف كانت حالته أيام الخلفاء المصريين وكيف أصبحت
مع صلاح الدين الأيوبي:

وأخرجني من موضع كنت أهله وانزلني بالجور في غير موضعي
فيممت مصرأأطلب الجاه والغنى فنلتهمافي ظلّ عيش مُمنّعٍ
وزرت ملوك النيل إذا زاد نيلهم فأحمد مرتادي وأخصب مرتعي
وفزت بألف من عطية فائز مواهبه للصنع لا للتصنع

ويصف كرم الخلفاء والوزراء المصريين فيقول:

وكم طوّقتني من يد عاضدية سرّت بين يقظي في العيون وفُجّع
وجاد بن رزّيك من الجاه والغنى بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي
وليست أيدي شاور بذيمة ولا عهدا عني بعهد مضيع
ملوك رعوالي حرمة صار نبتها هشيماً رعته النائبات وما رُعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع
وبعد أن يذكر صلاح الدين بكرم الخلفاء والوزراء الفاطميين رغم

أنه سني المذهب وهم شيعة يخاطبه بقوله:

فقل لصلاح الدين -والعدل شأنه من الحكم المصغي إليّ فادّعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر أقول لقلبي كلما ضاق وسّع
أعلل غلمانني وخيلي ونسوتي بما صغت من عذر ضعيف مرقّع
وهي طويلة يشكو فيها إلى صلاح الدين ما حلّ به من الحكم

الجديد، وأعدنا ذكرهم لجماليتها وصدقها الاجتماعي:

ولما أغص الريق مجرى حلوقنا أتيناك نشكو غصّة المتوجع
ويذكره بأنه فقيه مسلم سني شافعي:

فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي

الم تر وعني للشافعي وانتم أجل شفيع عندا على مشفع
ملكتم عنان النصر ثم خذلتني وحالي بمرأى من علاك ومسمع
وقال في آخر القصيدة أنها مربوط بها معاملة طياً بحاجة إلى
توقيع لإعادة صرف رواتبه المحبوسة:

وقد صدرت في طي ذا النظم رقعة غدا طمعي فيها إلى خير مطمع
أريد بها إطلاق ديني وراتبي فأطلقهما والأمر منك ووقع



شعر الحنين

«مصر أم الدنيا»، هذه الجملة يطلقها الإنسان المصري تعبيراً عن تعلقه بمصر وحنينه إليها كلما بعد عنها. وسنجد في القصائد المصرية الفاطمية شجى وحنيناً مختلفاً عن كل القصائد التي قيلت في الحنين إلى الوطن في تاريخ الشعر العربي كله. فمصر وتاريخ مصر ونيل مصر وأوابد مصر، كان لها نكهة خاصة في شعر شعراء مصر الفاطمية.

مركز توثيق التراث الحضاري
مركز توثيق التراث الحضاري

أبو الرقعق لا ينسى ليالي النيل:

قال أبو الرقعق يصف مصر ولياليها على شاطئ نهر النيل^(١):
لا تكذبني فما مصر وإن بعدت إلا مواطن إطرابي وأشجاني
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هنوات فيك لي سلفت قطعتهن وعين الدهر ترعاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به على تصاحب نايات وعيدان
وعندما كان الأمير تميم بن الخليفة المعز الدين الله في مدينة الرملة

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، م.س. ص ٣٤٩.

بفلسطين، كتب يتشوق إلى مصر وأهله في القاهرة المعزية فقال^(١):

أنتم في المنام حلمي وأنتم في انتباهي سؤلي وأنتم مرادي
كلّ عضو منّي إليكم مشوق زائد توقه على الإبعاد
لم أفارقكم ولكنّ جسمي بان عنكم وحلّ فيكم فؤادي
فهنيئاً لكم بكائي عليكم وهنيئاً للعين طول السهاد
كلّما حثني اشتياقي إليكم قلت لبيك أنت نعم المنادي

الحنين إلى عين شمس:

وقال الأمير تميم يصف حنيه إلى عين شمس^(٢):

أيّ قلب كوى الفراق وهزّه أيّ لب أطاره واستفزه
أيّ دمع جرى وقلب تلظى وفؤاد تداول البين وخزه
كم شمس بعين شمس أذيلت لوداع رأي به الحلم عجزه
موقف جار فيه حكم التصابي وأصاب الأسى العزاء قَبْزَه
لورآني كُثِّير فيه ماشك بأنّي فيه كُثِّير عَزَه
فرقة لا تزال في العين دمعاً عند ذكرى لها وفي القلب حَزَه

الجيزة جيزة الدنيا:

وقال إبراهيم بن القاسم الملقب بالرشيق عندما غادر مصر سنة

٣٨٧ هـ، يتشوق إلى مصر وأحيائها^(٣):

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز، م.س. ص ١٢٨.

(٢) م.س. نفسه، ص ٢٤٣.

(٣) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٣٧٠.

هل الريح إن سارت مشرقة تسري
فما خطرت إلا بكيت صباية
لأنني إذا هبت قبولا بنشرهم
فكم لي بالأهرام أودير نهية
إلى جيزة الدنيا وما قد تضمنت
وبالمقس والبستان للعين منظر
وفي بئر دوس مستراد وملعب
فكم بين بستان الأمير وقصره
تراها كمرأة بدت في رفارف
وكم ليلة لي بالقرافة خلتها

فإذا كل ليلة في مصر هي ليلة القدر.

مركز توثيق كويت بر مصر

إسنا أسنا البلاد:

قال علي بن عزام يصف شوقه وحنينه لمربع طفولته بقصيدة
جاء فيها^(١):

وما الحظ منقوصاً بقوص وإنها
وأسنى بلاد الله إسنا الساكن
فلست على أسوان أسوان بعدها
فلا برك الرحمن فيمن أراحني
مَقِيلٌ ولكن أين مني ظِلُّهُ
أجل محط للغريب والمسفر
وخير من الكل الرحيل إلى مصر
وما أنا مجرٍ ذكرها لي على فكرٍ
عن الظل والماء الزلال الذي يجري
وسقياً ولكني بعيد عن القطر

(١) الخريدة، قسم شعراء مصر، الجزء الثاني، ص ١٧٦.

أما ابن عمه أبو محمد هبة الله بن عزام فهو يكره مغادرة مصر
بتاتاً حيث يقول^(١):

لا عزَّ للمرء إلا في موطنه والذلُّ أجمع يلقيه من اغتربا
فاقنع بما كان مما قد حُببت به بحيثُ أنت، وكُنَّ للبين مُجتنباً
واعلم يقيناً بلا شكٍ يخالطه بأنَّ رزقك إن لم تأتِه طُلِباً

قلب الفقيه عمارة على مصر دائماً:

تحدث الناس بهجوم الفرنجة على مصر فكتب الفقيه عارة يعبر
عن خوفه على مصر وحبّه لها^(٢):

يارب إني أرى مصر أقدا انتبعت لها عيون الأعداء بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية وأحرس عقود الهوى من حلّ عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقدرتها

المهذب بن الزبير يبيت مقهور الفؤاد خارج مصر:

كتب المهذب بن الزبير الغساني المصري يتذكر مصر وأيام
مصر وهو مسجون في اليمن بسبب وشاية كاذبة^(٣):

ياربع أين ترى الأحبة يَمَمُوا هل انجدوا من بعدنا أم اتهموا
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما يسري إذا جنّ الظلام الأنجمُ
وتعرّضت بالأمس روعي وحشة لا أوحش الله المنازل منهم

(١) م.س. نفسه. ص ١٨٦.

(٢) ديوان عمارة اليمني، ص ٢٧٢.

(٣) معجم الأدباء، الجزء الثالث، ص ٢٥.

لولا هم ما قمت بين ديارهم حيران استاف الديار والثم
امنازل الاحباب اين هم واين الصبر من بعد التفرق عنهم

وبعد أن يشكو بعده عن مصر وعن أخيه الرشيد يقول:

ما كان بعد أخي الذي فارقت له ليبوح إلا بالشكاية لي فم
ياراحلاً بالمجد عنا والعلا أترى يكون لكم إلينا مقدم

فلم علم أخوه الرشيد بهذه القصيدة، أجابه بقصيدة جاء فيها:

ياربع أين ترى الأحبة يَمَمُوا رحلوا فلا خلت المنازل منهم
وسروا وقد كتموا الغداة مسيرهم وضياء نور الشمس ما لا يكتُم
ما ضرهم لو ودَّعوا من أودعوا نار الغرام وسلَّموا من أسلموا
هم في الحشا إن اعرقوا أو أشاموا أو أيمنوا أو أنجدوا أو اتهموا
وهمُ مجال الفكر من قلبي وإن بعد المزار فصفو عيشي منهم
أحبابنا ما كان أعظم هجركم عندي، ولكنَّ التفرق أعظم
غبتم فلا والله ما طرق الكرى جفني ولكن سَحَّ بعدكم الدم
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى إنِّي حفظت العهد لما خنتم
فاقمت حين ظَعَنْتُمْ وعدلت لما جرَّئْتُ وسهرت لما نامتُم
يا محرقاً قلبي بنار صباية لا تنطفي إلا بقرب منكم

وهي قصيدة طويلة، أظهر فيها الرشيد كل براعة فنية وكل عاطفة مكبوتة.

أجمل أيام قليبوب:

قال الشاعر ظافر الحداد يتذكر أيام قليبوب^(١):

لله أيامي بقلبيوب والعيش مُخْضَرُ الجلابيب
والطير في الأغصان فئانةً ما بين تلحين وتطريب
والشمس في المغرب مصفرةً كعاشق من بعد محبوب

من الإسكندرية إلى الفسطاط: غربة:

ولشدة تعلق ظافر الحداد بالإسكندرية يجد نفسه في الفسطاط
أنه تغرب عن بلده حيث يقول:

إن كانت الإسكندرية قد شطت فأولتني نوى قذفا
وسكنت بالفسطاط مغترباً فلقد كسبت بغربتي شرفاً
وكسبت مالاً لو يوقرهُ جدواي لم أعرف له طرفاً
لكن ينازعني إلى وطني شوق إذا استمهلت عسفاً
وأعاف مصر وعيشها رَغْدٌ ويشوقني وطني ولو عجفاً
وبالرغم من رغد العيش في مصر والمال الوفير الذي لو وقَّره
لما عرف مبلغه لضخامته، فهو يفضل الإسكندرية لأنه:

ويهزني مرح الشباب بها هز القضيبي اللدن منعطفاً
ما بين أتراب قد اتفقوا أن يجعلوا ساعاتهم تحفاً
لهفي على زمن بها وبهم لو كان ينفع قول: والهفا
فارقتهم وصحبت بعدهم حالين: قرع السن والأسفا

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ١٢.

وظافر الحداد، «ابن الإسكندرية»، كما أطلق عليه محقق ديوانه،
حسين نصار، يستحق هذا اللقب، لأن ديوانه البالغ الأربعمئة
صفحة، نصفه عن الإسكندرية وأهل الإسكندرية.

وقال يتلهف للعودة إليها:

هل لي إلى الثغر من عود ومنقلب	فالعيش منذ رحيلي عنه لم يطب
ترى أزور القصور البيض ثانية	بالرمل بين غصون التين والعنب
يا بلدتي إن يغب مغناك عن نظري	فلأنه في سواد القلب لم يغب
وأما على ذلك العيش الذي ذهبت	أيامه فيك بين اللهو والطرب

طوفان نوح من دموعه على بعد الإسكندرية:

قال ظافر الحداد يصف شوقه وجنينه إلى الإسكندرية:

عسى يجري الزمان على اختياري	فيدنيني إلى وطني وداري
فأدفع عاديّات الشوق عني	وأخذ من صروف البين ثاري
سقى الإسكندرية كل غيث	يحاكي بعض أدمعي الغزار
ولو أنني أرقّت جميع دمعني	وأطلقت الدعاء بلا اختصار
لأصبح فوقها طوفان نوح	يجلّ عن السواحل والقرار

الإسكندرية أم الدنيا:

وقال الشاعر يمدح أهل الإسكندرية ويتشوّق إليها:

ألا يا نسيم الريح إن كنت عابراً	على الثغر فاقرري الساحلين سلامي
فوهاً على الإسكندرية كلما	تنكّد عيشي دونها بدوام
ديار بها أحباب قلبي ومنشئي	وقومي من فتیان آل جذام
أسود وغى لا ترتضي نيل مكسب	وإن جلّ إلا من قناً وحسام

يبيتون خمصاً والمطاعم جَمَّةً إذا شيب أدنى ذلّة بطعام
وما الموت إلا الذلّ في العيش عندهم وما العيش إلا غرّة بحمام
إذا شئت أصل المجد والفخر فابغهم وحسبك من شيخ لهم و غلام
يصونون ما تحوي المآزر من ثقى وفضل وما في برقع ولثام
الأهل إلى الإسكندرية أوبةً تبرّد أشواقى وحرّ أوامى
سكنت بها الدنيا فلما تركتها سكنت دفيناً في بطون رجام

تلك هي الإسكندرية بالنسبة لظافر الحداد هي الدنيا وغيرها قبر
وشتان ما بين مالك الدنيا والمدفون بالقبر.

وقال ظافر الحداد أيضاً متغزلاً يصف شوقه وحنينه إلى
الإسكندرية^(١):

برق تألّق من نَعْمَانٍ معترضاً أهاج بين ضلوعي عارضاً عَرَضاً
فظلت أشكو هوى شوقاً كلّمحت به بين الجوانح حرّى تشتكي حرّضاً
ما كنت أول صَبٍّ مات من جَزَعٍ خوف القلى فمضت أيامه ومضى
كم عاشق نال ما يرجو بلا تعبٍ وآخر زاده جور الهوى فقضى
لله من أنا صَبٍّ في محبّتهم ومن بهم كلّ عضو يشتكي مرضاً
قد كان يُغنيهم قلبي ويكلّوهم فلم يجد لهم مذقوضوا عوضاً
ساروا وسار فؤادي نحو سيرهم فكلما ركضوا أجمالهم ركّضاً
في أول القوم شمسُ الحسن يحملها قدّ يَميس بمثل الغُصن فانتفضاً
ممشوقة القدّ خوّد كلّما طرحت سهم الهوى وجدت قلبي له غَرَضاً

(١) ديوان ظافر الحداد، م. س. ص ١٨٦.

وقال الشريف ابن هبة الله العلوي في وصف وداع الأحبة
وخلجات النفس الإنسانية في لحظة الوداع^(١):

ماذا على الأيام لو هي أحسنت أو سامحت بالعيش غير منقص
وأشد ما لاقيت من أحداثها ما قد تجدد في جفاء المخلص
وعد الزيادة قد تطاول عمره حتى مللت ترقبي وتربصي
ما كنت أول مستزيد لم يزد وأنا السعيد اليوم إن لم أنقص
وقال أيضاً:

أغرى به الشوق اللجوج وحرّضاً برق أضاء له على ذات الأضأ
متبسماً منه الغمام كأنما هز القيون به الحسام المنتضى
وعصى الفؤاد سلوه لما غدا طوع الوشاة فصده عنه وأعرضا
هيهات إبراء السقيم من الضنا يوماً إذا كان الطبيب الممرضاً
ما كان لولا حب من سكن الغضا يخشى حشاه لذكره جمر الغضا
زمن مضى فوق المنى فكانه حكم تقاضى حسرة ثم انقضى
خالفت يوم البين حكم جلدي لما قضى فيه الفراق بما قضى
وبمهجتي رشاً أغر بطرفه مرض وصحة طرفه أن يمرضاً
قد صرح الهجران فيه لمدنف خاف الرقيب على هواه فعرضاً
كم يقتضيني الدهر حقي عنده الدين لي وأنا الغريم المقتضى
شعر حملت سواده وبياضه فوجدت أثقل ما حملت الأبيضا
ما إن مدحت سواك إلا رقبة مني لصل حماطة قد نضنضا
فمسحت بالأشعار عطف غرامه وحملت عذر زمانه حتى انقضى

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ١٢٧.

والآن عُدْتُ وكنْتُ عُوْدًا ذَاوِيَا نَبَتًا بِصُوبِ نَدَاكُمُ قَدْرُوضَا
وَحُسَيْدَتٍ مَا شَرَّفْتَنِي بِسَمَاعِهِ حَتَّى تَمْنَى مُفْعَمٌ أَنْ يَقْرُضَا
وَقَالَ الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ حَيَّوْنَ فِي وَصْفِ صَدِيقٍ^(١):

وَلِي صَدِيقٌ مَا مَسَّنِي عَدَمٌ مُذْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى عَدَمِي
أَغْنَى وَأَقْنَى وَمَا يَكْلَفُنِي تَقْبِيلَ كَفِّهِ وَلَا قَدَمِ
قَامَ بِأَمْرِي لِمَا قَعَدْتُ بِهِ وَنَمَتْ عَنْ حَاجَتِي وَلَمْ يَنْمِ



(١) الوافي بالوفيات، ابن أبيك الصفي، الجزء ٢٢، ط ٢، ألمانيا شتوت غارت طبعة جمعية المستشرقين الألمانية، سنة ١٩٩١، ص ٢٧٥.

الرثاء

الرثاء لغة، هو تأبين الميت بكلام جميل يتناسب مع الحالة التي تتطلبه. يقوله الإنسان شعراً أو نثراً للتخفيف من آلام أهل الفقيد ومواساتهم، ويذكر فيه مناقب الميت وشمائله الحسنة التي تكون استمراراً لحياته المعنوية بعد موته الجسدي.

والرثاء ليس نواحاً، بل هو أقرب إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، وهو ضرب من التعاطف والتعاون بين الشاعر والمرثي، حيث يعبر الشاعر بمرثيته عن حزن الجماعة كلها وما فقدته في الإنسان المرثي، وبالطبع سيكون هذا الإنسان شخصاً مهماً في مجتمعه وأهله، ولو كان إنساناً عادياً لما قام الشعراء برثائه.

والرثاء يتراوح بين التعزية، والنواح والبكاء على الميت، وذكر مناقبه ومحاسنه، ويصل بعضهم في مرثياته إلى دخول آفاق فلسفية ومثالية تذكر السامع والمتلقي بأن الموت حق ولا مفر منه.

والرثاء في مصر الفاطمية يختلف عن شعر بقية الأقطار العربية

والعصور الأدبية، كونه امتزج بأبعاد فلسفية ودينية ومذهبية جعلت من رثاء الخلفاء، رثاء للدين والدنيا كلها، وجعلت من رثاء الوزراء رثاء لكفيل الخلافة والإمامة. أما رثاء الناس العاديين، فكان به بحة شجن ورثة ألم، تظهر مدى شفافية الشعراء المصريين وعمق إحساسهم بالألم.

رثاء الأئمة الخلفاء:

بالطبع، سنجد رثاء الخلفاء يتضمن المعاني التي ترفعهم إلى مراتب النبوة وتضعهم في منزلة بين الألوهية والإنسانية وهذا ما لم يرث به أي خليفة من خلفاء بني أمية وبني العباس وسلاطين بني عثمان.

قال الأمير تميم يرثي الخليفة المعز لدين الله:

كيف لا تعدم الجسومُ القلوبا وتري نضرةً الوجوه شحوبا
من يعزّي الجياد أم من يُسلي مجلس الملك والسريير الكئيبا
فقدوا بعدك القلوب اللواتي يغتدي الدمعُ بالدماء خضيبا
فليذقْ غيري الحياة فإني لأرى للحياة بعدك طيبا

رثاء الخليفة الظاهر:

قال ابن حيّوس يرثي الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله:

لو أنّ شامخ قدر رافع قدرا لم يخترم من لإعزاز الهدى ظهرا
أعظم به حدّا أفضى إلى جدّ عرى القلوب من الأوجال حين عرا
رزيةً جلبت نعمى وزند هدى لم يكبُ إلا كرجع الطرف ثم وري

رثاء الخليفة المستنصر:

قال عبد الباقي بن علي التنوخي - حظي الدولة - أبو المناقب
يرثي الخليفة المستنصر^(١):

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى ولا قدره أمر يقاس به أمر
لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر
فأجرى عليه حين مات، دموعنا سماء، فقال الناس لا بل هو القطر
وقد بكت الخنساء صخراً وإنه ليبكيه من فرط المصاب به الصخر
وقلّدتنا المستعلي الطهر حسب ما عليه قديماً نص والدّه الطهر

رثاء الخليفة الظافر:

عندما أقدم الوزير عباس وولده نصر على اغتيال الخليفة الظافر،
قامت نساء قصور الخلافة الفاطمية بإرسال شعورهن في كتب
أرسلوها إلى فارس المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك
يستنجده على عباس وولده وكان من بين هذه الكتب، قصيدة
للقاضي الجليس عبد العزيز بن الحباب يرثي فيها الإمام الظافر
ويستحثّ فارس المسلمين على الإسراع بالقدوم وإنقاذ الخلافة
والإمامة المصرية بقصيدة جاء فيها^(٢):

عدتني عن نظم القريض عوادي وشفّ فؤادي شجوه المتماذي
وأرقّ عيني والعيون هواجع هموم أقضت مضجعي ووسادي
بمصرع أبناء الوصي وعتره النبي وآل الذاريات وصاد

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، ص ٣١١.

(٢) معجم الأدباء، الجزء الثالث، ص ٣٠.

ويقصد بها أن الظافر وأهل بيته، أهل بيت النبي وعترته هم من
تكلم عنهم القرآن وذكرهم في سورتي الذاريات وصاد ويتابع قائلاً:
فأين بنور زُيِّك عنهم ونصرهم ومالهم من منعة وزياد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى وسم العدا من حاضرين وبادي
لقد هُذِرَ كَن الدين ليلة قتله بخير دليل للنجاة وهادي
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس أذنت بنفاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
وقد كاد أن يطفى تآلق نوره على الحق عاد من بقية عاد

رثاء الخليفة الفائز:

قال أسامة بن منقذ يرثي الخليفة الفائز بنصر الله^(١):
هنا بنعمى قل عن قدرها الشكر وصبر الرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الإمام وقام بالإمامة فينا بعده العاضد الطهر
إماما هدى لله في نقل ذا إلى كرامته، وفي إقامة ذا سر
فحش أبدأ وأسلم لهم يا كفيهم تدافع عنهم كل حادثة تعرو
ومن قصيدة لأحمد بن الزبير الغساني الأسواني في رثائه^(٢):
مال لرياض تميل سُكرا هل سُقِّيَتْ بالمزن خمرا
أفكر بلاء بالعراق وكربلاء بمصر أخرى
ويقال إن هذه القصيدة كانت فاتحة العز والجاه عليه.

(١) معجم الأدباء، الجزء الأول، ص ٥٢٢.

(٢) م. س. ص ٥٢٢.

رثاء العاضد:

سنرى أنَّ القصيدة التي رثى فيها الفقيه عمارة الإمام العاضد، ستكون رثاء للدولة الفاطمية ولأيامها الحلوة التي أحس عمارة مسبقاً أنه سيفتقدها وسوف يكون مع الأيوبيين كاليتيم على مأدبة اللثيم. يقول الفقيه عمارة:

أسفي على زمن الإمام العاضد أسف العقيم على فراق الواحد
زمنٌ دُفعت إلى سواه وأذعنت هجمات رأسي في يمين القائد
جالست من وزرائه وصحبت من أمرائه أهل الثناء الخالد
ووجدت من جود الإمام وجودهم للضيف أوثق عاضد ومساعد
لهفي على حجرات قصرِكَ إذ خَلْتُ يا بن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرِكَ الذي كانوا كأمواج الخضمِّ الراكد

رثاء الوزراء الفاطميين المصريين:

إنَّ أغلب الوزراء المصريين ماتوا قتلاً بسبب تقاتلهم وتنازعهم وتناحرهم على هذا المركز، حيث أصبح الحكم بعد الخلفاء الأقوياء وآخرهم الحاكم بأمر الله، أي بدءاً من حكم الخليفة الظاهر، بيد الوزراء. وبدأ الوزراء يتناحرون على هذا المركز لأنَّ الوصول إليه لا يحتاج نصاً إلهياً كالإمامة. لذلك كان الوزير المنتصر يقتل الوزير المهزوم حتى كانت نهاية آخر وزير فاطمي وآخر خليفة فاطمي على يد صلاح الدين الأيوبي.

والملفت في أمر مرثي الوزراء أنَّه لم يقم أي شاعر وهم كثير، برثاء أي وزير مهزوم مقتول، بوجود الوزير المنتصر القاتل إلا

عمارة اليمني، فقد بلغ الوفاء بهذا الشاعر لكل من عاشره من الوزراء المصريين والخلفاء إلى حفر قبره بيده وموته معلقاً على جذع نخلة.

رثاء جعفر بن فلاح الكتامي:

عندما أقدم الأعصم القرمطي على قتل جعفر بن فلاح والي الشام من قبل الخليفة المعزّ لدين الله ودفن في دمشق، وجد مكتوباً على باب قصره الأبيات التالية^(١):

يا منزلاً لعب الزمان بأهله فابادهم بتفرّق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرّة كان الزمان بهم يضرّ وينفع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

رثاء عمارة لآل رزيك:

رثاء الملك الصالح طلائع بن رزيك:

تعتبر قصائد الفقيه عمارة اليمني في رثاء آل رزيك وخصوصاً رثاء الملك الصالح طلائع بن رزيك من عيون القصائد التي يقولها شاعر في رثاء شخص، كذلك قصائده في رثاء أخوته وأولاده ودولته، وهي نموذج فريد من نوعه في الوفاء، من قبل شاعر لم يعرف التقلّب مع الدول، كما لم يعرف نقل بندقيته من كتف إلى كتف. ومما قاله عمارة في رثاء الملك الصالح^(٢):

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، الجزء ٣، ط ١، بيروت، دار الأفاق الجديدة، لا تاريخ، ص ٢٩.

(٢) ديوان عمارة اليمني، الجزء الثاني، ص ٩٧٩.

ليت يوم الاثنين لم تبتسم لي
صَبَحَ المجد في صباح ذلك اليوم
حادث ظَلَّت الحوادث مما
ترجف الأرض حين تخبر عنه
طَبَّقَ الأرض من مصاب أبي الغارات
يا أمير الجيوش هل لك علم
عُطِّلَ المدح والنسيب وقامت
سوف تمضي وحرزنا مستجد
ويَتَجَه لولده رُزَّيك بقوله:

إن مضي كافل فهذا كفيل
دولة صالحية خَلَفَتْهَا
وقال يرثيه أيضاً بقصيدة اعتبرها النقاد من عيون القصائد
نجتزئ منها:

كانَ أبا الغارات لم يُشْنُ غارة
ولا لمعت بين العجاج نصوله
ولا سار في عالي ركائب موكب
ولا مرحت فوق الطروس يراعه
ولا قُسِّمَتَ الحاظه بين مخلص
ولا قام في المحراب والحرب عاملاً
تعجبت من فعل الزمان بنفسه
بم تفخر الأيام بعد طلائع
اتنزل بالهادي الكفيل صروفها
تريك سواد الليل فيه قساطله
ولا طرزت ثوب الفجاج مناصله
ينافس فيه فارس الخيل راجله
كما مرحت فوق السروج صواهلُه
جميل السجايا أو عدو يجامله
من البأس والإحسان ما الله قابله
ولا شك إلا أنه جُنَّ عاقله
ولم يك في أبنائه من يماثله
وقد خيَّمت فوق السماك منازلُه

أناديه قل: كيف شئت فهذه خصائصه ماثورة وخصائله
 سيدبل روض الشعر من بعد يومه فلا عاش ذاويه ولا أخضر ذابله
 دعوني فما هذا بوقت بكائه سيأتيكم طلُّ البكاء ووابله
 ولم لانبكيه ونندب فقده وأولاده أيتامه وأرامله
 ويشبّهه بالإمام علي وحمزة:

وهذا أمير المؤمنين أجل أن يقاس بخلق وابن ملجم قاتله
 وحمزة أودي يوم أحد وإنما بحربة «وحشي» أصيبت مقاتله
 وقال عمارة أيضاً يرثيه ويصف عملية نقل جثمانه من حديقة
 داره إلى مقبرة القرافة:

يا مطلق العبرات وهي غزار ومقيّد الزفرات وهي حرار
 ما بال دمّك وهو ماء سافح تذكي به من حرّ وجدك نار
 عاهدت دمعي أن يقرّ فخانني قلب لسائله الهموم قرار
 ما أوحش الدنيا غديّة فأرقت قطبارحى الدنيا عليه تدار
 نعش الجدود العاثرات مُشيع عميت برؤية نعشه الأبصار
 شخص الأنام إليه تحت جنازة خفضت برفعة قدرها الأقدار
 سار الإمام أمامها فعلمت أن قد شيعتها الخمسة الأطهار
 ومشى الملوك بها حُفاة بعدما حَفّت ملائكة بها أنوار
 فكأنّها تابوت موسى أودعت في جانبيه سكينه ووقار
 لكنّه ماضٍ غير بقية الإسلام وهو الصالح المختار
 أوطنته دار الوزارة ريثما بنيت لنقلته الكريمة دار

ويصف مكان الضريح الجديد بقوله:

حتى إذا شيدتها ونصبته
وتغاير الهرمان والحرمان في
أثرت مصرأمنه بالشرف الذي
وجعلتها أمنأبه ومثابة
ويصف عملية اغتياله فيقول:

غضب الإله على رجال أقدموا
لا تعجبنْ لقد رنا قة صالح
واخلجتا للبيض كيف تطايرت
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
فلكل عصر صالح وقدار
سفها بأيدي السود وهي قصار
وعبيدك السادات والأحرار
الخطي مُتَسِع ولا الخطار

ويشير إلى دفاع صديقه الأمير المكرم علي بن الزبد عن الملك
الصالح، حيث روت كتب التاريخ أنه بقي يدافع عنه حتى شالته
رماح القتلة ومزقته سيوفهم:

ولقد وفي لك من صنائعك أمرو
أوفى أبو حسن بعهدك عندما
غابت حماتك واثقين ولم يغب
لا تسألنْ إلا مضارب سيفه
لقي المنية دون وجهك سافراً
حتى إذا انقطع الحسام بكفه
ألقي عليك وقاية لك نفسه
هي وقفة رزق المكرم حمدها
أحلت دار كرامة لا تنقضي
بثنائه يستمتع السُّمَّار
خذلت يميناً أختها ويسار
فكأنهم بحضوره خضار
فلقد تزيد وتنقص الأخبار
عن غرة لجبينها إسفار
وانفل منه مضرب وقرار
لما انتحتك صوارم وشفار
وعلى رجال لومها والعار
أبدأ وحل بقاتليك بوار

رثاء الوزير شاور:

عندما شاهد عمارة رأس الوزير شاور يحمل على «طشت» يقلّبه
ممالك شاور الخونة قال:

اعزز عليّ أباشجاع أن أرى ذاك الجبين مضرّجاً بدمائه
ما قلبته سوى رجال قلبوا أيديهم من قبل في نعمائه
وفي وصف مقتل الوزير عباس الصنهاجي:

قال الشاعر المصري ابن أسعد، يصف مقتل الوزير عباس
الصنهاجي قاتل الخليفة الظافر^(١):

وأنفق أموالهم في هلاكهم وأظهر ما قد كان عنه ينافقُ
ومدّ يداهم طولوها إليهم وحلّت بأهل القصر منه البوائقُ
سقى ربّه كأس المنايا وما أنقضى له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

رثاء أهل الدولة:

كذلك سنجد مراثي أهل الدولة كمراثي الوزراء، تختلف عن
مراثي الخلفاء، فالصفات المقدّسة التي وصف بها الخلفاء في
مدائحهم هي نفسها تكرّرت في مراثيهم.

(١) الوافي بالوفيات، ابن أبيك الصفدي، الجزء ١٦، ط ٢، ألمانيا، شتوت غارت، طبعة جمعية
المستشرقين الألمانية، سنة ١٩٩١، ص ٦٤٨.

رثاء ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله:

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن أعين الطبيب يرثي السيدة العزيزية^(١):

عجباً للحمّام يفتك صلب الوجه فينا إلا انثنى استحياء
يتحدّى الرجال فقدأ على مرّ الليالي ولا ينسى النساء
لو يردّ البكاء شيئاً بكينا من فقدنا بعد الدموع دماء
أيها الدمع كُفْ أو كِفْ فلو كُفّت عيون ما كان ذاك كفاء
جُلّ هذا المصاب عن قدر صخر غير أنا نرى الوري الخنساء
هل عزاء لفقدنا ما فقدناه وفقداننا عليه العزاء

وهي قصيدة طويلة ينهيها بن أعين بتعزيتة الخليفة الظاهر بقوله:

في بقاء الإمام عمّن فقدناه عزاء فيكشف الغمّاء
حسبنا الظاهر المُبدّل بالضرّاء من حسن رأيه سرّاء
والى الله يرجع الخلق والأمر إليه وخلقه كيف شاء
وأحقّ الأمور لله بالتسليم ما كان منه حتماً قضاء

وهي قصيدة عادية، بل أقل من عادية، خلت من أي معنى مستجد، أو حزن مثير للشجون، علماً أن السيدة العزيزية، كانت الحاكم الفعلي لمصر وللممالك الإسلامية التابعة لها إبان حكم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله.

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٤٧.

رثاء جدة العاضد:

قال الفقيه عمارة يرثي جدة العاضد:

لو كان ينفع أن تجود بمائها عين لجادت أعين بدمائها
لكن خطب الموت أصبح علّة قصرت خطى الآمال دون شفائها
أو ما ترى الدنيا استمرّ خلفها في عهدا حتى على خلفائها
طرقت جناب العاضد بن محمد بفناء من يرجى الغنى بفنائها
ورث النبي سريرة ما في الوري لولاك من ينبيك عن أنبائها
وقد يعزّ عليّ ذكر فقيدة عوّضتها عن مدحها برثائها
لم أرثها بالشعر إلا بعدما أضحى لسان الدهر من شعرائها
غدرت بها الأيام وهي عبدها وكذا الليالي وهي بعض إمائها
يادهر مالك لم تمنّ بوثقها أو لم تكن يادهر من عتقائها
هلا حفظت لها أجذ فضيلة أن الإمام يُعدّ من أبنائها
إن لم تُعدّ من الرجال فإنهم هزّوا قنا الرايات عن آرائها
ومنها:

في كلّ عضو حسرة لفقيدة أضحى بنو الزهراء من أعضائها
شمس بنوك الغرّ بورك فيهم يادرها الهادي نجوم سمائها
أما إذا كان الحمام فريضةً لا بد حتماً من وجوب قضائها
فليهنها أن المنيّة إنما نزلت بها في عزّها وعلائها
وإذا قارنا بين قصيدة بن أعين وقصيدة الفقيه عمارة، فالأولى
تشبه صوت منشار حديدي يقطع في حديدة صدئة، والثانية صوت
عود بيد عوّاد ماهر اتقن صنعته، فحوّل الحزن إلى فرح، والشجن
إلى شجى. فهل سمعت أنّ أحداً هنا الآخرين بالموت غير الفقيه

عمارة. فصور عمارة الشعرية في مرثيته، تنساب انسياً من نبع
رقراق صاف.

الوزير المغربي يرثي صهره الشريف الطالب:

قال الوزير المغربي، أبو القاسم الحسين بن علي في رثاء صهره^(١):
يا ناعي الدين والدنيا أشد بهما من حيث سال بآل الله واديه
هذي معالي قريش غاض آخرها ومجد هاشم زار الترب باقيه
قل يا أبا حسن والقول ذو سعة لولا حجاب من الثرياء يثنيه
هُنيت ربعاً برغم المجد تسكنه تلقى أباك علياً في مغانيه

رثاء أخ الأفضل بن بدر الجمالي:

عندما توفي المظفر أخو الأفضل بن بدر الجمالي رثاه ظافر
الحداد، وعزى الأفضل به بقوله^(٢):
إذا كان عُقبى ما يسوء التصبر فتعجيله عند الرزية أصبر
وغاية أحزان النفوس سلوها فأولى بها تقديمه وهي تؤخر
ولم تعدم الدنيا فقيداً وإن سما ووجهك فيها مشرق النور أزهر
وما قيمة الدنيا قياساً لفعلها حيالك كلاً فهي أدنى وأحقر
وإن كان تأثير الفراق مثيره فقد نال من فارقت ما هو أفخر
غداً في جوار الله حيث يزوره سحابٌ حياً من رحمة الله يهمر
فإن قبروا جثمانه فثناؤه مع الدهر في الأفواه ما ليس يُعبرُ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الثامن، ص ٥١٣.

(٢) ديوان ظافر الحداد والإسكندراني، م. س. ص

بقاؤك يُسلي النفس عن كل فائت وجودك يحيي الهالكين وينشر
سلمت مُفدًى النفوس جميعها وعمرك ممتد الحياة مُكرراً

رثاء الأمير عقيل:

قال الأمير تميم يرثي أخاه عقيلاً:

قسمة الموت قسمة لا تجور كل حي بكأسها مخمور
يستوي كل من تفاوت فيها لا أمير يبقى ولا مأمور
نحن في غفلة وللموت فينا طالب مدرك مُجد قدير
كدر الموت صفو عيش وهل في الأرض عيش ما شابه تكدير
أين آبائي الذين تفانوا وبهم كانت الليالي تنير
أين جدي حسين بن علي أين زيد المفجع الموتور
أين مهدينا المملك والقائم أين المعز والمنصور
أين تلك الجيوش والعزة القعساء والجمع العديد الكثير
فرقتهم يد المنون فبادوا وحوتهم بعد القصور قبور
لم يعيش للمعز نسل سوانا كل ميت بنجله مذكور
فأصاب يد المنون عقيلاً وهو مثل القضيب غص نضير
لم يجاوز حد الثلاثين إلا بليال ليست لها تكثير
صار من بعد ذلك الأنس وحشاً وهو في قعر حفرة مهجور
أه من لوعة لها في سواد العين دمع وفي الفؤاد زفير
كيف يبقى امرؤ تولى أبوه وأخوه فحبله مبتور
فسأبكيك يا عقيل بقلب فيه من حزنه عليك سكير

وقال الأمير تميم يرثي جارية له:

لهفي على مافات من قربها	لهفأله في كل عضو سقام
أنعى إلى الإطراب أخلاقها	ولذة الإيناس يوم السندام
أنعي إلى السعود وأوتاره	ذاك الغنا الجائز حد التمام
أنعي إلى الإحسان إحسانها	وشدوها العذب كسجع الحمام
يا حبذا وصلك لو لم يبن	وحبذا قربك لو كان دام
ما كنت إلا كبدي قُطعت	ومقلتي بانث وقلبي استهام
وكنت قد دافعت عنها العدا	فكيف لي عنك بدفع الجمام
لو كان غير الموت لم يستطع	رميك دوني بجليل العظام

الملك الصالح طلائع بن رزيك يرثي نفسه:

قال الملك الصالح يرثي نفسه (١):

يادهرُ حسبك ما فعلت بنا	أترك تطلب عندنا إحنا
كم نثقيك بكل سابغة	وسهام كيدك تخرق الجفنا
ما تنفع الدرع الحصينة من	عما قليل يلبس الكفنا
كلأولا الأيام تقبل عن	أرواحنا رشوا ولا ثمننا
لوالثرياحل معتصم	منها كان له الثرى وطنا
ولقديهون ما أصابكم	فقد الحسين الطهر والحسنا
وبنيهم إذ طوحت بهم	أيدي زمانهم هنا وهنا
وأرى الأئمة جاردهم	في فعله بهم فكيف أنا
لي أسوة بهم الفداة إذا	أصبحت في الأحداث مرتها

(١) ديوان الملك الصالح، طلائع بن رزيك، م.س. ص ١٦٣.

وقد صدق حدسه وقتل بعد نظم هذه القصيدة.

رثاء الأهل والأبناء والأقارب:

قال الفقيه عمارة يرثي زوجته أم ولده سيف الملك:

نَبَّهْتَنِي حَمَامَةً بِسُحَيْرٍ	عند تغريدها على الأغصان
هتفت بي وقد تحذّر دمعِي	فوق خديّ أحمرّاً كالجمان
زدت همّاً بنوحها فوق همّي	واعتراني حزنٌ على أحزاني
قلت: ماذا التغريد؟ قالت دهاني	في خليلي ريب من الحدثان
قلت: إن كنتِ قد عدمت خليلاً	فأنا قد عدمت ظبية بان
كملت عفة وديناً وفخراً	وبهاء يزهو على كيوان
أصلها طيّبٌ وفرعٌ زكيّ	مورق العود يانع الأغصان
وعدمت السلو واعتضت عنه	زفرات اللهيب والنيران
وخلّت بعدها الديار فأضحت	موطيناً للذئاب والغربان
بعد عهدي بها أنيسة رسم	فرملتها المنون بالشنان
غدرتنا الأيام بعد اجتماع	بددت شملنا من الأوطان
فصغيرٌ باك بقلب قريح	وكبيرٌ ينوح بالأشجان
ويح قلبي لما حدى حادي	الموت وساروا بنعشها للمكان
انزلوها في التراب رغماً برغمي	ثمّ صارت رهينة الأكفان
غَيَّبُوا شَخْصَهَا فغاب صوابي	وبهائي ومهجتي وجناني
كان أنسي بها قديماً وقديماً	كنت أسطوبه على الأزمان
تركتنني فرداً أكابد شبلي	وارد النواح بالالحيان
فسلام عليك ما غرّد الطير	على أيكة من الأغصان

وحباك الإله منه نعيماً دائماً ثابتاً مع الولدان
 في خلود من الجنان مقيم مع حريم النبي مع رضوان
 فبينما الأمير تميم يبكي ما كانت تؤمنه له جاريته من ملذات،
 يبكي عمارة ما تؤمنه زوجته له أيضاً، ولكن ليس الملذات، بل
 ما شرّعه الله في كتابه: السكينة السلوى، الخليفة، كمال العفة
 الدين، البهاء، الأصل الطيب، الفرع الزكي، والعود المورق اليناع
 الأغصان.

وقد أصيب عمارة بفقده أربعة من أولاده: محمد - إسماعيل -
 حسين - عطية، ولكننا لا نملك معلومات تشير إلى أيهم الأكبر.

قال عمارة يرثي ولده محمداً:
 سأبكي على ابني مدّتي وحياتي ويبكيه عني الشعر بعد مماتي
 وأقطع أيامي عليه بلوعة تعبّر عن مكنونها عبراتي
 وكنت أرجي أن يكون محمداً ذخيرة أمالي وكنز حياتي
 ونعلم من المروثة أنه كان له من العمر ستة عشر ربيعاً:

وما عشت إلا ست عشرة حجة	سقى عهدن الله من سنوات
محمداً لا تبعد فإن حشاشتي	تكدر صافيتها بقرع صفاتي
لقيت الردى مستبشراً غير أنه	لقاء رمى شملي بسهم شتات
ووارحمتا بل حسرتا النواظر	سرت بيننا مخذولة النظرات
وما زلت أرجوه إلى أن رأيته	على الرغم مني ساكن الحركات
فقبلت وجهاً كان لي منه قبلة	أصلي إليها من جميع جهاتي
وآليت لا أسلوه حتى أزوره	وإن قريباً كل ما هوأت

وقال يرثيه أيضاً:

فيا ولدي ويا كبدي تَيَقَّنْ بأن أباك مغلوب اليقين
اسلّي النفس عنك وكيف أسلو وبني ظمأ إلى العذب المعين
كأنك يا محمد لم تدافع صدور نوائب الأيام دوني
رزقتك بعد إدراكي بعام فلم تبعد سنينك عن سني
وفي هذا البيت إشارة إلى أن محمد هو ولده البكر. وقال يرثي
ولده إسماعيل:

حسبت الدهر في ولدي يساعدني ويسعدني
أو الأيام تنعشه من الأسقام والمحن
وأن الموت يمهلني ويحنولي ويرحمني
سأبكي ما استطعت على بُنْيَّيْ كان يالفني
فصار مجاور الديماس رهن اللحد والكفن
فكم دهري يعاندني ويفضحني ويثكلني
فيا ويلي ويا حربي ويا همّي ويا حزني
وليت الموت عاجلني وليت الدهر أهلكني
ولم أره على الأعواد مرتحلاً عن الوطن
فهّمّي قد برى جسدي واضناني وانحلني
إلى إسماعيل أشواقي تزيد على مدى الزمن
وإسماعيل لي شغل عن اللذات يشغلني
وإسماعيل لا أسلوه حتى الموت يصدعني
سأبكيه وأنديه بنوح زائد الشجن

ومن قصيدة ثانية يرثيه فيها، نعلم أنه كان له من العمر سبع سنوات:

ترحلت إسماعيل عناقاً وحشت منازلنا مأهولة العرصات
وما عشت إلا سبعة من سني الوري سقى عهدهن الله من سنوات
فوارحمتا بل حسرتا لفراقه ويا أسفي لو اشتفي بأساة
سابكي عليه ما ترنم طائر وما غرّد القمرى على شجرات
وقال يرثي ولده حسين ويبدو أنه كان مريضاً طال مرضه:

حرت في طبه وحرار الأطباء وخابت ظنوننا للاماني
من مداواته ولم يقف الداء ولم ينجح الدوا في آوان
لهف نفسي غداة سار إلى الترب وقد رخلوه عن أوطاني
يا خليلي ساعداني بنوح أو بدمع فلا تعذلاني
واندباه عنى فقد كل فكري والمرائي ملّت حديث لسانى
كل عام للموت عندي نصيب في سراة البنين والإخوان
وقال يرثي ولده عطية:

عطية إن ذقت طعم الحمام فإن فراقك عندي أمر
هو كوكب منك بعد الطلوع ذوى غصن منك بعد الثمر
ولو لم تكن قمرأ زاهراً لما مت عند خسوف القمر

وفي قصيدة ثانية نعلم أن عطية هو آخر ولد مات من أولاده:

عطية إن صادفت روح محمد أخيك وصنويك العليين من قبل
فسلم عليهم - لا شقيت - وقل لهم سقيت أباكم بعدكم جرعة الثكل
وأنى أرى أولاد غيري حسرة فأبكي على نسلي وفقدان ما يسلي

أدب الطفّ

الطفّ هو المكان الذي قتل فيه الحسين بن علي (ع) في كربلاء. لذلك أطلق مؤرّخو الأدب على الشعر العلوي الهاشمي مصطلح أدب الطفّ، حيث أنّ أي قصيدة ترثي أهل البيت، يجب أن تذكر مقتل الحسين وبنيه (ع). لأنّ فاجعة كربلاء وشهداء الطفّ شكلوا المنعطف التاريخي في الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي، وأصبح الخروج على الظلم والظالمين في كلّ زمان ومكان وفي كلّ عصر ومصر واجباً على المسلم الشيعي الإمامي، وبه يكتمل دينه.

قال ابن هاني الأندلسي يرثي أهل البيت في معرض مدحه للخليفة المعزّ لدين الله:

الآن يوماً هاشمياً أظلم	يُطيرُ فراش الهام عن كلّ مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة	على كلّ موار الملائع عثمت
وقد غصّت البیداء بالعين فوقها	كرائم أبناء النبي المكرم
فما في حريم بعدها من تحرّج	ولا هتك ستر بعدها بمحرّم
فإن يتخرّم خير سبطي محمّد	فإنّ وليّ الثار لم يتخرّم

الاسائلوا عنه البتول فتخبروا اكانت له اماً وكان له ابنم

ويشير إلى ما تبقى من الامويين في الاندلس فيقول:

ولم يبق منهم غير فقع بقرقر اذل من العفر الذليل وارغم
اناس هم الداء الدفين الذي سرى إلى رمم بالطف منكم واعظم

وقال الامير تميم ابن الخليفة المعز لدين الله يرثي اهل البيت في

قصيدة منها:

ثوت لي اسلاف كرام بكر بلا هم لثغور المسلمين سداد
اصابتهم من عبد شمس عداوة وعاجلهم بالناكثين حصاد
فكيف يلذ العيش عفواً وقد سطا وجار على آل النبي زياد
وقتلهم بغياً عبيد وكادهم يزيد بأنواع الشقاء فبادوا
بثارات بدر طالبوهم ومكة وكادوهم والحق ليس يكاد
فحكمت الاسياف فيهم وسلطت عليهم رياح للنفاق جداد
فكم كربية في كربلاء شديدة دهاهم بها للناكثين كباد

ويتوجه للمسلمين بقوله:

الم تعظموا يا قوم رهط نبيكم أمالكم يوم النشور معاد
تداس بأقدام العصاة جسومهم وتدوسهم جرد هناك جباد
تضيمهم بالقتل أمة جذهم سفاهاً، وعن ماء الفرات ثداد
فماتوا عطاشاً صابرين على الوغى ولم يجبنوا بل جالدوا فاجادوا
ولم يقبلوا حكم الدعي لأنهم تساموا وسادوا في المهود وقادوا

ويصف كربلاء بعد المجزرة التي حلت بأهل بيت النبي فيقول:

وكم بأعالي كربلاء من حفائر بها جثث الأبرار ليس تعاد

بها من بني الزهراء كلّ سميدع
 فلهفي على قتل الحسين ومسلم
 تساق على الإرغام قسراً نساؤهم
 يعزّ على الزهراء ذلّة زينب
 وقرع يزيد بالقضيب لسنّه
 ويخاطب بني أمية بقوله:

متى كان يوماً صخركم كعليّهم
 متى أصبحت هند لفاطمة الرضا
 وقال يرثيهم أيضاً:

أوما ترى بالبغّي ما
 الغاصبين الواثبين على
 كفروا برّب محمد بنغيّاً
 وشفوا بسبطيه الحقّود
 ونسوا مقال نبيّهم
 من كنت مولاه فقد
 أفضت إليه بنو أمية
 ابن فاطمة الزكيّة
 فما حفظوا نبيّه
 وحاربوا ظلماء وصيّيه
 وهو المعدّل في القضيّه
 أضحى أبو حسن وليّه

ويصف مقتل الإمام الحسين فيقول:

جلّت بسفك دم الحسين
 ماذا أبيع بكر بلاء
 قتلت أميّة هاشماً
 بحقود بدر طالبوهم
 خذلوا النبيّ بقتلهم
 هدموا الشريعة والشريعة
 وقتله عندي الرزيّه
 من النفوس الهاشميّة
 أعظم بذلك من بليّه
 والدماء المشركيّة
 وتعصّبوا للجاهليّه
 غضة المسبدا طريّه

لم تسخف عن رب البرية من فعالهم خفيه
ما عذرهم يوم النشور إذا تحاكت البرية
واتى النبي مطالبأبدم ابن فاطمة الرضيه
ودم الحسين على البتول وعينها منهابكيه
نحروه غير مزمم نحر الهدايا للضحيه
في كربلاء وجود بالنفس المعطشة الصديه

ويصف وصول السيدة زينب مسبية مع نساء بني هاشم
وأطفالهم ورأس الحسين على رمح فيقول:

حتى إذا جاءوا يزيد بهن واحتضروا نديه
أبدى الشمات وقال ثارات الرجال العبشميه
اعزز علي وقوفهن ثواكلاً فوق المطيه
والرأس ملقى وهو يقرع بالقضيب على الثنيه
يا عين جودي بالدموع على مصاب الفاطميه

ويحرّض والده الخليفة المعزّ وجيوش مصر الفاطمية بأخذ الثار
من بني أمية في الأندلس ومن العباسيين في بغداد فيقول:

آليت لا ذقت المنام ولا اضطجعت على هشيّه
حتى أزور أمية في كل بلقعة قصيه
وأذيقهم كأس المنية بالغدوّ وبالعشيّه
حتى أقوم بثأر آبائي من العصب الشقيه

ويتلهّف عليهم ويشتم عبيد الله بن زياد فيقول:

لهفي على النفر الذين مضوا ولم يبقوا بقيه

ذاقوا الردى وتخزّموا بيد الدعى ابن الدعى
بيد الغويّ ابن الغويّ ابن الغويّ ابن الغويّ
الناقضين الناكثين على الشريعة والبريّة

وقال المؤيّد في الدين يحرّض المصريين على الأخذ بثأر
الحسين عندما قام الخليفة العباسي.. بحفر قبره^(١):

ألا مال هذي السما لا تمور ومال الجبال ترى لا تسير
يرومون آل نبيّ الهدى ليردى الصغير ويفنى الكبير
ويُسعر بالنار فيه حريم حرام على زائريه السعير
وتقتل شيعة آل الرسول عتواً وتُهلك منهم ستور
فوا حسرتا النفوس تسيل ويا غمّاً الرؤوس تطير
أيّا شيعة الحقّ: طاب الممات فيا قوم: قوموا سرا عاً نثور
اتُهلك حرمة آل النسبيّ وفي الأرض منكم صبيّ صغير
وقبر ابن صادق آل الرسول يُمسّ بسوء وأنتم حضور
فهذا لكم عاد يوم الحسين لماذا القصور وماذا الفتور
فمدوا الذراع وحدّ والقراع فيوم النواصب منكم عسير
وولّوا «ابن دمنة» أعماله تبور كما المكر منه يبور
فقتلاً بقتل وثكلاً بثكل ذروه تجرّ عليه الشعور
اتّظلم من رأينا شيعةً وفيها سراج الإله المنير
ويهدّد العباسيين بقوله:

فقل لبني البغي لا تعجلوا فقد آن للأرض منكم طهور

(١) ديوان المؤيّد في الدين، م.س. ص ٢٥٦.

مراثي الملك الصالح طلائع بن رزيك لأهل البيت:

يرى المطلع على ديوان الملك الصالح طلائع بن رزيك أنه ينقسم إلى ثلاثة عناوين: شعر الطفّ أو مراثي أهل البيت، ووصف مصائبهم ومقاتلتهم، والقسم الثاني، يختص بشعر الحرب والجهاد في سبيل الإسلام، والثالث في الزهد. وقد أوردنا نماذج من شعره العسكري، ونورد الآن نماذج من شعره الطالبّي.

ففي إحدى قصائده يصف ما حلّ بالحسين وصحبه (ع) في موقعة الطف^(١):

حملوا رؤوسهم الكريمة فوق أطراف الرماح
وحملوا عليهم من جهالتهم حمى الماء المباح
والخمري كرع بينهم فيها الدعي من السفاح
وفي قصيدة ثانية يقول:

هذا الحسين بكر بلاء ثوى وليس له نصير
وبنو أمية آمنون تدور بينهم الخمرور
لهفي لصرعى في رجالهم وشيعتهم حضور
وطئت ظهورهم ورُضْتُ بالخيل لهم صدور
قتلوا الحسين وما استتبت بعده لهم الأمور
وقال الملك الصالح أيضاً:

في كربلاء ثوى ابن بنت رسول رب العالمينا
قف بالضريح وناده يا غاية المتوسلينا

(١) ديوان الملك الصالح، م.س. ص ٧١.

مولاي جسمك ضرّجته دما سيوف الفاسقيننا
لهفي عليك وحسرتي تبقى على مرّ السنينا
يامن أقرّ بفضلّه أهل العداوة مذعنينا
هل غيره قد كان يدعى الصادق البر الأمينا
أو كان غير أبيك يُدعى الأنزع الهادي البطينا
أكون في الحزب الشمال واترك الحزب اليمينا

النائبين العابدين الصائمين القائميننا

العالمين الحافظين الراكعين الساجديننا

ولقد عرفت حقوقكم وعرفت قوماً غاصبيننا
وجعلت دأبي ثلّ بهم حتى أرى ميتاً دفيننا
يامن إذا نام الوري باتوا قياماً ساهريننا
إنّ الذي أعياى طلائع فيكم أعياى القروننا
وقال الملك الصالح أيضاً يرثي شهداء الطفّ في كربلاء:

ماللمنازل لا تبين حتى ولا أضحت تبين
جفّ الثرى إذ خفّ من عرصات هاذك القطين
وأنا الحزين عليهم أقربهم، أيضاً حزين...؟
أم هذه الأشجان فينا كالحديث لها شجون
ولأن بكّت تلك الربى فمن العيون لها عيون
نعم المعين على تتابع دمعها الماء المعين
لولم تحن أسى لما اش تقّت من الحزن الحزون
وبكّت حمائم لا تكاد هنا ك تحملها الغصون
وُزّق مفجّعة لها بالنو ح بعودهم لحوون
وتكاد أصلاد الصخور لفرط رقّتها تلين

وترى الريح لها إذا
وترى الريح لها إذا
وإذا تهب جنوبها في
ما الشأن إلا أن بعد
كانت أمور فيهم
فكانهم آل النبي وقد
في يوم عاشوراء لما
وغدت مناهم حين
لم يقبلوا عهد الجيش
ورأوا جميعاً أن إعطاء
وتيقنوا، أن الحياة
لهفي على قتلى أبيح بهم
ما فيهم إلا صريع
غدر الخؤون بهم هناك
وخلت ديارهم، كما يخلو
فعفا الصفا من بعدهم
والركن صدعه لعظم
والقبر منذ الفتك فيهم
يا عاذلي رفقاً فإنك
كم ذا تُهَوَّن من جليل
فارفض عداهم إن غدوت
إن البراء من الأعادي
يا بقعة (بالطف) حشو

مرت بأيكتها أنين
مرت بأيكتها أنين
عصفها فلها جنون
فراقهم حدثت شؤون
ما خلُّتها أبداً تكون
أبادهم اللعين
خانهم دهر خوون
عزوا أن تصيبهم المنون
للنفاق به كمين
اليسمين لهم يمين
الظن، والموت اليقين
حمى الدين المصون
بالصوارم أو طعين
ولم يف الثقة الأمين
من الأسد العرين
وبكال فقدهم الحزون
مصائبهم داء دفين
ما الساكنه سكون
فيهم عندي ظنين
مصائبهم ما لا يهون
بدين جدتهم تدين
للولاء لهم قرين
ترا بهادنيا ودين

من هو الإنسان المصري الفاطمي:

الجواب في قصيدة الملك الصالح. يقول الملك الصالح طلائع بن رزيك يعرف عن نفسه^(١):

أنا من شيعة الإمام علي	حرب أعدائه وسلم الولي
أنا من شيعة الإمام الذي ما	مال في عمره لفعل دني
الإمام الذي تخيره الله	وبلامرية أخا النبي
قسماً ما وقاه بالنفوس لما	بات في الفرش عنه غير علي
ولعمري إذا حل في يوم: خم	لم يكن موصياً لغير الوصي
المُبَرِّئ من كل عيب وريب	والمُسَوِّى بغير نقص وعي
يا ضعيف اليقين أن اعتقادي	في «علي» على يقين قوي
ذكر آل النبي عندي البشري	وذكر سواهم كالنعي
قد جرى حبهم بجسمي كما	احتلت مجاري الرضاع جسم الصبي
من دعاني إلى الأئمة أسرعت	إليه ولم أكن ببطي
فاجتل الآن من نظم ابن رزيك	حلياً يفوف نظم الحلي

وقال الشاعر عبد المحسن الصوري في رثائهم أيضاً^(٢):

١- وَلَاؤُكَ خَيْرٌ مَا تَحْتَ الضُّمِيرِ	وَأَنْفُسُ مَا تَمَكَّنَ فِي الصُّدُورِ
٢- وَهَذَا نَابِتٌ أَحْسِسُ مِنْهُ نَاراً	أَمِنْتُ بِحَرِّهَا نَارَ السُّعِيرِ
٣- أَبَا حَسَنِ تَبَيَّنَ غَدْرُ قَوْمٍ	لِعَهْدِ اللَّهِ مِنْ عَهْدِ (الْغَدِيرِ)
٤- وَقَدْ قَامَ النَّبِيُّ بِهِمْ خَطِيباً	فَدَلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأَمِيرِ

(١) ديوان طلائع بن رزيك، م.س. ص ١٧١.

(٢) ديوان عبد المحسن الصوري، م.س. ص ١٨٦.

- ٥- أشار إليه فيه بكل معني
٦- فكم من حاضر فيهم بقلب
٧- طوى يوم الغدير لهم حقوداً
٨- فيالك منه يوماً جرّ قوماً
٩- لا مرسؤلته لهم نفوس
١٠- ولست من الكثير فيطمئنون
- بَنُوهُ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمُشِيرِ
يُخَالَفُهُ عَلَى ذَاكَ الْخُضُورِ
(أَنَالَ) بَنَشْرَهَا يَوْمَ الْغَدِيرِ
إِلَى يَوْمِ عَبُوسٍ قَمَطِرِيرِ
وَعَرَّتْهُمْ بِهِ دَارُ الْفُرُورِ
بِأَنَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرِ

الفقيه عمارة اليمنى المسلم السنّي يرثى أهل البيت:

المشكلة في محبة أهل البيت هي عند المسلمين الشيعة وليست عند المسلمين السنة، فالسنة يحبون أهل البيت ويعظمونهم ويعتبرون ما جرى لهم ونزل بهم من مصائب هو جزء من التاريخ، يجب تناسيه لأن في إعادة بحثه و«بحشه» إعادة للإحن والبغضاء بين المسلمين، بينما يرى المسلمون الشيعة أن التذكير بهذه الويلات والمصائب، هو تذكير بالظلم في كل زمان ومكان، ويجب إعادة صياغته وتصويره لكي يكون حافزاً لكل مسلم، وأينما وجد، للثورة على الظالمين، لذا يعتبرون عدم ذكر هذه المصائب هو موافقة عليها ومن ثم عدم الاعتراف بأحقية أهل البيت في الإمامة والخلافة.

ولكن عمارة اليمنى رثى أهل البيت بأروع القصائد وأجمل الكلم.

يقول الفقيه عمارة في قصيدة منها^(١):

غصبت أمة إرث آل محمد سفهاً وشنّت غارة الشنآن

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز، م. س. ص ٢٧.

وغدت تخالف في الخلافة أصلها وتقابل البرهان بالبهتان
لم تقتنع أحلامها بركوبها ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم في رتبة نبوية لم يبنها لهم أبو سفيان
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم أخذوا بثار الكفر في الإيمان

وفي هذا البيت إشارة لتمثل يزيد بن معاوية بقول ابن الزبير:
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
وتابع عمارة قائلاً:

حزب بنو حرب أقاموا سوقها وتشبّهت بهم بنو مروان
لهفي على النفر الذين أكفهم غيث الوري ومعونة اللفان
أشلاؤهم فرق بكل ثنية وجسومهم صرعى بكل مكان
مالت عليهم بالتمالي أمة باعت جزيل الربح بالخسران

رأي شيعة مصر الفاطمية بالخلاف الشيعي السني:

لم يكن شيعة مصر الفاطمية، كما اتهمهم مؤرخو الأكراد، بالغلو
والخروج عن الملة الإسلامية. وكلّ التهم التي ألصقوها بالمصريين،
كانت حجةً وسبيلاً لنهب مصر وخيراتها.

يقول المؤيد في الدين هبة الله، داعي دعاة الدولة الفاطمية^(١):

ياسائلاً تسأل عني أعلم بأنني رجل سني
أحب أصحاب نبي الهدى دينني على حبهم مبنني
صديقنا الطهر وفاروقنا مثل سواد العين في عيني

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، م.س. ص ٢٨٨.

دعني من الرفض وأصحابه إنني بريء منهم دعني
هذا طريق الرشدا لا غيره إن كنت تبغي الرشدا فاتبعني
وقال أيضاً^(١):

برئت من الهبل الأول ومن أدلم بعده أحول
ومن نعثل وبني جنسه جميعاً ومن ربّة المحمل
ومن ناصب غاصب للحقوق ورافضة قد طغوا في «علي»
وحب الصحابة لي معقل فمادونه لي من معقل
ولائي صدق لصديقنا وفاروق أمتنا الأفضل
أرى الخير والشر من ربنا وأعرض عن حجة المبطل
برئت من الرفض والاعتزال وصرت من النصب في معزل
فيارب زدني هدى مع هداي بجاه محمد المرسل

مركز تقيت كويت بر علوم سعودي

رثاء الدولة الفاطمية:

لقد عرف الإسلام العديد من الدول بدءاً من دولة بني أمية
ومروراً بدولة بني العباس، وبالدول التي تفرّعت منها وسيّرت
أمورها، كالدولة البويهية والسلجوقية والصفارية والسامانية
والغزنوية، والحمدانية والطولونية، والدولة الأيوبية والدولة
المملوكية والدولة العثمانية. فلم نجد شاعراً واحداً رثى دولة من
هذه الدول، باستثناء القصائد التي قيلت في رثاء إقليم الأندلس،
فهي لا تعتبر رثاء لدولة، بل رثاء لحضارة وأمة ودين. والقصائد

(١)

التي قيلت في رثاء أحمد بن طولون وكافور الإخشيدي هي قصائد رثاء لحكام وليست لحضارة دولة أو دولة. بينما نجد أن مصر الفاطمية هي الدولة الوحيدة التي رثاها الشعراء، رثوا فيها المؤسسات ونظام الحكم، رثوا فيها الحرية الدينية، أو بمعنى آخر رثوا فيها حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي، فالحضارة، هي نمط عيش ومؤسسات، وعندما يقوم الشعراء برثاء المؤسسات ونمط العيش، يعني ذلك رثائهم لحضارة الدولة.

رثاء عمارة اليمني للدولة الفاطمية:

قال الفقيه عمارة يرثي الدولة الفاطمية ويصف حصار الغزّ الأكراد لقصور الخليفة العاضد وكيف بدأوا بنهبها^(١):

قلب الزمان على الخلافة قاسي ما للزمان جرى بغير قياس
قُطعت يد أضحت قصوركُم بها مهجورة بعد الندى والباس
هذي حصون الروم عطل غزوها وغزت دياركم بنو العباس
حتى متى لا ينتهي عن ظلمكم أبدأ وما الجراحكم من آسي
أسفي لملك عاضدي عطلت حجراته بعد الندى والباس
أخذت بنان «الغز» من أمواله ورجاله بمخانق الانفاس
وعسى الليالي أن ترد زمانكم لدنا كعود البانة الميَّاس
أبني عليّ والبتول وأحمد وكواكب الدنيا وخير الناس

(١) النكت العصرية، ص ٢٨١.

إذا أردت أن تندب فاندب أهل القصور:

وقال الفقيه عمارة يندب خلفاء بني فاطمة^(١):

لا تندبُن ليلى ولا أطلالها يوماً إذا ظعنت بها أجمالها
واندب هُديت قصور سادات عَفَت قد نالهم ريبُ الزمان ونالها
درست معالمها لدرس ملوكها وتغيّرت من بعدهم أحوالها
وإذا مررت بربعهم فلتبكههم واسأله عن نسوانها ورجالها
فلسان حال الربع يخبر أنّهم أقلّت كواكبهم وغاب هلالها
كانوا إذا نزل العفاة ببابهم جادوا لها بالمال قبل سؤالها
وإذا انتضوا أسيافهم يوم الوغى كانت لها الهامات غمد نصالها
أنبا عليّ في الورى مشهورة بالبأس والتقوى وبذل نوالها
يادهرُ إن هُدمت قواعدُ مجدهم فلهم من العليا رؤوس جبالها
لهم الإمامة والخلافة بعدها صلحت لهم حقاً وهم أكفالها
وقال يرثي الدولة مفضلاً ظلّها في الدنيا والآخرة على ظل الدولة
الأيوبية^(٢):

لما رأيت عراض القصر خالية عن الأنيس وما في الربع ساداتُ
أيقنت أنّهم عن ربعهم رحلوا وخلّفوني وفي قلبي حزازاتُ
ساءلتُ أبله قلبي في السلو وقد يقال للبله في الدنيا إصاباتُ
فقال: رأي ضعيف لا يطاوعني كيف السلو وأهل الفضل قد ماتوا
ياربّ إن كان لي في قربهم طمع عجل بذاك فللتسويف آفاتُ

(١) ديوان عمارة اليعني، الجزء الثاني، ص ٨٥٩.

(٢) ديوان عمارة اليعني، الجزء الأول، ص ٢٧٣.

رثاء الدولة الفاطمية ومؤسساتها وحضارة مصر أيام الفاطميين:

قال الفقيه عمارة يرثي الدولة الفاطمية ومؤسساتها وحضارتها^(١):

– في رثاء حضارتهم:

رميت يادهرُكفَ المجد بالشَّلَلِ	وجيده بعد حسن الحلي بالعطلِ
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سُقيت مهلاً ألا تمشي على مَهَلِ
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة	على فجيعتها في أكرم الدولِ
قوم عرفت بهم كسب الألف ومن	كمالها أنها جادت ولم أسلِ
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة	لك الملامة إن قصُرت في عذلي
بالله زرساحة القصرين وابكِ معي	عليهما لا على صَفَيْنِ والجملِ
وقل لأهليهما: والله ما التحمت	فيكم جروحي ولا قرحي بمندملِ
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة	في نسل آل أمير المؤمنين علي
مررت بالقصر والأركان خالية	من الوفود وكانت قبلة الدولِ
فملت عنه بوجهي خوف منتقد	من الأعادي ووجه الود لم يملِ
أسبلت من أسفي دمعي غداة خلت	رحابكم وغدت مهجورة السُّبُلِ
أبكي على ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهي لم تُحُلِ

في رثاء المؤسسات:

«دار الضيافة» كانت أنس وأفدكم واليوم (أو حش) من رسم ومن طَلَلِ
ويقصد بدار الضيافة قصر الضيافة الذي كان الفاطميون ينزلون
فيه سفراء الدول والأمراء الضيوف وكبار التجار.

(١) الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص

و «فطرة الصوم» إن أصغت مكارمكم

تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
ويقصد بها مؤسسة دار الفطرة التي كانت مهمتها، جباية فطرة
الصوم من الناس وتصنيع الحلويات على أنواعها طيلة ثلاثة أشهر،
رجب - شعبان ورمضان - والتوزيع يتم على أهالي القصور ودار
الوزارة والموظفين وعامة الناس وكانت الصواني والصدور
والجامات التي توزع بها الحلوى لا تعاد، بل تبقى مع الحلوى.

«وكسوة الناس» في الفصلين قد دُرست

ورث منها جديد عندهم وبلي
ويقصد بكسوة الناس هي، «رزم» الثياب التي كانت توزع على
كل موظفي الدولة ومجاوري الجوامع والأنصار والمحازبين كجزء
من الراتب. وكانت الدولة توزع ثمانين رزم ثياب في السنة. وكل
رزمة تحتوي على البسة كاملة (رجالي - ولادي - نسائي) - لجميع
أفراد العائلة، اثنان على حساب بيت المال - وست رزم على حساب
سهم الإمام أو من حساب قصور الخلافة بمناسبة الأعياد الستة:

رأس السنة الميلادية - عيد الغدير - عيد الفطر - عيد الأضحى
رأس السنة الهجرية - عيد مولد الخليفة.

وموسم كان في «يوم الخليج» لكم

يأتي تجملكم فيه على الجُمَل
والمقصود بيوم الخليج، هو يوم الاحتفال بفتح السدود حول
عمود مقياس ارتفاع النيل، وقد كانت هذه الاحتفالات تدوم أربعة
أيام، تنصب فيها خيمة القاتول والخيمة المدورة ويوزع فيها الخلفاء

والأمراء على الشعب المصري مالا وكسوات والمطيبات وهبات. أقل ما يمكن أن يقال أنها كانت لا تعد ولا تحصى لكثرتها.

و«أول العام» و«العيدين» كان لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل والأرض تهتز في «يوم الغدير» لما يهتز ما بين قصرىكم من الأسل والخيل تعرض في وشي وفي شية مثل العرائس في حلي وفي حلل وهو يصف المواكب الاحتفالية واستعراضات الجيوش والخيل التي كان يقوم بها الخلفاء الفاطميون.

ويصف كرمهم فيقول:

ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الأطباق إلا على الأكتاف والعجل أي أنهم كانوا يوزعون الأطعمة على الأكتاف وعلى العربات لكثرتها.

رواتب شهرية للمسلمين وللنصارى واليهود:

ولا خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم بها الأقصى من الملل كانت رواتبكم للذمتين وللضيف المقيم وللطاري من الرسل

مصانع الغزل والنسيج في تنيس توزع على كل أهل الأرض:

ثم «الطراز» بتنيس التي عظمت منه الصلات لأهل الأرض والدول

عمارة اليمنى يعرف أن في هذه القصيدة مقتله:

وقال عمارة في نهاية رثائه الدولة الفاطمية وحضارتها ومؤسساتها متنبئاً بأنه سيقول بسبب هذه القصيدة:

و«للجوامع» من أحباسكم نعم لمن تصدرفي علم وفي عمل وربما عادت الدنيا بمقلتها منكم وعادت بكم محلولة العقل

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا استقى الماء من حرّ ومن ظمأ ولا رأى جنة الله التي خلقت أئمتي وهداتي والذخيرة لي تالله لم أوفهم في المدح حقهم باب النجاة هم دنيا وآخره أئمة خلقوا نوراً فنورهم والله لا زلت في حبّي لهم أبداً «عمارة» قالها المسكين وهو على وقد قتل صلاح الدين الأيوبي الفقيه عمارة اليميني بتهمة تدبير انقلاب لإعادة الحكم الشيعي الفاطمي إلى مصر.

أسباب مقتل الفقيه عمارة:

يصف المقرئ مقلّ عمارة فيقول^(١):

وفيها (سنة ٥٦٩ هـ) اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد، وأن يفتكوا بصلاح الدين، منهم، القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله، والشريف الجليس، ونجاح الحمامي، والفقيه عمارة بن علي اليماني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي سلامة العوريس متولّي ديوان النظر، ثم القضاء، وداعي الدعاة عبد الجبار ابن إسماعيل ابن عبد القوي، والواعظ زين الدين بن نجا. فوشى بن نجا بخبرهم إلى السلطان صلاح الدين، وسأله في أن

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، ص ٧٥.

ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعي من الدور والموجودات كلها فأجيب إلى ذلك. فشئق عمارة وصلب فيما بين بابي الذهب وباب البحر^(١). وشنقهم صلاح الدين كلهم وصادر كل أملاكهم وعقاراتهم، ولم يُمكن ورثتهم من شيء البتة. ثم تتبّع من له هوى في الدولة الفاطمية، فقتل منهم الكثير وشرّد الباقي، ومن وقع بالأسر، كوى وجهه وصدره بالنار.

وقال العماد الأصفهاني عن سبب قتله:

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني. وفد إلى مصر من زمن الفائز، وأقام بها إلى أن نكب فعطب، وهو بمرامه فائز. أمر بصلبه في القاهرة صلاح الدين، في شعبان سنة ٥٦٩ هـ في جملة الجماعة الذين نسب إليهم التدبير عليه. وكانوا أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر (كردي شامي)، فحضر عند صلاح الدين وأخبره بما جرى. فأحضرهم فلم ينكروا، ولم يروا الأمر منكراً، فقطع الطريق على عمر عمارة، وأعيض بخرابه عن العمارة ووقعت اتفاقات عجيبة في قتله، فمن جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه يقول فيها:

قد كان أول هذا الدين من رجلٍ سَعُوا إلى أن دَعَوْهُ سَيِّدَ الْأُمَمِ
ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرّضوا السلطان على التمثيل بمثله. ومنها أنه كان قد هجا أميراً كبيراً (كردياً)، فعَدّوا ذلك من كبائره. وجَرُّ عليه الردى في جرائمه وعمل فيه تاج الدين الكندي أبو اليمن بعد صلبه:

(١) م. س. نفسه، ص ٧٥.

عُمارة في الإسلام أبدى خيانة وبائع فيها بيعة وصليبا
فأمسى شريك الشرك في بغض أحمد وأصبح في حبّ الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ويسقى صديداً في لظى وصليبا

ومن الخائن يا ترى؟ أبو اليمن ابن الكندي أم عمارة؟؟؟.

ومن المنافق؟، لو كان عمارة وهو المسلم السني الشافعي يعرف
النفاق لكان نافق على صلاح الدين كما نافق القاضي الفاضل
علي بن عبد الرحيم البيساني وكما نافق تاج الدين الكندي.

وكانت تهمة الخروج عن الدين والملة جاهزة في جعبة
صلاح الدين، يلقيها على كل من يريد قتله وإسكات صوته، فكما
رمى عمارة بها، رمى الفقيه السهروردي وقلته أيضاً^(١).

رأي الحافظ بن كثير بمقتله: *مركز تحت كعبه*

قال الحافظ ابن كثير^(٢):

أبو محمد الملقب بنجم الدين اليمني الفقيه الشاعر الشافعي،
وسبب قتله أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا
فيها حكاماً، فاتفقوا فيما بينهم أن يردّوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى
الفرنج يستدعونهم إليهم، وعيّنوا خليفة من الفاطميين، ووزيراً
وأمرأ، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك. ثم اتفق مجيئه، فحرّض
عمارة اليمني شمس الدولة توران شاه على المسير إلى اليمن

(١) راجع: النكت العصرية، ص ٣٩٧.

(٢) البداية والنهاية، الجزء ١٢، ص ٢٧٥.

ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج، إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج توران شاه، ولم يخرج معه عمارة، بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث، ويدخل المتكلمين فيه ويصافيه، وكان من أكابر الدعاة إليه والمحرضين عليه، وقد أدخلوا معهم بعض من ينسب إلى صلاح الدين، وذلك من قلة عقولهم وتعجيل دمارهم. والغريب في الأمر أن صلاح الدين وضع كل الأمراء الفاطميين في السجن بعد موت الخليفة العاضد، وشتت شمل ألوية الجيوش الفاطمية، ذبح من لواء العبيد خمسين ألفاً وأحرق بيوت لواء الأرمن وهما أقوى لواءين في الدولة الفاطمية، وشتت شمل الأمراء والقواد في العراق والشام والمغرب. ومن بقي في مصر أصبح كما قال المقرئ في حديثه عن أواخر أحداث سنة ٥٦٦هـ: «وفيها كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء وأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم. فما هو إلا أن يخرج الأمير المصري من منزله ليصير إلى الخدمة (الوظيفة) على عادته، فإذا بالأمير الشامي، الذي قد أعد له، وقد قبض عليه وشد وثاقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجواري. وما له من إقطاعات. فلم ينتشر الضوء، حتى علت الضججات وارتفعت الصيحات، وثار الصياح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم. فأل أمرهم إلى أن صار الأمير بواباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم، سائس فرس كان يركبها، وآخر صار وكيل القبض في بلد كانت له

إقطاعاً، ونحو ذلك من جميع أنواع الهوان»^(١).

ولما مات العاضد سنة ٥٦٩هـ، نقل صلاح الدين أهل العاضد، وأقاربه إلى مكان بالقصر ووكل بهم من يحفظهم، وكان الموكل بحفظهم قراقوش، وكانت عدتهم عشرة آلاف شريفة وثمانية آلاف شريف، سجن النساء في قصر والرجال في قصر، كي لا يتناسلوا والنساء الحبالى أولدت في السجن، واستمر هؤلاء الأولاد في السجن من سنة ٥٦٩هـ إلى سنة ٦٧١هـ، أي ١٠٤ سنوات، حين توفي آخر واحد منهم كما قال المقرئ في خطه.

فمن أين أتى عمارة بأحد الإشراف وبأبيه بالخلافة؟

إن البيت الذي قاله عمارة في آخر قصيدته اللامية أكبر دليل على كذب هذه التلفيقات، وقرار قتله كان قد صدر وإلا لما كان قد شعر به. «عمارة» قالها المسكين وهو على خوف من القتل لا خوف من الزلزل

رأي الدكتور محمد كامل حسين:

يقول الدكتور محمد كامل حسين عن الشاعر عمارة اليميني^(٢) نحن نعلم أن عمارة كان سني المذهب، بل كان متعصباً لمذهبه ولم يتحول عن هذا المذهب، بالرغم من محاولة الأمراء والوزراء معه لكي يعتنق مذهب الفاطميين، ومع ذلك فإن عمارة تأثر بما كان يجري في مصر، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة بعقائد الفاطميين، وجارى القوم في عاداتهم، وإن لم يتشيع، لكنه لم يستطع

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٢١.

(٢) أدب مصر الفاطمية، م.س. ص ٢٥٧.

التخلف عن غيره من شعراء مصر في رثاء أهل البيت في أيام
مآثمهم، وشارك المصريين في احتفالاتهم.

وهكذا اضطر هذا الشاعر السنّي إلى أن يتأثر بما كان في مصر
من العصر الفاطمي، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين، فأكثر منها في
شعره، بل بلغ به تأثره بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم، في
الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين وشمت بهم أعداؤهم
العباسيون، وجمهور أهل السنّة، فعمارة اليمني السنّي المذهب، كان
وفياً لهم الوفاء كلّ، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

رمى يادهر كف المجد بالشّلل وجيده بعد حسن الحلّي بالحلل
فكانت هذه القصيدة، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء
للفاطميين لإعادة ملكهم، سبباً في القبض عليه معهم وصلبه سنة
٥٦٩هـ واتهامه بالكفر^(١).

أما رأيي فإنّ شعر الفقيه عمارة المسلم السنّي الشافعي في
الخلفاء الفاطميين والدولة الفاطمية، هو أصدق شهادة على اعتبارهم
الفريق الإسلامي الأصل الذي لم يخرج عن الملة الإسلامية، وأنّ
التهم التي سطرها مؤرّخو الأكراد بحق الخلفاء المصريين ما هي إلا
وسيلة وواسطة لطمس الجريمة البشعة التي نفّذها أكراد بني أيوب
في حق الإسلام المصري الفاطمي الأصل، إسلام عليّ وفاطمة،
إسلام العترة النبوية الطاهرة، إسلام السيدة زينب والست نفيسة
وسيدنا الحسين عليهم صلوات الله أجمعين.

(١) م. س. نفسه، ص ٢٥٧.

شعر الزهد

منذ ظهور الإسلام، بدأ الشعر العربي يتأثر بالأفكار والفلسفة الإسلامية، وبدأت مصطلحات، الجنة والنار، والبعث والنشور والدنيا والآخرة، وكل الألفاظ التي تدل على زهد الإنسان وتخليه عن ملذات الحياة الدنيا، واستبدالها باللذة الروحية الموعودة في الجنة، تأخذ مكانها في قصائد الشعراء وخطب الخطباء.

وبعد أن قطعت الحضارة الإسلامية في العصر العباسي الأول، أشواطاً في مجالات الرقي المادي والفكري والفلسفي، بدأ العديد من شعراء العصر العباسي الأول والعصور التالية، البحث عن اللذة الروحية في الجنة الموعودة، وقد اشتهر أبو العتاهية في هذا الباب الشعري الجديد، وكذلك أبو نواس في أواخر حياته، فقد نظم قصائد تعتبر من عيون القصائد الزهدية.

والشعراء المصريون، رغم الترف والدعة وسعة العيش وبسطة الرزق والرواتب، فقد نظموا الكثير من قصائد الزهد، خاصة أنهم يعيشون في ظل حكم خلفاء يعتبرون النموذج الأمثل للزهد. فهم أئمة خلفاء، أبناء بنت النبي (ص)، مكلفون بالإمامة والخلافة بالنص الإلهي.

لذلك جاءت كل قصائد الشعراء المصريين، من غزل وهجاء

ومدح ورثاء، تشير إلى هؤلاء الأئمة الخلفاء، وإلى تدرّجهم في الإمامة والخلافة من جدّهم، الرسول الأكرم (ص) وأبيهم، الإمام علي(ع). مروراً بالأئمة المنصوص عليهم في القرآن والسنة.

قال الأمير تميم في الزهد^(١):

زمن منقّض وعمرٌ قصيرُ وحياة الغفول عنه غرورُ
فاتقِ الله إن أردت نَجاةً إن تقوى الإله فوز كبيرُ
أي خلق يكون انقص ممّن ليس يدري لأيّ حال يصيرُ
وقال أبو الصلت المصري^(٢):

سكنتك يا دار الفناء مصدّقاً بأنّي إلى دار البقاء أصيرُ
وأعظم ما في الأمر أنّي صائرُ إلى عادلٍ في الحكم ليس يجورُ
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندما وزادي قليل والذنوب كثيرُ
فإنّك مجزياً بذنبي فإنّني بشرّ عقاب المذنبين جديرُ
وإن يك عفوّ من غنيٍّ ومُفضّل فننعم نعيمٌ دائمٌ وسرورُ

تضرع إلى الله:

وقال الأمير تميم يتضرّع إلى ربّه ويصف القرافة^(٣):

ديارٌ أدير بهنّ النعيم كمُلتذّرجع الغنائِ
يُنَبِّئُ فيها الأذانُ النيام إذا مرّق الليل سيفُ الضياءِ
فمن ذاكرٍ ربّه خشيةً ومن مستهلّ بطول الدعاءِ
ولا خيرة في حياة امرئٍ إذا لم يخف فصل يوم القضاءِ

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز، م.س. ص ١٥١.

(٢) نفع الطيب، الجزء الثالث، ص ٢٩٧.

(٣) ديوان الأمير تميم بن المعز، م.س. ص ٢٧.

رجوتك يارب لا أنني
ولكنني مؤمن موقن
ومالي يارب من شافع
وإنني حنيف بريء إليك
ومن أقوال أبو الفضل عبد الله بن الحسين المعروف بابن
الجوهري^(١):

ما يصنع الليل والنهار
على كرام بني كرام
وقال أيضاً للخليفة المستنصر:

عساكر الشكر قد جاءت مهنئة
بالباب قوم ذوو ضعف ومسكنة
ومن أقوال ابن أبي الشخباء العسقلاني:

أصبحت تخرجني بغير جريمة
كدم القصاص يراق أرذل موضع
ثقلت موازين العباد بفضلهم
وقال القاضي أبو الحسن علي بن محمد ابن النضر المعروف بالأديب:

جهد النفس مفترض فخذها
فإن جنحت لذلك واستجابت
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح
عساك تجلها درج المعالي
بآداب القناعة والزهاده
وخالفت الهوى فهي الإراده
شكىمتها بمقمعة العباده
وترفعها إلى رتب السعاده

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٢٥.

مناجاة وتضرع:

وقال المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي دعاة الدولة المصرية الفاطمية يتضرع إلى ربه مناجياً:

يا رب أنت المُرْتَجَى	وَمَنْ سِوَاكَ أَرْتَجِي
أَمْ هَلْ سِوَاكَ فَاتَحُ	لِكُلِّ بَابٍ مُرْتَجٍ
أَصْبَحْتُ لَا أَذْهَبُ مِنْ	تَحْيُورِي وَلَا أَجِي
شَيْخاً ضَعِيفاً جَسْمُهُ	فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ شَجِي
مُتَقَلِّقُ الْأَحْشَاءِ مِنْ	مَسِيرِهِ فِي الْجَدَجِ
مُطَرِّحاً فِي مَسْجِدِ	لِقِي بِصَدْرٍ خَرَجَ
هَذَا جِزَاءَ مَنْ قَضَى	سِتِّينَهَا مِنْ حُجَجِ
وَهُوَ لَالُ الْمَصْطَفَى	مِثْلُ الصَّبَاحِ الْأَبْلَجِ
يَخُوضُ فِي بَحْرِ الرَّدَى	بِحَبِّهِمْ فِي اللَّجَجِ
يَا رَبَّنَا اكشِفْ لِي لَبَنِي	هَذَا بِصَبْحِ الْفَرَجِ

وقال يتضرع لربه أيضاً:

إلهي إني لأرجو النجاة	بواسع رحمة وهابها
نبي الهدى والوحي الذي	إذا افترت الحرب عن نابها
وعثرته عترة قد غلت	بأنسابها وبأحسابها
ولا يتهم لرجال الولاء	علامة طهر لأنسابها
إلهي إني بآل النبي	دهتني الليالي بأوصابها
فَقُفُّرًا إلهي فإني امرؤ	«دخلت المدينة من بابها»

وقال أيضاً:

أقسم بالله لا شريك له وإن هذا الأعظم القسم

إن كان حقٌ لنجل «فاطمة» أو حرمة عند باريء النَّسَمِ
قوم هم عدّتي الذين لهم طُنبت في مفرق السهى خيمي
وينهى القصيدة بقوله:

سئمت هذه الحياة معرفة منّي بأنّ الوجود في عذمي
ريحانتي الموت كي أشقّ به إلى حمى النور في عالم الظلم
وقال أبو القاسم الحسن بن المعري يهزأ من ناسك^(١):

تبدّل من مرقّعة ونسك بأنواع المُمسك والسفوف
وعنّ له غزال ليس يحوى رضاه ولا هواه بلبس صوف
فعاد أشدّ ما كان انتهاكاً كذاك الدهر مختلف الصروف

الزهد في الدنيا واجب:

وقال ظافر الحداد يدعو لكبح جماح النفس^(٢):

يا نفس ما عيشك بالدائب فقصّري من أملٍ خائبٍ
ويكّ أما يكفيك أن تبصري جنائزاً تُنقل بالراتبِ
بالطفل والبالغ والمبتدي شبابهِ والكهل والشائبِ
من والبد أو ولد أو أخ أو من غريب عنك أو صاحبِ
فهل تبقى لك من حُجّةٍ إلا غرور الأمل الكاذبِ
أما عجيبٌ أن ذا كُلهُ مُوقرٌ في شره الكاسبِ
لولم يكن شيءٌ سوى الموت كان الزهد في الدنيا من الواجبِ
أولم يكن موتٌ لكانت همومُ الدهر تنفي رغبة الراغبِ

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٦١.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ص ١٧.

وقال أيضاً:

ما أغدر الدنيا وليس لغدرها أكرّ يقصّر من لجاجة طالب
شمطاء تقتل بعلمها وفعالها مما يزيد بها غرام الخاطب

لذة الدنيا كلذة السم في العسل:

وقال ظافر الحداد ينصح بني الإنسان^(١):

كن من الدنيا على وجل وتوقع بفترة الأجل
فعمقول الناس لاهية في الهوى والكسب والأمل
يجرع الإنسان لذتها وهي مثل السم في العسل
أنت من دنياك في شغل والمنايا فيك في شغل
كل ما فيها يزول فلا فرق بين الهم والجذل
يا مريضاً لم يجد الماء أنت لو تدري أبو العليل
يا بصيراً ليس ببصر ما فيه من عيب ومن زلل
لو أراك العقل أيسره كدت أن تفنى من الخجل

شروط محمد بن سيد الناس اليعمري ستة شروط لكي يطلق على الرجل
الزاهد لقب متصوف وهي^(٢):

ما شروط الصوفي في عصرنا اليوم سوى ستة بغير زياده
وهي وطء العلوق والسكر والسلطة والرقص والغناء والقياده
وإذا ما هذى وأبدى اتحاداً وحلوا من جهله أو أعاده
وأتى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذي السجاده

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٧.

(٢) الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص ٤١٤.

وقال ظافر الحداد الإسكندراني ينصح المغتر بنفسه^(١):
 إذا دانست لك الدول ففكر كيف تنتقل
 فلو سمحت بها الأيام لم يسمح بها الأجل
 فلا يغرر بك التسويف والآمال والعِلل
 فإنك إن تجد أملاً تجد بعده أمل
 فما يرويك من دنياك لا عل ولا نهل
 وإنك كل ما جمعت يبقى حين ترتحل
 فما لك منه فيما بعد إلا الإثم والزَّل
 وبطشة قابض الأرواح ليس لأخذها مهل
 عجبت لأمن ساه له بحياته جدل
 وجيش الموت يطلبه وقد ضاقت به السُّبُل
 وما في قصده شك ولا يدري متى يصل
 وسيان السجبان لديه عند البطش والبطل
 وقال الملك الصالح طلائع بن رزيك: مخاطباً المتكبر^(٢):
 يا ماشياً تحت الثرى رفقا فسوف تصير تحته
 إن قلت إنني أعرف المولى القدير فما عرفته
 أو كنت تعبد للمخافة والرجاء فما عبدته
 وقال يخاطب المغرور بالدنيا^(٣):
 أيها المغرور لا تغتر فمرعاك خبيث

(١) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ٢٤٩.

(٢) ديوان الملك الصالح طلائع بن رزيك، م.س. ص ٦٩.

(٣) م.س. ص ٦٩.

سائق الموت وإن طال بنا العمر الحثيث
إن من جادت على الخلق بجدواه ليوث
وأولو المجد القديم العهد منهم والحديث
أصبح اليوم حديثاً وغداً نحن حديث
وقال أيضاً^(١):

يا مريض القلب بالذنب متى بالعفو تبرأ
كلما جدّد يوماً توبة ضيّعت أخرى
تشتهي الأجر ولا تفعل ما يكسب أجراً
أترى بعد ذهاب العمر تستأنف عمراً

وقال:

ياراكباً ظهر المعاصي أوما تخاف من القصاص
أوما ترى أسباب عسر في انتقاص وانتقاص؟

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

مناجاة وتضرّع:

قال الفقيه عمارة اليمني يناجي ربّه ويتضرّع إليه^(٢):

يا كاشف الضرّ إذ ناداه أيوبُ وجامع الشمل إذ ناجاه يعقوبُ
وعالم السرّ والنجوى إذا خفيت ضمائر سرّها بالغيب محجوب
لعلّ معروفك المعروف ينقذني من لوعة جمرها بالثكل مشبوب
هب لي أمانك من خوف يبيت به اللهم في القلب تصعيدٌ وتصويب
وقد فزعت بآمالي إليك وفي رحاب جودك للعافين ترحيب

(١) م.س. ص ٨٠.

(٢) ديوان عمارة اليمني، الجزء الأول، ص ٢٤٢.

يا الله: استر علي عبدك عمارة:

وقال مناجياً ربّه^(١):

يا جامع الشمّل المبدّد	ومسدّد الرأى المسدّد
يا منعماً إحسانه	في كلّ حال ليس يجحد
يا موضحاً نهج الهدى	بشريعة الهادي محمّد
استر علي عبد إذا	ما أشرك الكفّار وخد
فعلّ القبيح تعمّدا	فاغفر لمعترف تّعمّد
وأعذر ضاكَ وعُدّ علي	هفواته فالعود أحمد
وابعث له الفرّج القريب	فصبره بالهمّ مُبعد

وقال أيضاً:

يا رب هيء لنا من أمرنا رشداً	وأجعل معونتك الحسنى لنا مَدداً
ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا	فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسدنا
أنت الكريم وقد جهّزت يا أملي	إلى أياديك وجهاً سائلاً ويدا
وللرجاء ثواب أنت تعلمه	فاجعل ثوابي دوام الستر لي أبداً

وقال متضرّعاً أيضاً^(٢):

يا ربّ نفّس خناقِي	وحلّ عقْد وثاقِي
واستر عليّ فإني	أخاف هتك خلاقِي
وامنن بتأليف شملِي	مهّدْ بي الفراق
وقد ضرعت إلى من	أقام سبب طباق

(١) م.س. ص ٣٥٨.

(٢) ديوان عمارة اليماني، الجزء الثاني، ص ٧٢٨.

ومَن إذا شاء أطفأ بالعفون نار احتراقي
مولى غداً وعليه توكلي واعتلاقي
عجل بتفريج همي وكشفه بالتلاقي

وصف الشيب:

قال أبو القاسم الحسن بن علي المصري يصف الشيب^(١):

كتب المشيب سجلً آمنٍ للعيون وللرقيب
فليعرفنَّ به الأجبة حسنَ عهدك بالمغيب
أفليس أولُ وصله من يوم هجران الحبيب

يا ويح مسكة عارض خضبت بكافور المشيب
وأحال برده مزاجه نار الصبا بعد اللهيب

وصف الشيخوخة:

وقال أسامة بن منقذ يصف الشيخوخة^(٢):

مع الثمانين عاث الضعف في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جدٌ مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي، كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمُد

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٥٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، م.س. ص ٢٨٥.

في وصف الشيب والصحة:

قال خليل بن عدنان بن إسحق التميمي^(١):

ذهب أكاليل الوسامة	وابيض مسود الغمامة
وجفأك من غذيتته	وأطلت من شوق غرامه
والفانيات إذا راين	الرأس أصبح كالثغامة
اعرضن إعراض الجموح	إذا أبخت له لجامه
من ودني فموذتي	وقف عليه إلى القيامه
ومن انثنى عني دعوت	له المهيمن بالسلامه
لأحمل الحقد المقيم	على الصديق ولا الملامه
وإذا تعرض جاهل	أو ظالم مني ظلامه
طوقتها عن قدرة	في جيده طوق الحمامه
ما خنت عهد الصديق	ولا رجعت له ندامه
ولقد وفيت لمن هويت	كما وفي كعب بن مامه
لا خير في الدنيا لمن لا	يؤتجى دار مقامه

(١) عيون الأخبار، فنون الآثار، السبع السادس، م.س. ص ٢٩٩.

الشعر الحكمي

يجد المستقرىء لأخبار الفلاسفة والحكماء على توالي العصور أنهم يمتازون عن غيرهم ببعض الصفات الحسية والمعنوية التي تساعد الواحد منهم على إيصال حكمته وتجربته إلى قلب وعقل السامع والمتلقي.

وكيف إذا كانت هذه الحكمة مسبوكة بقالب شعري موزون مقفى، صادرة عن شاعر مرهف الحس. والشعراء أكثر الناس إحساساً بالظلم والحرية والفقر والغنى، وكل حالات النفس الإنسانية، وإحساسهم الذي يميّزهم عن غيرهم من الناس، يدفعهم لنظم تجربتهم الحياتية بحكمة بالغة، أو قول، يصبح مثلاً سائراً أو موعظة تقارب النص القرآني معنى وبلاغة.

وكان لشعراء مصر الفاطمية الحظ الوافر من الشعر الحكمي والفلسفي، وشعرهم الحكمي هو نتاج حضارتهم الإنسانية الرائعة والمتقدمة عصوراً وقرونأ عن غيرها من الحضارات الإنسانية. وفي النص الشعري أفضل دليل وأوفي قرينة على هذا التقدّم.

يقول علي بن عبد الرحمن بن يونس صاحب الزيج الحاكمي^(١):

ومن عجب الدنيا سلامة ظالم وعزة ذي بخل وذل كريم
ومن كان في عز فصار بذلة فقد ذاق في الدنيا عذاب جحيم
ومن أعظم البلوى كريم أصابه قضاء فأمسى تحت حكم لئيم

وقال داعي الدعاة المؤيد في الدين^(٢):

هو الدهر ما صافى بنيه وما صفت مشاربه يوماً لمن جاء شارباً
ترى عرفه نكراً وجدته بلى وأقواله خباً وراجيه خائباً
فلا تفرح إن كان يوماً مقارباً ولا تجزع إن كان يوماً مجانباً
وصاحبه معروفاً بجسمك واخش أن تكون له من حيث نفسك صاحباً

ومن حكم الأمير تميم بن المعز^(٣):

إذا الدهر أعطاك القياد مُملِكاً ودارت بما ترجو عليك سعوته
فلا تغم عين قلبك حيرة وخذ وافد من كل ما تستفيده
يموت الفتى طفلاً وكهلاً وعبطة ويبقى على الأيام والدهر جوده
فكن لجميع الناس فيه مشاركاً فعمّا قليل سوف تصحور عوده
ولا تتكبر إن قدرك فوق ما ملكت وإن الكبر ما لا يزيد
وزد ليعطاء الله ذل تواضع فإنك والأقوام طراً عبيده

(١) عيون الاخبار وفنون الآثار، السبع السادس، ص ٢٩٩.

(٢) ديوان المؤيد في الدين، داعي الدعاة، م.س. ص ٢٧٩.

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، م.س. ص .

أما المنصور بن البيني فهو يعمل ليومه ولساعته، ولا يهتم أمر الغد، حيث يقول^(١):

يا ثعلباً لبقيته أمس صباحاً فخبَّخ
لابات إلا طأوياً يروعه كلبٌ نَبَّخ
لست امرءاً إذا اغتدى يعرف في الطير الرُّوخ
إذا أصبت فرحاً سالمة من التُّرخ
فما أبالي في غدي أخاب قدحي أم نجَّخ

وقال أبو عبد الحسين بن سديد الدولة محمد الماسكي^(٢):

تَوَصَّلْ إِلَى رَدِّ كَيْدِ الْعَدُو تَوَصَّلْ ذِي الْحِيلَةِ الْحَازِمِ
وَصَانِعِ بَعْضِ الذِّي حُزْنُهُ تَعِشْ عَيْشَةَ الْأَمْنِ الْغَانِمِ
وَدَعْ مَا نَعَمْتَ بِهِ فِي الْقَدِيمِ وَاعْمَلْ لِدَا الزَّمَنِ الْقَادِمِ
لَعَلَّكَ تَسْلَمُ مِمَّا تَخَافُ وَلَسْتَ إِخَالَكَ بِالسَّالِمِ

مركز توثيق كويتية علوم ودراسات

الفضل فضلان:

يقول ظافر الحداد^(٣):

الفضل فضلان: فضل المرء بالأدب مُقَدِّماً وَيُليهِ الْفَضْلُ بِالنَّسَبِ
ففضل ذي أدب يغنيه عن نَسَبٍ وليس ذو نسب غانٍ عن الأدب
كن ابن من شئت واكسب فضل معرفة يغنيك عن فضل أم كسبه وأب
ولا يغرك إن بارت بضائعه فالعلم في سائر الأحوال لم يخب

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبَّحي، ص ٧٤.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٢.

(٣) ديوان ظافر الحداد، م.س. ص ١٧.

فالعزُّ في الجهل يجني سوء عاقبةٍ والذلُّ بالعلم يجني حسن مُنْقَلَبٍ

كيمياء القناعة:

وقال ظافر الحداد يصف ما تفعله كيمياء القناعة:

ياراغباً في غنى وكنزٍ وكيمياء بغير رمزٍ
وقعت عند الخبير فاسمع نصيحتي غير مُسْتَفْزٍ
قناعة المرء كيمياءً صَحَّتْ وكنزٌ وأيُّ كنزٍ
فأسعد بها مكسباً وانفق ماشئت منها بلا تجزئ
فالناس طول الزمان عنها لا شك في غفلة وعجز

وقال يصف القنوع وعزة نفسه:

ما أسعد المرء تغنيه قناعته عن كلِّ مقتدر بالمال والجاه
يزيده الفقرُ عزّاً فهو يُبْطِنُ ما يقضي بذلَّ ويبدي حالَ تِيَاهِ^(١)
تجملًا منه خوفاً أن تشاهده عينُ العدو بحال العاجز الواهي

ليس هناك أحدٌ مرتاحاً:

وقال ظافر الحداد:

أف لها دنيا فلا تستقرَّ وعيشها بالطبع مُرٌّ كدِرْ
جميلة المنظرٍ لكنها أقربُ شيءٍ عند مَنْ يختبر
قد وُجِّلَ العالم في سجنها فكل جنسٍ تحت بؤسٍ وضُرْ
فقيرُها يطلب نيلَ الغنى وذو الغنى يجمعُ كي يدَّخِرْ

(١) تِيَاه: من فعل تاه على وَزْنِ فَعَالٍ ويقصد الشاعر أنَّ القنوع يظهر نفسه أمام أصحاب المال والحال أنه يتوه حَبّاً بحالته.

فذاك للإملاق في حسرة
 والزاهد العابد في كلفة
 وخوف ما يلقاه من ربه
 وهمه في القوت من جلّه
 والفاسق المذنب في وصمة
 ليس بمأمون ولا آمن
 من خفض الرتبة بين الوري
 والحوث والطير ووحش الفلا
 فالوحش لا يأمن من قانص
 أو جارح يُدرِكها بفتة
 والطير في الأقفاص سجنأ لها
 والملك الأعظم في خُطة
 وخوفه من ملك غادر
 إما بسُّم أو سلاح، فلا
 يستشعر الخيفة من ملبس
 فالناس في أمن به، وهو في
 والحوث في اللُج على بُعده
 يُذلي له الصياد خيطائه
 حتى إذا أوقعه جرّه
 مصائب جَلَّت ولكنني
 حذرتك الدنيا فلا تحتقر
 وذاك خوف الفقر تحت الحذر
 من شعث الصوم وطول السهر
 في آخر الأمر إذا ما حُشر
 صعب شديد مستحيل عسر
 مُسقه الرأي قبيح الأثر
 مُذمّم في قومه محتقر
 يفتخر الناس ولا يفتخر
 في كُلف من وردها والصدر
 أو حابل أو أسد محتضر
 في الجو لا يضرب إلا كسر
 تنوح فيه نوح صَب أُسر
 من شدة الأمر وطول السهر
 إذا رأى الفرصة فيه غدر
 يأمن حالي سفر أو حضر
 أو مطعم أو مشرب أو خضر
 توهم الخوف فلا ينحصر
 من ملّمس الكف ولمح البصر
 والطعم فيها فوق عُقف الإبر
 جرّ عنيف جار لما قدر
 أوردت منها نبذة المختصر
 نصيحتي عندك نصف الخبر

ليس هناك من ينجو من الانتقاد:

وقال ظافر الحداد يصف أطباع الخلق:

أرى الناس قد أغروا ببغي وغيبة
وقد لزموا مني الخلاف، فكلهم
إذا ماروا خيراً تعاموا وأخرسوا
فليس امرؤ - منهم - بناجٍ عن الأذى
إذا كان ذا دينٍ رموه ببدعة
وإن كان ذا زهدٍ يقولون: أبلة
وإن كان ذا صمتٍ يقولون: صورة
وإن كان شريراً فويلٌ لأمه
وإن كان من بيتٍ يقولون: إنما
وإن كان مجهولاً فذلك عندهم
وإن كان مقداماً يقولون: أهوج
وإن كان ذا مالٍ يقولون: ماله
وإن كان ذا فقرٍ فذلك عندهم
وإن يكتسب مالاً يقولوا: بهيمة
وإن جاد قالوا: أحمق ومبذر
وإن يقنع المسكين قالوا: لعله
وإن يهول للنسوان سمّوه عاصياً
وإن تاب قالوا: لم يتب لزهادة
وإن كان بالشطرنج والنرد لاعباً
وإن واصل الإخوان بالاكل عندهم

وقسح، ماميز الأمر عاقل
إلى كل من عادى الخلائق مائل
وإن عاينوا شراً فكل مناضل
ولا منهم عن ثلبي متغافل
وسمّوه زنديقاً، وقالوا: مُجادل
وليس له حزم: وما فيه طائل
مُمتلة للعي بل هو جاهل
لما عنه يحكى من تضم المحافل
يُفاخر بالموتى ومن هو زائل
كبيض دُميلٍ ليس يُعرف، خامل
وإن كان ذا جُبْنٍ يقولون: ناكل
من السُّخْتِ قد أُرْبَى، وبئس المأكَل
حقير مهين يزدرية الأراذل
أتاه من المقدور حظ وطائل
وإن لم يجد قالوا: شحيح وباخل
وذلة نفس قد حوَّثها الرذائل
وإن عفَّ قالوا: ذاك خبيث وباطل
ولكنه خبٌّ لعينٍ مُخاتل
ولا عيبَ ذا الألباب قالوا: يُداخل
فذاك طفيليٍّ وللشرِّ واغمل

وإن رغب المسكين عنهم بزهده
وإن رام شراً جَسَّروه لفعله
وإن ساد قالوا: دأبنا وثرأؤنا
وإن يعتلل يوماً يقولوا: عقوبة
وإن صح قالوا: ليس لله حاجة
وإن مات قالوا: [لم يمت] حتف أنفه
فليس يُنَجِّيه من القول عاجل
وما الناس إلا شامتٌ ومُعاند
فلا تتركُنْ أمراً مخافةً قائلٍ

يقولون: غُتُّ بارد متثاقل
وإن كان فيه تُستباح المقاتل
وإن لم يَسُدْ وافاه خصم وخاذل
لسيء ما يأتي وما هو فاعل
بمن يتحاماها الردى والنوازل
ولكنْ لتخليط لما كان يأكل
وليس ينجيه من الويل أجل
ذو حسدٍ قد بان منه التحامل
فإن الذي تخشى وتُحذَرُ حاصل

حذارِ أهل الشرِّ وغوائل الدنيا:

وقال ظافر الحداد يحذر من صحبة أهل الشرِّ، ومن غوائل الدنيا:

أرى الشرَّ طبعَ نفوسِ الأنامِ
فِعِشْ إنْ قدرتَ قليلَ الحديثِ
فلو أخطأ المرءُ في صمته
وكن أشجعَ الناسِ جُلماً إذا
فصبرُ الحلِيمِ جميلُ المآلِ
وإياك والعُجْبِ، إن الكَرِيمِ
كما بالتواضعِ يسمو اللئيمِ
تنال بِبِشْرِكَ ما لا يَنالِ
وعُوذُ لسانك صدقُ المقالِ
وإياك من كذبٍ يُطَبِّتُكَ
وإن شئتَ عيشَ الغَنِيِّ العزيزِ

يُصرِّفُها بينَ غابٍ وذامٍ
قليلَ الجَلِيسِ، قليلَ الخصامِ
لَكانَ لهُ كَصَوَابِ الكلامِ
دنا الغيظُ منك بجيشٍ لُهامِ
كشربِ الدواءِ لدَفْعِ السَّقامِ
يُذمُّ مع العَجَبِ ذمُّ اللئامِ
ويَرْقِي من الفضلِ أعلى مقامِ
قَطوبٌ ببذلِ العطايا الجِسامِ
ولو كان في الصدقِ شربُ السُّمامِ
ولو كان فيه حياةُ الدوامِ
وحُرمةٌ من ليس بالمُسْتَضامِ

فَقُزْ بِالْقِنَاعَةِ كَنْزاً يَاقِيكَ وَيُغْنِيكَ دُونَ حَسَوْدِ مُسَامٍ
وَلَا تَتَّبِعْ طَمَعاً إِنَّهُ لِفَقْرِ الْغَنِيِّ وَذُلِّ الْهُمَامِ
فَمَا لَسَمَطَالِبِهِ غَايَةٌ مَدَى الدَّهْرِ إِلَّا لِقَاءَ الْجَمَامِ
وَكَافِي الْجَمِيلِ بِأَمثَالِهِ وَالْأَفْبَالِ شُكْرًا وَالْإِهْتِمَامِ
فَإِنَّ الثَّنَاءَ لِمَوْلَى الْجَمِيلِ يَقُومُ مَقَامَ الْيَادِي الْعِظَامِ
وَمَهْمَا قَدَرْتَ عَلَى ظَالِمِيكَ فَعَفُوٌّ عَنِ الظُّلْمِ وَالْاجْتِرَامِ
فَإِنَّ أَنْتَ كَافِيَتَهُمْ نَاصِبُوكَ وَمَا ثَلَّثَهُمْ بِالْأَذَى وَالْأَثَامِ
وَبَادِرْ بِجُودِكَ قَبْلَ السُّؤَالِ بِلَا مِئْتَةٍ، وَلْيَكُنْ فِي اكْتِتَامِ
وَسِرِّكَ فَاكْتُمْهُ كَتَمَ الْبَخِيلِ بَقِيَّةَ مَاءِ غَدَاةِ الْهُيَامِ
وَرَاعِ الْأَمَانَةَ وَالزَّمْ لَهَا شُرُوطَ الْمَرْوَةِ أَيُّ التَّزَامِ
وَشَاوِرْ ذَوِي الْحَزْمِ قَبْلَ الدُّخُولِ عَلَى غَرَرٍ مُطْمَعٍ وَاقْتِحَامِ
وَإِنْ عَرَضَتْ فُرْصَةٌ لَا تُخَافُ عَوَاقِبُهَا فَلْتَكُنْ ذَا انْعِمَامِ
وَسَاعِدْ عَلَى الْخَيْرِ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ بِمَالٍ وَرَأْيٍ وَجَاهٍ مُحَامِ
وَسُئِنْ أَهْلَ عَصْرِكَ فِيمَا يَقِلُّ وَيَكْثُرُ حَتَّى يَبْذُلَ السَّلَامِ
وَكُنْ سَائِسًا أَمْرًا فِي الْمُلُوكِ وَسَائِسًا لَأَمْرِكَ أَقْلَ الْأَنَامِ
فَقَدْ يَنْتَهِي شَرُّ مَنْ لَا يُخَافُ إِلَى غَايَةٍ فِي الْأَذَى وَالْعُرَامِ
كَمَا يَفْتَكُ النَّمْلُ وَهُوَ الضَّعِيفُ بِشِبْلِ الْهَزْبِ الْبَعِيدِ الْمَرَامِ
وَعَلِّمْ بِلُطْفٍ إِذَا مَا عَلِمْتَ كِرَاعِ خَبِيرٍ بِرَغْفِي السُّوَامِ
وَبَادِرْ بِـ«لَمْ أَذِرْ» عِنْدَ السُّؤَالِ إِذَا مَا جَهِلْتَ بِغَيْرِ اخْتِشَامِ
فَمَنْ صَابَ كُنْتَ شَرِيكَأَلِهِ وَمَنْ زَلَّ بَايُنَتْهُ بِاغْتِصَامِ
وَإِنْ جَعَلُوا وَعَلِمْتَ أَنْفَرَدْتَ بِأَخْذِ الْفَضِيلَةِ بِمَدِّ الرُّحَامِ
وَلَا تَخْخِرَنَّ حِكْمَةً تُسْتَفَادُ وَخُذْهَا وَلَوْ مِنْ أَقْلِ الطُّغَامِ

فَقَدَرُ أَمْرِي حَسْبُ مَا عِنْدَهُ مَنْ الْعِلْمِ لَا مَالَهُ مِنْ وَسَامِ
فَمَا لِلرِّمَاحِ عَلَى طَوْلِهَا مَعَ الْبَعْدِ مِثْلُ قَصِيرِ السُّهَامِ
وَلَا تَبْخَسُ النَّاسَ أَقْدَارَهُمْ فَمَا الْبَخْسُ إِلَّا أَقْلُ الْحَرَامِ
وَكُنْ شَاكِرًا فَضْلَ مَا فِيهِمْ بَغِيرِ تَغَالٍ وَدُونَ اهْتِضَامِ
وَرَفْعَ بَتَجِيلِكَ الْمُسْتَحَقَّ وَلَوْ كَانَ طِفْلًا دُوَيْنَ اخْتِلَامِ
وَقِفْ دُونَ مَا أَنْتَ مُسْتَوْجِبٌ فَقَدْرُكَ مَهْمَا تَوَاضَعْتَ سَامِ
وَلَا حِظَّ عِيُوبِكَ وَافْطِنْ لَهَا وَكُنْ عَنْ عِيُوبِ الْوَرَى ذَاتِ تَعَامِ
وَأَنْصِفْ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ مُنْصِيفًا وَسَامِعٌ بِوَاجِبِ حَقِّ لِزَامِ
وَدُمْ طَالِبَ الْفَهْمِ لِلْغَامِضَاتِ فَمِفْتَاحُ مُغْلَقِهَا فِي الدَّوَامِ
وَإِنْ تُدْعَ لِلْخَيْرِ فَانْهَضْ وَهُمْ وَإِنْ تَدْعَ لِلشَّرِّ قُلْ: لَا هِمَامِ
وَكُنْ عَالِمَ الشَّرِّ لَا عَامِلًا لَتَخْلُصَ مِنْ مُوَبِقَاتِ الْمَرَامِ
وَشَرِّفْ بِفَضْلِكَ مَنْ أَنْتَ مِنْهُ وَلَا تَفْتَخِرْ بِالْعِظَامِ الرَّمَامِ
وَكُنْ بَعْرِيَّ الْحَقِّ مُسْتَمْسِكًا أَلَا إِنَّهَا غَيْرُ ذَاتِ انْفِصَامِ
فَلَا تَفْتِنَنَّكَ دُنْيَا الْغِنَى وَمِثْلُ مُقَامِكَ مَا فِي الرِّجَامِ
وَكُنْ فِي حَيَاتِكَ كَالْمُبْتَغَى مِنَ السُّوقِ زَادَ الْبُعْدِ الْمَرَامِ
فَمَا الْمَالُ وَالْعَيْشُ إِلَّا كَطِيفٍ خِيَالِ سَرَى طَارِقًا فِي مَنَامِ

الذل على أبواب الحجاب:

وقال ظافر الحداد ينصح بعدم الوقوف على باب حجاب
المسؤولين لغرورهم:

أَعَزُّ الْوَرَى مِنْ أَفَادِ الْقَنُوعَا وَلَو مَاتَ لِلضَّرِّ هَزْلًا وَجُوعَا
وَمَا الذَّلُّ إِلَّا رُكُوبُ الْفَتَى مَطَامِعِ تَجْنِي عَلَيْهِ الْخُضُوعَا
عَلَى بَابِ ذِي جُبَّةٍ وَغُدَّةٍ غُرُورٍ عَلَى كَوْنِهِ مُسْتَطِيعَا

وقال في المعنى نفسه أيضاً:

جلال العزف في مال القناعة
فتلك مع النزر القليل خصب
وذا مال مع الإنفاق يزكو
وذل الهون في فقر الطماعه
وتلك مع الغنى أبدأ مجاعه
وهذا بالصيانة في إضاعه

لا تصحب العلم إلا والغنى معه:

وقال ظافر الحداد في ضرورة تلازم العلم مع المال^(١):

مالي وللحادثات الصم تطرقني
حتى كاني لمحذوراتها هدف
أرى الزمان يعادي كل ذي أدب
يا ليت شعري ألوم فيه أم خرف
دعني من العلم والآداب قاطبة
إن كنت طالب دنيا فالغنى الشرف
لا تصحب العلم إلا والغنى معه
أولاً فحظك منه الهم والأسف
عيش الفتى تحت ذل الفقر منزلة
لا يستقر عليها من له أنف
لأركب بعزمي كل مهلكة
إما غنى ترتضيه النفس أو تلف

لكي تبقى محبوباً من الناس:

يضع ظافر الحداد شروطاً لكي يبقى الفرد محبوباً من الناس
منها:

أنت صديق الناس ما لم تكن
وإن تعرضت إلى رفدهم
فلا يغرنك ما أظهروا
فالمرض المؤلم أسبابه
فأقبل ولمني أو خالف ولم
تغيب فيما عندهم من حطام
كنت عدواً لهم والسلام
من قلق مستعمل وابتسام
صادرة عن طيبات الطعام
نفسك من بعدي أشد الملام

(١) م.س. ص ٢١٧.

عسى الرحمان يغني عن فلان وفلان^(١)؛

يقول الملك الصالح طلائع بن رزّيك:

خُضُّ بحار الموت في النقلة من دار الهوان
واحمل النفس من الصبر على حدّ السنن
واجتهد أن لا يراك الناس مبسوط البنان
فعسى الرحمان يغني عن فلان وفلان
وقال أيضاً:

يا نائماً في هذه الدنيا أما أن انتباهك
المال لا يغنيك في الأخرى ولا ينجيك جاهك

مرعى الإنسان خبيث:

وقال الملك الصالح:

أيها المغرور لا تغتر فمرعاك خبيث
إن من جادت على الخلق بجدواه ليوث
وأولو المجد القديم العهد منهم والحديث
أصبح اليوم حديثاً وغداً نحن حديث
وقال في الزهد والنصيحة:

أيها المغرور لو فكّرت لم يخف الصواب
إن تفرّ من شرك الدهر فللدهر انقلاب
وإذا نحن أقمنا فلننا يوماً ذهاب

(١) ديوان الملك الصالح، طلائع بن رزّيك، ص ١٦٢.

أين من جادت على الأرض لجدواه سحاب
وبنى كل منيع زانه الصم الصلاب
ناد في تيه من الأفاق واسمع هل تُجاب
وأعالي خطط الفسطاط مهجور يباب
والذي فيها من العمران معناه الخراب
تُرب بالسفح قد عفى عليها التراب

لعن الله المخادع:

يقول ابن أبي حصينة المعري في هذا المعنى^(١):

أحب الفتى السمع الذي طلب الغنى فلما رأى وجه الغنى طلب الحمدا
وأما من لا تطلب الحمد نفسه ولا يضر الودّ الصحيح ولا ودًا
صديقك ما دام الرخاء وناهش بنابه في الخطب الملم إذا اشتدّا
لحي الله من يبدي لخل مؤدّة ويضمّر في حيزومه ضد ما أبدا
دع الرجل المغتاب يشفى بغيبتي فما غيبة المغتاب إلا ثنا يُهدى

لا تلزم الناس غير طباعهم:

وقال الفقيه عمارة في النصح والحكمة^(٢):

هل القلب إلا مضغة تتقلب له خاطر يرضى مراراً ويغضب
أم النفس إلا وهدة مطمئنة تفيض ثغاب الهم منها وتنضب
فلا تلزم الناس غير طباعهم فتتعب من طول العتاب ويتعبوا

(١) ديوان ابن أبي حصينة، الجزء الأول، ص ٢٦٦.

(٢) ديوان عمارة اليمني، الجزء الأول، ص ١٩٢.

فإنك إن كشفتهم ربما انجلى
 فتاركهم ما تاركوك فإنهم
 ولا تغتر منهم بحسن بشاشة
 أقول لمغتر بظاهر بشره
 ولا تركن للبحر عند سكونه
 وقد يبسم الضرغام وهو معبس
 تباعد إذا أولاك ضرباً ولم يزل
 فلا تتصوره بصورة صاحب
 ولا تتسحب واثقاً بحيائه
 رمادهم عن جمرة تتلهب
 إلى الشر مذ كانوا من الخير أقرب
 فأكثر إيماض البوارق خلّب
 تيقظ فإن الماء يخفيه طحلب
 وبادر فإن البحر إن هاج يعطب
 وقد يتلظى البرق والغيث يسكب
 أخو الحزم من يخشى الملوك ويرهب
 فليس أبو شبلين غرثان يصحب
 فما ذل إلا واثق يتسحب



مركز تحقيقات كميّة وعلوم إسلاميّة

الشعر الفلسفي والديني

ما أن تمت مبايعة المسلمين من مهاجرين وأنصار، المجتمعين في سقيفة بني ساعدة، للصحابي أبي بكر الصديق التيمي (رض)، بغياب علي بن أبي طالب (ع)، الذي كان مشغولاً بدفن النبي (ص)، حتى عُرس الإسفين الأول في ظهر الإسلام لا في نعشه، لأنَّ النعش هو محمل الميت والمتوفى، والإسلام لن يكون له نعش ما دام هناك من يقول في مشارق الأرض ومغاربها: الله أكبر.

ففتنة من المسلمين اعتبرت أنَّ الخلافة اغتصبت من علي وأهل بيته، وفتنة رأت أنه لو لم يتدخل الفاروق عمر (رض) ويبيع أبا بكر لكانت القبلية الجاهلية عادت وسيطرت على عقول ونفوس المسلمين.

ومن هنا بدأت الشقة تتسع، والخلاف يزداد، فكانت حروب الجمل والنهروان وصفين. وجاء مقتل الحسين بكربلاء ليزيد الشقة والتباعد والحق والإحن والضعينة بين المسلمين. وأخذ كل من طلب الحكم والملك، دعا لأهل البيت ولحكمهم، ومن ثمَّ عندما يصل إلى الحكم، بدل من أن يسلمهم إياه، يطاردهم ويشردهم. ويزج بهم في السجون. فكانت مقاتلهم من أبشع المقاتل، وكفاك بكتاب أبي الفرج الأصبهاني دليلاً.

«وكان الناقمون يتسترون بالتشيع فيدعون في معظم الأحيان أنهم يعملون في خدمة آل البيت، ويمزجون آراءهم الدينية بنظريات الفلاسفة وعقائد الأديان القديمة، ويخرجون من هذا المزيج بتعاليم جديدة يبنونها في صفوف المسلمين»^(١).

ومن هذا المنطلق، كثرت الفرق الإسلامية الشيعية منها، والخوارج والمرجئة والقدرية والجهمية والمعتزلة. وقد سطر مؤرخو الفلسفة الإسلامية ومؤرخو الفرق الإسلامية، العديد من الكتب في التعريف عنها، وفي الرد على بعضها. وأكثر الفرق التي شغلت بال المؤرخين وسطر العديد من الكتب في الرد عليها: فرقة الشيعة الإمامية الإسماعيلية.

٨ وكان السبب في تصدي علماء ومؤرخي المسلمين لهذه الفرقة، وصول أصحابها لإعلان أكبر وأعظم خلافة عرفها التاريخ الإسلامي، خلافة استطاعت بناء أكبر دولة عربية إسلامية، بقيادة واسطة عقد الإسلام والعروبة - مصر - لمدة ثلاثة قرون من الزمن. عاش فيها العرب والمسلمون بعزاً ومنعة وحرية وثراء وترف وفراحة وجاه وسلطة، لم يعرفها العرب والمسلمون إلا في عهد النبي (ص) والخلفاء الراشدين (رض) فقط.

أما لو كانت الفرقة الإسماعيلية لم تصل إلى السلطة وتزاحم العباسيين في كل أنحاء المعمورة وتحصرهم في زاوية بغداد فقط، وتلاحق الأمويين في أقاصي إسبانيا وفرنسا والبرتغال، لكانت مثلها مثل

(١) إخوان الصفاء، جبر عبد النور، ط ٢، بيروت، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٠، ص ٧.

الجارودية والأبطحية والجهمية أو أي فرقة إسلامية اندثرت مع صاحبها. ولكن وصول الشيعة الإمامية الإسماعلية إلى السلطة، وإقدامهم على تطبيق الفلسفة الإسلامية الشيعية الإمامية الجعفرية على المجتمع الإسلامي في مصر والدولة الإسلامية، وتوصلهم من خلال التطبيق العملي للفكر الإسلامي الشيعي الجعفري الأصيل، إلى بناء حضارة إنسانية ونمط عيش وتفكير، ما زال حتى اليوم شعلة وهاجة، ومنازة أجاجة بالإرهابات الحضارية المشعة على الإسلام والعروبة، جعلهم هذا الوصول ضمن دائرة الانتقاد والمساءلة.

ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن موقع القاهرة العلمي أيام الفاطميين:

«فالقاهرة المعزية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى، حتى نرى بعض العلماء الكبار الذين كانوا ينقمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة، يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وأقرب مثل نقدّمه لذلك هو الإمام الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه: القسطاس، والمنقذ من الضلال، والمستظهري، أو الرد على الباطنية، وغيرها من كتبه. ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته ووضع كتابه «مشكاة الأنوار»، متأثراً ببعض العقائد الفاطمية، ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول»^(١).

(١) أدب مصر الفاطمية، م.س. ص ٩٠.

ونحن عندما استعرضنا مدائح ومراثي الشعراء الفاطميين، لاحظنا تلازم الفكرة الفلسفية الأساسية - الإمام المعصوم المسمى بالنص الإلهي - في كل القصائد التي قيلت في مدحهم أو في رثائهم أو في أي وسيلة تخاطب معهم. لذلك سنجد أن العديد من الشعراء المصريين الفاطميين نظموا الشعر الفلسفي المحض إلى جانب مدحهم أهل البيت، أو رثائهم شهداء الطف بكربلاء، أو وصفهم لمآسي البيت الطالبي.

الدنيا خلقت لأجل الخلفاء المصريين:

يقول محمد بن هاني الأندلسي في معرض مدحه للخليفة المعز لدين الله الفاطمي^(١):

ملك إذا نطقت علاه بمدحه	خرس الوفود وأفجم الخطباء
هو علة الدنيا ومن خلقت له	ولعلة ما كانت الأشياء
من صفو ماء الوحي وهو مجاجة	من حوضه ينبوع وهو شفاء
من معدن التقديس وهو سلاله	من جوهر الملكوت وهو ضياء
هذا أمين الله بين عباد	وبلاده إن عُدَّت الأمناء
فعليه من سيما النبي دلالة	وعليه من نور الإله بهاء
في الله يسري جوده وجنوده	وعديده والعزم والآراء
نزلت ملائكة السماء بنصره	وأطاعه الإصباح والإمساء
والدهر والأيام في تصريفها	والناس والخضر والغبراء
لا تسألن عن الزمان فإنه	في راحتك يدور كيف يشاء

(١) ديوان ابن هاني الأندلسي، م. س. ص.

وفي قصيدة ثانية يرى ابن هاني في خلفاء مصر الفاطمية: أن
علم الله مفتوحة أبوابه لهم:

ولله علم ليس يحجب دونكم ولكنّه عن سائر الناس محجوب
ويرى في المعز أيضاً:

تسعى بنور الله بين عباده لتضيء برهاناً لهم وتلوها
أخشاك تُنسي الشمس مطلعها كما أنسى الملائك ذكرك التسبيحا
صُورت من ملكوت ربك صورة وأمدّها علماً فكنت الروحا
أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدُعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مديحا

مصير الدنيا بأسرها في يد خلفاء مصر:

وفي قصيدة أخرى يقول عن الخلفاء المصريين والمعز:

فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها وصار له الحمد المضاعف والشكر
إمام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوز وعصيانه خُسْرُ
هو الوارث الدنيا ومن خلقت له من الناس حتى يلتقي القطر والقطرُ
أما القصيدة التي مطلعها:

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فقد خرج بها ابن هاني عن الملة الإسلامية ووجب عليه إقامة
الحد، إلا إذا كانت الصورة الشعرية مجازية على عادة الشعراء.

الأرجوزة المختارة:

الأرجوزة المختارة هي مطولة شعرية بلغت ٢٣٧٥ بيتاً من الشعر،

نظمها واضع أسس المذهب الشيعي الإمامي الإسماعيلي، القاضي النعمان بن حيّون المغربي التميمي المتوفى سنة ٣٦٣هـ. كتبها النعمان في مدينة القيروان المغربية، في عهد الخليفة الفاطمي الثاني، الإمام القائم بأمر الله الذي حكم من عام ٣٢٢هـ حتى عام ٣٣٤هـ. وتعتبر فتحاً جديداً في عالم التأليف والتعبير عن التاريخ وفلسفة الأديان والقصائد. ففيها التوحيد والتسبيح والتنزيه والوجود وعالم العقول وظهور الرسائل وعدد النطقاء بأصحاب الشرائع في عالم الدين، والأسس والأئمة المستقرّين والمستودعين. بعد ذلك يتعرّض النعمان إلى الحرب التي خاضها الرسول الكريم محمد (ص) والوصي علي بن أبي طالب (ع) في سبيل توطيد وتعميم شريعة الإسلام، ثم سلسلة الأئمة وأدواهم منذ عهد آدم حتى عهد الرسول محمد (ص)، وصولاً إلى عصر الخليفة الفاطمي الرابع، الإمام المعزّ لدين الله^(١).

وهناك أيضاً القصيدة الشافعية، أقدم ناظمها على نظمها في منتصف القرن الرابع الهجري، أي في بدايات وصول الحكم الشيعي الإمامي الفاطمي إلى مصر، وهي تتضمن الفكر الفلسفي الشيعي المصري منذ بداياته وحتى خروجهم من مصر. وسنجد من خلال الأرجوزة المختارة والقصيدة الشافعية أنّ الفكر الفلسفي الشيعي الإمامي المصري لم يخرج عن أساسيات الإسلام ولا ألحد ولا غالى، فقصائد الشعراء أمثال ابن هاني، هي قصائد شعراء أما هاتان القصيدتان فصاحبها مسلمان شيعيان إماميان فيلسوفان، عالمان

(١) الأرجوزة المختارة، القاضي النعمان بن حيّون المغربي التميمي، ط ١، بيروت، دار الاضواء، سنة ١٩٩٩، المقدمة، ص ٦.

بآداب الدين قبل كونهما شاعرين. وهما هنا ناظران لفكرة فلسفية قبل أن يكونا شاعرين.

أما الفكر الفلسفي الشيعي الإمامي الإسماعيلي بعد سنة ٥٧٠هـ، فلا علاقة للتشيع المصري الفاطمي به، لأن الإسماعيليين قد شطّوا وغالوا في أفكارهم بعد انقراض دولتهم وخروجهم من مصر.

وقد ردّ الإمام ابن قَيِّم الجوزية على القصيدة الشافية والأرجوزة المختارة بقصيدة نونية سماها: القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية وقد بلغت أبيات القصيدة النونية ستة آلاف بيت // ٦٠٠٠ // وهي أكبر مطوِّلة شعرية عرفها الشعر العربي قبل سليمان البستاني، ناظم ملحمة الإلياذة في القرن التاسع عشر.

آراء القاضي النعمان الفلسفية: في صفات الله:

يبدأ القاضي النعمان الأرجوزة بقوله^(١):

الحمد لله بديع ما خَلَق	عن غير تمثيل على شيء سَبَقُ
بل سبق الأشياء فابتدأها	خلقاً كما أراد إذ براها
لم يتخذ صاحبة ولا ولد	ولم يكن جلُّ له كفواً أَحَدُ
ولاله من خلقه وزير	ولا شريك له لا ولا ظهيرُ
سبحانه عن ملك جليل	جلُّ عن التشبيه والتمثيل
وعن حدود النعت والصفات	والظنِّ والوهم من الجهات

(١) الأرجوزة المختارة، م.س. ص ١٠.

من أنه لم تره الأبصار وأنه لم تحوه الأقطار
فهو إليه صمد معبود مؤحدمعظم محمود

في صفات النبوة:

وقال عن النبي محمد (ص):

والحمد لله الذي قد انتجب محمداً من خلقه لما انتخب
فخصه بالوحي والنبوة

في صفات الإمامة:

وعن الإمامة وصفاتها وشروطها قال:

..... وخص بالإمرة والأخوة
من بعده أبا الحسين والحسن فسلم الأمر إليه إذ ظعن
صلى عليهما الذي اختارهما واختار من بعدهما آلهما
فاختصهم بالفضل والكرامه وجعل الحجة والإمامه
فيهم فلم تزل عليهم تقتصر حتى انتهت إلى الإمام المنتظر
والإمام المنتظر عند الشيعة الإسماعيلية له نفس صفات الإمام
المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية القاطنين جبال عاملة. فهو الثاني
عشر واسمه محمد وكنيته المهدي وأشارت إليه الأحاديث القدسية.
ولكن الإمام المهدي المنتظر إمام الاثني عشرية هو محمد بن الحسن
(عج)، من صلب الإمام موسى الكاظم، (ع) أما الإمام المهدي
المنتظر، إمام الإسماعيلية هو محمد، عبيد الله، المهدي، من صلب
محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق - عليهم السلام -.

يقول القاضي النعمان:

إلى الذي قد جاءت الرواية	بوصفه والنعته والحكاية
عن النبي حين قال المهدي	يقوم بعد برهة من بعدي
أشبه من ترونيه بي خلقاً	وسيرة وسنة وخلقاً
فيملأ الأرض التي قد دُحيت	عدلاً وقسطاً مثل ما قدملت
جوراً وظلماً ذلكم من عترتي	سُمي باسمي وتكنى كنيستي
واسم أبيه فاعلموا كاسم أبي	فلم تزل أمته في تعب

تملك الفاطميين حلناً من أسر التقية:

يعتبر القاضي النعمان أنَّ مسلك «التقية» التي اعتقدها الشيعة قسراً، من أجل استمرار المذهب الشيعي، أسراً وسجناً للشيعة والتشيع، وهو يحمد الله لعودة العز والمنة إلى المسلمين الشيعة عبر الخلفاء المصريين حيث يقول:

فيالها من عترة مقتولة	لمّا تزل دماؤها مطلولة
مذغاب عنها ناظر النبي	حتى اتاه الله بالمهدي
فشيد المعز لها بنياناً	ودعم الملك لها أركاناً
ومكّن الله لأوليائه	وطهر البلاد من أعدائه
فلما أتانا الله بالآمان	وزالت المحنة والبليّة

في الوصية:

بعد أن يستعرض القاضي النعمان النبوة والإمامة منذ ظهور: آدم - شيت - أنوشا - قينان - مهلائيل - يارد - إدريس - منوشلخ -

لمك - نوح - سام - إبراهيم - إسماعيل - إسحاق - يوشع بن نون
 - موسى - هارون - شمعون - عيسى - النبي محمد / صلوات الله
 عليهم جميعاً، وهم أنبياء وأوصياء ولكل نبي وصي ويشير إلى
 وصية النبي محمد (ص) بالإمامة والخلافة إلى الإمام علي بن أبي
 طالب وإلى أولاده من بعده فيقول:

ذكر قوم أنه قد أوصى إلى علي في الذي قد نصّا
 بأهله وماله وعترته وبالقِيام بعده في أمته
 وقال قوم إنما أوصاه بأهله إذ جاءه قضاه
 وماله قالوا على الكلية ولم يكن أوصاه بالرعيه
 وقال قوم نحن لسنا ندري أوصاه أولم يوصه بالأمر
 وقيل بل جمع في وصيته بالدين والكتاب كل أمته

ضرورة وجود الإمام وصلاحياته:

ويقول القاضي النعمان في ضرورة وجود الإمام والإمامة في
 الإسلام:

أجمع من يُعزى إلى الإسلام بأنّه لا بدّ من إمام
 يجمع إلفة الجميع منهم ويدفع الأعداء طرّاً عنهم
 وينفذ الأحكام للخصوم ويقمع الظالم للمظلوم
 وهو يقيم الحجّ والحدود وينصب الجهاد والجنودا
 ويصلح السبل والبلادا ويقسم الفيء على المقاتله
 وهو يقيم لهم الصلواتا والصدقات في الوجوه الكامله
 ويقبض الجزية والزكّات

ثم يتحدث عن صفات الإمام عند كل الفرق الإسلامية من شيعة
وخوارج وجهمية ومعتزلة شعراً.

في التشكيك في حديث غدير خم:

وقال القاضي النعمان في قصة حديث غدير خم:

لما أتى عن النبي ما ذكر	للناس في يوم الغدير واشتهر
ذاك لهم وصحوا إسناده	تعللوا ليوجبوا إسناده
فاعترضوا جهلاً على النبي	فيما دعى فيه إلى الوصي
فقال بعض القوم قد يُسَمَّى	على لغات العرب ابن العم
مولي فكان مخبراً عن حكمه	بأنه ابن العم لابن عمه

من سقيفة بني ساعدة حتى وفاة عثمان (رض):

ويروى القاضي النعمان قصة انتقال الخلافة من أبي بكر
الصديق إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان / رضي الله عنهما / ذاكراً
كل الأحداث التي جرت لعلي وفاطمة (ع).

نجزىء منها:

وقصدوا جماعة الانصار	وهم مع الكثرة أهل الدار
فاجتمع الجميع في سقيفه	عند بني ساعده معروفه
فجاءهم عتيق لاحتياله	باللين واللفظ من مقالته

ومنها:

حتى أتوا باب البتول فاطمه	وهي لهم قالية مصارمه
فوقفت عن دونه تعذلهم	فكسر الباب لهم أولهم
فاقتحموا حجابها فعولت	فضربوا بينهم فأسقطت

ومنها:

وقتلهم فاطمة الزهراء أضرم حراً النار في أحشائي
لأن في المشهور عند الناس بأنها ماتت من النفاس
ويقول عن خلافة أبي بكر وعمر:

حتى إذا ما انقطعت أيامه وجاءه فيما يرى جماًه
صيرها من غير شوري لعمر فسمع الناس بذاك الخبر
حتى إذا أن وقتته قد انقضى جعلها في سته
وعن خلافة عثمان:

لما قضى عثمان واستراحوا منه تداعى الناس ثم راحوا
إلى علي بعده جميعاً قد جمعوا الشريف والوضيعا
كلهم عليه قد تجمّعوا وأبصروا العيب الذي قد صنعوا
ثم يروى قصة علي وعائشة وحروبه مع معاوية ومقتله على يد
ابن ملجم وموت الإمام الحسن ومقتل الحسين، وانتقال الإمامة إلى
علي زين العابدين ومنه إلى الإمام الباقر، ومنه إلى الإمام جعفر
الصادق، عليهم السلام.

الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق (ع):

أما عن الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق حتى ظهور عبيد الله
المهدي، فلم يصرّح القاضي النعمان بأسمائهم مدعياً بأن:
ولم يكن يمنعني من ذكرهم إلا احتفاظي بمصون سرهم
وليس لي بأن أقول جهراً ما كان قد أدنى إلي سراً
وهم على الجملة كانوا استتروا ولم يكونوا إذا تولّوا ظهوروا

بل دخلوا في جملة السواد لخوفهم من سطوة الأعادي
 ثم يشير إلى الأئمة الخلفاء من المهدي حتى المعز حيث يقول:
 فقام عبد الله وهو الصادق مهدينا صلى عليه الخالق
 وقام بالأمر على تصعبه من بعده من لم يزل يقوم به
 ذاك أبو القاسم مهدي البشر محمد أفضل كل من غير
 حتى بلغت القائم المهدياً أعني إمام عصرنا المرضياً
 وعندما يرد على صفات الإمامة عند الطوائف الشيعية يذكرها
 كلها ما عدا الطائفة الإمامية الاثني عشرية.

ولم يخرج القاضي النعمان عن أدبيات الفكر الشيعي الإمامي
 الجعفري في أرجوزته. حيث إنه تجاوز الخلاف الاثني عشري
 الإسماعيلي في تسمية الإمام، أو اختصره بشكل ملفت للنظر، فلم
 ينتقد الشيعة الاثني عشرية، رغم انتقاده للزيدية.

مركز تحقيقات كليات علوم
 الشريعة الإسلامية

الفلسفة الشيعية المصرية في ديوان داعي الدعاة:

يقول المؤيد في الدين مدافعاً عن ما رماه علماء السنة
 ومؤرّخوهم شيعة مصر بالإلحاد:

يرموننا بالكفر والإلحاد والزيغ عن مناهج الرشاد
 قالوا: هم قد عطلوا الأديانا وأبطلوا الإسلام والإيماننا
 ياربّ فاحكم بيننا بالحق يا عالمًا مكنون سرّ الخلق
 نقول ما قيل لخاتم الرسل في الراهبين قلّ تعالوا نبتهل
 ليلعن الرحمان منا الكاذبا كما يرى من ذا يرُدُّ خائباً
 فكيف شرع الأنبياء ندفع وما لنا إلا النبي مرجع

يارب فالعن جاحدي الشرائع وارمهم بأفزع الفجائع
 والعن إلهي من يرى الإباحه بلعنة فاضحة مجتاحه
 والعن إلهي غالياً وقالياً ولا تذرفي الأرض منهم باقيا
 يارب إننا منهم براء هُم واليهود عندنا سواء
 فاخزهم واخز من رمانا بريبة ولقاه الهوانا
 نوحدا الله ولا نشببه قد انتفت في الدين عنا الشبهة
 بالمصطفى وآله اقتدينا ثم بهم لا جرم اهتدينا

هذا هو الفكر الفلسفي الشيعي الإمامي المصري الفاطمي. لم
 يخرج عن حدود الملة الإسلامية. وبرغم هذا التصريح الصريح فلم
 يتعب المشككون وما زالوا حتى اليوم يتابعون تشكيكهم.



طاعات المسلم الحقيقي:

يرى المؤيد في الدين أن المسلم الحقيقي هو الذي يطيع في دينه
 ودنياه ثلاث:

اقرأ: أطيعوا الله والرسولا ثم أولى الأمر بهم موصولا
 الله - الرسول - أولو الأمر -
 ثلاث طاعات غدت معلومه في آية واحدة منظومه
 ويحدد أولى الأمر فيقول:

وإنما الطاعة للأطهار آل النبي الصفوة الأبرار
 آل الرشاد والتقى والعصمه أئمة ما قارنتهم وصمه
 جرى بهم لفظ الكتاب وأتسق يخبر عن عمومها على نسق
 في كل عصر منهم إمام لا يهتدي إلا به الأنعام

دعوته قائمة في العالم عالية ظاهرة المعالم
وإمام عصره هو:

هاكم منهم بمصر إماماً هو بالتقي للشكوك كفيلاً
جده المصطفى أبوه علي أمه صفوة النساء البتول

من هم أنبياء وأوصياء داعي الدعاة؟:

يرسل داعي الدعاة سلامه إلى من يعتقد بنبوتهم وإمامتهم ككل
مسلم مؤمن:

سلام على العترة الطاهرة وأهلاً بأنوارها الزاهرة
سلام بدياً على آدم أبي الخلق باديه والحاضره
سلام على من بطوفانه أديرت على من بغى الدائره
سلام على من أتاه السلام غداة أحقت به النائره
سلام على قاهر بالعصى عصاه فراعنة جائره
سلام على الروح عيسى الذي بمبعثه شرفت الناصره
سلام على المصطفى أحمد ولي الشفاعة في الآخرة
سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأنجم الزاهرة

وداعي الدعاة هبة الله بن موسى الشيرازي كان يلقي محاضرات
فقهية وفلسفية في «دار العلم» في القاهرة أو ما نسميه اليوم
«الجامعة المصرية» نهار كل يوم خميس. وقد تم جمع هذه
المحاضرات الفلسفية في كتابين أطلق عليهما: المجالس المؤيَّدية
الأول يضم مائة مجلس أو محاضرة وهي المائة الأولى والثاني
يضم أيضاً مائة محاضرة وأطلق عليها المائة الثالثة، مما يعني أن

هناك مائة محاضرة ثانية مفقودة، أولم تطبع حتى الآن. وفي هذه المحاضرات ناقش كل الأمور الفقهية والفكرية والفلسفية التي تخص العقيدة الإسلامية الشيعية الإمامية. وقد ذكر في إحدى قصائده أن أجمل يوم في الأسبوع هو يوم إلقاء هذه المحاضرات، وهو يوم الخميس من كل أسبوع. يقول:

يا صباح الخميس أهلاً وسهلاً زادك الواحد المهيم فضلاً
أنت عيد للمؤمنين عتيدي جمع الدين منهم فيك شملاً
نحن نجني ثمار جنات عدن كلما قبل الخميس وولّى
وكان الجمهور المصري يقبل إقبالاً منقطع النظر على هذه
المحاضرات، وقد أورد المقرئ في اتعاظ الحنفا، أن اثني عشر رجلاً ماتوا في الزحام والتدافع لحضور إحدى هذه المحاضرات أيام الخليفة الحاكم بأمر الله.

وكان الشعراء المخبريون يضمنون قصائدهم كل الأفكار الفلسفية الدينية، من وجهة نظر الشيعة الإمامية (كنظرية الفاضل والمفضول).

يقول الملك الصالح صلاح بن رزيك في إحدى قصائده:

قلت: ابتعد ما أنت لي بخليل	إن الخليل إذا تجنّب مذهبي
إلا بعضب الشفرتين صقيل	أليت لا القى عداة أئمتي
لا يظلمون الناس وزن فتيل	وأئمتي قوم إذا ظلموا فهم
فيهم فما ميلي إلى المفضول	وهم الأئمة ما عدت فضيلة
القرآن والتوراة والإنجيل	أل النبي بهم عرفنا مشكل
الغايات في التحريم والتحليل	هم أوضحوا الآيات حتى بيّنوا

عند التباهل ما علمنا سادساً تحت الكسامة هم سوى جبريل
وقد تأثر الشعر المصري بالقرآن والسنة والفلسفات
المسيطرة على عقول الناس حتى أضحى الشاعر منهم ينظم القصيدة
مضمناً الآيات القرآنية في كل بيت من أبياتها.

قصيدة نصفها آيات قرآنية:

ونظم الملك الصالح طلائع بن رزّيك قصيدة ضمن كل بيت من
أبياتها آية قرآنية:

إن الأبرار يشربون بكأس كان حقاً ﴿مزاجها كافوراً﴾
ولهم أنشأ المهيمن ﴿عيناً﴾ فجروها عباده تفجيراً
وهدهم وقال: ﴿يوفون بالندى﴾ فمن مثلهم يوفي النذورا
و﴿يخافون﴾ بعد ذلك ﴿يوماً﴾ هائلاً ﴿كان شره مستطيراً﴾
«يطعمون الطعام» ذا اليتيم والمسكين في حب ربهم والأسيرا
إنما نطعم الطعام لوجه الله لا نبتغي لديكم شكورا
غير ﴿إننا نخاف من ربنا يوماً﴾ عبوساً ﴿عصبصاً قمطيراً﴾
فوقاهم إلهم ذلك اليوم يلقون نضرة وسرورا
«وجزاهم» بأنهم «صبروا» في السر والجهرجنة وحريرا

والقصيدة طويلة، يستطيع من أراد الاستزادة منها أن يرجع إليها
في ديوان الملك الصالح^(١).

(١) ديوان الملك الصالح طلائع بن رزّيك، م.س. ص ٧٨.

الفكر الفلسفي الشيعي المصري في القصيدة الصورية: ∞

هذه القصيدة نظمها داعي دعاة الدولة المصرية الفاطمية من قبل الخليفة المصري المستنصر بالله الفاطمي، في مدينة صور وثغر جبال عاملة، ويقول المؤرخون أنَّ هذا الداعي توفي سنة ٤٨٧هـ، أي قبل وفاة الخليفة المستنصر بسنة واحدة أو في نفس السنة. والفلسفة الشيعية المصرية في هذه القصيدة لا تختلف عن طروحات الفلاسفة الشيعة المصريين، كما لا تخرج عن أدبيات الإسلام الشيعي الإمامي الأصيل، من القول بولاية علي (ع) وعصمة الأئمة وحديث الكساء وغدير خم وأدب الطف وإقامة عاشوراء، وكل أدبيات الفكر الطالبي الجعفري.

أما اختلافهم مع الاثني عشرية والزيدية، فهو اختلاف في اسم الإمام وليس اختلاف في الفقه الشيعي الجعفري، فالدولة الإسلامية التي طبقوا فيها الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي، كان قاضي القضاة فيها، إمّا جعفري إسماعيلي، أو جعفري اثني عشري، أو زيدي فلم يكونوا يمنعون أبناء المذاهب الشيعية الأخرى من تسنّم هذا المركز لأنّ الأحكام هي نفسها عند المذاهب الثلاث.

يبدأ داعي الدعاة محمد بن علي بن حسن الصوري قصيدته بقوله^(١):

الحمد لله معلّ العِلل ومبدع العقل القديم الأزل
أبدعه بأمره السعّظيم بلا مثال كان في القديم

(١) القصيدة الصورية، محمد بن علي بن حسن الصوري، ط ١، دمشق، طبعة المعهد الفرنسي، سنة ١٩٥٥، ص ٢٢.

سبحانه من ملك ديان العقل والنفس له عبدان
جلّ عن الإدراك في الضمائر والوصف بالإعراض والجواهر
أحمده حمد مقرر مذعن بما به يذعن كل مؤمن
ومنه الزكاة والصلاة تغتدي على النبي مصطفى محمد
وصنوه الحائز فضل رتبة والعرة الهادين من ذريته
وهو يعني بصنوه «الإمام علي» (ع)، والعرة الهادين من ذريته،
الأئمة المعصومين حتى إمام عصره، الخليفة المصري المستنصر
بالله الفاطمي.

ويتابع قائلاً:

أبومولانا إمام عصرنا السيد المنصور ولي أمرنا
حائز أنوار المقامات الأولى وكل ما خصّ به من العلى
فنوره فاق على الأنوار وعصره يعلو على الأعصار
ذاك «معدّ»، عدّتي وذخري إذا بقيت الله يوم حشري
يشهد لي إذ تنفع الشهادة إني على الطاعة والعبادة
وإنني ما جدت عن ولايته ولا عتراني الشك في إمامته
صلى عليه ربنا وسلما ملاح بدر في السماء وأنجما
ثم ينظم الداعي ابن الصوري رأي الفلسفة الشيعية المصرية
بالتوحيد وفي حدوث العالم، ويردّ على الدهرية والثنوية والنصاري
القائلين بالتثليث حيث يقول:

فقلّ لمن صير شيئاً واحداً ثلاثة لمن غدوت عابداً
للاب أم للابن أم روح القدس بين لنا الحجة حتى نقتبس

ومن هو الفاضل منهم قل لنا لنجعل الفاضل منهم ربنا
 فإن تقل ما بينهم تفاضل وهم لشيء واحد جاهل
 ومن ثم يعطى رأيه في الفرق بين المبدع الأول والمخلوق
 والنفس الكلية، والدهر والنفس والقدر والحدود العلوية والعرش
 والكرسي، ورأي فلاسفة مصر بالهولي، والطبيعة، وعلاقة الزمان
 بالأفلاك وتأثير الأفلاك على النفوس.

نظرية داروين المصرية:

ويبدو أن نظرية داروين أو نظرية تطور الأنواع أو أصل
 الأنواع التي نادي بها لامارك وداروين، هي نظرية شيعية مصرية،
 قبل أن تكون نظرية إنكليزية، انظر إلى قول داعي الدعاة ابن
 الصوري كيف يقول عن تطور الأنواع:

وجاءت الهياكل العجيبة والصورة العجيبة المكتوبة
 من سائر الوحوش والهوام وما به النفع من الأنعام
 فأول الأجناس ما تولد في الأرض من خشاشها ثم بدا^(١)
 وما غدا من غمسا في مائها أو كل طير طار في سمائها
 والرابع الهياكل العجيبة والصورة الغريبة المكبوبة
 والخامس الإنسان وهو القاهر له كما قدر فيه القادر
 يقبل منه الوحي والإلهام وينثني يهدي به الأناما
 فإذا، تكونت نظرية أصل الأنواع الشيعية المصرية حسب ما قاله

(١) الخشاش: ما لا دماغ له من دويبات الأرض.

الداعي ابن الصوري على الشكل التالي:

- أول الأجناس: خشاش الأرض: أي الزواحف اللافقرية والتي لا دماغ لها ولا مخ.

- ثاني الأجناس: الحيوانات المائية.

- ثالث الأجناس: عالم الطير.

- رابع الأجناس: الحيوانات البرية.

- خامس الأجناس: الإنسان، وهو يتميز عن الحيوانات بالنطق وبتقبل الوحي والإلهام من الذات الإلهية.

المرجان: نصف صفاته معدن ونصف صفاته نبات:

ويقول ابن الصوري رابطاً نظريته حسب نظرية النشوء والارتقاء بين المعادن والنبات:

وآخر المعدن بالنبت غداً مبتدئاً وبأدياً كما بدا
له فروع وله أغصان كما يرى في خلقه المرجان

النخل: له صفات الحيوان:

ويقول إنَّ النخلة هي أقرب النبات إلى عالم الحيوان حيث أنه جرت العادة إذا قلعت الشجرة أو النبتة من جذورها تموت، بينما النخلة إذا قُصَّ رأسها تموت:

وآخر النبات نبات باسق بالحيوان للصفات لاصق
والنخل مثل الحيوان إذا قُطع أعلاه لم يرج له أن يرتجع

البقاء للأصلح:

ولكن يبقى الإنسان هو الأصلح والأفضل والبقاء للأصلح والأفضل:

وبعده الإنسان وهو الأفضل في العالم الأعلى غدامتصل
ثم يروي قصة الإنسانية والأنبياء والرسل والأوصياء منذ نزول
آدم على وجه الأرض حتى وصول الخليفة المستنصر بالله إلى سدة
الإمامة والخلافة.

أما أسماء الأنبياء وأوصيائهم الذين وردوا في قصيدة الداعي
ابن الصوري منهم:

- فأول الرسل الكرام آدم لأنه بكل شيء عالم
- حتى أتى نوح وكان الثاني للرسول ذو عزم وذو تبيان
- وقام إبراهيم وهو الثالث من عدد الأبياء وهو الوارث
- وجاء موسى ناطقاً بالقوة لأنه الرابع للنبوّة
وعندما يتحدث عن النبي موسى (ع) يشير إلى أخيه هارون
والنبي يوسف فيصبح الأنبياء المذكورون خمسة أنبياء، فيأتي
الحديث عن النبي عيسى المسيح فيكون هو النبي السادس والمهييء
للنبي السابع محمد بن عبد الله (ص).

يقول ابن الصوري:

وجاء عيسى وهو ذو اللطافة	لأن موسى قام بالكثافة
لما غدا يحكي شرط شدته	محمداً في شرعه وقوته
هو مسيح المسحاح المعظم	وأمه زين النساء مريم
وحجة السابع أسبوعين	مرتوي بالعلم من وجهين

فالرقم سبعة مقدّس عند شيعة مصر، فالنبي محمّد هو النبي السابع، وإسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع والمعزّ لدين الله هو سابع لأسبوعين والقائم على البيعتين، الأسبوع الأول جدّه النبي محمد (ص) والأسبوع الثاني، جدّه لأبيه، الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق (ع).

وعن ولادة النبي محمد (ص) يقول:

وكان ميلاد النبي المصطفى في ذلك العام الذي فيه الوفا
ثم نشأ فكان خير من نشأ وخير مخلوق على الأرض مشى
وبعد أن يقصّ قصّة الإسلام يصل إلى حديث غدير خم فيقول:
فأنزل الله على نبيّه أن يظهر النصّ على وصيّه
فخاف من أصحابه لعلمه بكيدهم وما نوا من ظلمه
وقيل لا تشرك وإن أشركت ليحبطن الله كلّ ما عملت
فقم وبلغ ولا تخف فرحمتي تنالك اليوم وكن في عصمتي
فقام في يوم غدير خم وقال حكم الله غير حكمي
من كنت مولاه فذا مولاه فوالى ياربّي الذي والاه
فمن له والى فقد والاك حقاً ومن عاداه قد عاداك

شمس التشيع تشرق على القاهرة بعد أن حجبها الأمويون:

ويقول الداعي ابن الصوري:

حتى أتته ضربة ابن ملجم لا كان من رجس لثيم مجرم
فمات واستشهد بالصيام صلى عليه الله من إمام
وانتقل القتل إلى الحسين لمارأوه حائز الفضلين

وأنه مجمع علم الدين من ظاهر وباطن مكنون
والشمس إن رأيته قد كسفت واحتجبت عن العيون واختفت
فذلك الكسوف لا يضرها لكنه يستر عن أنوارها

ويتوجه إلى الخلفاء المصريين حكام القاهرة بقوله:

فيا حدود الدين والحقائق ويا حجج الله على الخلائق
ولا أرى الشمس التي قد غابت في شرقها من غربها قد آبت
وأشرق إن طلعت إشراقاً حتى ملئت أنوارها الآفاقا
وأصبحت ظاهرة في القاهرة بالنصر والعز عليهم قاهره

ويذكر تسلسل الأئمة المعصومين حسب المفهوم الشيعي

المصري فيقول:

وقام زين العابدين بعده قد عزه الله وذل ضده
ثم تلاه الباقر العلیم والصادق المؤيد الكريم
فاكثر التلويع في كلامه واشتدت المحنة في أيامه
وكان إسماعيل قد حباه بالنصر والتوفيق واجتباها
والنصر فيه ثابت لا يخرج من عقبه وقت وليس يعرج

ولما كان موسى الكاظم - عليه السلام - شقيق إسماعيل، احتج
ابن الصوري بحديث للنبي محمد (ص)، أن الإمامة لا تجتمع
بأخوين إلا في الحسن والحسين (ع). ومن هنا لا يجوز أن تنتقل
الإمامة إلى موسى الكاظم وهو ابن خمس سنين، بل يجب أن تنتقل
إلى ابن إسماعيل - محمد - وله من العمر ثمانية عشر سنة.

فيقول ابن الصوري:

وَتَمَّ قَوْلُ قَالِهِ مَنْ يَجْحَدُ بِفَضْلِ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ يَقْصِدُ
بِأَنَّهُ مَاتَ وَخُلِيَ الْأَمْرُ وَصِيَّهُ مُوسَى وَهُوَ سِرُّ
ثُمَّ نَسِيَ مَا قَالَهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَيْهِ رَبَّنَا
أَنَّ الْإِمَامِينَ الْحُسَيْنَ وَالْحَسَنَ فَضْلُهُمَا بَاقٍ عَلَى طُولِ الزَّمَنِ
وَلَيْسَ بَعْدَهُمَا مَنْ سَمِعَ إِمَامَةً فِي أَخْوَيْنِ تَجْتَمِعُ
وَالْمَلَفَتْ لِلنَّظَرِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بَنَ الصُّورِيِّ مِثْلَهُ مِثْلَ كُلِّ
الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ نَظَمُوا الْأَرَاغِيزَ وَالْمَطْوَلَاتِ الشَّعْرِيَّةَ فِي تَسْلُسَلِ
الْخُلَفَاءِ الْمَصْرِيِّينَ، عِنْدَمَا يَذْكُرُونَ كُلَّهُمْ مُحَمَّدُ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ
الْإِمَامُ الثَّامِنُ، وَيَنْتَقِلُونَ إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ، وَهُوَ الثَّانِي
عَشَرَ، أَمَّا أَئِمَّةُ السُّتْرِ الثَّلَاثَةِ: التَّقِيُّ وَالنَّقِيُّ وَالرَّضِيُّ فَلَا يَذْكُرُونَهُمْ،
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ.

وهو يقول بعد ذكر الإمام محمد بن إسماعيل:

حَتَّى غَدَا ذَكَرْتُ عَلِيَّ قَدْ عَلَا وَفَازَ بَعْدَ عَزِّهِمْ أَهْلُ الْوَلَا
غَيْرَ الْإِمَامِ السَّيِّدِ الْمَهْدِيِّ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ وَالْوَصِيِّ
أُولَئِهَا الْمَهْدِيُّ وَهُوَ قَدْ ظَهَرَ وَالْآخِرُ الْقَائِمُ وَهُوَ الْمُنْتَظَرُ

ويذكر الإمام المستنصر وسابع خليفة بين الخلفاء المصريين:

وَالْقَائِمُ الْخَامِسُ بَعْدَ الْمَهْدِيِّ فَهُوَ اعْتِمَادِي عَلَيْهِ وَقَصْدِي
وَالسَّادِسُ الْمَنْصُورُ مَنْصُورًا كَمَا سَمَاعِلِي الْأَعْدَاءِ عَلَوُا وَسَمَا
وَخَاتَمُ السَّبْعِ الْمِثْلَانِي الْغَرَّ وَبَدْرُ دِينَ اللَّهِ أَيُّ بَدْرٍ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمَعْرُوفُ الْمَرْتَجَى بِهِ فَيَرْجُو الْعَارِفِينَ الْفَرَجَا

وصف الإمام الحاكم بأمر الله:

ويصف الإمام الحاكم بأمر الله ويمدحه على قراراته ويعتبرها إشارات ومقدمات لأمور إلهية:

وقام أمر الله في عالمه	وحكمه العادل في حاكمه
فخرّب الكنائس المشيّده	في أرض مصر وأقام الأعمده
ثم بنى وبیض المساجدا	لما غدا الله فيها عابدا
ثم نهى عن شرب كل مسكر	وكل ماء فاشر مخمر
ثم رأى من أصوب الصواب	قتل الخنازير مع الكلاب
ثم رأى حبس النساء ونادى	وشدّد الأمر به وعادا
فلم تكن امرأة لهيبتة	تظهر بين الناس قبل غيبته
وهي إشارات لأمر يأتني	عند تمام الدور والميقات
وأظهر الدين الإمام الظاهر	وهو بحكم بالله فيه صابر
وقام مولى عصرنا المستنصر	وهو الذي للمؤمنين ينصر

الشيعة المصريون يؤمنون بظهور الإمام القائم وينتظرون ظهوره:

يقول داعي الدعاة محمد بن علي بن الصوري:

ذاك الإمام قائم القيامة	لا شك في ذاك ولا ملامة
ويقتل الخنزير كلب الروم	وتيس بغداد خليف اللوم
وكل جبار من الملوك	ويجعل المالك كالمملوك
ويمحق الأنصاب في أقطارها	ثم يقيم العدل في أمصارها
ويغلب النور على الظلام	وتشرف الأرضون بالإمام
ويبطل القول الذي بالسكر	يفصل بالأرواح فصل الخمر

ويرجع الذين بعلم محض والدين في الحسن كقصص غصن

نهاية القصيدة الصورية:

ينهى داعي الدعاة ابن الصوري قصيدته بمناجاة وتضرع إلى الله وأهل نبيه أصحاب الكساء لكي يشفعوا له أمام ربه فيقول:

والحمد لله العليّ الفضل رب البرايا وإليه الكل
وسلم الله تعالى وحباً سيدنا الطهر النبي المجتبى
ثم على وصيه والأهل أفضل من خصّهم بالفضل
ثم على الأئمة الكرام أعلاهم الله على الأنام
وخصّ مولانا أبا تميم بأفضل الصلاة والتسليم
ونجّله مولى الهدى المستنصر وهو الذي يقضي وحقاً يأمر
وعبدك «الصوري» يا مولى الوري كم ليلة حرّم عينيه الكرى
فجدله بالعفو والغفران يا مالِك المنة والإحسان
واغفر له فإنه مقصّر ولم تنزل للمؤمنين تغفر
و«صلي» يا ربّي على المختار محمد المخصوص بالأنوار
وآله الأطهار سادات الوري من نسل مولانا الإمام حيدرا
صلي عليه ربنا وسلماً ما غربت شمس وليل أظلما

وفي هذه القصيدة، لم يخرج الداعي محمد بن علي الصوري عن أدبيات الشيعة الإمامية، وأدبيات الإسلام، ولم يغرق في أسماء أنبياء وأوصياء ونطقاء وأضداد لم نسمع بهم إلا في أدبيات الإسماعيلية، بعد خروجهم من مصر، وفي أدبيات الشيعة الإسماعيليين الدروز.

القصيدة الشافية:

وسوف نستعرض القصيدة الشافية وسنجد فيها أسماء غريبة عجيبة من أنبياء الإسماعليين والدروز. وكل ذلك بسبب الشطط والجنوح الذي حل بالفكر الشيعي الإسماعيلي المصري بعد خروجه من مصر. بينما حافظ الشيعة المصريون وخلفاؤهم على الإسلام الأصيل، ولم يخرجوا لا في الفكر ولا في ممارسة السلطة عن أصول الملة الإسلامية.

الفلسفة الإسلامية الشيعية الإمامية الإسماعيلية في القصيدة الشافية:

يبدو أنَّ القصيدة الشافية مجهولة الناظم ويرجح أنَّ ناظمها قد نظمها في أواخر القرن الخامس الهجري وليس القرن الرابع^(١):
صلى عليكم ربنا وبسارك في سورة الفرقان مع تبارك
لتغفروا يا سادتي ذنب الولي ما خان من لا ذبكم آل علي
موازن أقول الأديب الصوري معترفاً بالعجز والتقصير
إذ قال والقول شبه قولي بمئة الله ولي الحول
ويشير إلى قول الصوري:

الحمد لله معلّ العلل ومبدع العقل القديم الأزل
وقد ذكر محقق قصيدة الشافية أنَّ الصوري هو داعي دعاة الدولة الفاطمية في صور - جبال عاملة - محمد بن علي بن الحسن الصوري المعاصر للخليفة المستنصر والخليفة المستنصر توفي في

(١) القصيدة الشافية، داعي مجهول، ط ١، بيروت، دار المشرق، سنة ١٩٦٧، ص ٩٦.

أواخر القرن الخامس الهجري - سنة ٤٨٧هـ - مما يعني أن ناظم قصيدة الشافعية اطلع على القصيدة الصورية ومدحها وتمنّى العفو والرضى لناظمها^(١):

فجدله يارب بعفو ورضى يا من عن العاصي بصفح قد قضى
واغفر له ما كان من ذنوب فماله سواك من مجيب
وتبدأ القصيدة الشافعية بوصف الذات الإلهية حيث يقول
الناظم:

الحمد لله القديم الأزلي المبدع العالي مُعِلُّ العِلَلِ
باري البرايا الدائم الفرد الصمد والجاعل الواحد أصلاً للعدَدُ
أبدعه بأمره المجيد فاصبح «الأول» في الوجود
نوراً بسيطاً حائطاً بالدار من سائر الجهات والأمصار
سمّاه عقلاً سابقاً فعلاً فجلَّ عن إدراكه تعالى
روحاً لطيفاً عاقلاً لذاته سبحانه من قد جلَّ عن صفاته
مبرزوة في ذاته الأشياء مما حوته الأرض والسماء
سبحانه من خالق بديع مصوّر الصورة بالمصنوع
جلَّ فلا شبه له بالذات حقاً ولا يوصف بالصفات
والحس والمحسوس والحواس وكل ما يدرك بالقياس
توحيده يُعرف بالدليل من غير تشبيه ولا تعطيل

(١) القصيدة الشافعية، تأليف داعي مجهول، تحقيق عارف تامر، ط ١، بيروت، دار المشرق، سنة ١٩٦٧، المقدمة هامش صفحة ٢١.

أهمية العدد سبعة في الفكر الشيعي المصري:

يعتبر شيعة مصر الفاطمية أنّ للكون سبعة أدوار وسبعة أنبياء
وسبعة أوصياء ولكل دور نبي ولكل نبي وصي وآخر الأنبياء هو
النبي محمد وآخر الأوصياء هو الإمام علي:

من عرف الإبداع بالبرهان والمبدع الأول ثم الثاني
وثالث مع جملة الأعداد إلى تمام السبعة الأحاد
وحين تنتهي الوصاية، تبدأ الإمامة:

وللهداة الخلفاء النُّجُبا آل النبي المصطفى أهل العبا
ذوي الهوى والنور والإمامة الوارثين في الورى مقامه

دور الستر يؤدي إلى فقدان الشريعة:

ويرى شيعة مصر أنّ دور الستر الذي مرّ فيه الأئمة أدى إلى
فقدان الشريعة المحمدية بسبب تسلط الغاصبين على مقاليد الخلافة
من أمويين وعباسيين:

وإنّ دور الستر لا يكون واختلفت في نفسه الظنون
وانكشفت عورته بين الملا وحاطه في الظنّ هم وبلا
ولم تكن في وقته شريعته ولا تكاليف له موضوعه

الأدوار السبعة:

والأدوار السبعة مرّت كالتالي:

وآدم كان من الرسالة كمثل كون الجسم من سلاله
ونوح كالنطفة في القرار مرّث بأمر الملك الجبار

وكان إبراهيم مثل العَلَقَه
ثم أتى عيسى الرسول الخامس
وأحمد كالجسم في التركيب
وعن العقل الفَعَال يقول:

أبدعه مبدعه بالجود
أوجد منه جوهرًا لطيفا
وعن النفس الكلية يقول:

وفوض العقل إليها الأَمْرَا
أودعها صورة كل شيء
وعن الهيولي قال:

وأظهرت من فعلها الهيولي
لأنها وجه لذات النفس
بها مدار العالم الكبير
فكان ما كان بهما معلولا
أصل التراكيب ونشء الحسن
وهي حياة العالم الصغير

بقاء النوع موجود في الطبيعة:

وقال عن الطبيعة، ومنها نظرية أصل النوع وبقاؤه:
طبيعة فاعلة في الخلق
بها بقاء النوع في الوجود
يقدره الله ولي الخلق
إلى تمام الأجل المحدود

أخلاق الجسم أربعة خامسها الروح:

أربعة ركب منها الجسد
أرفعهم الدم والصفراء
والخامس الفرد بها مُتَّحِدُ
ودونهم البلغم والسوداء

القوى المحركة للجسم سبعة:

وهي إذا سبع قوى فعّاله	من الأربع الأخلاط أضحت حاله
أولها جاذبية الطعام	عند الغدا في معدن الأجسام
فهي التي تمسكه في المعدة	وبعدها الهاضمة المُعَدَّة
ثم التي تدفع بعد الهضم	بقوة التبريز ضمن الجسم
وقوة تسري إلى الغذاء	تحفظها عناصر الغذاء
وقوة في كهفها مقيمه	تخلق الصورة في المشيمه
وقوة ساكنة في الكبد	بفعلها ينمو كيان الجسد

شجر النخل صلة الوصل بين النبات والحيوان:

ولم يزل يظهر نوعاً نوعاً والأرض توليه قواه طوعاً
حتى إذا كان ظهور النخل احرز دون القول حدّ الفعل

اللؤلؤ صلة الوصل بين الجماد والحيوان:

ومنه ما انحط لطلّ أوندى من الهواء فغدا مُجَرّداً
إلى بقاع الأرض لما فسد فصار منه لؤلؤاً منعقداً
في غائص اللّجة في الأصدا ف منعقداً في باطن الأجواف

تطور الأنواع للأصلح:

منتقل من حالة دنيّة إلى معالي رتبة سنيّة
في سالف العصور والأزمان حتى تناهى الفضل للمرجان

نظرية أصل الأنواع شعراً:

وكانت الجملة في الأجناس من حيوان الأرض ذي الإحساس
أربع أجناس سوى الأنواع مبعثرة في سائر البقاع
أولها جنس الخشاش الحادة من عفن الأرض عليها ماله
١ - (المائيات):

وبعده السابح فوق الماء والسائح الطائر في الهواء
٢ - (البرمائيات):

والحيوان الزائغ المكبوب مختلف في خلقه عجيب
٣ - (الحيوانات البرية)، ومنها الإنسان:

ومنه ذونطق له حروف ذوبسطة في خلقه ظريف

الإنسان الوحيد بين المخلوقات الذي اختص بالوحي:
وخص بالوحي من الإله وقام في الأرض مقام الله

نعم للوحي لا للرأي والقياس:

ويحكى قصة إبليس عندما تمرد ومما جاء فيها أنه:

وقال بالرأي والقياس ثم بنى الأهداف بالوسواس
وقال بالدين بغير صدق وجعل الباطل شبه الحق
وكنا قد اشرنا إلى أن الإسلام الشيعي المصري لم يخرج عن
أصول الملة الإسلامية طيلة الحكم الشيعي لمصر، ولكن بعد خروج
الشيعية الإسماعيليين من مصر شطّوا عن الإسلام وجنحوا. وبسبب
شططهم وجنوحهم أفتى ابن تيمية بهم وبنا وأخرجنا من الملة
الإسلامية ظلماً ونحن أصحاب البيت الإسلامي الأصيل.

وفي القصيدة الشافية يذكر الناظم أسماء أئمة وأولياء ونطقاء
وأضداد لم نسمع بهم من قبل ولا يعرفهم إلا من شطَّ عن الإسلام
الشيوعي المصري الإمامي.

أسماء الأنبياء قبل النبي محمد (ص):

وقد ذكر الناظم أسماء الانبياء وقصة كل نبي منذ آدم حتى
ظهور النبي العربي (ص).

ومن الاسماء التي ذكرها على التوالي:

آدم - هابيل - شيت - انوش - قينان - مهلائيل - يارد - اخنوخ
- متوشالغ - لمك - نوح - شيبان - لينون - هميان - إدريس -
سام - أرفخشذ - عابر - شالخ - سروج - ناحور - تارح - ذو
القرنين - فالغ - إلياس - اليسع - لوط - صالح - إبراهيم -
إسماعيل - إسحاق - موسى - عيسى

ثم يقوم الإسلام بأربعة أركان:

وقام في الأربعة الأركان أولها موسى وعيسى الثاني
وثالث الأركان خيرُ الخلق محمد خاتمُ دور النطق
والرابع الحائز فضل الرسل القائم الآخر من نسل علي
والإمام القائم من نسل علي وبه يكتمل الدين يقوم على اثني
عشر نقيباً أو داعياً:

حتى إذا ما أكمل الكتاب ورثب الدعوة والأبواب
أقام اثني عشر مُرتباً دعائه الغر الكرام النجبا

ثم يعود إلى ذكر الأنبياء والأوصياء بعد إسماعيل وإسحاق:

قيداد - سلامان - أدد - عدنان - يعقوب - يوسف - لاوي -
يهوذا - أيوب - رازح - يونان أو شعيب - موسى - عيسى -
الخضر - هرون - يوشع بن نون - الياس - اليسع - صموئيل -
داود - سليمان - أشعيا - عزيز - زكريا - مَعْدُ - نزار - مضر -
الياس - مدركة - خزيمة - يحيى - شمعون الصفا.

رأي مصر الشيعية بالمسيح والمسيحية:

يقول ناظم القصيدة الشافية في المسيح والدين المسيحي^(١):

وقام في الدور بحد النطق وحول القبلة نحو الشرق
وَأَلْف التوراة والإنجيل وبَيْن التنزيل والتأويل
ورُتَّب الدين على سبع رتب من عندها العلم الشريف يكتسب
أرفعها البطرك والمطران ثم يليه الأسقف الديان
والقس والكاهن والشماس يتلوه في تنظيمه أسداس
ثم تلاه القارئ المرسوم وهو الذي في حده محروم
وعن مراتب الدخول في الدين المسيحي يقول:

ورُتَّب الموجب أيضاً سبعة أولها العمدة ثم البيعة
وبعدها التوبة ثم المسح فإنه نذر كريم سمح
وبعدها الكهنوت والزواج فإنه للمتقي سيج
وبعدها القربان وهو السابع لأنه للمكرمات جامع

(١) القصيدة الشافية، م.س. ص ٨١.

١ - المعمودية. ٢ - البيعة. ٣ - التوبة أو الاعتراف بالخطايا.

٤ - مسح الجبين بالزيت. ٥ - فريضة الكهنوت.

٦ - الزواج. ٧ - القربان المقدس.

ثم يذكر أوصياء عيسى المسيح (ع) ومنهم: متى - يوحنا -
مرقص - الرقاس - يحيى - سبأ - شنوخ - طالب - مسلمة -
بحيرا الراهب - كنانة - مالك - فهر - غالب - لؤي - كعب ذو
الأنعام - مروة - كلاب - قصي - عبد مناف - هاشم - عبد المطلب.

وبعد ذلك انقسم النور الإلهي إلى قسمين:

وبعده تقسم النور الجلي مابين أحمد وصنوه علي
فخصّ عبد الله بالنبوة وقام فيها أحمد بالقوة
وخصّ بالنور الإلهي علي الأعظم الساري إلى نفس الولي
ذو الكفل عمران الكريم الحبيب وهو أبو طالب زين العرب
فسلم الأمر لخير العالم حائز فضل الأنبياء الخاتم

اجتماع غدير خم:

ثم يروى قصة النبي محمد (ص) من أول مولده حتى حجّه
حجة الوداع واجتماع غدير خم فقال^(١):

لما أتى من حجة الوداع خاتمة الأعمال والأوضاع
وصار في خم على الغدير ونصّ بالأمير على الوزير
فقام بالناس على منبره واستقبل الأمة في عسكره

(١) القصيدة الشافية، م.س. ص ٨٩.

وقال للناس الست أوثر منكم بنفسي نفسكم وأصبرُ
قالوا بلى أنت ولي أمرنا فقال اللهم اشهد بيننا
وقال من كنت أنا مولاه هذا علي المرتضى مولاه
فوال يارب الذي والاه وعاد يارب من عاداه
ثم يذكر كيف آل الأمر إلى علي بعد لأي وكيف انتزع معاوية
الخلافة من الحسن، ويروي مقتل الحسين (ع):

وانتقل الأمر إلى المفادي علي زين العابدين الهادي
وبعده الباقر نجل الطاهر وجعفر الصادق نجل الباقر
وبعده ذو النسل الجليل مقرر دين الله إسماعيل
وهنا يختلف شيعة مصر مع الشيعة الإمامية الاثني عشرية،
فالاثنا عشرية يقولون بإمامة موسى الكاظم شقيق إسماعيل.

فصار نور الله في الإمامة باق مدى الدهر للقيامة
في عقب إسماعيل نجل الفرد الولد البر الكريم الجد
وانتقل النور إلى محمد القائم الكامل فرع هاشم
وبعده المنصور والمعزوز سابع السبوعين والعزير
ومحمد ابن إسماعيل هو في التعداد الثامن وليس السابع ولكن
الإسماعيليين يعتبرونه السابع لأن إمامة الإمام الحسن، يعتبرونها
إمامة ظل واحتياط وليست إمامة تنفيذ.

ثم يروي قيام دور الست ويذكر أن عدد أئمة أربعة أئمة ولكن لا
يذكر أسماءهم. وبالتأكيد أنه لا يعرفهم وإلا لو عرفهم لما خشي على
نفسه، لأنه نظمها في ظل عهد أبناء الخليفة المستنصر الذي حكم الدنيا
من مشرقها إلى مغربها عندما أزال حكم الدولة العباسية سنة ٤٥٢ هـ.

ويذكر الأئمة الخلفاء بأسمائهم:

وقام مهدي الزمان الهادي فطهر الأرض من الفساد
وقام من صلب الحسين الفاطمي سابع أسبوعين والعزیز

والمنصور هو أبو الطاهر إسماعيل ثالث الأئمة الخلفاء

والمعزوز هو الإمام المعز لدين الله، رابع الأئمة الخلفاء.

والحاكم الغائب عند النقلة متستر عن الوری للقلّة

ويبدو من هذا البيت أنّ ناظم القصيدة الشافية هو مسلم شيعي
إسماعيلي موحد درزي، لأنّ الشيعة الإسماعيلية لا يعتقدون باختفاء
الحاكم ولا باستتاره بل فقط هم المسلمون الشيعة الدروز، الذين
يعتقدون باختفاء واستتار الحاكم.

وبعده الظاهر والمستنصر وبعده المولى نزار المجبر

وهنا يتبين من هذا البيت أنّ الناظم لا يؤمن بإمامة وخلافة
المستعلي الذي نصبه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بعد أن قتل
الإمام نزار. ولم يذكر أي اسم بعد الإمام نزار مما يعني أنّ ناظم
الشافية توفى في عهد الخليفة المستعلي أي بعد وفاة المستنصر
سنة ٤٨٧هـ.

وقد أنهى أرجوزته بالتضرع التالي:

إليكم يا آل بيت المصطفى	ما عبدكم في فضلكم قد ألفا
يرجوكم عند حلول الأجل	أن تغفروا تقصيره في العمل
لأنكم نذر الولي الصادق	مدخر أفي الحشر للخلائق
صلّى عليكم ربنا وبارك	في سورة الفرقان مع تبارك
لتغفروا يا سادتي ذنب الولي	ما خاب من لاذبكم آل علي

فهاكها متقنة البيان ذات فصول سهلة الأوزان
سميتها عند التمام الشافية إذ هي للمؤمن أضحت كافيها

هجاء علم التنجيم:

يعتبر علم التنجيم أحد العلوم الفلسفية، وهو علم يدخل في معرفة الغيب، أو استباق الأمور قبل وقوعها، وكان أعداء الخلفاء المصريين يتهمونهم بأنهم يدعون معرفة الغيب عن طريقة علم التنجيم. لذلك قام الأمير تميم بن المعز بنظم قصيدة يهاجمهم علم التنجيم، وينفي ادعاء خلفاء مصر معرفة الغيب. وعندما أقدم أخوه عزيز مصر على إظهار رسائل وكتب جدّه التي تبطل علم المنجمين وترد عليهم وتكذبهم نظم قصيدة جاء فيها^(١):

ولمّا اختلفنا في النجوم وعلمها وفي أنّها بالنفع والضرر قد تجري
فمن مؤمن منّا بها ومكذب ومن مكثر فيها الجدال ولا يدري
ومن قائل: تجري بسعد وانحس وتعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلّمتنا أو يل ذلك كلّه بما فيه من سرٍّ وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلاً وكان بها دون البرية ذا خبر
واخبرتنا أنّ المنجم كاهن بما قال والكهان من شيعة الكفر
وأنّ جميع الكافرين مصيرهم إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمّعنا بعد اختلاف ومزية وألّفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يُجلي ظلام الشك من كلّ ذي فكر
فعدّنا إلى أنّ الكواكب زينة وفيها رجوم للشياطين إذ تسري

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، م.س. ص ٢٠٦.

مسخرة مضطرة في بروجها تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وثر
وما علمت منه الأئمة إنما روه عن المختار جدّهم الطهر

الشاعر المصري ابن خيران شيعي ولكنه لا يرى سب السلف:

يقول الشاعر المصري ابن خيران:

أنا شيعي لآل المصطفى غير أنني لا أرى سب السلف
أقصد الإجماع في الدين ومن قصداً الإجماع لا يخشى التلّف
لي بنفسي شغل عن كل من للهوى قرظ قوماً أو قذّف

وصف الشهيد السهروردي للروح وهبوطها:

والسهروردي هو شهاب الدين، أبو الفتوح، يحيى بن حبّش
المشهور بالشيخ المقتول، قتله صلاح الدين الأيوبي بسبب إقدامه
على إقناع ولده الأفضل علي بن صلاح الدين بأحقية «علي وبنوه»
بالإمامة والخلافة من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.

يقول السهروردي في صفات الأرواح^(١):

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم تشوّقا
وتلفّت نحو الديار فشاقتها ربّع عفت أطلاله فتمزّقا
وقفت تسائله فردّ جوابها رجع الصدى أن لا سبيل إلا اللقا
فكأنما برق تألّق بالحمى ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

(١) هياكل النور، شهاب الدين السهروردي، ط ١، مصر، القاهرة، مطبعة السعادة، سنة

ومن شعره الصوفي أيضاً:

أبدأ تحن إليكم الأرواح	ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل وداكم تشناقكم	والى لذيل لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلّفوا	ستر المحبة والهوى فضّاح
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم	وكذا دماء العاشقين تباح
وإذا همو كتموا تحدّث عنهم	عند الوشاة المدمع السفاح
وبدت شواهد للسقام عليهم	فيها المشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم	للصّب في خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مرتاحة	والى رضاكم طرفه طمّاح
عودوا بنور الوصل من غسق الجفا	فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم	في نورها المشكاة والمصباح
وتمتّعوا فالوقف طاب لقربكم	راق الشراب ورقّت الأقداح
يا صاح ليس على المحبّ ملامّة	إن لاح في أفق الوصال مباح
لا ذنب للعشّاق إن غلب الهوى	كتمانهم فنما الغرام فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها	لسمادروا أنّ السماح رباح
ودعاهم داعي الحقيقة دعوة	فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سفن الوفا ودموعهم	بحرّ وشدة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه	حتى دعوا وأتاهم المفتاح
لا يطرّبون لغير ذكر حبيبهم	أبدأ فكلّ زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم	فتهتّكوا المارأوه وصاحوا

أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالرجال فلاح
قُمْ يا نديم إلى المدام فهاتها في كأسها قد دارت الأقداح
من كرم أكرام بدت ديانة لا خمرة قد داسها الفلاح
والخمرة والكرم والدين والأقداح كلها رموز صوفية تعني خمر
الحب الإلهي والكرم والدين والأقداح هي، الأحاديث القدسية والآيات
القرآنية التي يغرف منها الصوفي وَيَعْبُ وَيَنْهَل من معانيها حتى
يسكر بالحب الإلهي.

وصف آلة مراقبة النجوم «الاسطرلاب»:

قال أبو الصلت الأندلسي المصري يصف آلة الاسطرلاب^(١):
جرم إذا ما التمسست قيمته جلّ على التبر وهو من صفر
مختصر وهو إذ تفتّته عن مَلَح العلم غير مختصر
ذو مقلة يتسببن ما رَمَقَتْ عن صادق اللحظ صائب النظر
تحمله وهو حامل فلكا لو لم يُدَرّ بالبنان لم يَدُر
مَسْكَنُهُ الأرض وهو ينبئنا عن جلّ ما في السماء من خبر
أبدعه ربُّ فكرة بعدت في اللطف عن أن تقاس بالفكر
فاستوجب الشكر والثناء له من كلّ ذي فطنة من البشر
فهو لذي لب شاهدٌ عَجَبٌ على اختلاف العقول والفطر
وإن هذي الجسوم بائنة بقدر ما أُعْطِيَتْ من الصور

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة، الجزء الثالث، ص ٩٧.

الفكر الشيعي الإسماعيلي بعد خروجه من مصر:

بينما نجد أنَّ الدعوة الشيعية الإمامية في مصر بعد الخليفة الأمر، انقسمت هي أيضاً إلى قسمين، بعد أن كانت قد انقسمت بعد الخليفة المستنصر إلى مستعلية ونزارية. ولما مات الخليفة الأمر، قيل إنَّ ابنه الطيب أبا القاسم قد خطف وأرسل إلى اليمن، حيث قامت حرّة اليمن، أروى بنت أحمد الصليحي، بالمحافظة عليه وحمل لواء الدعوة الإسماعيلية الطيبية، مما جعل الشعب المصري ثلاثة أحزاب إلى جانب الأحزاب الشيعية الأخرى: مستعلية - نزارية - طيبية - اثنا عشرية - زيدية. وكانت هذه الخصومات والنزاعات ممهدة لسيطرة الأكراد الغز على مصر وخيرات مصر.

نظم داعي الدعاة الإسماعيلي اليمني علي بن حنظلة الوداعي، قصيدة في الفكر الإسماعيلي الفلسفي، بعد خروج التشيع من مصر في كتاب سماه: «سمط الحقائق» شرح فيه الفكر الفلسفي الإسماعيلي خارج مصر جاء فيه^(١):

نحمده إذ خصّنا من النعم	بما به فضلنا على الأمم
جعلنا من أمة الرسول	محمد ذي الشرف الأصيل
وقادنا إلى ولا الوصي	من بعده مولى الوري
وفاطم الطهر ومولانا الحسن	مستودع السرّ الزكي المؤمن
ثم الحسين صاحب الوديعة	ومستقر الرتبة الرفيعة
ونجله مطارح الشعاع	أهل الظهور حجب الإبداع

(١) كتاب سمط الحقائق في عقائد الإسماعيلية علي بن حنظلة الوداعي، ط ١، دمشق، منشورات المعهد الفرنسي، سنة ١٩٥٣، ص ٢٢.

يظهر بالواحد بعد الواحد في ولد مطهر من والد
إلى إمام العصر والزمان مولى الأنام حجة الرحمان
هادي البرايا سابع الأشهاد باب الرشاد موئل العباد
«الطيب» المنتجب المستور نجل الإمام الأمر المنصور
صلّى عليهم ربنا وسلّم ملاح ضوء البرق في أفق السما
وبعد هذه المقدّمة يعالج ابن الوداعي كلّ المقولات الفلسفية التي
عالجها غيره من شعراء مصر والفلاسفة حتى يصل دور النبي
محمد (ص):

وبعد كلّ ناطق وصيّ يخلفه منتجب مرضيّ
مبيناً تأويل ما أتى به من سنّة الله ومن كتابه
ثم يقيم بعده أثمّه مطهرين ينشرون الحكمه
وكلّما أتى زمان ناطقٍ ازداد نشر العلم في الخلائق
حتى انتهى الدور إلى مولانا محمد ناطقه فكانا
أفضل كلّ ناطق تقدّما صلّى عليه ربنا وسلّم
وشرعه أفضل كلّ شرع ووضعّه أكمل كلّ وضع
وآله أشرف كلّ آل وصفوة النساء والرجال

بدء الخروج عن الإسلام: التجلي الإلهي:

لقد أثبتنا أن الإسلام الشيعي المصري لم يخرج عن أساسيات
الفكر الإسلامي الأصيل ولا خرج عن أدبيات إسلام أهل البيت، ولكن
بعد خروجهم من مصر شطّوا عن الإسلام وجنحوا، فهذا علي بن
حنظلة الوداعي يتبنى فكرة التجلي الإلهي، أو فكرة حلول اللاهوت

في الناسوت، تلك الفكرة البدعة، ولا علاقة للإسلام الشيعي المصري بها^(١).

حتى إذا ما أتت المباشرة من المقام للبتول الطاهره واجتمعا عند النكاح الأشرف فعندها بلغ التدبير ووقع التسليم والتعيين واتحد الناسوت باللاهوت وظهر المحجوب بالحجاب ثم ارتقى إلى المحل الأفضل إلى جوار الواحد السميع

من المقام للبتول الطاهره وذلك أمر واجب لا ينتفي على المراد واستوى التقدير لرتبة الوحدة والتبيين في الزمن المقدّر الموقوت وذلك أقصى منتهى الطلاب هيكل ذلك المقام الأول

مالك أمر العالم الطبيعي وفكرة التجلي الإلهي وحلول اللاهوت بالناسوت أو اتحاد الناسوت باللاهوت هي من أساسيات الفكر المسيحي، وأخذها المسلمون الشيعة الموحّدون «الدروز» وضمّنوها فكرهم الفلسفي لتبرير غيبة الحاكم، باعتقادهم حلول الروح الإلهية فيه ومن ثم احتجابه عن الناس:

.....

مبايناً للعالم الدنيّ ونازلاً بالمنزل العليّ مرافقاً لزبد الأعصار في البرزخ المقدّس المعظم

من بعده ثم ارتقى مفارقاً ونازلاً بالمنزل العليّ أبائهم الأئمة الأطهار منتظرين للمقام الأعظم

(١) سمط الحقائق، م.س. ص ٤٨.

نظرة أهل السنة لشيعة مصر:

ومن أهم القصائد التي رَدَّت على الشعر الفلسفي الإسلامي
الشيوعي المصري، قصيدة الإمام ابن قيم الجوزية. وقد نظمها ردّاً
على القصيدتين الكافية والشافية الشيعيتين.

ومما جاء فيها ردّاً على ابن سينا:

زعموا القرآن عبارة وحكاية قلنا كما زعموه قرآنان
والفرقة الأخرى فقالت إنه لفظاً ومعنى ليس ينفصلان
وأتى ابن سينا القرمطي مصانعاً للمسلمين أفك ذي بهتان
وردّ على نصير الدين الطوسي بقوله:

ومضى على هذي المقالة أمة خلف ابن سينا فاغتذوا بلبان
منهم نصير الكفر في أصحابه الناصرين لملة الشيطان
فاسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء كل موحد ربّاني
واسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء رسل الله والقسرآن
صوفيهم عبّد الوجود المطلق المعدوم عند العقل في الأعيان
الله أكبركم على ذا المذهب الملعون بين الناس من شيخان

ويصف علاقة المصريين بخلفائهم فيقول:

يبغون منهم دعوة ويقبلون أياديهم رجا الغفران
ولوائهم عرفوا حقيقة أمرهم رجموهم لاشك بالصوان
فابدر لهم إن كنت تبغي كشفهم وافرش لهم كفناً من الأكفان
ومنها:

فالسب والشتم القبيح وقذفهم للمحصنات وكل نوع أغاني

ويعني بالمحصنات - عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها -

والنوح والتعزيم والسحر المبين وسائر البهتان
شرد بهم من خلفهم واكسرهم بل نادى في نواديهم بأذان
أفسدتم المعقول والمنقول والمسموع من لغة بكل لسان
وهي قصيدة طويلة كما أشرنا وأنها تتجاوز الستة آلاف بيت، لم
يترك أحداً من فرق الشيعة إلا وهاجمه فيها. ويبدو أنه كان معاصراً
للخواجة نصير الدين الطوسي، حيث يشير إليه بالقدح والذم كل ما
حلّاه ذلك^(١):

وكذا أتى الطوسي بالحرب الصريح بصارم منه وسل لسان
وأتى إلى الإسلام يهدم أصله من أسه وقواعد البنيان
عمر المدارس للفلاسفة الألي كفروا بدين الله والقرآن
وأراد تحويل الإشارات التي هي لابن سينا موضع الفرقان
وأراد تحويل الشريعة بالنواميس التي كانت لدى اليونان
لكنه علم اللعين بأن هذا ليس في المقدور والإمكان
إلا إذا قتل الخليفة والقضاة وسائر الفقهاء في البلدان
فسعى لذلك وساعداً المقدور بالأمر الذي هو حكمة الرحمان
فأشار أن يضع التتار سيوفهم في عسكر الإيمان والقرآن
فشفى اللعين النفس من حزب الرسول وعسكر الإيمان والقرآن
وبوده لو كان في أحد وقد شهد الواقعة مع أبي سفيان
لاقرأ عينهم وأوفى نذره أو أن يرى متمزق اللحمان

(١) القصيدة النونية، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيم الجوزية، ط ١،

بيروت، دار المعرفة سنة ١٣٤٥، ص ٤٩.

والخواجه نصير الدين الطوسي هو الذي انتصر على المغول حضارياً، أي بواسطة الفكر الإسلامي، حيث أقنعهم بالدين الإسلامي وأدخلهم فيه. هذا ما نعلمه عن الطوسي ولكن ابن قيم الجوزية يخاف على أبي سفيان منه ويعتبره من الملاحدة الزنادقة العاملين على هدم الإسلام وقتل المسلمين.

تلك هي المشكلة: مسلمان ينهلان من منبع القرآن والسنة وينظران نظرتين مختلفتين لشخص واحد: نحن نعتبره شيخ الطائفة وفقهها ومنزلته منزلة ولي الفقيه، القائم مقام الإمام المعصوم في حال غيبته. وهو يعتبره زنديقاً ملحداً متآمراً على الإسلام والمسلمين. نريد حلاً...



مركز تحقيقات تاريخ و فرهنگ اسلامی

فن التوشيح

لم يكن هناك سدود حضارية بين إمارات وممالك العالم الإسلامي، فإذا ظهر فنُّ في بغداد، تجد له صدى في كابول والقاهرة وقرطبة، وكذلك إذا ظهرت موجة أو عادة حضارية في شنقيط أو غرناطة، تجد صداها في دمشق أو شيراز أو صنعاء أو زبيد. وفن التوشيح أو الموشحات أول ما ظهر، ظهر في ثغر الأندلس في إسبانيا، ولكنه انتشر ذكره وكثر نظمه عند كل الشعراء العرب المعاصرين لظهوره، لذا، سنجد أن بعض الشعراء المصريين، أدلى بدلوه في بئر هذا الفن الشعري الجديد، وغرف منه نظماً جميلاً رائعاً ضاهى فيه أهله، وطرق حزنه وسهله.

موشح ابن عياد الإسكندري:

قال العماد الأصفهاني أن الخليفة الحافظ سجن ابن عياد لإقدامه على مدح أحمد بن الأفضل المسمى «كتيفات».

والموشحات عادة، كانت تنظم في الخمرة والغزل أكثر الأحيان، ولكن ابن عياد نظم هذه الموشحة في مدح محمد بن أبي أسامة

حيث قال فيها^(١):

يامن الودبظله في كل أمر مشكل
لا زلت من أصحابه متمسكاً بيد السلامه
أمنساً من كل بأس
في الحوادث والصروف
وأعوذ منه لفضله في كل أمر مشكل
مالاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامه
لا تميل إلى شمس
دون موضعها الشريف
وأعده لي معقلاً أضحي عليه مقولي
عند المثل ببابه لما أمنت من الندامه
في السماع وفي القياس
المحض والنظر الشريف
وأجله عن مثله مثل الحسام الفيصل
ماض بحد ذبابه في كل جمجمة وهامه
ثابت صعب المراس
على مباشرة الحتوف

ومهما كان، فإذا لم تكن هذه المقطوعة الشعرية تراعي كل قوانين
التوشيح، فهي على الأقل، محاولة جديدة للخروج عن العمود الشعري
من ناحية القافية الواحدة ومن ناحية الانتقال من الغزل ثم المدح.

(١) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، الجزء الثاني، ص ٤٤.

ومن موشحات شاعر الإسكندرية ظافر الحداد هذه الموشحة^(١):

ثَغْرَ لَاحِ يَسْتَأْسِرُ الأرواحَ	لما فاحَ ما الخمرُ؟ ما التفاحُ؟
أَلَسْ جَانِي	ذا التائه الجاني
أَنْسَسَانِي	نظرة إنسانني
أَفَنَنَانِي	طيرُ بأفنانني
أَحْيَانَانِي	في بعض أحيسانني
لما صاحَ ما خلَّته يا صاحَ	للأرواحَ ذا نشوة من راح
قَلْبِي مَالُ	ففيه إلى الأمالُ
مَالِي حَالُ	يا قوم لِمَا حَالُ
لولا الخصالُ	مَا كُنْتُ إِلا خَالُ
لَمَّا غَالُ	قَلْبِي فصبيري غَالُ
ذا المَرَّاحُ عاتبته ما زاحَ	والإصلاحُ أن أترك الإصلاحَ
أَعْمَلِي لِي	موتني بسإعلا لي
أوصلي لي	نيرانَ أوصالي
بَلْ بَالِي	أُولِي بَبَالِي
يَسَاحَالِ	انظر إلى حالِي
ما قد ساخَ من مُقلتي سَخَاحَ	ذو إفصاحَ بالسُرِّ بالإفصاحَ
بَدْرُ بَنَانُ	في مثل خُوطِ البنانُ
وَجَدَ زَانُ	قَدْ أَكْعَمَ وِيزَانُ
فَسَالِ إِخْوَانُ	في اللومِ لي خُوَانُ
وَالْعَيْنَانُ	لِمَا جَفَاعِ عَيْنَانُ

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ٣٣٣.

جسْمٌ راح يُذْمِيهِ لَمَسُ الرّاحِ لِمَا لاخ لم أحتفل بالراح
يَافَقْتُكَ بالقَتْلِ مِنْ أَفْتَاكَ
مَأسَاكَ لِيلا إلى أسْراك
مَأسَاكَ سَبْحًا مِنْ أَخْلاك
مَأسَاكَ وَجْهًا، وَمَأسَاكَ
كالمصباح نوراً، بل الإصباح كم ارتاح للقرب لو ترتاح

ومن نظم الشاعر ابن قلاقس في الموشح قوله^(١):

- (١) نهيتُ عن نُصْحِي، من رامَ أنْ يُصْحِي، فما انتهى
- (٢) وكيف للأثم، أن يَغْتَدِي الهائم، كما أَسْتَهِي
- (٣) وابابي جؤذر، من لحظه مُخْذَر، ليثُ العرينُ
- (٤) مثل الضحى مَنْظَر، يروقُ إذ يَنْظُر، من أَلْجَبِينُ
- (٥) قلت وقد أَسْكُر، لا قولَ مَنْ أنْكَر، قم يا خديِرُ
- (٦) وهاتِ في الجُنْحِ، شقيقة الصُّبْحِ، فقالَ ها
- (٧) ويلاهُ من ناعِم، كالرَّشَا الباغِم، قد قالَ ها
- (٨) عُلُقْتُهُ غُصْنًا، كالبدرِ بل أَسْنَى، بل كالمصباح
- (٩) قد ساعدَ الظَّنَّ، وأسعدَ الضَّنَّ، على السَّماح
- (١٠) قلتُ وقد أَجْنَى جَنَّا، ذاك الأقاخ
- (١١) بيناهُ في شُحٍّ، قد عاد في سَحٍّ، فها وها
- (١٢) يا واصلا صَارِم، بجفْنِكَ الصَّارِم، صبري وَهَى

(١) ديوان ابن قلاقس، م.س. ص ٦١٠.

- (١٣) بالله يا إلفي، انهض إلى ألفي، وسقني
 (١٤) من قهوة صرّف، عن مُقبل الصرّف، لا تننني
 (١٥) وهاتها تشفي، من كاذ أن يُشفي، وغنني
 (١٦) في ابن أبي الفتح، قد انتهى مدحي، فلا انتهى
 (١٧) يا أيها الكاتم، ما القمّر الغائم، مثل السهي
 وقال أيضاً:

هم يعدلوا من يسمع من كلام من عدّاله
 أنا شيطانُ عشقي في المحبةِ مارِدُ
 وعذولي يضربُ في حديدِ بارِدُ
 وليسَ يزدي زاهدٌ وليسَ يزدي عائدُ
 خلّق الله الإنسانَ وخلّق أعماله
 من عذولٍ ليسَ يسمعُ من عذولٍ ليسَ يعقلُ
 وعذولي المسكينُ في المحبةِ جاهلُ
 نائمٌ في باله أني بكلامه أعملُ
 نائمٌ في باله أني بكلامه أعملُ
 وإنني ليسَ أعملُ بما يقومُ في باله
 إنني لأعشقُ من لا يهوى ويعشقُ
 الجمّلُ حُسينٌ يسكُتُ والجمارُ حُسينٌ ينطقُ
 والله إنني صادقٌ ولقد قلتُ الحقُّ
 وكثيراً من قبلي مثل قولي قالوا

شعر الألفاظ والأحاجي

شعر الألفاظ والأحاجي هو شعر ينظمه الشاعر للتسلية والأحجية أو اللغز، هو نوع من «الفزورة» في لغة أهل مصر و «الحزورة» في لغة أهل بر الشام، يقوم الشاعر على نظمه بمقطوعة شعرية، وفي أكثر الأوقات لا يحسن سبكها، فيبقى حل هذه «الفزورة» وقفاً عليه، وهو نوع من الشعر الرديء الذي يخرج من باب الشعر ويندرج تحت باب النظم.

ويبدو أن هذا النوع من الفنون الشعرية، انتقل من الأندلس إلى مصر، ولا غرو، فحضارة الأندلس هي حضارة وسط بين الحضارة الغربية وحضارة مصر الإسلامية الفاطمية، وليس غريباً على مصر أن تأخذ وتعطي، فهذا دأبها على مر العصور.

وأكثر من اشتهر في هذا النوع من الشعر ابن قلاقس وأبو القاسم بن مجير الإسكندراني.

ومن هذه الألفاظ و «الفزازير» قول ابن مجير^(١):

(١) خريدة القصر، الجزء الأول، ص ٢٣٠.

أَحَاجِيكَ مَا سَابِقُ لِلْخِيُو لِ لَا تُخْسِنُ الرِّيحُ تَجْرِي مَعَهُ
يَسِيرُ عَلَى حَافِرٍ وَاحِدٍ قَوَائِمُهُ فَوْقَهُ أَرْبَعُهُ
إِذَا الْمَرَّةُ أَوْدَعَهُ عِدَّةُ أَتَاهُ بِأَضْعَافٍ مَا أَوْدَعَهُ
وَيُطْعِمُهُ جَهْدُهُ وَهَوَا يَكَادُ مِنَ الْجِرْصِ أَنْ يَشْبِعَهُ
يَخِفُّ فَتَحَسِبُهُ رَيْشَةً وَلَا يَقْدَرُ الْبَغْلُ أَنْ يَرْفَعَهُ

وقوله في فزورة أخرى:

مَا أَحْرَفْتُ قَرَامَ قُلُوبَةٍ لِلطَّيْرِ وَالْأَنْعَامِ مَنْسُوبَةٍ
صَحِيحَةُ الشَّكْلِ وَلَكِنَّهَا مَكْسُورَةُ الْأَبْعَاضِ مَضْرُوبَةٍ
أَظْهَرْتُهَا جَهْدِي وَأَخْفَيْتُهَا فَهِيَ مَعَ الْهَتَكَةِ مَحْجُوبَةٍ
ومنها هذه «الفزورة»:

أُحْجِيَّةٌ شَأْنُهَا عَجِيبٌ يَفْهَمُهَا كُلُّ ذِي قَرِيحَةٍ
مَاذَا تُخَدِّبُهُ سَوَادٌ كَخَدْنُوبِيَّةٍ صَرِيحَةٍ
وَأَخْرَأَبِيضٌ نَقِيٌّ يُخَالُ مِنْ فِضَّةٍ صَرِيحَةٍ
مَحْجُوبَةٌ تُشْتَهَى وَلَكِنْ لَكُونِهَا طِفْلَةٌ مَلِيحَةٍ
وَكُلُّ مَنْ لَامَ فِي هَوَاهَا يَمُخَّضُكَ الْوَدُّ وَالنَّصِيحَةُ

وقال صالح بن مؤنس ملغزاً^(١):

مَا اسْمٌ إِذَا صَحَّفْتُهُ وَعَكَسْتُهُ وَنَقَّصْتَ حَرْفًا مِنْهُ كَانَ سَلَا حَا
وَإِذَا أَقَامَ وَلَمْ يَخُلْ عَنْ حَالِهِ عَادَى الْعُقُولَ وَصَالِحَ الْأَرْوَاحِ
وقد استمر هذا الفن طيلة العصور الفاطمية لا يعدو كونه يشكل
جزءاً يسيراً من منظومات الشعراء، حتى دخل العرب والمسلمون في

(١) يتيمة الدهر، الجزء الأول، ص ٤٠٣.

النفق الكردي الأيوبي المملوكي العثماني، فضاع الشعر وغرقت اللغة
بظلام بعد هؤلاء الأغراب عن العرب والعروبة، وسقط الشعراء العرب
في وحل برك الألفاظ والأحاجي الأسنة والراكدة، حتى أصبح لا هم
للشاعر إلا أن يكّد ذهنه وجهده حتى ينظم لنا قصيدة أو مقطوعة
ملغزة، لا طعم لها ولا هدف، تاركاً هموم وآلام الأمة العربية وراء
ظهره، يتحكّم بها الطغاة البغاة العتاة، ما بين كردي جاهل ومملوكي
دعيّ خسيس الأصل، مجهول النسب، وتركي تحكمه شهواته
ونزواته.



الفهرست

٥	الكتاب الرابع
٧	الباب الأول
٧	حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي بقلم الشعراء والأدباء المصريين
١٠	الخلفاء الشعراء:
١١	شعر الخليفة المهدي بالله:
١١	شعر الخليفة القائم بالله ابن المهدي:
١٦	شعر الخليفة المنصور أبو الطاهر إسماعيل:
٢١	ومن شعر الخليفة المعزّ قوله:
٢٤	شعر الخليفة العزيز بالله
٢٦	شعر الخليفة الحاكم:
٢٩	شعر الخليفة الظاهر:
٣٠	شعر الخليفة المستنصر:
٣١	شعر الخليفة الأمر لأحكام الله:
٣٤	الوزراء الشعراء
٣٤	شعر الوزير يعقوب بن كلّس:
٣٧	شعر الوزير أبي القاسم المغربي:
٣٩	في الشعر العلوي:

٤٣	في الحنين إلى مسقط الرأس:
٤٤	في وصف الجار:
٤٧	شعر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك:
٤٩	عمارة اليمنى: يرفض سبّ السلف:
٥٠	الملك الصالح بن رزّيك يدعو عمارة لترك التسنن والالتحاق بالشيعة:
٥٠	شعر الملك الصالح طلائع بن رزّيك أيضاً:
٥٥	الباب الثاني
٥٥	المجتمع المصري الفاطمي بقلم الشعراء المصريين
٥٧	شعر الوصف:
٥٨	وصف الطبيعة:
٦٠	وصف المشمش:
٦٤	ليس الصيف جنة والشتاء جهنم:
٦٥	الغيم يبكي مطراً خوفاً من البرق، والرعد يصيح خوفاً منه:
٦٨	وصف نافورة ماء:
٦٩	وصف الاهرام:
٧٠	وصف أبي الهول:
٧٠	وصف منارة الإسكندرية:
٧١	وصف باب زويلة:
٧٢	وصف النيل والفسطاط:
٧٢	وصف الزلزلة:
٧٣	وصف كسوف الشمس:
٧٤	وصف باشق:
٧٤	وصف الاحتفالات بأخذ مقياس النيل أو فتح الخليج:
٨٠	وصف عملية إنقاذ طفل من الغرق:
٨١	وصف بركة الحبش:

٨٢	وصف الزورق:
٨٣	وصف الاسطول المصري الفاطمي:
٨٤	وصف الدور والقصور:
٨٥	وصف منظر العروسين:
٩٠	وصف دار المختار محمد بن عبيد الله المسبّحي:
٩١	وصف السبيل:
٩٣	وصف الشمس:
٩٤	وصف النقش على الصواني:
٩٥	النحت وسكب المعادن:
٩٦	وصف الصور والنقوش:
٩٧	وصف خيمة القاتول:
١٠٠	وصف مقص:
١٠٠	وصف القاضي العادل:
١٠١	وصف المعركة بين الشمس والظلام:
١٠٣	في وصف إضمامة زهور:
١٠٣	في وصف شم النسيم:
١٠٤	وصف سيف:
١٠٤	السيف شيعي كحامله:
١٠٤	الصّحة أفضل كنز:
١٠٥	القط المؤدّب:
١٠٦	وصف الرميح:
١٠٦	وصف مشط للشعر:
١٠٧	وصف قلم:
١٠٨	وصف دواة:
١٠٨	وصف صلاة العيد والخطبة:

- ١٠٩..... وصف قافلة الحج المصرية:
- ١١٠..... وصف فرس:
- ١١٣..... وصف كلاب الصيد:
- ١١٥..... وصف بان:
- ١١٥..... وصف حريق:
- ١١٥..... وصف أطايب المأكولات:
- ١١٦..... وصف اللحم بعجين:
- ١١٧..... وصف دعوة على الطعام:
- ١١٩..... وصف جام (جاط) قطايف:
- ١٢٠..... وصف القطائف:
- ١٢٠..... وصف صدر كثافة:
- ١٢١..... وصف أكلة ملوخية:
- ١٢١..... أجبان والبان:
- ١٢٢..... وصف أكلة سمك بدون حسك:
- ١٢٣..... ووصف أترجة:
- ١٢٣..... العروس فراشة والعريس سراج يحرقها:
- ١٢٤..... وصف عريس وعروس:
- ١٢٥..... وصف الكمثرى:
- ١٢٦..... وصف التمر والبلح الزغلولي:
- ١٢٦..... وصف التين:
- ١٢٧..... هجاء صاحب حمّام قذر:
- ١٢٩..... وصف حمّام نظيف:
- ١٢٩..... وصف رجل أبخر:
- ١٣٠..... وصف أبخر الطرفين:
- ١٣٠..... وصف رجل ثقیل الدم:

- وصف أعرج: ١٣١.....
- حلاق ماهر وحلاق أخرق: ١٣١.....
- بيت أقرف من السجن: ١٣٢.....
- وصف سجين: ١٣٢.....
- وصف السجن: ١٣٣.....
- وصف سجن خزانة البنود: ١٣٣.....
- التجار يبيعون الشاعر عمارة داراً آيلة للسقوط: ١٣٦.....
- وصف الوزارة: ١٣٨.....
- لو دامت لغيرك لم تصل إليك: ١٣٨.....
- وصف قوة المال والسلطة عندما تجتمعان في يد الوزير: ١٤١.....
- وصف سقوط بغداد بأيدي المستنصر بالله الفاطمي: ١٤٢.....
- وصف بخيل: ١٤٥.....
- وصف الفقير: ١٤٦.....
- كثرة الأولاد: مصيبة وجناية: ١٤٧.....
- وصف خادمه: «أم كدومة» مركزية تكوي برقعاً: ١٤٨.....
- وصف الشيب: ١٤٨.....
- وصف قلب الإنسان وتقلباته: ١٤٩.....
- وصف المعاملات والرشوة في الدوائر الحكومية: ١٥٠.....
- وصف ضيف ثقيل الدم: ١٥٠.....
- وصف قاضي: ١٥٠.....
- وصف الحالة بعد شرب الدواء: ١٥١.....
- وصف ملاح: ١٥١.....
- وصف القرافة: ١٥٢.....
- وصف أعور: ١٥٢.....
- وصف رجل كثير النسيان: ١٥٣.....

١٥٤.....	وصف منزل قببج:
١٥٤.....	وصف غرفة ضيقة:
١٥٥.....	وصف كانون الفحم:
١٥٦.....	وصف مدرسة:
١٥٧.....	التهنئة بظهور براءة الصديق «أبو العز» وخروجه من السجن:
١٥٨.....	وصف العود:
١٥٩.....	وصف جوقة تلحين كنسية:
١٥٩.....	وصف جوقة كنسية:
١٦٢.....	أهمية الأمن والأمان في مصر الفاطمية
١٦٢.....	وصف رجل أكل:
١٦٥.....	شعر الحرب أو الشعر العسكري في أدب مصر الفاطمية
١٧٠.....	وصف حملة حباسة بن يوسف الكتامي على مصر:
١٧٣.....	وصف فتح مصر من قبل جوهر الصقلي:
١٧٦.....	وصف فتح مصر:
١٧٩.....	الحرب ضد الروم البيزنطيين
١٨٦.....	وصف الحروب الصليبية شعراً:
١٩١.....	فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة:
١٩٢.....	وصف معركة بحرية قادها الملك الصالح ضد الفرنجة:
١٩٦.....	وصف احتلال مصر من قبل الأكراد شعراً:
١٩٨.....	وصف حرق حارة السودان والأرمن من قبل صلاح الدين:
٢٠١.....	ملوك مصر عبيد والعبيد الأكراد ملوك:
٢٠٢.....	شعر المواكب الاستعراضية والاحتفالات
٢٠٢.....	وصف موكب العيد:
٢٠٣.....	وصف المظلة:
٢٠٨.....	وصف موكب الحج:

- ٢٠٩..... وصف عيد الغطاس:
- ٢١٠..... وصف أخذ مقياس النيل أو احتفالات فتح الخليج:
- ٢١١..... كثرة الأعياد وتدافعها:
- ٢١٢..... شعر الخمرة والمجون
- ٢١٢..... وصف قعدة شرب:
- ٢١٣..... وصف دير:
- ٢١٥..... أهمية شعبان قبل رمضان عند شعراء المجون:
- ٢١٦..... شرب الخمرة في رمضان:
- ٢١٦..... وصف سكران:
- ٢١٧..... وصف أثر الخمرة في الجسم:
- ٢١٨..... الأئمة الأربعة لم تمنع شرب الحشيشة:
- ٢١٩..... وصف تهتك الناس وسكرهم يوم الخليج:
- ٢٢٠..... التهتك أطيب من التستر:
- ٢٢٢..... علي بن حبيب الراني يتغزل بيهودي:
- ٢٢٢..... أبو الرقعق يصف ما يسبب له الشبق الجنسي من مشاكل:
- ٢٢٤..... شعر المباسطات الإخوانية
- ٢٢٥..... جلسة شعر على أكلة دجاج:
- ٢٢٥..... لعبة الصفح:
- ٢٢٧..... وصف ممارسة العادة السرية:
- ٢٢٨..... باب الأمير مغلق:
- ٢٢٨..... خطير الملك يعد الفقيه عمارة بعمامة ملوكية:
- ٢٢٩..... الشاعر الوضيع يحيى بن علي مفتي الديانة النؤاسية:
- ٢٢٩..... رخاء عراق العباسيين خراء:
- ٢٣٠..... ابن مكنسة على طريقة أبي الرقعق:
- ٢٣١..... ابن قلاقس يداعب صاحباً له اسمه ابن عدلان:

- ٢٣١..... سرقة ثياب ابن قلاقس وهو يسبح:
- ٢٣٢..... وقال ابن قلاقس يصف لحية صاحبه:
- ٢٣٢..... أبو الرقعق يتحامق:
- ٢٣٣..... أبو الرقعق يحدّد مواصفات البنت التي أحبّها:
- ٢٣٨..... الفخر والحماسة
- ٢٣٩..... الأمير تميم يفتخر:
- ٢٤٠..... الأمير تميم يفتخر بالدولة الفاطمية:
- ٢٤٤..... المهذب بن الزبير: إمام العلا وإمام الردي:
- ٢٤٥..... عمارة اليمني يتفاخر على توران شاه الأيوبي:
- ٢٤٦..... شعر الغزل عند شعراء مصر الفاطمية
- ٢٤٧..... غزل ومجون وخمرة:
- ٢٤٧..... أبو الفتح منصور بن البيني يعشق جارية سوداء:
- ٢٤٨..... أينظر إلى المسجد أم إلى النهدين:
- ٢٤٨..... ابن مجير الصقلي يهوي هيفاء الخضر راجحة الأكفال:
- ٢٥٠..... جفون الحبيبة تحول شقائق النعمان إلى بنفسج:
- ٢٥١..... التغزل بنساء لابسات ثوب الحداد:
- ٢٥٢..... الأمير تميم يعشق الفتيات الشقراوات:
- ٢٥٣..... خبر ابن مياح والبدوية مع الخليفة الأمر:
- ٢٥٤..... لحظ الرشأ يصطاد الأسد:
- ٢٥٤..... الناس طوع يدي الملك الصالح وهو طوع يدي محبوبه:
- ٢٥٦..... شعر الهجاء
- ٢٥٧..... هجاء الخلفاء المصريين:
- ٢٥٩..... هجاء الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ:
- ٢٦٠..... هجاء ناصر الدولة بن حمدان:
- ٢٦٠..... هجاء الوزير شاور:

- ٢٦١..... هجاء وزراء الدولة الفاطمية:
- ٢٦١..... هجاء الأفضل بن بدر الجمالي:
- ٢٦٢..... هجاء الوزير عباس:
- ٢٦٣..... هجاء أعداء الدولة الفاطمية: بني أمية
- ٢٦٤..... هجاء النصاري:
- ٢٦٥..... هجاء اليهود:
- ٢٦٦..... هجاء منشأ ابن إبراهيم القزاز الكاتب اليهودي:
- ٢٦٨..... هجاء موظفي الدولة الفاطمية:
- ٢٦٩..... هجاء الكاتب المعروف بالجُعل:
- ٢٧٠..... هجاء ابن كازوك لفرضه الخوات والجعالات على أهل الغربية:
- ٢٧٢..... هجاء كتاب الدواوين المرتشين ومن يحميهم من المسؤولين:
- ٢٧٣..... هجاء الطبيب علي بن رضوان طبيب الخليفة المستنصر:
- ٢٧٤..... وصف خرفان (خَرْف):
- ٢٧٤..... وصف رمد العين:
- ٢٧٥..... وصف أعور:
- ٢٧٥..... هجاء أهل يافا:
- ٢٧٦..... هجاء الرشيد بن الزبير:
- ٢٧٦..... هجاء إبليس:
- ٢٧٧..... هجاء الدولة الفاطمية بعد تدميرها
- ٢٧٧..... هجاء ابن أبي حصيبة ورد عمارة عليه وجاهياً:
- ٢٧٩..... الأكراد الأيوبيون عيونهم على مصر وخيراتها:
- ٢٨١..... وصف سرقة نهر النيل وجره إلى الشام:
- ٢٨٥..... شعر المدح
- ٢٨٦..... مدح الخلفاء:
- ٢٩٢..... مدح الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدي بالله:

٢٩٢	مدح الخليفة المنصور بالله ابن القائم:
٢٩٤	مدح الخليفة المعز لدين الله:
٢٩٧	صفات الخليفة بنظر الشعراء المصريين:
٢٩٨	مدائح الخليفة العزيز بالله:
٣٠٢	قصيدة ذات الدوحة:
٣٠٤	النوتات الفرعية:
٣٠٥	مدح الخليفة الحاكم بأمر الله:
٣٠٦	في مدح الحاكم أيضاً:
٣٠٨	مدح الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم:
٣١٠	مدح الخليفة المستنصر:
٣١١	المستنصر ثامن الخلفاء وثامن الكواكب السبعة:
٣١٢	الناس آمنون في عهد المستنصر:
٣١٣	مدح الخليفة المستعلي:
٣١٥	مدح الخليفة الأمر:
٣١٨	مدح الخليفة الحافظ لدين الله - أبو الميمون عبد المجيد:
٣٢٠	مدح الخليفة الفائر:
٣٢٢	مدح الخليفة العاضد:
٣٢٤	مدائح الوزراء الفاطميين
٣٢٤	مدح جواهر الصقلي:
٣٢٨	مدح الوزير يعقوب بن كلث:
٣٣٢	مدح الوزير: أبو محمد الحسن بن عمار:
٣٣٢	مدح الوزير المغربي:
٣٣٤	مدح الوزير البابلي:
٣٣٥	مدح الوزير «أبو محمد اليازوري»:
٣٣٨	مدائح بدر الجمالي وابنه الأفضل وأحمد ابن الأفضل «كتيفات»:

٣٤٨	مدح الوزير المأمون البطايحي:
٣٥٠	مدائح آل رزّيك:
٣٥٢	العرقلة يشرب الخمرة ويبولها في نهر يزيد:
٣٥٥	وصف مقتل الوزير عباس بن تميم الصنهاجي:
٣٥٥	مدح الملك الصالح:
٣٦٦	مدح ضرغام:
٣٦٧	مدح شاور:
٣٦٨	مدح أسد الدين شيركوه:
	عمارة يمدح نجم الدين أيوب ويطلبه بإعادة رواتبه ومستحقّاته المقطوعة
٣٦٩	منذ دخولهم مصر:
٣٧٠	مدح آخر وزير مصري فاطمي: صلاح الدين الأيوبي:
٣٧٢	مدح كبار الموظفين في مصر الفاطمية:
٣٧٣	مدح القاضي المكين أبي المعالي ابن الحباب السعدي:
٣٧٤	مدح أهل البيت:
٣٧٥	مدح نقيب الطالبين:
٣٨١	مدح الدولة الفاطمية
٣٨٢	مدح أقرب إلى الغزل بالدولة الفاطمية:
٣٨٦	شعر العتاب والاعتذار
٣٩١	شعر الحنين
٣٩١	أبو الرقعمق لا ينسى ليالي النيل:
٣٩٢	الحنين إلى عين شمس:
٣٩٢	الجيزة جيزة الدنيا:
٣٩٣	إسنا أسنا البلاد:
٣٩٤	قلب الفقيه عمارة على مصر دائماً:
٣٩٤	المهذّب بن الزبير يبيت مقهور الفؤاد خارج مصر:

٣٩٦	أجمل أيام قليبوب:
٣٩٦	من الإسكندرية إلى الفسطاط: غربة:
٣٩٧	طوفان نوح من دموعه على بعد الإسكندرية:
٣٩٧	الإسكندرية أم الدنيا:
٤٠١	الرثاء
٤٠٢	رثاء الأئمة الخلفاء:
٤٠٢	رثاء الخليفة الظاهر:
٤٠٣	رثاء الخليفة المستنصر:
٤٠٣	رثاء الخليفة الظافر:
٤٠٤	رثاء الخليفة الفائز:
٤٠٥	رثاء العاضد:
٤٠٥	رثاء الوزراء الفاطميين المصريين:
٤٠٦	رثاء جعفر بن فلاح الكتامي:
٤٠٦	رثاء عمارة لآل رزيك:
٤١٠	رثاء الوزير شاور:
٤١٠	وفي وصف مقتل الوزير عباس الصنهاجي:
٤١٠	رثاء أهل الدولة:
٤١١	رثاء ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله:
٤١٢	رثاء جدة العاضد:
٤١٣	الوزير المغربي يرثى صهره الشريف الطالبي:
٤١٣	رثاء أخ الأفضل بن بدر الجمالي:
٤١٤	رثاء الأمير عقيل:
٤١٥	الملك الصالح طلائع بن رزيك يرثى نفسه:
٤١٦	رثاء الأهل والأبناء والأقارب:
٤٢٠	أدب الطّف

- ٤٢٥ مراشي الملك الصالح طلائع بن رزيك لأهل البيت:
- ٤٢٨ من هو الإنسان المصري الفاطمي:
- ٤٢٩ الفقيه عمارة اليميني المسلم السني يرثي أهل البيت:
- ٤٣٠ رأي شيعة مصر الفاطمية بالخلاف الشيعي السني:
- ٤٣١ رثاء الدولة الفاطمية:
- ٤٣٢ رثاء عمارة اليميني للدولة الفاطمية:
- ٤٣٣ إذا أردت أن تنذب فاندب أهل القصور:
- ٤٣٤ رثاء الدولة الفاطمية ومؤسساتها وحضارة مصر أيام الفاطميين:
- ٤٣٤ في رثاء المؤسسات:
- ٤٣٦ رواتب شهرية للمسلمين وللنصارى واليهود:
- ٤٣٦ مصانع الغزل والنسيج في تنيس توزع على كل أهل الأرض:
- ٤٣٦ عمارة اليميني يعرف أن في هذه القصيدة مقتله:
- ٤٣٧ أسباب مقتل الفقيه عمارة:
- ٤٣٨ وقال العماد الأصفهاني عن سبب قتله:
- ٤٣٩ رأي الحافظ بن كثير بمقتله:
- ٤٤١ رأي الدكتور محمد كامل حسين:
- ٤٤٣ شعر الزهد
- ٤٤٤ تضرع إلى الله:
- ٤٤٦ مناجاة وتضرع:
- ٤٤٧ الزهد في الدنيا واجب:
- ٤٤٨ لذة الدنيا كلذة السم في العسل:
- شروط محمد بن سيد الناس اليعمري ستة شروط لكي يطلق على الرجل
- ٤٤٨ الزاهد لقب متصوف وهي:
- ٤٥٠ مناجاة وتضرع:
- ٤٥١ يا الله: استر على عبدك عمارة:

٤٥٢	وصف الشيب:
٤٥٢	وصف الشيخوخة:
٤٥٣	في وصف الشيب والصحة:
٤٥٤	الشعر الحكمي
٤٥٦	الفضل فضلان:
٤٥٧	كيمياء القناعة:
٤٥٧	ليس هناك أحدٌ مرتاحاً:
٤٥٩	ليس هناك من ينجو من الانتقاد:
٤٦٠	حذارِ أهل الشر وغوائل الدنيا:
٤٦٢	الذل على أبواب الحجاب:
٤٦٣	لا تصحب العلم إلا والغنى معه:
٤٦٣	لكي تبقى محبوباً من الناس:
٤٦٤	عسى الرحمان يغني عن فلان وفلان:
٤٦٤	مرعى الإنسان خبيث:
٤٦٥	لعن الله المخادع:
٤٦٥	لا تلزمِ الناس غير طباعهم:
٤٦٧	الشعر الفلسفي والديني
٤٧٠	الدنيا خلقت لأجل الخلفاء المصريين:
٤٧١	مصير الدنيا بأسرها في يد خلفاء مصر:
٤٧١	الأرجوزة المختارة:
٤٧٣	آراء القاضي النعمان الفلسفية: في صفات الله:
٤٧٤	في صفات النبوة:
٤٧٤	في صفات الإمامة:
٤٧٥	تملك الفاطميين حلناً من أسر التقية:
٤٧٥	في الوصية:

٤٧٦.....	ضرورة وجود الإمام وصلاحياته:
٤٧٧.....	في التشكيك في حديث غدير خم:
٤٧٧.....	من سقيفة بني ساعدة حتى وفاة عثمان (رض):
٤٧٨.....	الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق (ع):
٤٧٩.....	الفلسفة الشيعية المصرية في ديوان داعي الدعاة:
٤٨٠.....	طاعات المسلم الحقيقي:
٤٨١.....	من هم أنبياء وأوصياء داعي الدعاة؟:
٤٨٣.....	قصيدة نصفها آيات قرآنية:
٤٨٤.....	الفكر الفلسفي الشيعي المصري في القصيدة الصورية:
٤٨٦.....	نظرية داروين المصرية:
٤٨٧.....	المرجان: نصف صفاته معدن ونصف صفاته نبات:
٤٨٧.....	النخل: له صفات الحيوان:
٤٨٨.....	البقاء للأصلح:
٤٨٩.....	شمس التشيع تشرق على القاهرة بعد أن حجبها الأمويون:
٤٩٢.....	وصف الإمام الحاكم بأمر الله:
٤٩٢.....	الشيعية المصريون يؤمنون بظهور الإمام القائم وينتظرون ظهوره:
٤٩٣.....	نهاية القصيدة الصورية:
٤٩٤.....	القصيدة الشافية:
٤٩٤.....	الفلسفة الإسلامية الشيعية الإمامية الإسماعيلية في القصيدة الشافية:
٤٩٦.....	أهمية العدد سبعة في الفكر الشيعي المصري:
٤٩٦.....	دور الستر يؤدي إلى فقدان الشريعة:
٤٩٦.....	الأدوار السبعة:
٤٩٧.....	بقاء النوع موجود في الطبيعة:
٤٩٧.....	أخلاق الجسم أربعة خامسها الروح:
٤٩٨.....	القوى المحركة للجسم سبعة:

٤٩٨.....	شجر النخل صلة الوصل بين النبات والحيوان:
٤٩٨.....	اللؤلؤ صلة الوصل بين الجماد والحيوان:
٤٩٨.....	تطور الأنواع للأصلح:
٤٩٩.....	نظرية أصل الأنواع شعراً:
٤٩٩.....	الإنسان الوحيد بين المخلوقات الذي اختص بالوحي:
٤٩٩.....	نعم للوحي لا للرأي والقياس:
٥٠٠.....	أسماء الأنبياء قبل النبي محمد (ص):
٥٠٠.....	ثم يقوم الإسلام بأربعة أركان:
٥٠١.....	رأي مصر الشيعية بالمسيح والمسيحية:
٥٠٢.....	اجتماع غدير خم:
٥٠٥.....	هجاء علم التنجيم:
٥٠٦.....	الشاعر المصري ابن خيران شيعي ولكنه لا يرى سب السلف:
٥٠٦.....	وصف الشهيد السهروردي للروح وهبوطها:
٥٠٨.....	وصف آلة مراقبة النجوم «الاسطرلاب»:
٥٠٩.....	الفكر الشيعي الإسماعيلي بعد خروجه من مصر:
٥١٠.....	بدء الخروج عن الإسلام: التجلي الإلهي:
٥١٢.....	نظرة أهل السنة لشيعه مصر:
٥١٥.....	فن التوشيح
٥١٥.....	موشح ابن عياد الإسكندري:
٥٢٠.....	شعر الالغاز والأحاجي